عبد الكريم الفيلالي

التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير

الجزء الثالث

إن القلم في يد المؤرخ المطلع والحر الملتزم يساوي البندقية
في يد الجندي المجاهد والمسدس في يد الفدائي الهادف
المؤلف

التاريخ السياسي
للمغرب العربي الكبير

عبد الكريم الفيلالي

الطبعة الأولى

20 اغسطس 2006

الجزء الثالث

رقم الإيداع القانوني

2006/1287

5 يونيو 2006

الترقيم الدولي

(ردمك) 9954-8702-0-2

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المطبعة

شركة ناس للطباعة

23 ش مرشدي - عابدين - القاهرة

هاتف : 002023925376

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الحادي عشر

الفصل الخامس والستون

ظهور دولة الموحدين المصامدة

لم تنته حياة ابن تومرت إلا بعد أن كان قد مكن لفكرته بين قومه وأنصاره الذين آمنوا «بمهدويته وعصمته» والذين أصبحت تنظيماتهم المحكمة بطبقاتها من الأصحاب الذين هم العشرة، إلى أهل الخمسين والسبعين، والطلبة، والحفاظ ، وأهل الدار، ثم القبائل المذكورة قبل، الكل لم يفتقد «المهدي» المعصوم الذي اعتقد بعضهم أنه سوف يعود، بل كانت آثاره العلمية وماسن من عمل جليل تمثل في قراءة جزء من القرآن العظيم بعد صلاة الصبح، وآخر بعد صلاة المغرب، تجعله دائم الحضور بينهم، كما ترك «المهدي» من الآثار العلمية ما جعل أتباعه يحفظون عهده ويتمسكون بتوجيهاته التي منها الإلتفاف حول عبد المومن الذي اختاره للنيابة عنه في الصلاة يوم اشتد به المرض، كيف وهو الذي كان يردد في حق عبد المومن ماقيل عن قوله شعرا مما نعتبره مصنوعا لكنه يؤدى المهمة التي نهدف إليها.

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها   فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة والكف مانحة   والصدر متسع والوجه منبسط(313)

ناهيك وأن عبد المومن بعد الونشريسي أبو محمد البشير هو أكثر الأ صحاب علماً، وأنه آخر من قاد المعركة الأخيرة كقائد وأمير للجيش، بالإضافة إلى معرفته «أسرار المهدوية» وإذا كان الونشر يسي قبل قد استطاع بدهاء وحيلة ومكر، وكأنه كان يمهد لنفسه أن يلعب ذلك الدور الخطير الذي نسب فيه للمهدي مانسب، ولنفسه مابهر من عجب حين أصبح وهو «المعروف» بالجهل والغباء من حفاظ القرآن العارفين بأسراره، بعدما «غسل الملائكة صدره» وعرفوه مالم يكن يعرف، وأن ابن تومرت هو المهدي القائم

---

(313) الحلل 98 والقرطاس 127/2.

بأمر الله، وأن الذين لايؤمنون بالمهدوية قد حفظ أسماءهم ويجب أن يعدموا حتى يكونوا عبرة لغيرهم، وبهذه المكيدة قتل الكثيرين من الذين كانوا يتظاهرون ولايؤمنون بمهدوية ابن تومرت، أو ربما كانوا ينقمون على قيادة أمثال الونشريسي للمصامدة في المعارك التي كانوا يحققون فيها النصر، فينسب إلى الغريب، وهكذا أزيل الونشريسي هو الآخر من الطريق، وأصبح عبد المومن في مقدمة الأصحاب الذين هم الجماعة التي بيدها التنفيذ، والتي أصبحت بعد موت المهدي أكثر حاجة إلى وحدة الصف وبذل الجهد، بل وإلى القيادة الحكيمة حتى يتم القضاء على الخصوم الذين هم بقايا المرابطين هنا وهناك، بعدما قضي على الملك الطفل إبراهيم بن تاشفين بن علي، وهكذا لم يكن ثمة من يقدر على مزاحمة عبد المومن الذي وإن كان يفتقد العصبية القبلية بين المصامدة، فهو يتمتع بالعصبية العقائدية وهي أقوى وأحسن، بل وأقدر على الصمود والاستمرار، كما أكد ذلك واضع علم الاجتماع عبد الرحمن ابن خلدون، خصوصا بعد بيعة عبد المومن الذي تمكنت فتوحاته من السوس إلى حدود مصر وكذا الاندلس.

زالت دولة المرابطين بعد أقل من مائة عام عرفت الدولة فيها حكماً قويا دام ستين سنة، وإذا كانت دولة المرابطين قد زادت في زمن دولة الإسلام بالأندلس أكثر من أربعة قرون، فإنها بعد قد آلت إلى ضعف سريع، وانهيار أسرع، بعد موت مؤسسها وصاحب فتوحاتها الفعلي يوسف بن تاشفين رحمه الله.

كان يوسف قد خطط لمن يأتي بعده طريق الفتح والتمهيد، وكان بحكم خبرته الطويلة وتمكنه من معرفة البلاد التي خضعت لحكمه قد ترك لولده علي دستوراً سياسيا لو لم يخرجه عليه من حوله لما عرفت الدولة ذلك الانهيار السريع، والدستور المشار إليه يتمثل في الوصايا الثلاث المشار إليها قبل نحو بني هود والمصامدة أهل درن، وحاميات الجند بالأندلس، وإذا ما طبق علي واحدة من تلك الوصايا، وهي ترتيب الحاميات بالأندلس، فإنه بالنسبة للثانية والثالثة لم يوفق، والسبب في عدم توفيقه ماجد من حياة القوم كما أشرنا قبل، وهكذا إذا ما أصبحت دولة الموحدين في طريقها للقضاء نهائيا على دولة المرابطين، فإن الذي ساعدها ومكن لخطتها هو التعرف على الأخطاء التي عجلت بانهيار المرابطين، ومن جانب آخر هو أسلوبُ وتنظيم المؤسس الذي يختلف جملة وتفصيلا في تكوينه وأسلوب عمله عن عبد الله بن ياسين رحمه الله، ذلكم هو محمد بن عبد

الله بوتامارت الملقب بالمهدي والمعروف بابن تومرت الذي عرفنا به قبل، وليس هذا فحسب بل أصحاب الثاني أنفسهم يختلفون كل الإختلاف عن أصحاب الأول، فأصحاب آبن ياسين لم يكونوا مثل أصحاب «ابن تومرت» الذين تعرفوا على ما لم يتعرف عليه سلفهم في مختلف مظاهر الحياة، سواء في أسلوب العيش أو العلاقات البشرية، بل إن مغالات أشياخ الملثمين، ومن سايرهم حتى من علماء الأندلس أنفسهم، خلقت نوعا من رد الفعل إنساق خلفه بعنف عنيف أتباع ابن تومرت من المصامدة الذين اعتبروا الملثمين فيما يرجع إلى العقيدة من المجسمة تجب معاملتهم في دار الحرب كمعاملة غير المسلمين، أي مثل ما كان المرابطين يعاملون البرغواطية، الأمر الذي يستدل منه على ما كانت عليه معنوية كل من الفريقين، وأنها بالنسبة للموحدين وبتخطيط من ابن تومرت الذي بلغه ماكان المرابطين ينعتونه به وقومه، وأنهم من الخوارج فأطلق على جماعته اسم الموحدين تأكيدا لتوحيدهم وتعريضهم بمن جنح إلى التأويل ووقف عند الظاهر، فأوقع نفسه في القول بالتجسيم، يضاف إلى هذا الهجوم العنيف الذي تولت عنه عقدة في نفوس الملثمين أن مؤسسي دولة الموحدين، من أول أمرهم لم يسلكوا نهج المرابطين في نظرتهم إلي الحضارة المستجدة في حياة الدولة، بل دولة الموحدين طبعت من أولظهورها بنوع من التقدم والتطلع في كل المجالات الفكرية والعمرانية، الآمر الذي انتهى بها إلى السير قدما في درب الحضارة بلا توقف، خصوصا عندما آل الأمر إلى عبد المؤمن بن علي.

وعبد المؤمن هذا هو ابن علي بن مخلوف، بن يعلى، بن مروان، أبو محمد الگومي، المولود بقرية تاجرا من أعمال تلمسان « ندرومة اليوم» سنة 487هـ/ 1094م، وعند ابن زرع يكون ميلاده ما بين 494و 495هـ، وهو من أصل زناتي، ولا عمل بما حاوله بعضهم من رفع نسبه كزناتي إلى نزار بن معد بن عدنان(314) بل هو من گومية هنين، وكان

---

(314) راجع العبر 118-127، وابن الأثير 201/10- 209/11 وابن خلكان310/1 واخبار المهدي21، وفي جذوة الاقتباس 1974/2 ط الرباط جاء نسب عبد المومن بن علي بن يعلى بن مروان، بن ناصر، بن علي، بن عامر، بن الامتى، بن موسى إلى مادغيس، بن بربر، بن قيس بن عيلان، بن مضر، وهو غير صحيح، كما عند ابن الخطيب في أعمال الاعلام 3ص 271ط البيضاء 1964م، بل أن بعضهم حاول آنتحال النسب الشريف لعبد المومن عن طريق الأدارسة، راجع ماسبق، بل إن عبد المومن نفسه كان ينفي انتماءه لزناتة ويقول إنه من قيس عيلان كما عند ابن الأثير الذي قال إن عبد المومن قال ذلك عندما سأله ابن تومرت عن نسبه، وأنه كان يقول عن گومية «أنا لست منهم – أي من گومية- وإنما نحن لقيس عيلان ولگومية علينا حق الولادة بينهم، والمنشأ فيهم وهم الاخوال «وگومية تعرف =

عبد المؤمن بن علي الرفيق الأول، هو المرشح بعد صاحبه المهدي محمد بن عبد الله بوتامارت «ابن تومرت »(315) وقد رأيناه بويع بعد وفاة صاحبه يوم الخميس 14 رمضان 524هـ/1129م (316) وكانت هذه البيعة الخاصة، أما العامة فكانت يوم 20 ربيع 528هـ/134ام،(317) لكن لماذا هذا الفارق بين البيعتين؟ وهل صحيح فكرة الطائر وشبل الأسد، وماقيل أن عبد المومن استعمله من تحايل ليتمكن من بيعة الموحدين، حتى إن الحسن ابن الاشيري التلمساني وهو العالم المتضلع الذي كتب لتاشفين ملك المرابطين، ثم للموحدين كذلك، قال في الموضوع شعرا أوردته المصادر رغم رائحة الوضع(318)، التي تفوح منه إن لم نقل التملق والنفاق المكشوف في قوله:

أنس الشبل ابتهاجاً بالأسد ورأى شبه أبيه فقصد

ودعى الطائر بالنصر لكم فقضى حقكم لما وفد

أنطق الخالق مخلوقاته بالشهادات، فكل قد شهد

أنك القائم بالأمر له بعدما طال على الناس الأمد

ولماذا لاتقول كان المهدي، وكما أقر بذلك علماء لمتونة، ذا قدرة على الاقناع بأهدافه ومقاصده التي بهرت مالك بن وهيب، وقد استطاع بدهاء أن يفعل بعقول القوم ما لم يسبق لغيره حتى أصبح كما عرفنا، فكيف يحتاج عبد المومن إلى استعمال الطائر الذي يردد على مسامع القوم «ألعز والتمكين، والنصر المبين، لعبد المؤمن أمير المؤمنين»؟؟ ولا للشبل الذي يربيه على معرفته والركون إليه ليهدد به الذين لم يؤمنوا بما ركزه المهدي في عقول قومه نحو عبد المومن الذي قال في حقه وقد قتل من أنصار ابن تومرت في معركة

= قديما بمصطفورة، وهي بطن من بني فاتن بن تامصيت بن ضري بن زجيك، وعنهم يقول ابن خلدون إن لهم ولاء في بني كمين بالاصطناع والتربية، ولما وصل بنوكمين إلى المغرب اتصلوا ببني يغمراسن الخ، ومهما يكن فإن اثرا الصنعة والتكلف يظهران في أقوال كل الذين تناولوا نسب عبد المؤمن ثم أرادوا إبعاده عن گومتيه وأصالته في زناتة.

(315) راجع إشارتنا إلى ماسبق قبل عن «الجفر» الذي كان قد حصل عليه المهدي؟ وكذا رؤية عبد المومن في المعجب 184، وابن خلكان مما يعتبر اختلاقا من الأنصار، وكذا ما أورده صاحب الجذوة عن تربية عبد المومن لشبل الأسد والطائر الذي علمه ما ينطق به يوم أراد إعلان وفاة ابن تومرت الجذوة 2/446-447 ط الرباط.

(316) المصدر السابق، وفي أعمال الاعلام 3/70 يوم الخميس 25 رمضان.

(317) أعمال الأعلام لابن الخطيب 3/271 .27 ربيع الأول الحلل 107، والقرطاس 2/132.

(318) الجذوة 447، والقرطاس 2/131 ط الرباط 1936 راجع التعليق في المصدر المذكور القرطاس.

مراكش ضد المرابطين عشرات الآلاف «هل بقي عبد المومن» فلما أجيب بنعم، قال: «بقي كل شيء أو ليست هذه القولة التي قالها المعز الفاطمي في جوهر الصقلي كما سبق؟ بل إن ابن تومرت في كل ماكان كما سبق يكتب وينشر بين قومه من أفكار سياسية وتوجيه، كان يعرض لذكر عبد المؤمن، كما ترك وصيته المؤكدة على القوم بتولية عبد المومن بعده قيادة الموحدين، ناهيك وأن عبد المومن أبلى البلاء الحسن، في سبيل قيام الدعوة، منذ كانت أملا، وبعدما أصبحت حقيقة، ولاشك في إقبال قيادة الموحدين على عبد المومن سواء من ذلك جماعة العشرة أو الخمسين أو السبعين، وقد سجل التاريخ أنه كان في مقدمة المقبلين عمر آزناك، وعمر ومزال، وعبد الله بن سليمان التينملي، لكن ما الذي حصل بعد موت «الإمام المعصوم»؟ هل ظهرت دعاية ضد عبد المؤمن الذي لم يكن بالمهدي ولا بالمعصوم، أم هل ظهرت فكرة عنصرية من بين المصامدة ضد إسناد القيادة إلى زناتة؟

لقد استطاع عبد المؤمن أن يملك قلوب كبار القوم من المصامدة الذين لم يقدم على عمل دون الرجوع إليهم، سواء فيما يرجع لتخطيط المعارك أو الجهة التي يتوجه نحوها الجيوش، وفعلا إستطاع أن يحقق النصر تلو النصر، من دكالة إلى درعة ومنها إلى الشمال والشرق فلماذا كانت البيعة الأولى، ثم الثانية؟ هل دخل عبد المومن هو الآخرشك أو ريب في أحد من العشرة؟ ولربما هو عبد الله بن ملوية كما عند البيدق الذي قال إنه اتصل بعلي بن يوسف ضد عبد المومن، لكنه قتل بيد أحد أبناء قبيلة كنسيفة الذين قادهم ضد عبد المومن، ثم صلب على أحد أبواب تينمل.

لقد كان عبد المومن بحق أهل لقيادة الموحدين الذين آمنوا به ثم قدموه بلا منازع، إلا أن ماحصل بعد يؤكد لنا أن المهدي محمد بن عبد الله لم يكن له السلطان على كل قبائل المصامدة، كما قال بذلك جل المؤرخين، وإلا كيف نعلل قيام الثورة سنة 542هـ/1147م ضد عبد المؤمن، ومن بلاد تامسنا بالذات، وأن الذي قام عليه، هو «محمد بن عبد الله بن هود الماسي» الذي تسمى بالهادي وادعى الهداية اقتداء بالمهدي محمد بن عبد الله «بن تومرت» وكان قصاراً ببحر سلا، فأقبل عليه الناس من كل مكان واجتمعوا عليه اجتماعاً طار به الذكر في الآفاق، وقامت بدعوته أمم «لا تحصى واتصلت

دعوته في جميع أقطار العدوة، حتى لم يبق منها إلا مراكش وفاس، وخالفت عليه سائر البلاد، ورفضوا دعوة الموحدين، وكاد يضمحل وينقرض ماقاتلوا عليه منذ خمس وعشرين سنة، فوجه إليه عبد المومن عسكراً فهزمه الماسي المذكور وعاد إليه خاسراً مهزوما، ووجه إليه جيشاً آخر وقدم عليه الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي ومعه جملة من الموحدين، وجملة من الرماة، وطائفة من النصارى؟ وغيرهم من الأجناد، واستعدوا للقائه بالسوس غاية الاستعداد، فانهزم وقتل هو وكثير من أهل عسكره».(319).

كان القضاء على الهادي محمد بن عبد الله الماسي(320) ثم المعركة التي خاضها عبد المومن على رأس جنده ضد دكالة الذين واجهوه بعشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل، هما المعركتان اللتان صفى بهما عبد المومن كل المعارضة في المغرب الأقصى إلا البرغواطية، كما كانت الأندلس التي استولت عليها جيوشه، قد أرسلت ببيعتها ممثلة في أهل اشبيلية الذين ناب عنهم وفد من كبار العلماء، يتقدمهم أبو بكر بن العربي المعافري، والخطيب أبو عمر بن الحاج، والكاتب أبو بكر بن الجد، وأبو الحسن الزهري، وأبو الحسن بن صاحب الصلاة المؤرخ، وأبو بكر السجرة، والباجي، والهوزني. وابن القاضي شريح، وعبد العزيز الصدفي، وابن السيد، وابن ابراهيم وغيرهم(321) قدموا عليه سنة 542هـ/1147م حيث استقبلهم يوم عيد الأضحى بالمصلى، ثم عقد معهم مجلسا اهتم فيه عبد المومن بتوجيه السؤال إلى أبي بكر بن العربي المعافري، الذي كان قد صحب والده إلى الحج سنة 485هـ /1092م سأله عن المهدي «وهل لقيه عند أبي حامد الغزالي أم لا؟» فقال «مالقيته ولكن سمعت به»، فقال عبد المومن «وما كان أبو حامد يقول فيه؟ قال: كان يقول: إن هذا البربري لابد سيظهر»(322) ولقد كان صدى أثر هذا الوفد الذي حصل

---

(319) الحلل 121 ط الرباط 1936، والقرطاس 2/132-133-134، والمعجب 113-114- والعبر6/ 171-232.

(320) هو ابن دلال يبيع الكنابيش، كان مع عبد المومن ثم خرج عليه، وقد قتله عمر الهنتاتي بيده في شهر ذي الحجة عام 542 راجع القرطاس 2/140 وأخبار المهدي 106-122 والعبر 1/308.

(321) الحلل 122 والقرطاس 2/141.

(322) نفس صاحب القرطاس يقول إن أبا بكر رجع من المشرق إلى الأسكندرية بعد موت والده سنة 493 هـ، كما يقول ابن بشكوال أو 495 هـ، كما في الديباج، وفي هذا التاريخ لم يكن المهدي قد رحل إلى المشرق راجع نفح الطيب 1/336-339، وابن خلكان 1/489، واثناء الرحلة مرض وتوفي ثم دفن بمقبرة خارج باب المحروق بفاس حيث يعرف ضريحه حتى اليوم.

أعضاؤه على صك الأمان لأنفسهم وبلادهم أن أصبحت إشبيلية مدينة الموحدين بالأندلس وعاصمتهم المفضلة بها، وتلك بشارة حملها أعضاء الذي انصرف من مراكش في شهر جمادى الثانية سنة 543هـ /1148م.(323)وفي نفس المدة تلقى عبد المومن بيعة أهل سجلماسة وأهل الصحراء، بل وفي هذه المرحلة التي نظم فيها عبد المومن جيشه النظامي من مجندين إجباريا ومتطوعة ومرتزقة، في الوقت نفسه كون مدرسة حربية لتكوين الضباط قوامها ثلاثة آلاف في مقدمتهم الحفاظ، وهم طلبة الموحدين، كما أصبحت المراسي والقلاع التي أنشأها في جهات مختلفة، عبارة عن خليات نحل تعمل وتثمر ماعرفه المغرب في عهد عبد المومن من انطلاقة تمثلت في البنيان الذي عم البلاد، حيث أصبحت الموانئ كلها دور صناعة للسفن، بواسطة الأخشاب التي كانت تنقل من غابات المغرب الكبير، إلى موانئ سبتة وطنجة، والمهدية، ووهران، والجزائر، وتونس، وغيرها، خصوصا بعدما قضى على روح التمرد التي ظهرت في تامسنا وسبتة، الأولى بقيادة ابن هود المشار إليه، والثانية في نفس السنة 542هـ/ 1147م بتوجيه من القاضي عياض.(324) لأهل سبتة التي هدم عبد المومن أسوارها كما فعل بفاس ثم نقل عالم المغرب عياض إلى تادلا. ومنها إلى مدينة مراكش التي يعرف بها ضريحه بباب هيلانة رحمه الله.

لقد استطاع عبد المومن بعد هذه المرحلة أن يدخل الرعب في قلوب كل الثوار والخصوم الذين ظهروا بعد بسبب تصرف أخوي المهدي عبد العزيز، وعيسى اللذين أسند لهما حكم إشبيلية فظهر بذلك الثوار (كالبطروجي بلبلة، ومحمد بن الحجام ببطليموس، وغيرهما من بقايا المرابطين، فكانت النتيجة أن انضم إلى جند الموحدين قائد برغواطة الذين استنجدوا بعامل ابن غانية على سبتة الذي انتهى بدوره إلى مبايعة

---

(323) القرطاس 141/2.

(324) هو عياض ابن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي الملقب بأبي الفضل عالم المغرب ومركز العلم فيه، ولد بمدينة سبتة يوم 15 شعبان سنة 476هـ/ 1083م، وتولى القضاء بها، وبعد الثورة نقل إلى تادلا التي أسند إليه قضاؤها، ثم نقل إلى مراكش مريضا سنة 544هـ/ 1149م، وهي السنة التي توفي فيها رحمه الله، وتقول رواية أخرى إنه توفي في الطريق، كتب حوله المقري كتابا سماه «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» ط ج 3 منه بمصر سنة 1939 راجع ج . ا . ص 23، ثم أعيد طبعه في خمسة أجزاء بمشاركة من الامارات المتحدة عام 1978م. راجع وفيات الأعيان 392/1، وقضاة الأندلس 101 وقلائد العقيان 222 وبغية الملتمس 425 والمعجم لابن الأبار 294، ثم التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد/ ط فضالة المغرب بدون تاريخ نتوفر بخزانتنا على مجموع من خطبه المنبرية. وقد أشار د/محمد بن شريفة في تقديم للتعريف إلى فقدها.

عبد المومن كما بايعه أهل سبته بتاريخ الأربعاء 3 جمادي الأولى سنة 543 هـ/ 1148م(325) كما وفدت عليه جموع من علماء وقضاة الأندلس، مبايعة كذلك، وإذا هو قضى على المحاولة الأخيرة لبرغواطة، والتي قام بها أبو تمركيد، الذي قضى عليه عبد المومن، وعلى كل الجموع الكثيرة التي كانت معه، فإن هذه الثورة كانت آخر الثورات التي قامت ضد الموحدين، كان عبد المومن قد وجه ثلث جيوشه إلى الأندلس، بقيادة ولده يوسف الذي اتخذ مقره إشبيلية وإذا كانت خيام هذا الجيش بلغ تعدادها ستون ألف خيمة كما روى صاحب الحلل، عن الإمام أبي يحيى بن إليسع، فإن عدد الجند يكون من الكثرة بمكان إذا نحن جعلنا لكل خيمة خمسة من الجند فقط.

كان عبد المومن قد استولى على جنوب الأندلس بما أرسل إليها من جنود بقيادة ولده يوسف ومساعدة يوسف بن سليمان بن مخلوف، بعدما استمرت الحروب إلى سنة 545هـ/1150م. استولى على كثير من مدن الأندلس بعدما أوقف زحف الاسبان على الثغور، فدانت له جزيرة طريف، والخضراء، وإشبيلية التي قتل بها عبد الله بن العربي نجل أبي بكر قبل سنة 541هـ وقرطبة، ورندة، وحتى يقضي على كل أثر للمعارضة في الأندلس وجه إليها سنة 546هـ/1151م عمر بن يحي الهنتاتي ومعه ابن سعيد بن عبد المومن، فكان الهنتاتي هو الذي اثر على بقية المرابطين واسترجع ما كان ابن غانية قد سلمه للإسبان من معاقل وحصون، بياسة وألمريا، لكنه عاد عليه الندم بسبب طمع الفونسو فتراجع وسلم للموحدين قرطبة، ثم قرمونة، ثم توجه إلى غرناطة حيث ميمون بن بدر اللمتوني، فتوفي بها في شعبان 543هـ، وهنا كان على عبد المومن بعد تصفية جميع المشكوك فيهم من بقايا المرابطين أن يقوم بجولة انتهت إلى قرب مضيق جبل طارق، حيث حشد من الجند ما غطى بسيط سبتة، وطنجة، ثم أقام بقصر المجاز ثلاثة أيام استعرض أثناءها الجند والسلاح، وفي ليلة اليوم الرابع أمر المنادي أن ينادي في الناس بعد جمعهم على قرع الطبول الهائلة التي لم تعرف قبل ضخامة، وبعد صدى، ثم نادى المنادي حسب أمر عبد المومن... برئت الذمة ممن قال إلى أين نحن متوجهون(326).

---

(325) القرطاس 144/2.

(326) المصدر السابق الترجمان.

الفصل السادس والستون

توحيد أقطار المغرب وتحرير شواطئه

كان عبد المؤمن قد خطط لرحلته الطويلة نحو شرق البلاد إلى حيث بني حمود، وإذا هو انتقل إلى الشمال ليضع تخطيطه النهائي لمدينة الفتح، فإنه ماكاد يحل بها حتى اندفعت نحوه جموع كثيرة، من جهات مختلفة، وقد طاردت كل ماتبقى من أثر ابن غانية بن يحيى المسوفي وقومه الذين فروا إلى ميورقة، حيث بقي خلفهم بها إلى زمن عبد الرحمن بن عياض الذي صاهر ابن مردنيش، وهو الذي حارب الموحدين أكثر من غيره، لكنه قتل بعد سنة 568هـ/1172م، وفي هذه المرحلة دخلت جيوش عبد المومن في حرب طاحنة مع جنود أوربا الذين كانوا في طريقهم إلى بيت المقدس، والذين التجأوا الى الثغور وإلى نهر تاجة فراراً من العواصف، وقد كانوا يجربون حظهم بمقاتلة الأطراف ونهبها، فقضى عليهم جند الموحدين(327) وإذا ما أسندت ولاية سبتة، والجزيرة، وغرناطة، إلى أبي سعيد ابن عبد المومن فإن هذا الأخير قد صمم العزم على التوجه نحو شرق البلاد حيث بني حمود من الصنهاجيين، حتى لا تلتحم قوتهم مع بقايا المرابطين الذين تربطهم وإياهم صلة القربى ووحدة الأصل، وإذا ما سقط الحموديون وماكان تحت سلطانهم من جزائر بني مزغنة، إلى بجاية، وقسنطينة، وبونة سنة 547هـ/1152م، رغم كل المحاولات التي حاولها الحموديون والنجدات التي أقبلت عليهم من قبائل كتامة ولواتة، بل ونصارى صقلية، فإنهم انهاروا أمام جحافل جيوش عبد المومن الذي لم يقف عند حد تصفية الحموديين، بل عاد إلى مراكش التي كانت الإدارة بها قد نظمت بشكل أصبح معه في إمكان عبد المومن أن يتعرف على أحوال المملكة، ناهيك وقد توفرت المواصلات براً وبحراً ونظمت إدارة الدولة تنظيما اعتمد إلى جانب التراتيب الإدارية ماعرفته إدارة

---

(327) الترجمان المصدر السابق.

عبد المومن من تلقيح بواسطة القادمين عليه من الأندلس، وفي هذا العهد عرفنا دواوين: الجند، والرسائل، والمستغلات، كما عرفنا عمال الأقاليم والولايات، وعرفت إدارة عبد المؤمن في هذه المرحلة المبكرة الانشغال بالاصلاح العام للبلاد مثل استصلاح الأراضي البور، وغرس الاشجار، وحفر القنوات، وتشييد الجسور، وتعبيد الطرق، وإنشاء الموانئ والمستشفيات والمدارس التي أصبح لمنهج التربية والتعليم فيها طرق معينة، تعتمد علوم القرآن من تفسير، وحديث، وأصول، وفقه، وفلسفة، وتاريخ، ونحو، إلى جانب علوم اللغة، والشعر كما سنرى.

لكن عبد المومن لم يتحرك لتحقيق الاهداف التي خطط لها منذ انتصاره الأول بإفريقية سنة 547هـ/ 1152م بحيث كانت هذه البلاد قد تعرضت لغزو جنود صقلية النورمانديين الذين كانوا قد احتلوا المهدية وتونس وصفاقس 543هـ/ 1148م، وربما قبل هذا التاريخ حيث احتلت بجاية(328). سنة 540 هـ فكان على عبد المومن وقد استنجد به أهلها أن يهب لنجدتهم، خصوصا وقد أصبح له أسطول قوي يستطيع به تحرير تلك الشواطئ، بل والضرب في أعماق بلاد العدو إن هو أراد، وفعلا أرسل عبد المومن أسطوله البحري بقيادة يحيى بن عبد العزيز، عندما قدمت عليه وفود البلاد المذكورة، وقد حل بهم مثل ما حل بأهل الأندلس زمن المرابطين من اعتداء الصقليين، والنورمانديين، والصليبيين، وإذا ماتوجه الأسطول بحرا فإن عبد المومن نفسه قد خرج على رأس جيوشه من مراكش متوجها إلى تونس في العشر الأولى من شهر شوال سنة 553هـ/1158م، وإذا هو ترك الهنتاتي خلفاً له على مراكش، فإنه قد حط رجاله برباط الفتح، حيث رسى الأسطول حتى ينظم عبد المؤمن جيوشه في البر، ويعرف ما عنده من الجند، وماهي القبائل التي ستختار للمشاركة، ولما تم له ذلك أمر الأسطول بالإقلاع، كما رحل هو الآخر وجيوشه، فكان اللقاء بتونس حيث حطَّ الرجال في شهر صفر سنة 554هـ/ 1159م، كما انضم إلى أسطول يحيى بن عبد العزيز أسطول تونس الذي كان عليه أن يخوض المعركة، وإذا هو استولى على كل من تونس وماوحولها سلماً بعد تأمين

---

(328) القرطاس 152/2 ط الرباط 1936.

أهلها، فإن المهدية التي كانت محصنة لايمكن اقتحامها بسهولة بل فتحها لايتم إلا بالحصار الطويل الذي دام سبعة أشهر نصب حولها المنجانيق، والرعادات في البر والبحر، وبعدما ضرب عليها الحصار انطلق لغزو ماحولها من البلاد التي لم تكن محصنة مثلها، فحرر البلاد من جبل نفوسة إلى قابس وبلاد الجريد، توزر وقفصة، ونفطة، والحامة، وغيرها، وإذا ما اشتد الحصار على النورمانديين، ثم تعرضت قواتهم البحرية للتحطيم رغم الإمدادات المتوالية فإنهم اختاروا التفاوض بواسطة كبارهم الذين اتصلوا بعبد المومن طالبين الأمان كي يرحلوا بأنفسهم، فأمنهم ورحلهم بواسطة السفن الموحدية، ثم أنزلهم في أرضهم بأمان، فكان مافعله عبد المومن هو السبب في إنقاذ كل المسلمين الذين كانوا بصقلية، والذين قرر وليم ابن رجار قتلهم بدون استثناء، إذا ما قتل أفراد حاميته الذين كانوا بالمهدية، وإذا ما أفرغت المهدية من الجنود النورمانديين، فإن عبد المومن بن علي دخلها دخول الفاتح المنتصر، في يوم عاشوراء من شهر محرم سنة555هـ/ 1160م(329)، وهو اليوم الذي وردت عليه فيه رسالة انتصار ولده يوسف علي ابن مردنيش بالأندلس.

حرر عبد المومن إفريقية وشواطئها من النورمانديين، كما طَهَّر بقية المدن الشرقية، مما كانت تعانيه من فوضى العرب من هلال وسليم، أبناء وأحفاد المستوردين زمن العزيز ووزيره اليازوري، ثم تقدم إلى طرابلس وجبال نفوسة، حيث تابعهم بشدة إلى جنوب القيروان، حيث دارت معركة جبل القرى في شهر ربيع الأول عام 555هـ/1160م، ولم يسلم منهم إلا عرب سليم والدواودة(330) وقليل من الأثبج الذين ضمهم لجنده، وقبل

---

(329) راجع القرطاس 2/160-161 والحلل الموشية 117-118-129. والمعجب 149-146 ، والعبر 316/1، وفي هذه السنة أمر عبد المومن بتكسير بلاد إفريقية والمغرب من برقة إلى وادي نول بالفراسخ والأميال طولا وعرضا، فأسقط من التكسير الثلث في الجبال، والانهار، والسباخ، والطرقات والحزوب أي الأرض الغليظة ومابقي قسط عليه الخراج، وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق، فكان عبد المومن أول من أحدث ذلك في المغرب يقول صاحب القرطاس 161/2 وقد قال إن دخول المهدية كان حسب التاريخ الذي أورده المراكشي.

(330) المعجب 224-225، والترجمان 288، والمراكشي غير مصيب في قوله بغزو عبد المومن لبجاية 540 راجع ص 231- 171 و ت3، وأخبار المهدي 117، والقرطاس، وكانت قيادة الهلاليين في معاركهم ضد عبد المومن وقتها كما يقول إبن خلدون بيد محرز بن زياد، وجبارة بن كامل بن سرحان، ومسعود إبن زمام.

أن يقرر العودة إلى المغرب نصب على المهدية وتونس ولده إبراهيم يساعده محمد بن فرج الكومي، بعدما نظم إدارتها ثم وظف على القبائل من الضرائب ما يشغلها عن الفتن التي لم تعرف غيرها مدة وجودها بتلك الديار، كما أمر بالتضييق عليهم بعد قتل عبد المومن لكبير زعمائهم هلال بن عامر. وإذا هو أخذ طريقه إلى المغرب في شهر صفر من سنة 555هـ/1160م فإنه حمل معه أميرها وهو أبو حسن يحيى بن عبد العزيز الصنهاجي آخر بني باديس شيعة العبيديين قبل.

ألقي عليه القبض بعد فراره بحراً إلى بونة «عنابة» ومنها إلى بجاية عند عمه يحيى بن العزيز، بعدما دفع ولده كرهينة لحسن بن ثعلب أحد أمراء العرب، مقابل دين كان له عليه، لكن عبد المومن بعدما ألقى عليه القبض أمنه وأهله ثم بالغ في تكريمه بعدما نقلهم معه لمراكش، وهو عمل لم يعرفه أحد من عبد المومن قبل أبي حسن ابن العزيز، ولعل سبب ذلك هو ماعرفه ابن تومرت من تكريم جد أبي العزيز يحيى بن تميم له أيام مروره ببجاية، وليس غير هذا في نظرنا، بل إن عبد المومن مقابل ذلك التكريم «للمعصوم» تناسى ماسبق له أن عرفه من إساءة أسيره له شخصيا، بل ذكرته الشكر لله، فقد كان عبد المومن بأحد ابواب بجاية زمن غربته في سبيل الطلب، وقد أقبل ابن العزيز خارجا من الباب متوجها في رحلة صيد بجنوده الذين داسوا عبد المومن بلا رحمة ولاشفقة أو آعتبار(331).

(331) المعجب 230-231-233.

الفصل السابع والستون

عبد المومن وتطور نظام الدولة الموحدية

عاد عبد المومن في طريقه إلى مراكش بعدما خلف ولده على إفريقية، ثم أمره بالتضييق على أهلها(332) وفي الطريق تعرض لمؤامرة انقلاب فاشل قام بها وزيره الكبير عبد السلام بن محمد الكومي صهر والده من أمه، والذي كان عبد المومن قد نصبه مكان أبي جعفر بن عطية، الذي ثبتت خيانته، فقتل وصودرت ممتلكاته في شهر شوال سنة552هـ/1157م(333).

كان عبد المومن كما يظهر من التنظيمات التي أحدثها في الدولة يتخوف من عنصرية وعصبية مصمودة، لكن الأذى الكبير جاءه من كومي رفعه مكان الصدارة الذي هو الوزارة، التي كان كل شيء في الدولة يرجع إلى صاحبها، وقبل أن نقف على مادبره عبد السلام الكومي، وجب علينا أن نتعرف على التغيير والتنظيم الذي أحدثه عبد المومن، والذي كان السبب في الطغيان الذي أدى إلى شطط ابن عطية وجموح عبد السلام بن محمد الكومي.

كان عبد المومن بعد قضائه على المرابطين في المغرب الأقصى قد تفرغ للبناء والتنظيم الإداري، ثم التعديل في النظام السياسي، تفرغ لبناء القصور وتنظيم الإدارة تنظيما لم يسبق إليه في تاريخ المغرب(334) أنشأ المدرسة الحربية، ثم المدرسة الإدارية،

---

(332) الترجمان 288 ، وعن وزرائه راجع المعجب 198-224-225.

(333) راجع القرطاس 155/2 حيث قصيدته التي يطلب فيها العفو من عبد المومن وقد عدد فيها أفظع الجرائم التي دونها التاريخ والتي وجهت ضد الانبياء والرسل وأصحاب الرسالات مصرحا لو أحاطت به كل تلك الخطايا ولاذ بحفرة المعصوم واحتمى بقبره، لحق لمقالته أن تسمع ولخطيئاته أن تغفر، خصوصا وقد اعترف بذنبه، لكنه رغم ذلك قتل جزاء خيانته في شوال سنة 552هـ، القرطاس 155/2.

(334) راجع كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين للاستاذ محمد الهادي المنوني ط 1977م .

ووضع لكل منهما برنامجا يدل على مهارته وكفاءته، كما فرض على كل المغاربة تعلم القرآن الكريم ، حيث بعث الفقهاء وحفظة القرآن إلى مختلف جهات المملكة، وإذا علمنا أن شاطئ المغرب الكبير وغرب الأندلس الذي أصبح تحت نفوذ الموحدين، قد شيد فيها من الأربطة أكثر من الألفين، وأن الرباط كان يحتوي على مسجد، وحمام، وسوق للجنود، وإذا كان جند الموحدين زمن عبد المومن قد بلغ نصف المليون، أدركنا مدى عناية عبد المومن بالتمكين لحفظ القرآن ونشره بين الذين كانوا ملزمين بالصلاة حتما، من الجنود وغيرهم، وأن صاحب الصلاة كانت له السلطة المطلقة ولأعوانه من وادي نول إلى برقة، وأن قراءة «الحزب: جزء من القرآن» التي سنت في عهد الموحدين بعد صلاة الفجر والمغرب ولاتزال، كان لها كل الأثر في تعميم حفظ الذكر الحكيم. بين الكبار والصغار حتى اليوم، بل ما يضاف إلى العناية بالقرآن من دراسات في التفسير والتجويد، ظهرت في المغرب على عهد هذا الملك العظيم الذي نقل مصحف عثمان من جامع قرطبة بالأندلس، إلى المغرب في شهر شوال من سنة 552هـ /1157م، ثم حلاه بما ذكر المؤرخون من الذهب والفضة وأنواع الأحجار الكريمة كما ظهر في عهده رجال ضربوا بسهم وافر في مختلف الدراسات الإسلامية ومجالاتها من فقه، ولغة، ونحو، وأدب، ومنطق، وفلسفة، وطب، وعلوم، ورياضة، إلى جانب الفلاحة، والهندسة، والحساب والجبر الخ ويقول صاحب المنّ بالإمامة 173–181 إن عبد المومن أحرق كتب الفروع عام 550هـ.

كان عبد المومن ضمن إطار الموحدين، وحسبما ورثه من تكريم صاحب الدعوة. هو كل شيء، كان عبد المومن هو الموجه السياسي، والقائد الأعلى لكل الجيوش قبل أن يصبح أميراً للمومنين، لكنه وقد اتسعت مناطق نفوذ الدولة التي أصبحت تتكون من حدود السودان جنوبا إلى الأندلس شمالاً، ومن وادي نول إلى حدود برقة غرباً وشرقاً، وبعد أن مسح الأراضي واستثنى منها الثلث الذي يتكون من الجبال، والغياض، والأنهار، والطرق، والحزوب أي الأرض الغليظة الشديدة والسنج أي الأرض التي لاتنبت من أثر الاحتراق، ثم فرض على الباقي الخراج الذي أصبح يدر على الدولة مبالغ كبيرة هائلة من المال والزرع، وبعد أن ضرب للدولة عملة من الذهب والفضة تتمثل في الدرهم ونصفه، ثم الربع، والثمن، والخروبة، وبالتالي بعدما نظم إدارة الدولة التي أصبحت تتكون في الأعلى من المسؤولين عن الجبايات والنفقات العامة والخاصة، وديوان الأعمال

الذي يمثل وزراة الداخلية، وصاحب الشرطة الذي هو مدير الأمن العام، ثم قاضي الجماعة الذي يمثل وزارة العدل، وصاحب الحسبة الذي كان بمنزلة وزير التجارة.

بعد كل هذه التنظيمات التي كانت ترجع إلى إشراف الوزير «الأول» في معظمها وهو الملك عبد المومن، وبعدما اتسعت معاملات الدولة وأصبحت لها معاهدات تجارية مع بعض دول أوربا التي أصبحت تقدر قوة أعظم أسطول في العالم وقتها، مثل فرنسا وايطاليا، رأى عبد المومن أن النظام السياسي «الديمقراطي» لم يعد صالحا لتقييد سلطته التي كان لابد له من الرجوع فيها إلى السلطتين التنفيذية، بعد التشريعية، وهي سلطة الجماعة المكونة من العشرة، ثم جماعة الخمسين، والسبعين، اللتين كانتا بمنزلة البرلمان الشبيه بمجلس العموم واللوردات في بريطانيا مثلا، رأى عبد المومن وحتى يتخلص من تلك القيود ثم يضمن استمرار الحكم لخلفه من بعده، أن يعدل في نظام المجالس المذكورة، لكن كيف يحقق ذلك دون أن يحدث في نفوس القوم مايكدر الصفو ويخلق النقمة في نفوس المصامدة الذين ضاع سلطانهم وما كانوا يتطلعون إليه وسط التنظيم والفرق التي يتكون منها الموحدون، وهي حسب الترتيب:

1- جماعة العشرة

2- جماعة الخمسين

3- جماعة السبعين

4- الطلبة يليهم الصغار منهم، ويطلق عليهم

5- جماعة الحفاظ

6- أهل الدار

7- أهل هرغة

8- أهل تينمل

9- كدميوة

10- كنفيسة

11- هنتاتة

12- الجند

13- الغزاة والرماة

ولكل فريق من هؤلآء نظامه الذي يضبطه، ورجاله الاقوياء الذين يسهرون على النظام الخاص بكل جماعة.

لقد برهن عبد المومن بالمراحل التي سلكها لتحقيق أهدافه أنه أفاد خبرة هائلة من الثلاثة عقود التي قضاها في العمل، وبناء دولة الموحدين، بالفكر والسيف معاً، تسع سنوات مع المهدي، وخمسا وعشرين قائداً وأميرا للمؤمنين، وإذا هو خبر نفسية الذين رافقوه في الدرب الطويل من الذين أصبحوا يتمتعون بامتيازات مادية كمرتبات، أطلق عليها لفظ. الإحسانات(335) فإنه أضاف إلى مداخل الدولة التي كانت قاصرة على الزكاة والأعشار وخمس الغنائم، مداخيل أخرى تمثلت في الخراج والجبايات والمكوس وأملاك الدولة، مثل البستان الذي خطط له خارج مراكش والبالغ من الطول ثلاثة أميال ومثلها في العرض، والذي جلب له الماء من أغمات بعدما شيد به حوضا شبيها بالبحيرة، ثم وظف لغرسه والاشراف عليه ملك وادي آش أحمد بن ملحان الذي احتل بلاده وتغلب عليه محمد بن مردنيش، فلجأ إلى حماية عبد المومن وهو الذي جلب إلى البستان الكبير مالم يكن بالمغرب من أشجار الفاكهة التي غلت رغم رخص الفاكهة وبعد مدة قصيرة، ما قال عنه ابن إليسع ثلاثين ألف دينار مومنية(336) بعد كل هذا أخذ عبد المومن يطبق ما خطط لقلب النظام حسب الطريقة التي اختارها، فاستورد من بني گومي قومه وقبيلته بعض الذين لقح بهم الجيش والإدارة ومختلف مرافق الدولة، أما ضباط المدرسة الحربية، فقد وضع لهم برنامجا جعله على اتصال دائم بهم، إهتم بكل ما يتعلق بحياتهم من ملبس وسلاح وتدريب وسكن، كما اتخذ من نفسه أستاذا يلقى شبه محاضرة في جموع الطلبة الذين كان يجمعهم ويخالطهم كل يوم جمعة، حتى إذا تمكن من قلوبهم وخبر أهواءهم أثار فيهم نزعة الإستعلاء بالعلم، ليحلوا محل الأشياخ وأهل الجماعتين الذين لايتوفرون على مايتوفر عليه الطلبة من علوم ومعارف دون أن يمس أرزاقهم.

---

(335) راجع الموسوعة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله 3/ وفيها انه كان للاشياخ الكبار سنويا عشرون ألف مثقال، وعشرون ألف وسق من القمح والشعير والحبوب، وحصان بسرجه ولجامه، وسيف ورمح محليان، وثوب أسكندري مذهب، وثوبان أبيضان من الكتان عمل إفريقية وللشيوخ الصغار نصف ما للكبار. ثم راجع البيدق 73، المعجب188، والمقتبس 32- 48، وأعمال الأعلام 268-269، والعبر لابن خلدون 470/6 مصادر سابقة الخ.

(336) الحلل الموشية 121، واخبار المهدي 120.

الفصل الثامن والستون

المؤامرة ضد عبد المومن

لم يجد عبد المؤمن كبير عناء في كل ما أخذ من التدابير، وبالمقابل فإن الذين أخذوا يستشعرون الخطر أمثال ابن عطية المشار إليه قبل بدأوا يتحركون في الخفاء لكنه اكتشفهم بسرعة، وإذا كان الذي نشط في مجال الاستخبارات هو عبد السلام بن محمد الكومي صهر والده من أمه، فإنه أحق بالجلوس مكان ابن عطية كوزير أول، لكن الكومي لم يكن أحسن من ابن عطية، بل كان أخس عنصر وأرذل رجل قربه عبد المومن إلى نفسه، إستطاع عبد السلام بكل وسائل الخبث أن يستغل ثقة عبد المومن في تحقيق أطماعه المادية التي لم تقف عند حد، إلى أن نفرت القريب والبعيد من الأشياخ المجمدين، والطلبة المتطلعين، وأبناء عبد المومن أنفسهم، مما أدى بهذا الأخير إلى أن ينصب ولده عمر في منصب الحجابة وحفظ السر، يساعده إدريس بن جامع، وعمر هذا هو إبن بنت موسى الضرير، أحد مشايخ تينمل، وكان عبد المومن يقصد بتولية ولده عمر إبعاد روح التنافس بين القوم، لكن عبد السلام الكومي الذي طغى وأصبحت له بطانة سوء مكونة من بعض كومية والمصامدة المتذمرين، لم يرقه فعل عبد المومن، فاندفع بغرور إلى تدبير مؤامرة أغتيال عبد المومن الذي أصبحت المعارضة السرية من بعض رجالات كومية والمصامدة قرابة ابن تومرت، آيت أمغار تزين لعبد السلام تدبيره، وتبعث فيه الثقة على نجاح تخطيطه(337) لكن فات الكافر بالنعمة، الناكر للجميل، أن إخلاص

(337) كان عبد المومن وقتها قد أصبح مستهدفا لسهام آيت أمغار قوم المهدي بن تومرت، لانه قتل أخويه عبد العزيز وعيسى، بسبب انتصارهما للخارج عليه يصليتن واحتلالهما لمدينة مراكش وقتلهما لعاملها عمر بن يفراجي سنة549، ولقد قيل إن والد عبد المؤمن تزوج أم عبد السلام فولدت له آبنة إسمها بنذة، وزوجها عبد المومن لأبي حفص عمر الشيخ الموحدي، ثم طلقها منه لعدم حسن عشرتها، أما قصة عبد السلام الكومي فهي عنده سرقة أموال الدولة والدس لولدي عبد المومن والتحقير من شأن أشياخ الموحدين راجع المنّ بالإمامة/ ط 1964 ص173–185– تحقيق: د/ عبد الهادي التازي.

رجل واحد مومن بصدق وسلامة عبد المومن ورسالته سيقوض مادبر، ثم يكشفه ويقوده إلى حبل المشنقة، كان عبد السلام الكومي قد اطمأن إلى أن قتل عبد المومن الذي استحوذ على السلطة هو وأولاده سيجعل منه الحاكم الأعلى في الدولة، وحتى تنجح الخطة إختار لها ما قر في ذهنه أنه أنسب مكان وزمان، أما المكان فهو بين البطحاء وتلمسان، حيث قرية عبد المومن التي ولد فيها وهي تاجرا(338) التي اختار المرور عليها في طريق عودته من إفريقية «لزيارة» قبر أمه وصلة الرحم مع من هناك من ذوي رحمه، فلما أطل عليها بجيوشه وألويته وطبوله، ثم خرج أهل القرية للقائه. والتسليم عليه ب «الخلافة» قالت أمرأة عجوز من عجائز القرية ممن كانت تصحب أمه، هكذا يعود الغريب إلى بلده تقول ذلك رافعة صوتها(339) وكأن عبد المومن ما آثر النزول في ذلك المكان الذي أمر أن يضرب فيه خباؤه إلا ليسمع مثل تلك العبارة التي أشعرته بحقيقة ما حقق من مجد، وأصبح له من عز، إذ ما المجد والعز إلا ما كان للمرء بين قومه...

في هذا المكان ونحن في أواخر سنة 555هـ/1160م(340) إختار عبد السلام الكومي وقد بيت للأمر بإتفاق بعض قومه كومية، والمصامدة الذين كانوا تحت إشراف بني الشيخ المصامدة من آيت أمغار، أن يقتل عبد المومن بعد أن يدخل عليه في خبائه، لكن القدر كان لهم بالمرصاد، وكان من جنود القدر الرحيم إسماعيل بن يحيى الهزرجي، أحد الأولين من أصحاب ابن تومرت، بل الذي كان قد نجاه هو الآخر قبل من الموت المحقق يوم كان مطارداً من جند علي بن يوسف بن تاشفين، وإذا هو بالمسجد وقد تجمع حول المسجد بعض أنصار المرابطين يريدون بالمهدي شراً، خاطبه إسماعيل بن يحيى هذا طالبا شرح الآية الكريمة من قوله تعالى «إن الملأ ياتمرون بك ليقتلونك فاخرج إني لك من

---

(338) المعجب 197.

(339) نفس المصدر 232.

(340) تدلنا عبارة المراكشي في المعجب ص 235 على أن الحادث كان أواخر سنة 555هـ بدليل قوله: ولما قتل عبد المومن أولئك القوم... أقام بمراكش بقية سنة 55- 56-57، وفي القرطاس أنه عرج على طنجة في ذي الحجة555هـ وهو خطأ.

الناصحين» فأدرك المهدي قصد إسماعيل ونجا بنفسه كما سبق(341) إسماعيل هذا قيل هو الذي عرف عبد المومن إلى جانب ابن تومرت وعرف أهدافه ومقاصده، هو الذي اطلع بطريقته الخاصة على مؤامرة عبد السلام الكومي ومن معه، لكنه لم يكشف عنها لعبد المومن بالطريقة التي اعتادها النفعيون، بل كشف له عنها بأسلوب المؤمن القوي الإيمان بوجوب افتداء القائد الرائد الذي يعتبر فداؤه استشهاداً في سبيل نصرة الحق والتمكين للدين، وذلك ما أقدم عليه إسماعيل بن يحيى حين طلب من عبد المومن أن يتنازل له تلك الليلة عن فراشه لينام عليه، فقبل عبد المومن ظنا منه أن صاحب إمامه وأستاذه الذي طال به السفر وأعياه التنقل والترحال أراد التنعم ولو ليلة واحدة بمرقد أمير المؤمنين الوثير، وإذا هو فعل فإن اسماعيل عرض نفسه لما كان سيحل بعبد المومن حين دخل عليه القوم فتولوه بالحديد حتى برد، فلما أصبحوا ورأوا أنهم لم يصيبوا عبد المومن فروا بأنفسهم حتى أتوا مراكش؟ وراموا القيام بها يقول المراكشي، لكنهم تعرضوا، لمقاومة شديدة من الشعب والجند وخدم القصور الملكية، استمرت من طلوع الفجر إلى غروب الشمس كادوا ينتصرون فيها على الحراس والجنود لولا أن الشعب تكاثر عليهم إلى أخذوا قبضاً باليد فقيدوا وجعلوا في السجن إلى أن وصل أبو محمد عبد المومن – رحمه الله – إلى مراكش فقتلهم صبراً ، وقتل معهم جماعة من أعيان هرغة، بلغه أنهم قادحون في ملكه متربصون به(342) وإذا ماوقف عبد المومن على ماقام به إسماعيل ابن يحيى من فداءلصاحبه فإن عبد المومن قدر هذا الفعل كل التقدير، وحزن على إسماعيل الذي لم يترك غير ولد واحد هو يحيى بن إسماعيل الذي لم يترك غيره والذي عرف من الجاه والتكريم ما لم يعرفه أحد قبل ولابعد من عبد المومن وخلفه، إلى أن مات سنة 602، ثم خلف بنتا إسمها فاطمة تزوجها بعد أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن الذي

---

(341) راجع المعجب 234– 35، والقرطاس 162/2، وفيه أن اسماعيل بن يحيى الهزرجي الذي لم يذكره باسمه أخبر عبد المومن ثم أقدم على الفداء، وهذا بعيد لأنه لو علم لحال بينهم وبين قتل إسماعيل إن لم يقبض عليهم جميعا، بل إن ابن أبي زرع يقع في خلط حين يقول إن قدوم كومية في 40 الف كان سنة 557هـ، وذلك بعد المؤامرة التي كانت السبب، في حين أن مدبرها هو الوزير عبد السلام بن محمد الكومي. وكومية وقتها كانت تتوفر على هذا العدد، ومن وقتها بدأت نواة دولة بن مرين تتكون داخل الجيش كما سنرى.

(342) المصدر السابق 234.

لم يعقب منها، وقد طال عمرها إلى زمن هجرة صاحب المعجب محيي الدين أبو محمد عبد الواحد المراكشي(343) الذي لم يخبرنا عن مصير عبد السلام بن محمد الكومي الذي قتل بالسم، ولم يذكره في هذه المؤامرة، بل اكتفى بذكر بعض كومية، ولم يذكر لنا أن عبد المومن في هذه الرحلة مر على طنجة كما عند صاحب القرطاس الذي أرخ بذي الحجة 555هـ ثم عبر البحر إلى جبل طارق الذي عاد منه في مستهل سنة 556هـ عاد عبد المومن إلى مراكش حيث قضى أكثر من سنتين في إعادة النظر في التنظيم السياسي للدولة، حيث قضى نهائياً على كل أنواع المعارضة، وصفى كل الذين بلغه في حقهم مايريب، وأصبحت مملكته الممتدة من برقة إلى وادي نول، خالية من كل أثر للمعارضة السياسية، ولم يبق له غير التفكير في الأندلس التي انتصرت فيها جيوشه بقيادة ولديه يوسف وأبي سعيد، وأبي حفص عمر الهنتاتي، لكن الانتصار كان قد وقف عند حد الجنوب والوسط، ولايزال ابن غانية يتحرك بل ويسلم بعض المعاقل إلى الأسبان نكاية في الموحدين، مما جعله يفكر في غزو بلاد الروم من جزيرة الأندلس، ومن أجل ذلك «كتب عنه الكتب إلى سائر جهات المغرب يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد، ويرغبهم فيه كما وضع لذلك برنامج بناء مدينة ينطلق منها، سيطلق عليها مدينة الفتح، فأرسل إلى ولده أبي عثمان سعيد، وكان بغرناطة ليضم إليه المهندس يعيش المالقي، الذي شيد المقصورة المتحركة بمراكش، وأحمد بن باسه، وكلا من أبي حفص عمر الهنتاتي وأبي إسحاق براز بن محمد، والقائد عبد الله بن خيار، والجياني، ليشرف الجميع على بناء مدينة الفتح، بعدما يزودهم ولده يوسف النائب عنه بالأندلس بالعمال والصناع، وأرباب الحرف الذين يجمعهم من مختلف بلاد الأندلس.

في هذه المرحلة كان عبد المومن أمر الأسطول أن يكون على أهبة الإستعداد في

---

(343) هو محمد، بن عبد الواحد، بن علي التميمي، ولد بمراكش يوم 7 ربيع في سنة 581هـ، ثم رحل إلى فاس وهو في سن التاسعة، وبها حفظ القرآن، وتعلم علم القراءات، والنحو، والتاريخ، والأدب، ثم رحل إلى الأندلس وقد جاوز العشرين بسنتين، وذلك سنة 603 حيث تعرف سنة 605هـ/ 1208م على إبراهيم بن يعقوب المنصور صاحب إشبيلية الذي مدحه بقصيدة، وإذا عاد إلى مراكش فإنه غادرها سنة 611هـ/ 1214م، ووقتها كانت فاطمة بنت يحيى بن إسماعيل لاتزال على قيد الحياة. راجع المعجب 234-260، وقد كتب المراكشي كتابه في بغداد يوم السبت 24 ج2 سنة 621هـ/ 1224م آخر زمن الناصر لدين الله العباسي. 576-622هـ وبطلب من وزيره الذي لم يعرفنا على أسمه. ومعنى هذا أنه كتب كتاب المعجب وهو في سن الأربعين.

مجموع موانئ ساحل شمال إفريقيا حيث كان عدد قطع الأسطول كما يقول ابن أبي زرع 400 في حلق المعمورة وفي المهدية ومرساها مائة وعشرون 120، وفي طنجة وسبتة وبادس 80، وفي مراسي الريف 100، وفي إفريقية ووهران ومرسى هنين 100، وفي بلاد الاندلس ثمانون 80 ، المجموع 800، كما أمر بضرب السهام في جميع المملكة بمعدل عشر قناطر في اليوم، وفي هذه السنة 557هـ/ 1161م قدم عليه أربعون ألفا من كومية زناتة بتدبير خفي منه، لم يعلم به المصامدة وغيرهم من الذين استنكروا ذلك بعد، وتقولوا على عبد المومن الذي أمر عمر الهنتاتي أن يهب بجموعه لاستقبالهم بعدما سئلوا سؤالا، تغطية للقضاء على أثر ما انتشر حولهم من دعاية أحدثت التشويش في المغرب، ولما تلقاهم الهنتاتي يقول ابن أبي زرع وجه إليهم السؤال «أسلم أنتم أم حرب؟ فقالوا: بل نحن سلم، نحن قبيل أمير المؤمنين عبد المومن بن علي، نحن كومية الزناتيون، قصدنا زيارته والتسليم عليه(344) وإذا كانوا قدموا في أجمل مظهر وأبهى حلة بفضل الأموال التي زودهم بها عبد المومن سراً، حين أرسل إلى مشايخهم ليركبوا كل قادر على حمل السلاح، ولما وصلوا مدينة مراكش والتي كان في استقبالهم بها رجال الدولة وعلية القوم، ثم رتبهم عبد المومن في الطبقة الثانية وجعلهم من قبيلة تينمل، في ثاني درجة، ثم قربهم من نفسه، وجعلهم بطانته يحمون ظهره ويقفون بين يديه إذا خرج.(345)

(344) القرطاس. 166/2. وما أكثر شطحات القرطاس الذي يحار المرء في نسبته، هل إلى أحمد بن أبي زرع أم إلى صالح بن عبد الحكيم الغرناطي وكلاهما عاش في المغرب في النصف الأول من القرن 8 هـ، وقد بدأ هذا الكتاب يؤرخ للمغرب من عام 145هـ إلى عام 726هـ –762هـ/1325م.

(345) نفس المصدر.

الفصل التاسع والستون

الموحدون في الاندلس

ونعود إلى عبد المؤمن ومدينة الفتح التي لم يمض على الشروع في بنائها أكثر من سبعة أشهر، حتى كانت جاهزة وفي المكان الذي كان عبد المومن قد اختاره من الجبل يوم مروره عائدا من إفريقية في شهر ذي الحجة سنة 555هـ/ 1160م، بنى القصر الملكي وغيره من القصور الضرورية لرجالات الدولة إلى جانب الجامع الكبير، كما شيد الحاج يعيش مهندس المقصورة المتحركة بجامع مراكش، مطحنة هوائية في أعلى الجبل وأحاط الجميع بسور من حجر، ولما انتهى المهندس ورجال الأعمال من بناء المدينة، كان على يوسف وهو النائب عن والده عبد المومن أن يرحل إلى مراكش ليبلغ الخبر بإنجاز ما أمر به عبد المومن.

وفي تلك الأثناء قامت الفتن التي دبرها ابن همشك بمدينة قرمونة، والتي ساهم فيها آبن سانشو، فحالت دون رحلة يوسف رغم نزوله البحر ليجتاز المضيق، فعاد لإنقاذ إشبيلية بعدما أناب عنه من يبلغ الخبر وعاد هو للقيام بتلك المهمة التي انتهت بانتصاره الذي كان على موعد مع قدوم والده إلى مدينة الفتح في حاشيته التي كان قد آكتمل تنظيمها البديع، سواء بالنسبة لما أصبح فيها من كبار آلعلماء وقادة الجند ورجالات الفكر والسيف، مما لم يجتمع لغيره قبل وبعد.

حل عبد المومن بمدينة الفتح حيث وجد في استقباله كلا من ولده يوسف في حاشيته النظيفة التي جمعت رجالات إشبيلية يتقدمهم القاضي أبو بكر الغافقي للتعريف بهم لدى عبد المؤمن، ثم أبو سعيد عثمان بن عبد المومن في حاشيته وما معه من أهل غرناطة وقرطبة، ولما التقى الجميع وتمت المقابلة بمدينة الفتح تقدم الشعراء ومنهم ابن

حبوس وغيره(346) من الشعراء الذين عددوا ما اتصف به عبد المومن من جميل الصفات والشهامة وكريم الأخلاق ، وإذا هو قضى نحو الشهرين بالمدينة حتى يكون قريبا من أخبار المعارك فإنه اختار العودة ليضع تخطيطا آخر لغزو الأندلس.

كان عبد المؤمن قد عبر البحر من جبل الفتح في مستهل سنة 556هـ/ 1160م، ثم عاد إلى مراكش، ولما بلغه الخبر بكثرة تحركات الأسبان جهز جيشا لإسعاف جيوش ولده يوسف، ثم أرسله بقيادة يوسف بن سليمان الذي وصل إشبيلية ودخل قرمونة، وكان أبو محمد عبد الله بن أبي حفص قد اتخذ قلعة جابر سكنا له، وفتحت مدينة قرمونة يوم الجمعة 10 محرم سنة 557هـ/ 1161م بعد سنتين من الحرب وألقي القبض على القائد الشرقي بن أبي جعفر الذي أخذ في أغلاله إلى إشبيلية حيث قتل، وفي هذه الاثناء كانت غرناطة قد سقطت في يد الثوار بموازرة مسلمة اليهود وأعلاج النصارى، الأمر الذي دفع عبد المومن أن يرسل نحو العشرين ألف جندي من مراكش إلى الجزيرة الخضراء وضعوا تحت قيادة يوسف وأخيه أبو سعيد، يساعدهما يوسف بن سليمان زعيم الموحدين، والتقى الجميع في مالقة حيث التقى الجيشان جيش يوسف وجيش ابن مردنيش يساعده النصارى بقيادة الأقرع، التقى الجميع بواد حدارة الذي يفصل بين الجيشين وفي يوم 17 رجب 557هـ 1161م بدأت المعارك، حيث تقدم يوسف نحو جبل سنيل المتصل بجبل السبيكة والقصبة الحمراء، وفي صباح يوم الجمعة 28 رجب وقبل طلوع الفجر باغت جند الموحدين ابن مردنيش وجنود الأقرع فلم يعرفوا ماحل بهم، وإذا كانت المباغتة مذهلة فإن جند الأقرع فقد اتزانه ولم يعرف أين يتجه، فأخذت جموعه تتساقط في النهر، وقتل حفيد الأقرع، وحز رأسه ثم علق على باب القنطرة بقرطبة، كما قتل شيعة محمد بن سعد ابن مردنيش، ومنهم صهره ابن عبيد، ثم توجه جند الموحدين لحصار ابن همشك بمدينة جيان، وتوالت الإمدادات من الرباط بالمغرب، كما حل عبد المومن بمرسى المنكب، وزودت غرناطة بوسائل الدفاع من سلاح وتمويل، كما صدر الأمر من عبد المومن باتخاذ قرطبة مركزا للجند، وعاصمة للسلطة المركزية، بدلاً من إشبيلية،

(346) راجع المعجب 137-138-139-213 ، وعند صاحب الحلل 129 أن الجواز كان سنة 555 وهو غير صحيح، بل الجواز الذي وقف الشعراء فيه بين يديه كان في مستهل 556هـ.

حيث انتقل براز بن محمد المسوفي، ثم نقل إليها من إشبيلية ما كان فيها من إدارات الدولة، ولما استقرت الأمور إنتقل إليها يوسف بن عبد المومن وأخوه أبو سعيد عثمان يوم 12 شوال 557هـ/ 1161م حيث كان إستقبالهما رسمياً من رجالات الدولة بباب القنطرة المتصل بالفحص إلى طريق جيان، كما وصف ابن صاحب الصلاة الذي كان من بين المستقبلين(347) وإذا ما استقر يوسف بقرطبة، فإن أول ما قام به إعادة بناء ماتهدم من قصورها بإشراف المهندس أحمد بن باسه، كما أعاد تنظيم الإدارة والجند، وبقي مجنداً لذلك مدة شهور حتى استدعاه والده بعد إلى الرباط ليسند إليه ولاية العهد بدلاً من أخيه محمد الأكبر في أول المحرم سنة 558هـ 1162م.

---

(347) المن بالإمامة 197 ط 1964، دار الاندلس تحقيق د عبد الهادي التازي، ورواية ابن صاحب الصلاة أصح من رواية ابن أبي زرع الذي رد هذا الفتح إلى سنة 552هـ راجع القرطاس 155/2.

الفصل السبعون

عبد المومن وولاية العهد

كان لعبد المومن من الولد سبعة عشر، كما أوردهم صاحب القرطاس(348) وابن صاحب الصلاة(349) وستة عشر عند المراكشي في المعجب(350). ولقد اختار عبد المومن أكبر أولاده الذي هو محمد، ثم أسند إليه ولاية العهد سنة 549هـ/ 1154م، وحتى لايحدث الشقاق بين الإخوة أسند للقادرين منهم ولايات هامة حيث ولى أكثر أولاده حنكة وسياسة ، وهو عمر الذي سيكون له أكبر الأثر في التمكين لسياسة والده والزيادة عليها في آخر حياته، ولاية تلمسان وما حولها، يساعده عبد الله بن عبد الحق، وأبو الحسن عبد الملك بن عياش ، كما ولى أبا سعيد عثمان سبتة وطنجة، يساعده عبد الله بن سليمان، وسعيد بن ميمون الصنهاجي، وأبا الحكم هرمس، ثم أبوبكر بن الطفيل، وأبو بكر بن حبيش الباجي، وولى ولده عبد الله بجاية وأعمالها، يساعده أبو سعيد يخلف بن الحسن، وولى يوسف بن عبد المومن إشبيلية وشلف.

وإذا كان عبد المومن قد انتهى إلى تحقيق الهدف الذي من أجله قام بكثير من التعديلات في نظام الموحدين حتى انتهى إلى الاستقلال بالسلطة وضمان استمرارها في خلفه ، فإنه كان كذلك على استعداد للسير إلى نهاية الشوط، مهما كانت التكاليف في سبيل ذلك والتمسك بمكتسبات مخططه الذي كلفه الكثير من الجهد و المثابرة وطول

---

(348) 168/2 - 169.

(349) المن بالإمامة ص 222ط 223ط 1964.

(350) ص 198ط 1 - 1949 ذكر لعبد المومن هذا العدد من الأولاد بعد وفاته، وهم : محمد، يوسف، وعمر ، عبد الله ، عثمان، الحسن، الحسين، سليمان، ويحيى، إسماعيل، إبراهيم، وعلي، يعقوب، عبد الرحمن، داود، عيسى، وأحمد، لم يذكر من البنات إلا عائشة، وصفية، وهما تمام التسعة عشر، وزاد ابن ابي زرع اسم أبي عمران الذي كان أديبا وهو أخو يوسف استخلفه على مراكش ثم اعتل ومات.

الوقت، في سبيل تمهيد البلاد وتوسيع دائرة نفوذ الدولة شرقا وغربا، ومن أجل ذلك لما قام بالثورة ضد تصرف عبد المومن هذا قرابة المهدي وأخويه بقيادة يصليتن وعبد العزيز وعيسى لم يستعمل التردد في القضاء عليهم بالقتل، كما قتل جميع أهل «لبلة» بالأندلس وفقهاءها حين دخلها قهرا يحيى بن يومر، ثم أخرج أهلها وصفهم صفوفا وأمر بقتلهم جميعا(351) كما قتل من فقهائها، المحدِّث أبو البقاء بن بطال وأبو عامر بن الجد، كما قامت الثورة كذلك في غرناطة التي وجد فيها كل من ابن مردنيش وابن همشك والأقرع مجالا، لكن عبد المومن كان على استعداد لمواجهة أية قوة كانت بالردع في سبيل تركيز الأمر في بنيه من بعده حتى يضمن للدولة الاستقرار والاستمرار.

كانت ولاية العهد قد أسندت لمحمد بن عبد المومن، ورغم إعلان عبد المومن لهذه التولية مدة ما يقرب من العشر سنوات، ثم نشرها في مختلف ربوع البلاد، فإن ما ظهر من عدم كفاءة محمد الذي تقيأ من سكره دفع عبد المومن إلى التغيير، وحتى لا يترك البلاد فوضى تحت رحمة معتوه مريض النفس و الجسم، فاسد الأخلاق. يقول المراكشي(352) إن عبد المومن آختار يوسف بعدما رفض محمد الذي أدرك بسديد رأيه عدم صلاحيته، و الواقع غير هذا ، بل نحن نرى أن عمر الذي ولى الحجابة التي هي الوزارة الأولى ، منذ سنة 555هـ/ 1160م عندما رحل مع والده إلى فتح إفريقية، وقد كان واليا على تلمسان وما حولها، كما كان وقتها صاحب الوزارة الأولى، بل الآمر الناهي هو عبد السلام بن محمد الكومي الذي أدى به استبداده وعدم أمانته بما ثبت عليه من استغلال أرزاق الجند وإحسانات المشايخ والدس بين عبد المومن وولديه عمر وعبد الله حتى أدى به الحقد إلى القول أنهما يشربان الخمر، في حين أن الذي كان يشربه هو محمد الذي أسندت إليه ولاية العهد، ولسوف يكشف أمره، ويقف عليه بعض الأشياخ، فأرسل عبد المومن من الأشياخ من يتجسس عليهما -أي عمرو عبد الله-، فلم يجد شيئا مما قيل في حقهما، وإنما الذي كان بين يديهما ضمن الطعام هو «الرب» الحلال الذي

(351) القرطاس2/153-154 ،أنه قتل منهم ثمانية آلاف رجل، وفي أحوازها أربعة آلاف، ويقال إن يحيى بن يومر فعل ذلك دون الرجوع إلى عبد المومن؟ وأنه أنكر عليه ثم سجنه وسرحه؟

(352) المعجب 236.

لا مرية فيه ولا ريبة(353) الأمر الذي أكد لعبد المومن صحة ما بلغه من الأشياخ عن خبث وكيد عبد السلام الكومي ضد أولاده بل وجنده، كما صح عنده ما استبد به من جمع الأموال واحتجانها مما أدى إلى محاكمة الكومي بمحضر كل الذين تظلموا منه وحضور القاضي والأشياخ يتقدمهم عبد الحق بن وانودين وأخوه تميم اللذين شهدا ضد عبد السلام، فحكم عليه بالسجن، لكن عبد المومن عاد فسرحه، وإذا ما حصل من أمره ما سبق فإنه قتل بالسم.

بعد عبد السلام الكومي هذا أسندت الحجابة إلى عمر بن عبد المومن كما أشرنا قبل ، فكان بحق في المستوى بشهادة والده والأشياخ، وكان عمر هذا شقيقا ليوسف الذي هو خليفة والده بالأندلس، والذي أظهر كفاءة واستقامة زانهما شغل أوقاته بالدرس وتقريب أفضل العلماء كما قال في حقه الطبيب عبد المالك الشذوني الذي روى عنه المراكشي(354)، ويكفي للتعرف على يوسف أنه الذي حرك همة ابن طفيل وقربه ثم شجعه بشكل أدى إلى ما عرفه التاريخ من أثر هذا العبقري، ثم أثر ابن رشد الذي يعتبر تقريبه من يوسف حسنة من حسنات ابن طفيل الذي تشرف الموحدون بقر به وقرب ابن رشد.

يوسف هذا من مواليد يوم الخميس 3رجب 533هـ1138م،(355) ونحن في سنة558هـ ومعناه يكون يوسف قد مضى له من العمر خمسا وعشرين، وصاحب هذا السن في المنبت الطيب، والوسط الطيب، يستطيع بعث المجتمع الطيب، لقد كانت حياة يوسف في كل من اشبيلية وقرطبة مثالا لما ذكر، لكن رغم كل هذا يبقى السؤال مطروحا كيف تحولت ولاية العهد من محمد إلى يوسف ؟ وما سبب ذلك؟

كان عبد المومن قد وضع الخطة لغزو روم الأندلس، ومن أجل ذلك استنفر القبائل حيث بلغ عدد المقاتلين الذي تجمعوا لديه منها نحو ثلاثمائة ألف، ومن المتطوعة ثمانون ألف، ومن الفرسان مائة ألف، أي في المجموع ما يقرب من نصف مليون عند ابن أبي زرع، وعند ابن صاحب الصلاة مائة ألف فارس وثمانون ألف رجل، أعد لهم من الأسلحة

---

(353) المن 174 - 175.
(354) المعجب 236 - 239 - 243.
(355) القرطاس 172/2.

مآت الآلاف من السيوف والرماح والدرق والقسي، والسهام والتروس، والدروع، والبيضات، وملابس الجلد، كما استعد عبد المومن كل الاستعداد من حيث الملابس والتموين للجند، والخيل، أحسن استعداد، ذكره ابن صاحب الصلاة(356)، وقد تجمعت جيوش القبائل و المتطوعة حول الرباط ما بين عين اغبولة وعين الخميس(357) وحلق المعمورة في مساحة «من مائة وخمسين كيلومتر مربع»، في انتظار عبد المومن الذي خرج بفرسانه من مراكش متوجها إلى تينمل في يوم الخميس15 ربيع الأول 558هـ-1162/2/19م (358)، وفي هذه الرحلة كان ولده محمد ولي العهد على موعد مع جريمته التي سيكشف بسببها ، حيث شرب من الخمر حتى ثمل، ورد ما شرب من جوفه على ثيابه وسرج جواده، وهو راكب ضمن حاشية والده، فرآي ذلك أشياخ الموحدين الذين ثارت ثائرتهم واستنكروا منه الفعل القبيح المخزي، وبذلك ثبت ما قيل في حقه من إدمان واختلال في الرأي، وكثرة الطيش، وجبن النفس ، إلى جانب أنه كان به ضرب من الجذام(359) الأمر الذي أدى إلى قرار تأخيره عن ولاية العهد.

انتهى عبد المومن من زيارة قبر ابن تومرت التي كانت في فصل القر الشديد الذي تضرر منه عبد المومن كل الضرر عندما قطع وادي نفيس أثناء حمله وفيضانه زمن القر وتهاطل الثلج، فتبللت كل ثيابه حتى استبدلها على لهيب النار، وربما كان هذا سبب مرضه الذي مات منه بعد ، ذلك أنه واصل السير ولم يقم بمراكش بعد العودة من تينمل، بل اتجه إلى رباط الفتح التي وصلها مجهدا بعد طي المراحل وقد بلغ الغضب منه منتهاء بسبب ما وقف عليه من تصرفات ولده محمد الذي هو ولي العهد، وماكاد يستقر به المقام حتى جمع أشياخ الموحدين ورجالات الدولة للتشاور ووضع التخطيط للمعركة ضد الأسبان، وإذا ما أبدى كل رأيه فإن رأى عبد المؤمن الذي استقر، ووقع عليه الاتفاق أن يكون الهجوم من الجهات الأربع، وحسب التخطيط الجديد الذي هو شبيه بما كان عبد المؤمن قد اخترعه للقضاء على المرابطين في معركة سهل وهران، التي أطلق عليها

(356) 213 - 215.
(357) القرطاس 1167/2 تعرف اليوم بعين قيولة وهي من دائرة حي السوسي
(358) المن بالإمامة 217.
(359) المعجب 236، و المن بالإمامة 216 - 217.

«يوم منداس» تلك المعركة التي ظهر فيها أول تخطيط ميداني للمعركة بطريقة المربعات ذات الصفوف المترادفة لحماية ظهور بعضها، وهي صفوف ذوي القنا الطوال، و الطوارئ المانعة، وخلفهم صفوف أصحاب الدروق و الحراب ، ثم أصحاب المخالي فيها الحجارة، ثم الرماة ، وفي وسط المربع الخيل للمواجهة(360) بطريقة خاصة، تلك هي خريطة ميدان القتال كما رسمها عبد المومن منذ 540هـ/1145م، وقد طبقها في كل معاركه بعد، فكان النصر حليفه حتى أصبحت قاعدة واسخة في أذهان رجال جيشه النظامي.

انتهى عبد المومن باتفاق مع أركان حربه وبعض رجال دولته إلى وضع خريطة لتقسيم العساكر ضد روم الأندلس إلى أربع جهات(361) جهة ابن الرّنك البرتغالي صاحب قلمرية، وجهة الببوج شرق قلمرية، وجهة أدفونش بطليطلة،(362) وجهة برشلونة أو أراغون، لكن القدر لم يمهل عبد المومن حتى يرى ويعيش نتيجة جهاده وصدقه وأمانته، وإذا هو مرض من أثر الرحلة الطويلة وقطعه الوادي الحامل في الشتاء حتى تبللت ملابسه كما سبق فإن المرض اشتد به وزادت آلامه، مما دفع به يقول ابن صاحب الصلاة، فأمر باسقاط محمد الذي كان ولي العهد من الخطبة يوم الجمعة، جمادى الثانية558هـ 1162م، وأثناء المرض لم يدخل عليه أحد قط غير عمر الهنتاتي وولده عمر الذي هو شقيق يوسف بن عبد المومن(363) مما يجعلنا نقول أنه كان لعمر بن عبد المومن دور مهم في إسناد ولاية العهد إلى شقيقه يوسف، فعمر الحاجب فوق كل وزير، بل هو حافظ السر عند أبيه، و الذي مارس التسيير الى جانبه ، كما قام بنفس الدور شرفيا عمر بن يحيى الهنتاتي الذي سيصبح جد الملوك الصحفيين بإفريقية وتونس بعد(364).

كان عبد المومن في هذه المرحلة قد جاوز الثلاثة والستين من عمره، وإذا كان من مواليد

---

(360) راجع الحلل 108.

(361) كان التقسيم حسب رأي أبي محمد القيسي كما عند ابن صاحب الصلاة 218 – 221.

(362) هو الفونصو الثامن صاحب قشتالة.

(363) عمر بن يحيى الهنتاتي هو الذي مكن لعبد المومن بعد موت المهدي، وزادكذلك إلى جانب عمر بن عبد المومن ليمكن ليوسف ولنعم ما فعل، غير أنه لم تكن عادة عبد المومن في مثل هذه المهمة أن يقتصر على واحد أو اثنين، مما يطرح الاستفهام عندما يبايع السكير محمد الذي كان وليا للعهد لمدة خمس وأربعين يوما بعد موت عبد المومن، راجع القرطاس166/2، و المعجب 233–236 وغيرهما من المصادر المذكورة قبل كالمن بالإمامة 218الخ.

(364) راجع الفارسية في مبادئ الحفصية لابن القنفد القسنطيني ط تونس 1968.

سنة 487هـ /1094م يكون بعد موت المهدي وقيادة للموحدين سنة 524هـ/ 1129م قدقضى في تأسيس الدولة وتنظيمها والسير بها إلى ما وصلت إليه نحو أربع وثلاثين سنة، طوع فيها أقطار المغرب الكبير، وكما يقول الزياني من سقيفة بني مظعون(365) شرقا إلى وادي نول غربا، كما استولى على إشبيلية وغرناطة من بلاد الأندلس وامتدَّ سلطانه إلى السودان، ثم نظم كل هذه البلاد، وجعل عليها من ولاته خيرها، كما كان قد ضرب عليها الخراج سنة 555هـ/ 1160م والذي لم يسبق لغيره، بعدما قسمها إلى ولايات هي : بلاد السوس التابعة لمراكش، ثم أغمات، وولاية تينمل، وولاية سلا، ونواحيها، وولاية مكناسة ونواحيها، وولاية فاس ونواحيها، وولاية سجلماسة، ثم ولاية درعة، وشرقا ولاية تلمسان الى حدود بجاية، ثم ولاية تونس وما حولها شرقا وغرباو كل هذه العمالات والولايات لم يمت عبد المومن إلا وهي منظمة إداريا، وسياسيا- تنظيما أبدعه عبد المومن، ثم كون من يشرف عليه ويطبقه، كما جمع حوله من رجالات العلم و السياسة وقادة الجيوش ما ظهر أثرهم في بناء الدولة مدة حياته التي لم يفقدها أيضا إلا بعد ما خلف أسطولا لحراسة السواحل الممتدة أكثر من خمسة آلاف ميل، وقوامه ثمانمئة قطعة(366) تجوب عباب البحر، فكان بذلك أضخم أسطول في العالم وقتها، كما بلغت جيوشه النظاميه و المتطوعة نحو نصف المليون، ثبت أنه كان ضمنها مائة ألف فارس، وتتوفر كلها علي السلاح و الملابس حيث وفر منها ما يفوق عدد الجيوش بعشرات القناطر من الحديد التي أعلن عن صنعها يوميا كما سبق، هذا بالإضافة إلى العمران حيث شيد المدن مثل تازا، والرباط، ومدينة جبل الفتح، كما أنشأ مآت من الأربطة، والمساجد، من برقة إلى السوس(367) وفي عهده عرف المغرب انطلاقته نحو العلوم والمعارف: وفي مجال العلوم الدينية بمختلف دراساتها، وكذلك الآداب، والفلسفة والطب والهندسة والعلوم والرياضة، وما عرفت به من حساب، وجبر، وفلك، وتنجيم، ثم علوم الفلاحة والتاريخ والجغرافية، وغيرها، بل عهد عبد المومن هو الذي عرفت فيه المرأة بالعلم و الأدب ومختلف الدراسات

---

(365) ورد في القرطاس 173/2 ط 1936 سويقة بني مكنود، وقد حاول المحقق إصلاحها بتعليق.

(366) القرطاس 164/2 - 165 .

(367) راجع د. الاسلامية مادة : رباط، و المصادر الواردة فيها، وإذا علمنا أن كثرة الجنود وتنظيمها ثم استعراضها كان أحب إلى نفس عبد المومن من القصور ورياضها ، أدركنا ما كانت عليه الحياة في عهد عبد المومن.

فهما وإدراكا، حيث عرف التاريخ زينب بنت عبد المومن(368)، وحفصة الغرناطية بنت الحاج الركوني(369) التي قدمت على عبد المومن ضمن وفد الأندلس ثم أنشدته شعرا تقدمت فيه بمطلبها الذي تحقق، وورقاء بنت ينتان، وأم العز العبدرية التي كانت تتقن القراءات السبع، وتدرس البخاري، وأم المجد مريم بنت أبي الحسن الغافقي، صاحب أول مدرسة ومكتبة حرتين للعلوم بسبتة، والطبيبة أم عمر وابنة الطبيب ابن زهر. الخ.

وقد عرفت عاصمة ملك عبد المومن نهضة علمية عمق جذورها كبار العلماء(370) الذين تواردوا عليها من الأندلس ثم وجدوا فيها من عناية عبد المومن ورعايته ما استمر بعد زمن خلفه يوسف، ثم يعقوب المنصور اللذين زادا على ما عرف لعبد المومن في كل المجالات.

توفي عبد المومن ليلة يوم الجمعة 8ج2 سنة 558هـ/ 1162م، ثم رحل إلى تينمل حيث دفن جوار قبر المهدي بن تومرت(371) وقبل أن ينقل عبد المومن إلى مثواه تمت البيعة لولده يوسف الذي لم يتجاوز الخامسة و العشرين وقتها، فهو من مواليد يوم الخميس 3رجب 533هـ /1138م(372)، وتمت البيعة دون أن يتأخر أحد بفضل تصرف وحسن تدبير شقيقه عمر، الذي «أباها وتأخر عنها مختارا... حمله على ذلك فرط عقله وإيثار دينه...» يقول المراكشي(373)وهو ما سنقف على أثره بعد توديعنا لعبد المومن أول واضع للأسس الحضارية التي انطلق منها المغرب ولم يتوقف إلا زمن طغيان الآلة وتفوق الغرب في هذا المجال، لذلك وجب الاهتمام بترجمة عبد المومن قدر الاهتمام بما خلف من أثر يعتز به المغرب الكبير من أقصاه إلى أدناه.

---

(368) ترجم لها صاحب التكملة 212.

(369) راجع القرطاس 146/2، والدر المنثور 165 ودائرة البستاني 117/7.

(370) راجع البيدق 125، و العبر 186/6، والحلة السيراء 222، وابن الخطيب في أعمال الإعلام، وابن صاحب الصلاة في تراجم أبي القاسم أضيل بن إدريس، وابن بكر بن ميمون القرطبي، أبو الحسن بن الاشبيلي، وعبد الله بن جبل وغيرهم، ثم القرطاس 170/2 - 171 - 172 .

(371) القرطاس 168/2، وفي المعجب 235. كانت وفاته في 27 جمادى الثانية، وصاحب القرطاس ربما روى عن ابن صاحب الصلاة 232 - 237.

(372) القرطاس 2 / 172.

(373) المعجب 236، إذا أضفنا وصف المراكشي ليوسف إلى ما أورده صاحب القرطاس 173/2، وربما نقلا عن ابن صاحب الصلاة نخرج بأجمل صورة رسمت لذي سلطان.

قيل إن عبد المومن كان قاسيا وعنيفا، بل منهم من قال في حقه سفاكا للدماء، وهو وصف سبق أن وصف به يوسف بن تاشفين، لكن أصحاب هذا الوصف في حق الرجلين العظيمين اللذين لولاهما لكانت الأيام غير الأيام، والناس غير الناس، من شرق برقة إلى تخوم الصحراء، لقد قيل ذلك وبصفة أكثر من المسيحيين القدامى والمحدثين، بل من السطحيين الذين لم يقدروا على الغوص في أعماق التاريخ ومعرفة أسراره، لقد نسي الذين لا نصفهم بأكثر مما سبق، أن عبد المومن وجماعة الموحدين من خلفه، قاموا بنشر دعوة عرفنا كيف نشأت وتطورت، وماكانت تقصد وتهدف. كان عبد المؤمن بصدد تأسيس دولة اتصفت بالتوحيد مكان دولة وصفها المهدي بن تومرت بالتجسيم، وإذا قيل إن عبد المومن كان قاسيا، فإنه كان كذلك مع نفسه كما عرفنا من سلوكه ، إذ كان منسجما مع نفسه في حياته العامة والخاصة، ومن كلمات سجلها التاريخ في حقه تعرف الكثير عن أسرار نفسه، كان يحب الجمال في كل شيء ولو في وجه امرأة رآها من خلف شباك فأثارت شاعريته(374) التي شاركه فيها أبو جعفر بن عطية في الأبيات التالية قال عبد المومن.

قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

فقال أبو جعفر : حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل

ع : كأنما لحظها في قلب عاشقها

ج : سيف المؤيد عبد المومن بن علي

كان عبد المومن كما وصفه التاريخ عالي الهمة « لم يخلد إلى الراحات ولا ركن إلى الملذات»(375) كان أحب شيء إلى نفسه رؤية فرق الجند وقد تمكن منها النظام وتعززت بالسلاح، بل لم يسجل التاريخ في حقه أنه ظلم حبا للذات ولا تلذذا بالغطرسة والجاه وجموح الأنانية و الانتشاء بالعظمة التي لم تنسه ذكريات البؤس والشقاء وعناء الحياة في بجاية، وتلمسان، وعلى ضفاف أبي رقراق، هو والمعلم والرفيق البيدق الذي خلف لنا تلك الصور الرائعة الجمال من حياة الرجال الذين يصنعون التاريخ. استعمل عبد المومن

---

(374) القرطاس 170/2 - 171 إذا صح هذا الموقف؟

(375) المصدر السابق.

الشدة والقسوة تمكينا للنظام، وتحقيقا لأهداف الدولة، وقضاء على الشر في كل من فاس، وتلمسان، ومراكش، والمهدية، وغيرها من البلاد، التي كانت مهددة بالتمزيق والانهيار، واستعمل عبد المؤمن الرحمة واللين وحسن المعاملة في المكان الذي يجب فيه ذلك ، بل حتى مع غير المسلمين الذين انتصر عليهم طبق معهم من الشروط ما تم التفاوض عليه، مثل النورمانديين الذين أصبحوا تحت رحمته في المهدية، والذين أعتقهم بعد أسر، ثم حملتهم سفنه إلى بلادهم عند روجر الثاني رحمة وتقديرا للواجب الذي حتمه الاستنجاد والتوسل والتعهد بالأمان.

لقد كان عبد المومن وهو ثالث أعيان عظماء المغرب من الملوك بعد إدريس الأول، ويوسف بن تاشفين، على جانب عظيم من العلم بعيد النظر، سليم الإدراك للأمور، عارفا قصده وغايته في الحياة، لم يكن مستبدا بالقوة والقهر، بل كان خبيرا بالدين والشريعة وما يوجبانه من الشورى في التسيير، وأما ما انتهى إليه تحويره لما ترك المهدي من مجالس لا يعتبر إلغاء بقدر ما يعتبر إنقاذا وإعطاء الفعالية للتنفيذ، بعيدا عن التنافس والتعطيل، وبذلك لم تنته حياة عبد المومن، إلا والدولة كما رأينا من القوة والعظمة يتولاها ولده يوسف الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين دون أن يجد راحة ولا استقرارا حتى استشهد بعد الخمسة وأربعين يوما التي حاول فيها ولي العهد السابق محمد، الذي صد وأبعد، ثم تجند يوسف لتصفية الفتن والحروب التي كانت في عهد والده بالأندلس، كما شغله تأخر(376) اثنين من إخوته عن البيعة وهما صاحب بجاية، وصاحب قرطبة، ثم ثورة سبع بن حيان ومرزدغ لغماري من صنهاجة مفتاح، سنة 559هـ(377) وهو الثائر الذي ضرب السكة باسمه ثم كتب عليها « مرزدغ الغريب، نصر الله قريب»، وكان مجاله بين غمارة وصنهاجة وأوربة، لكنه انهزم وقتل سنة 561 هـ في تازة حيث قطعت رأسه. ثم قام في السنة التالية ثائر آخر هو يوسف بن منغفاد بجبل تيزران من بلاد غمارة، لكنه قتل هو الآخر، ولم يكن ذلك آخر عهد يوسف بالفتن التي كدرت صفوه مدة خمس سنوات بعد

---

(376) القرطاس 173/2 ، وابن صاحب الصلاة 232 - 238 - 239 - 240.

(377) كذا في القرطاس ، في المعجب 251 أن سبع بن حيان ومرزدغ قاما بالثورة بعد في صدر سنة 573؟

موت والده عبد المومن(378) وإن كان ابن صاحب الصلاة قد اختار أن يؤرخ سنة 564هـ/1168م، ثم يصفها بالاستقرار، وفيها انشغل بفصل ابن همشك عن ابن مردنيش، وتعيين يوسف للولاة، ثم غزوه للأندلس بواسطة أخيه عمر وبعض رجالات دولته، بل إن يوسف لم يطل به العهد إلا قليلا حتى أخذ يجني ثمار ما غرس والده من نظام الخراج الذي أصبح يرد من شرق المملكة، وأبعد الأماكن فيها، فضلا عن دانيها، فقد ورد عليه من إفريقية أربعة الاف فرس، ومائة وخمسين حملا من المال الصامت، ومن تلمسان وما حولها ألف فرس وخمسين حملا من المال الصامت،(379).

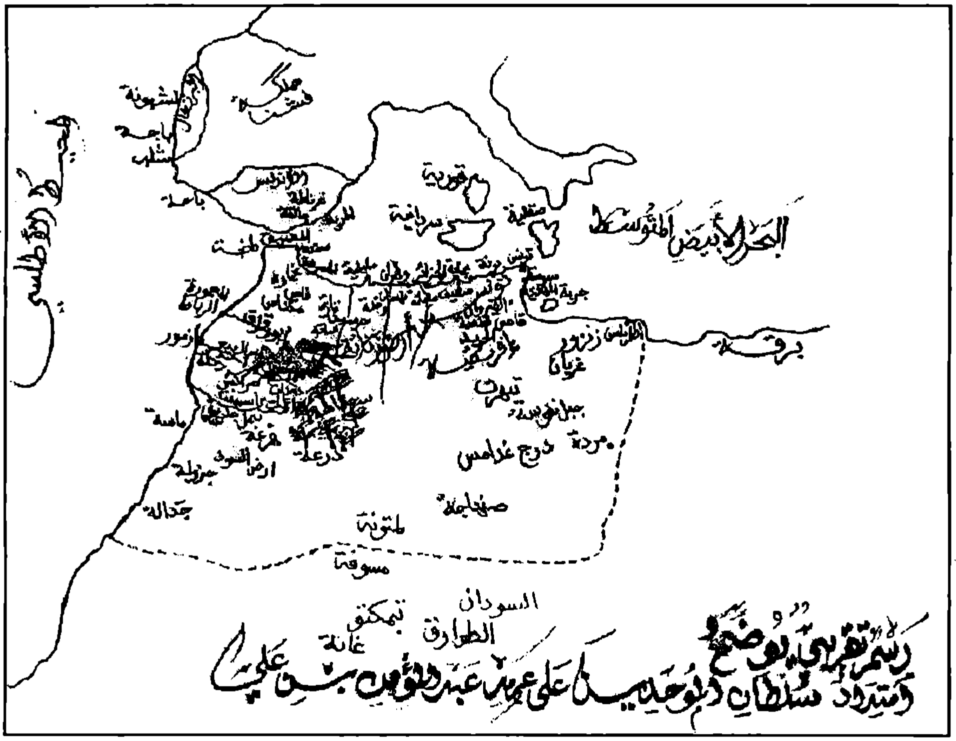

(378) كتب أهل غرناطة بيعتهم ليوسف بتاريخ 12 جمادى الثاني 563هـ المن بالإمامة 345 – 346، وفي نفس السنة عين ولده إبراهيم واليا على الأندلس حيث اتخذ قرطبة مقرا له، وكان غايته الدفاع عن المسلمين وفتح باب الجهاد، ابن صاحب الصلاة 354.

(379) ابن صاحب الصلاة 419.

الباب الثاني عشر

الفصل الواحد والسبعون

المغرب في عهد يوسف بن عبد المومن بين الاستقلال و الازدهار

بويع ليوسف بن عبد المومن للمرة الأولى والثانية، وإذا هو استلم السلطة في جو لم يسبق لغيره، وظروف لم يعشها من سبق من الملوك والأمراء، إذ ما انتهت حياة عبد المومن حتى أصبحت دولة الموحدين تتوفر على نظم حتمها الإمتزاج الحضاري بمجتمع الأندلس الذي قضى أكثر من أربعة قرون في تقدم علمي وحضارة لم يتوقف، رغم ما عرفته الأندلس آخر عهد الأمويين وفي عهد المرابطين من هزات عنيفة، أثرت في المظهر دون المخبر(380)، فالدراسات الإسلامية في مختلف المجالات، وكما سبق أن عرفنا لم تتوقف ولم تتأثر كثيرا رغم موقف المرابطين وموقف الموحدين المغاير للسابقين، ولولا ذلك الاستمرار لما رأينا في عهد يوسف وولده يعقوب ما عرف التاريخ لرجالات الأندلس من أنواع الدراسات التي شملت مناقشة المذاهب التي راجت في المشرق، مثل مذاهب أهل السنة، و المعتزلة، والأشاعرة، والخوارج، أو مذاهب الفقهاء، مثل الحنفية والمالكية، والشافعية، والحنبلية، والظاهرية، تلك المذاهب التي كونت مفهوما خاصا في مجتمع الأندلس عندما ظهر إنتاج أبي حامد الغزالي الذي انقسم الأندلسيون والمغاربة في النظر إليه قسمين : قسم نافر مدبر، وآخر مدرك ومتدبر، فكانت النتيجة ما ظهر في آخر عهد المرابطين، وظهور الموحدين، من رجال فكر وعلماء، مثل ابن طفيل وابن رشد الذي ميز بين الدين والفلسفة، وبطريقة لم ينهجها المشارقة كابن سينا الذي كان ابن طفيل المتعلق

---

(380) لقد تناول الإستاذ محمد الهادي المنوني الحسني هذا الموضوع بما يكفي من البيان والتفصيل في كتابة «العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين» ، ط 2 / الرباط 1397 هـ 1977 م.

بأفكاره أوضح منه نهجا في قصة «حي بن يقظان» ونظرته إلى الكون، وبعيدا عن هذا المجال إلى مجال الفقه، والعلم، والرياضيات، والطب، والزراعة، والهندسة، والأنواء، وما إلى ذلك.

لقد كان أعظم علماء عصر يوسف بن عبد المومن هو أبو الوليد بن رشد، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الذي ولد في قرطبة عام 520هـ/ 1126م، وفيها تعلم عن آبائه وعن علماء عصره الذين منهم أبو مروان بن جريون البلنسي وغيره من العلماء الذين كان يتقدمهم ابن طفيل، وإذا نحن علمنا أن ابن رشد اتصل بيوسف بن عبد المومن وهو في سن الثامنة والعشرين، وأن الذي قدمه إليه هو أستاذه أبو بكر بن طفيل، وأنه لم يفعل إلا لأن ابن رشد كان أحق من غيره من الذين كانت تزخر بهم قرطبة، وإذا نحن راجعنا ما حصل من أول لقاء بين السلطان يوسف وابن رشد، من حديث حول الفلسفة، بل إذا نحن كذلك علمنا أن ابن رشد عاش من العمر خمسا وسبعين عاما، ندرك غزارة الإنتاج الذي أمكن لمثل هذا العالم الجليل أن يخلفه للإنسانية التي عاشت في المشرق والمغرب عهدا غير قصير، ولا شغل للعلماء غير العمل على تحليل واستنتاج ما ورد من أفكار ابن رشد، في مختلف مجالات المعرفة، والتي لم تسلم من ظلم الحاسدين ونقمة الغاشمين من مختلف الملل والنحل، ومع ذلك فقد بقي منها ما كان له الأثر في إغناء الفكر الإنساني والدفع به إلى الأمام. ولقد قسم الباحثون ما تبقى من مصنفاته إلي أربع مجموعات هي:

أ) مؤلفات عربية ذات طابع فقهي فلسفي وتشمل « فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة و الحكمة من الاتصال» ثم ذيل له، «الكشف عن مناهج الأدلة في علم الأصول» و«تهافت التهافت» للرد على الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة و «وبداية المجتهد ونهاية المقتصد» و«المقدمات الممهدات» و«رسالة التوحيد والفلسفة» و«كفاية المقتصد ونهاية المجتهد في أصول الدين وقواعد الاعتقاد»، وهذا الأخير مفقود، وتوجد نسخة منه بخزانة المؤلف، تاريخ 16 صفر عام610هـ.

ب) له شروح لبعض مؤلفات أرسطو منها: كتاب الشعر والخطابة، ورسالته في المنطق، وما بعد الطبيعة، و الطبيعيات، والسماء ، والعالم، والكون، والفساد، والآثار

العلوية، والنفس، وهذه الخمسة الأخيرة هي التي يجمعها مصنفه «جوامع كتب أرسطو».

جـ) له مؤلفات في الطب بالعربية منها كتاب « الكليات في الطب» وحركة الفلك».

د) له مصنفات موضوعة باللغة اللاتينية أو العبرية وهي مترجمات لمصنفات عربية مفقودة وتشمل شرح ابن رشد لكتاب « الانالوطيقا » لارسطو وكتاب «الطبيعيات» ومابعد الطبيعة»(381)

إن أبحاث ابن رشد الفلسفية تدور حول الفلسفة اليونانية التقليدية، وأهمها: إثبات الخالق، قدم العالم، وطبيعة الموجودات، البعث، النفس الكلية، والعقل الكلي ، علم الله، ثم علاقة الدين بالفلسفة.

وقد أثارت هذه الأبحاث اهتمام الفقهاء المسلمين، وأحبار اليهود، ورؤساء الكنيسة بعد ترجمتها إلى اللاتينية حيث بلغت اثني عشر مجلدا طبعت بمطبعة البندقية عام 1540م(382).

ولكم عرف إنتاج ابن رشد من خصوم، وخلق من صراع بين مختلف المجتمعات المتفتحة والمتزمتة وقتها، بل دام يشكل مفاهيم لم ترض نزعة المفلسين إلا في أخريات عهد المنصور وكما سنرى حيث عرفنا من تجاوبوا في المعرفة مع أفكار هذا العالم الجليل.

وإذا كانت أفكار ابن رشد السبب في تفتح الغرب الأوربي، فإنها كذلك كانت الفاصل في إصلاح الكنيسة على يد لوثر(887هـ 953هـ / 1482 – 1546م) والذي هو الآخر تأثر بما كان لابن تيمية من أثر زمن الحروب الصليبية كما سنرى بعد.

في عصر ما بعد عبد المومن تفتح خلفه أكثر على هذه المجالات، وبذلك أصبحت دولة الموحدين ذات المذهب الظاهري تتوفر على عديد من العلماء، والأدباء والفقهاء، ورجال الحرب الذين أضفوا عليها حلة زاهية وجميلة تمثلت في المظهر الأجمل، الذي أعد

(381) راجع ابن رشد وفلسفته لفرح انطوان 1 – 32/ط الاسكندرية 1903م.

(382) راجع القاموس الإسلامي 527/2 ط 1966 ، وفي خزانتنا لابن رشد / كفاية المقصد ونهاية المجتهد في أصول الدين وقواعد الاعتقاد، كما أشرنا، وكان الفراغ من كتابته يوم 16 صفر سنة 610هـ بخط عبد الحق بن محمد بن عبد السلام العماري، وهو كتاب مفقود ذكره الدكتور محمد غلاب في كتابه الفلسفة الإسلامية بالمغرب ص 73/ ط 1948 ، مطبعة عطايا باب الخلق / القاهرة.

ليوم تربع يوسف وما بعده، ناهيك، وأن يوسف سرح كل السجون التي كانت عامرة في عهد والده، وهكذا فقد اختير يوسف لأخطر دور في دولة لم يمض على قيامها أكثر من ثلاثين سنة فكان بحق أقدر بني عبد المومن على ذلك، بما جمع حوله من الرجال الأكفاء الذين كانت تتوفر عليهم الدولة، كما جدد النظام، وأدخل عليه تحسينات استمدها من معارفه ومعارف الذين لازموه مدة وجوده بإشبيلية، حيث وزر له بعد شقيقه ربيب نعمة والده إدريس بن إبراهيم بن جامع، كما اتخذ من كتاب الإنشاء عياش بن محمد بن عياش كاتب أبيه، وأبو القاسم الكمالي، وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشوة من أهل بجاية، ومن كتبت الجيش أبو الحسن الهوذلي الاشبيلي، وأبو عبد الرحمن الطوسي، وأبو عبد الله بن محسن، ومن القضاة أكبرهم أبو عبد الله بن عبد الرحمن المالقي، وعيسى بن عمران التسولي(383) فعرفت الدولة استقرارا لم تجد معه صعوبة حتى في جمع الضرائب.

وإذا ما أخذ يوسف يضع الخطط للسير بالدولة أحسن، فإنه تعرض لبعض المشاكل التي ظهرت بسبب تخلف أخيه علي عن البيعة، لكن عليا هذا توفي كمدا، ولما تنته السنة، وكذلك فعل كل من أخويه سعيد، وعبد الله إذ كان الأول بالأندلس، والثاني ببجاية، إلا أن الأول توفي وهو في طريقه إلى مراكش سنة 560هـ/ 1164م، وبذلك لم يبق أمام أبي عثمان سعيد إلا أن يتقدم هو الآخر لبيعته، فرحل من قرطبة متوجها إلى مراكش بعدها علم بما عزم عليه أخوه عمر بن عبد المومن الذي استعد لانتزاعها منه بالقوة، ولذلك بادر بعد المماطلة، فالتقيا في جبل الفتح، حيث حل عمر وفي خطته إرغام أبي سعيد حسبما يفهم من رواية عبد الملك بن صاحب الصلاة الذي حضر بنفسه لقاء الأخوين عمر وأبو سعيد، ثم شارك بقصيدة إلى جانب الشعراء، واستمرت الأفراح مدة خمس عشر يوما قبل الرحيل إلى مراكش، مما يدل على ما كان لعدم بيعة أبي سعيد من أثر سيء في نفس يوسف الذي هب لاستقبال أبي عثمان بعدما خرج مع أخيه من سبتة إلى فاس متوجهين إلى مراكش التي حلا بها أول يوم من شهر رجب 560هـ/ 1164م.

---

(383) المعجب 244-245 هذا بالاضافة إلى أن يوسف استعمل أبناء كبار الموحدين من رجال الجماعات إلى جانبه، كل في المهمة التي يستحقها، راجع المن بالإمامة 440 - 441ط 1969، وإذا ما عرفنا أن ابن طفيل اتصل بيوسف ككاتب سره مذ كان واليا بالأندلس، أدركنا التأثير الذي كان لهذا العالم الكبير في حياة يوسف بصفة عامة، راجع د الإسلامية 212/1. 217 وما فيها من مصادر مادة ابن رشد، والقرطاس 2/ 166-174- 175- 176.

تجددت الأفراح، وألقيت القصائد في الموضوع بشكل أحسن وأبلغ مما مر في جبل الفتح، كما أمر يوسف أخاه بالبقاء في مراكش على سبيل التكريم مدة شهرين، لكن في هذه الأثناء ورد كتاب من الأندلس بعث به أبو سعيد يخلف بن الحسين ، وأبو عبد الله يوسف، يستغيثان فيه وقد قويت شوكة ابن مردنيش الذي كان مستوليا على ما وراء الوادي الكبير من أعمال مرسية، مما غير الصفو ودفع لإرسال عمر بن عبد المومن ليلتحق بالجيش الذي جهزه الملك يوسف، وكان قوامه، عرب رياح والأثبج وزغبة، خرج به في العاشر من رمضان من السنة المذكورة، حيث نزل سبتة ثم انتقل إلى إشبيلية ومعه أبو سعيد عثمان الذي كان واليا علي غرناطة، ولما توجه إلى مرسية نزل بالمكان المعروف بـ «الجلاب» وهو المكان الذي عرفت به المعركة على بعد أربعة أميال من مرسية ، وإذا ما اشتعلت الحرب فإن الدائرة كانت على ابن مردنيش(384)، لكن ثورات وفتن أخرى قامت في جهات مختلفة، في السوس، وأغمات، وبين القبائل في درن، وافريقية(385) ما بين 567- 675هـ/ 1171 – 1179م(386)، لكن التي كلفت جهدا أكثر هي التي قامت شرقا، ولما قضى عليها وليّ على تلك الجهات عبد الواحد الهنتاتي الذي نقله من الأندلس، كما نقل بني غانية وأبعدهم منها إلى بجاية، فكانوا سبب ثورات استمرت طيلة حياة يوسف، وابن الرند الذي نقله من قفصة إلى المغرب، حيث ولاه حكم مدينة سلا، لكنه رغم ذلك حقق الانتصار شرقا وغربا، حيث هابه الجميع ومنهم ملك صقلية الذي طلب الصلح مقابل مال يدفعه سنويا، فكان ضمنه الياقوتة المعروفة بالحافر، والتي زين بها المصحف العثماني الذي كان الموحدون يقدمونه أمامهم في رحلاتهم(387) اقتداء بالأمويين الذين نقلوه إلى الأندلس.

لقد كان اهتمام يوسف ابن عبد المومن بالأندلس كبيرا جدا بحيث عرفت من

---

(384) ص 27 – 238 – 250 – 258.

(385) نفس المصدر 248 والقرطاس 184/2 – ابن صاحب الصلاة 270 –271 –274 –470 –471 –473.

(386) كان قد ولى ولده موسى على تلمسان وما حولها، وقد انتهى في غزوه إلى قفصة، راجع الروض المعطار، 2 مخطوط خاص راجع رحلته إلى الأندلس سنة 566هـ/ 1170م عند ابن صاحب الصلاة 449 – 452م

(387) المعجب 252 – 253 ، والذيل والتكملة 78/1، 140 والحلة السيراء 268/2 – 269 القرطاس 186/2، والحلل 127 – 131 – 132 ، وينص فيها على أن الطاعون ظهر بمراكش سنة 571هـ /1194م.

نشاطه الكثير، طهر جيوبها، وحرر ما تبقى منها شرقا وغربا، واهتم بعمرانها حيث شيد القناطر، ثم بنى الجسر على وادي اشبيلية، ثم قصبتيها الداخلة والخارجة، وكذا المزلاقين للسور، وسور جهور الذي هدمه السيل من جهة الوادي وكذا الرصيفين المدرجين بضفتي الوادي، كما جلب الماء إلى إشبيلية من قلعة جابر، وإذا هو رجع إلى المغرب بعد مقام بالأندلس دام أربعة أعوام، وعشرة أشهر وأياما، حيث كان رجوعه في شهر شعبان من 571هـ /1175م(388) وإذا هو كان قد بدأ تشييد الجامع الكبير بإشبيلية، فإنه رغم عودته إلى المغرب بقي مهتما بسير العمل فيه بواسطة ولده إبراهيم الذي كان واليا على إشبيلية بالأندلس، والذي ألزم الناس حضور صلاة الجمعة والخطبة فيه، فكانت أول خطبة على منبره يوم الجمعة 24 ذي الحجة 577هـ / 1181/4/30م(389)، وأما المنارة فقد كان أمر ببنائها وقت عودته إلى الأندلس غازيا في 13 صفر سنة 580هـ/ 1184م(390).

بعد ثماني سنوات عاد يوسف إلى الأندلس لغزو شنترين، حيث خرج من مراكش يوم السبت 25 شوال 579هـ/ 1187م قاصدا إفريقية، لكن الخبر بلغه منها بواسطة أبي عبد الله محمد بن أبي اسحاق، وأنها تنعم بالهدوء، بعدها انتقل إلى مكناسة حيث أمضى عيد الأضحى يوم الأربعاء6 ذي الحجة، ثم انتقل إلى مدينة فاس حيث أمضى بقية الشهر، وفي اليوم الرابع من الشهر الأول من سنة 580هـ/ 1184م رحل من فاس إلى سبتة التي قضى بها أيضا بقية المحرم، وفي 5 صفر جاز إلى الأندلس حيث حط في الجزيرة الخضراء، ومنها إلي جبل الصوف وقلعة خيران، ثم لوقش ثم شربش، وتبريشة،

---

(388) كان قد خرج من مراكش متوجها إلى الأندلس قصد الغزو، صبيحة يوم السبت 4 رجب 566هـ/1170/3/13م، ثم عبر البحر بين الرباط وسلا يوم الجمعة 9 شعبان، ودام جواز الجند بعده خمسة أيام، إذ كان عددهم في هذه الغزوة عشر آلاف فارس من جند الموحدين، وعشرة الاف فارس من العرب دون المتطوعة والمجاهدين، وكان الجواز إلى الأندلس يوم 27 رمضان ثم دخل إشبيلية يوم 10 شوال. راجع ابن صاحب الصلاة 238 - 252ط 64، القرطاس 188/2.

(389) كان الخطيب فيه أبو القاسم عبد الرحمن بن عفير أحد الناسخين للكتب عند يوسف بن عبد المومن، راجع ابن صاحب الصلاة 479 - 480.

(390) كان عامله وقتها على إشبيلية أبو داود يلول بن جلد اسن، وإذا ما توفي يوسف نفس السنة، فإن ولده يعقوب الذي حل مكانه ولى على إشبيلية محمد بن أبي مروان الغرناطي، ثم أمره بإكمال المنارة التي كان المهندس المشرف عليها ابن يعيش. وصاحب المقصورة العجيبة وفي المن بالإمامة ص 63 ابن باسيه، وعند محمد الهادي لنوني الحسني صاحب المقصورة نقلا عن الحلل هو بزار بن محمد ص 106/ط2.

ثم إشبيلية التي رحل منها يوم الجمعة 23 صفر، فنزل في وادي برتقال حيث التقى برجالات إشبيلية بعد صلاة الظهر في آخر المنية، بعدها توجه إلى غزو شنترين غرب الأندلس(391) التي حاصرها مدة أربعة عشر يوما، ولما لم تستسلم تحول يوم 22 من ربيع الأول، فقصد غزو مدينة أشبونة، وإذا ما أبدى رأيه لكل من ولده وعامل إشبيلية قصد أن يكون غزوها بواسطة جيوش الأندلس فقط، وأن يكون رحيلهم في اليوم التالي، فإن القوم أساؤوا الفهم عندما انتشر الخبر بين الجيوش المحاصرة لشنترين، حيث أخذ القوم في الرحيل اقتداء بتصرف أبي الحسن علي بن عبد الرحمن المالقي خطيب أمير المؤمنين، يوسف(392) والذي لما رآه الناس يعتزم الرحيل بعد الحصار الطويل لشنترين، إقتدى به الجند وعبروا النهر يريدون التقدم خشية الزحام، ولم يبق إلا قليل ممن كانوا ضمن حاشية يوسف وهو لا يعلم بذلك ، وما كادت الجموع تنفض ويبقى معزولا حتى استغلت الفراغ جيوش تاجو التي حاطت بخباء يوسف، واشتد القتال بعنف راح ضحيته أكثر الذين كانوا حول الخباء، كما طعن يوسف هو الآخر تحت سرته طعنة مات منها بعد أيام يسيرة حيث توفي رحمه الله يوم السبت قبل غروب الشمس7 رجب 580هـ/ 1184م وصلى عليه بين العشاءين بعدما نودي في المعسكر، ولم يعرف المصلى عليه إلا بعض الخواص، يقول المراكشي، ثم ساروا به حتى بلغوا إشبيلية، ثم صبروه في تابوت وأرسلوه مع كافور الحاجب، مولاه الخصي إلى تينمل حيث دفن بجانب أبيه وابن تومرت رحم الله الجميع.

وهكذا إذا كان عبد المومن قد وضع أسس دولة الموحدين ثم أعطاها الإنطلاقة الكبرى نحو التنظيم العملي، بعدما حدد مساحتها ونظم جيشها وإدارتها، فإن يوسف رغم ما واجهه من صعوبات بسبب الحروب التي لم تكن منتظرة بالقدر الذي عرفه، قد أعطى هو الآخر للدولة انطلاقة عظيمة وعظيمة جدا، بالمجال الذي فسحه أمام رجال الفكر، والعلوم والمعارف التي بدأ التمكين لها في حياته، فما كان من خلفه إلا أن حمل الراية، ثم عمل بنفس الروح وزيادة.

---

(391) القرطاس 196/2 - 197.

(392) المعجب 258 -260، والقرطاس 192/2.

الفصل الثاني والسبعون
يعقوب المنصور واسطة عقد الموحدين

وهكذا فإذا ما تولى بعده ولده يعقوب بن يوسف الذي هو من مواليد 554هـ/ 1161م والذي وزر لأبيه هو الآخر منذ 577هـ/ 1181م، فإنه بعدما صفى الميدان من كثير من رجالات الدولة غير المرغوب فيهم وفي مقدمتهم الوزير الكبير إدريس بن إبراهيم بن جامع الذي صودرت أمواله، وكان يوسف قبل قد أسند وزارته الأولى إلى ولده يعقوب باتفاق أعمامه وإخوته ورجالات الدولة، كما كان قد عقد له البيعة يوم 22 ربيع الأول من السنة التي توفي فيها « وهي 580هـ» يقول ابن صاحب الصلاة، ثم جددت بإشبيلية ووالده ميت بها دون أن تعلم العامة، وأن هذا التجديد كان بإيعاز من عمه عمر بن عبد المومن، كما فعل عمر هذا قبل مع أخيه حين ساندَه، مما يعطي لعمر هذا امكانة عالية في تاريخ الموحدين، تفوق مكانة اللذين - جلسا علي أريكة الملك في حياته(393).

رغم كل ذلك فإن يعقوب بن يوسف الذي لقب بعد بالمنصور لقي معارضة ظهرت بعد من أعمامه وإخوته، إلا أنه واجه كل ذلك بسياسة أحكمها إلى جانبه وزيره أبو حفص عمر ابن أبي زيد الهنتاتي، حيث أسكت الجميع بكبير العطاء وأكبر الإقطاع.

كان يعقوب قد انتقل بعد موت والده إلى مدينة سلا حيث أقيمت أفراح اعتلائه العرش، بعدها أسس حكومته الجديدة بالإضافة إلى الهنتاتي المذكور، وعمر إينتي، ثم أبو بكر بن عبد الله بن أبي حفص الملقب بالفيل، وأسند منصب الحجابة إلى مولاه عنبر

(393) لم يكمل يوسف الخمسين سنة عندما توفي بعد حكم دام اثنين وعشرين سنة وشهرا واحدا وستة أيام، بل كان ابن سبع وأربعين سنة كما خلف من الأولاد ثمانية عشر القرطاس 174/2 . والمعجب 256- 261. لقد كان يوسف من مواليد يوم الخميس 3 رجب 533هـ وبويع له يوم 8 جمادى الثاني 558هـ، وتوفي يوم السبت 7 رجب 580هـ 1184م.

الخصي، والكتابة إلى كاتب أبيه أبو الفضل جعفر بن محشوه، وكتابة ديوان الجيش إلى العياش، والقضاء إلى أبي جعفر بن مضاء(394).

وكان أول عمل عمراني قام به هو إتمام قصبة مدينة الرباط التي كان قد خططها ووضع أسسها والده يوسف، كما يقول المراكشي، كما خطط للجامع الكبير ذي المئذنة المطلة على أبي رقراق.

كان يعقوب بن يوسف بن عبد المومن أكبر من أبيه يوم بويع له بالملك، فهو من مواليد سنة 554هـ/1161م، ولقد كان يعقوب بحق واسطة عقد الموحدين، وإن كانت له بعض الهفوات التي سنقف على بعضها، والتي تتعلق بموقفه من المذاهب الفقهية، وما أشبه ذلك، خصوصا مذهب مالك الذي كان هو المتمكن في المغرب، وماكل ذلك منه إلا تصنعا وسياسة للقضاء على ما كانت البلاد تعرفه من فتن، بل وحتى يشغل الناس عنه، وعن السياسة.

فهو الذي أحرق من الكتب مدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر أبي زيد، ومختصر كتاب التهذيب للبرادعي، والواضحة لابن حبيب.. إلخ. لكن بقدر ما كانت أيام عبد المؤمن ومن حوله من رجال الجماعات تبتعد ، بقدر ما كانت دائرة التحرر من القيود تتسع، والحضارة تتمكن، كما أن مشاكل الدولة كذلك بدأت تنمو وتتضخم، مما جعل أيام يعقوب بن يوسف قليلة الاستقرار أكثر من أيام أبيه، ورغم ذلك فقد كان ليعقوب من القدرة والكفاءة ما واجه بهما كل متطلبات التمكين للدولة، والسير بها قدما في مضمار الحضارة بخطى واسعة فاقت ما كان لسلفه، واجه الحروب بالأندلس وبجاية، وبرقة، التي قام فيها الثائر علي بن إسحاق بن محمد بن غانية الميورقي 575-585هـ/1179-1189م، الذي استولى على طرابلس، وصفاقس، والجريد، والقيروان ،وجزء مهم من ولاية قسنطينة(395) وقد عرف جيش يعقوب أعدادا كثيرة من الغز المصريين، الذين هم أصلا من الترك(396) الموالين للصينيين، والذين بدأ ظهورهم في عهد والده يوسف كما سنرى،

---

(394) المصدر المعجب 261 - 265 وأعمال الأعلام ق 309/2، والعبر 238/6 ، وابن خلكان 373/2.

(395) كانت ثورته سنة 583، وقد استمرت إلى سنة 602هـ، إلى أن قضى عليه محمد الناصر خلف يعقوب، ثم ولى على إفريقية وزير أبيه أبو محمد عبد الواحد الحفصي سنة 603هـ /1026م، الذي به كانت بداية دولة الحفصيين الذين زعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب، وذلك بعد استقلالهم بإفريقية كما سنرى بعد راجع المعجب 267 - 276، ثم راجع الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ص 103- 105 تونس 1968.

(396) نفس المصدر 156.

والذين قاموا بإيعاز من قرقرش مصر الخصبي، هم والعرب الناقمين على سلف يعقوب إلى جانب ابن غانية، وقد كان قرقوش يطمع في الاستيلاء على طرابلس، لكن ابن غانية ومن ناصره من الأعراب رغم إعلان ولائه للملك العباسي بقي معزولا ثم اندحر أمام فلول يعقوب وأسطوله، بل كاد يعقوب يتقدم نحو مصر التي كان يقول في حق أهلها «نحن مطهروها إن شاء الله»(397) ولوطال به أجله ولم يحدث ما عرف من الفتن لفعل بعد موقعة الأرك التي أصبح بعد انتصاره فيها يعرف بيعقوب المنصور.

لقد خرج على يعقوب بن يوسف أفراد من أسرته رغم كل مابذل من جهد وما صنع من جميل نحوهم، ومن الذين خروجوا عليه ثلاثة هم أخويه السفيه الحقير عمر الملقب بالرشيد، وزكريا، وعمه النذل سليمان بن عبد المومن، وقد كان الأول بمرسية من الأندلس، والثالث بتادلا، فعمر لم يكتف بالتعريض بأخيه، بل قتل قاضي مرسية ابن أبي حمزة 518 - 583هـ/ 1124–1187م وهو محمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى الذي تولى قضاء مرسية، ثم بلنسية، ثم شاطبة، ثم أريولة، وقد كان بارعا في تدريس فقه مالك إلى جانب فصاحته وبلاغته وله كتاب «نتائج الأبكار ومناهج النظار في معاني الآثار»، وهو الذي وكزه عمر برأس سيفه في صدره، ولما بلغ الخبر ليعقوب وهو في بجاية عاد مسرعا إلى فاس، وبالقرب من مكناسة استقبله أخاه عمر، فأمر أن يقبض عليه ويؤخذ في أغلاله إلى سجن سلا، كما فعل نفس الشيء مع عمه سليمان، ولما وصل مراكش أصدر الأمر بقتلهما صبرا سنة 583هـ/1187م، كما قتل أخاه يحيى بنفس السبب، وكان قد انتصر في شرق تونس في شهر رجب من نفس السنة حيث قضى على تطاول الموارقة وبني غانية، وقرقوش وشيعته الذين احتموا بقصر العروسيين من حمة مطماطة التي استولى عليها يعقوب وعلى قابس وتوزر، ومنها وما حولها نقل قبائل العرب التي سنتعرض لذكرها بعد الى المغرب ناحية مراكش ، كما استعملها في الجهاد ضد الأسبان ، فكانت صرامته في الحق هذه سببا في تمكين هيبة المنصور الذي لم يغفر له قومه مآخذ عرفت

(397) المعجب 278 - 284–288–289 ط مصر 1949 ، وما فيه من تعليق حول الغز، ومنهم كان أحمد ابن طولون صاحب مصر ص 288– 289 ، ثم راجع المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب مصدر سابق 20–32 ، والديباج 322 والنفح..

له في أول شبابه، رغم أنه كان أكثر من عمل بالكتاب والسنة، من بني قومه، إذ في أيامه تقول المصادر انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وهو الذي أمر بإحراق كتب المذهب المالكي بعد أن جردها مما فيها من حديث وآيات من القرآن الكريم ، بحيث أحرقت منها جملة في سائر البلاد ، كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن زيد، ومختصره، كتاب التهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب(398) وقد شاهد عبد الواحد المراكشي نفسه إحراقها بالأحمال في مدينة فاس (399) كما أمر بعدم الاشتغال بعلم الرأي أو الخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة، ثم أمر جماعة ممن كانوا عنده من العلماء المحدثين، بجمع أحاديث من المصنفات العشرة، الصحيحين، والترمذي، والموطأ، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن البزار، وسنن ابن أبي شيبة، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي، وفي الصلاة، وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها ابن تومرت في الطهارة.

ولما تم ما أراد أصبح يمليه بنفسه على الناس، ويأخذهم بحفظه بعدما أطلق عليه اسم « موطأ الإمام المهدي» (400)وقد ذاع وانتشر حفظه بين الناس بدافع ما كانت الدولة تقدمه من عطاء لكل من يحفظه وقد كانت غاية يعقوب بن يوسف بعمله هذا إزالة مذهب مالك من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهو القصد الذي كان يهدف إليه والده يوسف وجده عبد المومن بن علي كما أخبر أبو بكر بن الجد، يقول صاحب المعجب (401) وإن كنا بقليل من التحليل والاستنتاج نستطيع أن نؤكد أن يعقوب انتهى أخيرا إلى إزدراء « فكرة المهدي المعصوم» كما صرح بذلك إدريس المامون في منشور له كما سنرى، وحتى لا يدخل في صراع مع القوم وهو في حروب مستمرة تارة مع الأعراب، وبني غانية، وغيرهم، وتارة مع الأسبان وجموعهم، لم يصرح بذلك، ولو أنه فعل لكان أول من يسانده في الثورة على ذلك هم أهل الأندلس، إلا أن النتيجة لا

---

(398) أشرنا إلى وجود بعض الواضحة وكذلك التهذيب للبرادعي في خزانتنا الخاصة .

(399) المصدر السابق 278. 285.

(400) راجع الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن للدكتور عبد الله علي علام 310 ط دار المعارف مصر 1971.

(401) ص 279.

تكون لصالح الدولة سياسيا، ومادامت قبائل مصمودة وغيرها من القبائل «البربرية» لاتزال غارقة في النهر الذي أجراه ابن تومرت، ولذلك أيضا نجد أن يعقوب المنصور حين قرر ترحيل قبائل الأعراب من شرق تونس لم يقف بها إلا بالغرب من مراكش المدينة، وذلك حتى تؤثر هي بفكرتها التي لا تقبل ما قيل في حق المهدي، وما أدخل على الدين والعقيدة بسبب ذلك ، لكنها لم تؤثر لأنها كانت إلى البداوة والفوضى أقرب.

من هذا يفهم ما كان عليه يعقوب من إيمان وعقيدة، بل وسلوك إلى جانب عبقريته الحربية.

الفصل الثالث والسبعون

انطلاقة يعقوب بعد معركة الأرك

كان يعقوب بن يوسف على سنن سلفه في التمسك بالدين، قوي الإرادة ميالا إلى الإصلاح، كل أيامه فتح وتمهيد، قضى على الخارج ابن غانية في شرق البلاد، وطهر الجيوب التي كانت باقية من أثر الفتن في عهد سلفه، وإذا ما انتهى به عمله إلى نصر بلاحق نصرا، فإن طلبه ألفونس الثامن صاحب طليطلة طلبه بالصلح فاستجاب بعقد دام مدة خمس سنوات اتخذها ألفونس وسيلة للإستعداد وجمع الجند(402) قصد أخذ الثأر، لكنه سيتعرض إلى أمر انهزام وأفسد فضيحة.

تأزمت الحالة بين ألفونس ويعقوب بعدما حرر مدينة شلب التي احتلها ابن الرنق، صاحب قلمرية وما إليها من غرب الأندلس الذي دخلها يوم 20 رجب سنة 585هـ يقول الحميري، الأمر الذي دفع بيعقوب إلى تجهيز حملة إلى الأندلس التي انتقل إليها بعد استنفار من الرباط في أخريات المحرم عام 586هـ / 1190م، حتى إذا نزل في جزيرة طريف في غرة ربيع الآخر، ثم سار إلى قرطبة، ومنها إلي إشبيلية ثم قصر أبي دانس الذي حمل أهله إلى مراكش، ومنه إلي حصن بلماله الذي سلمه أهله بعد أمان، ولما تخلوا عنه هدمه، ثم انتقل إلى حصن المعدن الذي فعل به مثله، ومنه انتقل إلى شلب فوصلها في ثاني جمادى الآخرة سنة 587هـ /1191م، ويقول الحميري أيضا : "فأحدقت الجيوش بها وأخذت بمخنقها ونصب عليها المجانيق وآلات الحرب، وجدوا في قتالها، وبالغوا في النكاية بأهلها فطلبوا الأمان في أنفسهم على أن يسلموا المدينة ويخرجوا إلى بلادهم، فأجيبوا إلى ذلك وخرجوا منها في السادس والعشرين من جمادى

---

(402) كان يعقوب قد غزا الأندلس غربا في شهر ربيع الأول عام 585هـ، حيث شن الغارة على لشبونة، وحرر بعض المدن، ثم عاد إلى العدوة بثلاثة عشر سفينة من النساء والذرية، فوصل مدينة فاس في آخر شهر رجب .الجذوة 555/2-556.

الآخرة"يقول الحميري في الروض المعطار، وفي سنة 590هـ/ 1193م كانت الأزمة قد بلغت ذروتها، وإذا ما انتهى ألفونس بما تجمع له من جند، وما توفرت له من قوة فإنه بالغ في عدوانه ضد أهل الأندلس أيام مرض يعقوب الذي لم يطل.

كان علي يعقوب أن يجعل حدا لتطاول ألفونس، ولذلك أمر بإعداد العدة من السلاح والجند ليقوم بغزو الأسبان وردع ألفونس، وفي شهر جمادى الثاني من سنة591هـ/ 1194م، خرج من مراكش(403) بعدما نقل الجند والسلاح إلى الأندلس التي نزل فيها بإشبيلية حيث استعرض الجند الذي لم تذكر المصادر العربية عدد أفراده كما أشارت إلى عدد جند ألفونس الذي قالت انه بلغ مائة وخمسة وعشرين ألف(404) بل تزيد ,أنه أتى معه في هذه المعركة بتجار اليهود لشراء أسرى المسلمين كما كان يطمح، ناهيك وأنه عاث في الأندلس حتى انتهى إلى الجزيرة الخضراء دون أن يتصور ما يخبئ له القدر وللقشتاليين معه.

في اليوم الثالث من شهر شعبان سنة 591هـ/ 1195م التقى الفريقان في قتال عنيف يذكر بالزلاقة، دارت فيه الدائرة على ألفونس وقومه، ولم ينج إلا هو في نحو الثلاثين يقول المراكشي(405) وبضع مآت يقول غيره، واستشهد في المعركة أحد وزراء المنصور يعقوب(406) الذي عرف بهذا الإسم لانتصاره في كل المعارك التي كانت خاتمتها هذه المعركة الفاصلة هي الأخرى، وإذا ما استولى يعقوب المنصور على قلعة رباح

---

(403) الجذوة 555/2، والحلل 133، والمعجب 282، راجع أيضا ليوسف اشياخ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج 2/76-91ط القاهرة 1940 ..

(404) يخبرنا يوسف أشياخ في كتابه عن المرابطين والموحدين بالأندلس 2/109-112-124/ط : القاهرة 1940، أن ألفونس استعان بالبابا أنوسان الثالث حتى يوجه ملوك أورباكي ينظموا حملة صليبية في الغرب الاسلامي مثل التي كانت في المشرق الاسلامي، وفعلا عقد ألفونسو مؤتمرا حضره نواب عن ملوك أوربا الذين وعدوا بتقديم العون من جند ومال، وقد بلغ عدد الجنود الذين شاركوا بها حوالي 70.000. ويشير المراكشي في المعجب إلى أن الموحدين اشتد خوفهم من كثرة مارأوا من الجند عندما التقى الجمعان بفحصى الحديد، بل تقول المصادر الغربية إن عدد القتلى كان مائة ألف والأسرى خمسون ألف، ومعنى هذا أن العدد كان أكثر مما ذكرت المصادر العربية، كما قالت المصادر غير العربية أن جيش المنصور كان يتوفر على 50 ألف خباء و80 ألف من الخيالة، و100 ألف من البغال، و400 ألف من الحمير. عن سكوت أكنور: جولات في مغرب أمس ترجمة ع بن جلون ص 130 ط البيضاء1975.

(405) نفس المصدر.

(406) هو أبو يحيى أبو بكر بن عبد الله بن الشيخ أبي حفص.

التي جعل من كنيستها مسجدا صلى فيه المسلمون شكرا لله، كما استولى على الحصون القريبة من طليطلة، بل حاصر طليطلة كذلك ثم رجع إلى إشبيلية التي تلقى فيها التهاني بالفتح والنصر، وقضى يعقوب المنصور ثلاث سنوات تردد فيها على طليطلة التي ألحق بها وبملكها من الذل والإهانة ما جعل ألفونس يطلب المهادنة، وقد كان قبل يبالغ بمراسلاته في التحقير من قوة المنصور(407) بل لولا دافع دفع المنصور إلى قبول الهدنة وهو ما بلغه عن ابن غانية وقراقوش بإفريقية، لأمكنه احتلال طليطلة والقضاء على ملك صاحبها ألفونس الثامن، الذي أوشك على الإستسلام، لكن قبول المنصور لعقد الهدنة مدة عشر سنوات حول الإتجاه وأنقذ ألفونس وعاصمته من الإحتلال المحقق، بل إن المنصور نفسه كان عليه أن يقبل طلب المهزوم، خصوصا وأن يعقوب كان قد قضى ما يقرب من الثلاث سنوات بعيدا عن عاصمة ملكه مراكش، وبمجرد إتمام العقد عاد إليها في شهر شعبان سنة 594هـ 1197م وغار النصر على جبينه، وقبل العودة دشن بناء منار اشبيلية التي كان والده قد بدأ بناءها في السنة التي توفي فيها، وفي المغرب كان قبل مغادرته أمر بتشييد أختيها صومعة الكتبيين بمراكش، وصومعة حسان بالرباط، كما أمر ببناء حصن الفرج على وادي إشبيلية وغير ذلك من العمران كما سنرى، مع العلم أن جل أيامه قضاها في الحروب.

كان يعقوب المنصور بحق وبمن حوله من الرجال أعظم ملوك الموحدين بلغت الدولة في عهده أعلى درجات المجد في كل الجوانب، حيث استتب الأمن والنظام، واتسمت الحضارة في عهده بنوع من التقدم رغم الصراع الحضاري الذي تفاعل في نفس المنصور نفسه نظريا، كما سنرى من موقفه إزاء أبي الوليد، لكنه انتهى إلى اقتناع لم يمهله أجله حتى يمكن له. ورغم ذلك، ففي الجوانب الأخرى عرف عهد المنصور بنوع من التقدم حيث أصبحت معامل إنشاء السفن وقد تطورت أكثر إلى جانب ضخامة عمران القصبة بمدينة مراكش وتنظيم أساليب الري عن طريق الهندسة التي زينها علم الفلاحة، إلى جانب معامل صناعة الورق التي دخلت المغرب من الأندلس إلى سبتة وفاس، ثم

(407) المعجب 283، وكان الأسبان قد استولوا على طليطلة وقونكه، فاستعادوا منهم غيرها مثل باجة، وشلب، ويابرة وقلعة رباح وشلبطرة وغيرها.

مدينة الرباط التي هي من إنشائه لأنها لم يكن بها قبل غير حصن صغير، وقليل من آثار المرابطين، ولربما كان يريد أن يجعلها من أكبر مدن المغرب كما تنبئنا ضخامة الجامع الذي يعرف بجامع حسان، الذي لم يتم بناؤه، وفي عهده بنيت أسوار جل المدن القديمة، من طرابلس شرقا إلي مراكش غربا، وكذلك في كثير من مدن الأندلس مثل بوابة طليطلة، وسور إشبيلية وبرجها الذهبي، وقلعة وادي إبره التي تحرس الطريق إلى إشبيلية، كما عرفت مدن الشمال الإفريقي نهضة بقي أثرها في مجال العمران الى عهدنا الذي نحياه، بعد ثمانية قرون مضت منذ عهد المنصور، ورغم تعاقب الدول وإهمال ملوكها لآثار السابقين، بل تدميرها أحيانا عن قصد وبدافع السفه وتنازع البقاء، بل في عهد المنصور الموحدي أصبح الأسطول المغربي أعظم أسطول يتحكم في حوض الأبيض المتوسط، مما فرض هيبة الدولة واحترامها على الدول القريبة والبعيدة، وبه أصبح مجال المغرب أوسع في ميدان التجارة مع الدول القريبة والبعيدة، فكانت مراكش، وفاس، وسبتة، وتلمسان، ووهران، وبجاية، وقسنطينة، وتونس، وقابس، وطرابلس، تتبادل أنواع السلع وتتاجر مع بيزا، وجينوة، والبندقية، ومرسيلية، وغيرها، ونظمت في عهد المنصور أساليب التبادل التجاري بشكل لم يعرف قبل، أفادت منه أوروبا كما يشهد تاريخها، بل عرف عهد المنصور ما كان بحق المنطلق للحضارة الجديدة في حوض الأبيض المتوسط، سواء في العلاقات البشرية أو التقدم، وتفتح الفكر المغربي، بل كان حسب ظروف الآخرين وما كانوا عليه هو رأس الحضارة، كالتي تعرف اليوم ب"التيكنولوجيا"، إذ في عهد جده عرفت المقصورة المتحركة التي تسع ألف شخص بهندسة لم يكن الفكر البشري يهضمها وقتذاك، والتي صنعها المهندس المغربي سواء كان ابن باسه، أو بزار بن محمد أو ابن يعيش، والتي كانت تبرز إذا فتح الباب الخاص بدخول المنصور إلى الجامع الكبير بمدينة مراكش، ثم تختفي حين يغلق(408)كما شيد المستشفى المعروف بـ "المارستان" المعروف بوصفه في التاريخ بمدينة مراكش(409) الذي أجرى عليه 30دينارا ذهبا في اليوم، ثم وظف فيه من الأطباء والصيادلة خير ما كان وقتها، ثم جعل لمرضاه ثيابا خاصة بالليل، وأخرى بالنهار، وكذا

(408) راجع المصادر المشار إليها قبل (ت390)، والزياني في الترجمان المعرب م م 190، وقد وصفها إبن مجبر الحميري بقصيدة، أوردتها المصادر، القرطاس والحلل 120

(409) راجع الفن الإسلامي لجورج مارسيه ط دمشق 1968 ص 209-233-273-290، راجع أيضا الفن الإسلامي لارنست كونل ط بيروت 1966ص 122-134 ، وحضارة العرب لجوستاف لوبون ط 1956ص 243-262.

ثياب الصيف وثياب الشتاء، والذي كان يسير بنظام تقصر عنه وقتها مستشفيات دول كثيرة من الدول المتحضرة طبعا، بل يعقوب المنصور هو صاحب المدينة الحمراء بغرناطة، والتي هي إلي جانب مدينة ابن الأحمر، كما شيد من الجوامع والمساجد، والقصور، والقناطر، والمعاقل، والفنادق، ثم زاد في مدينة مراكش مايحفظ له التاريخ رغم تطاول الأيام، وعامل الجهل الذي هدم منها الكثير، بحيث أنه جر لها الماء من عشرين "كلم" بواسطة آبار يتصل بعضها ببعض جوفا، إلى أن يخرج على وجه الأرض والذي أخرجه في عهد يعقوب عبد الله بن يونس المهندس، وإن كان عمل كهذا سبقه إليه يوسف بن تاشفين الذي استعمل الأسرى الأوربيين والإسبان في ذلك، وقد كان المنصور أكثر من كل الذين سبقوه اهتماما باستقرار الشعب وعدم إحداث الفوارق بين طبقاته، لكن الظروف كذلك لم تمهله حتى يحقق الإستقرار الذي خطط له بين عناصر البربر والعرب، حين عمل على امتزاج العنصرين دمويا بشكل لم يسبق إليه، فهو بعد جده عبد المومن الذي نقل قبائل العرب إلى حيث تعرف حتى اليوم في الأغلب مثل : هلال، وسفيان، بني مالك، والخلط، وطليق، وأهل دكالة، وبني جابر أهل تادلا، وأولاد بوريگ بالشاوية، والشياظمة، وعكارة، وبني عمير، وكلهم مضرية يقول الزياني :(411) وهؤلاء شوكة العرب بافريقية نقلهم لغاية سياسة، منها التمكين لدولته وتعزيز سلطانه، ولم يبق في إفريقية من أمثالهم إلا دريد، والدواودة، من بني سليم بن منصور، ولما خرجوا استقرت البلاد.

لقد كان عبد المومن وخلفه يوسف رجلا دين وخلق، لكن يعقوب كان في هذا المجال أقوى من سلفيه، فهو الذي قهر خصوم الإسلام بالأندلس بعدما سيطر على حوض الأبيض المتوسط بدافع الرغبة في الجهاد، ولولا شدته وتمسكه القوي بروح التمكين للإسلام وما يحتاجه ذلك من قوة وعتاد، لما أمكنه أن يمكن للأسطول حتى أصبح صاحب السلطة العليا في المنطقة، وأن تعرف منطقة حكمه على اتساعها وتنوع أجناسها استقرارا وازدهارا دام مدة حياته.

---

(410) المعجب 284، والمنوني «العلوم والآداب والفنون» 126- 132/ط 2ـ1977م.

(411) الترجمان المعرب م خ293، ولعل الزياني في هذا الموضوع قد عاد إلي مسالة ابن خلدون حين هاجم فكرته ضد العرب بحيث فعل الزياني بهؤلاء الواردين من برقة، والذين استوردهم الموحدون ما فعل بهم وبمن قبلهم ابن خلدون حين استوردهم الفاطميون زمن المعز وكانوا سببا في خراب إفريقية والقيروان راجع العبر ج 6. ثم راجع تعليق 439 الجزء الأول .

الفصل الرابع والسبعون

المنصور وصلاح الدين الأيوبي محرر القدس
وابن رشد محرر الفكر

كان يعقوب المنصور معاصرا للملك صلاح الدين يوسف الأيوبي أول ملوك الدولة الأيوبية التي حكمت مصر مدة واحد وثمانين سنة، وأصل ملوكها الثمانية الذين حكموا مصر من الأكراد الذين كانوا في خدمة نور الدين زنكى ملك الشام، الذي أرسلهم إلى مصر لما استغاث به العاضد(412)، وكان قائدهم أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين الذي كانت ولايته على مصر سنة 567هـ/ 1171م، وكان سنيا ضد التشيع، حسن الأخلاق، صبورا على الشدائد، له فتوحات كثيرة، إنتصر على الصلبيين وعرف بالعدل والدين وكثرة العمارة وعدم الطغيان، كما عرف إلى جانبه القاضي الفاضل صاحب القلم البارع، وتوفي صلاح الدين بقلعة دمشق عن عمر لم يتجاوز السابعة والخمسين بعد حكم دام مدة إثنين وعشرين سنة ودفن رحمه الله شمال الجامع الأموي بدمشق.

صلاح الدين يوسف الأيوبي هذا يقول بعضهم هو الذي أوقف تيار الموحدين الذي كان متجها نحو الشرق ومصر التي كان يعقوب يقول: "نحن مطهروها إن شاء الله"، وقد كان الموحدون يطمحون لحكم ما كان تحت نفوذ العباسيين الذين زال ملكهم بعد سنة656هـ، ذلك لأن المعارضة السياسية ضد العباسيين والفاطميين كانت تستغل الدعاية

---

(412) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي جلال الدين 410ط دار الفكر 1974، ومحاسن السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك، لمحمود بك غنيم ص 200 ط القاهرة 1938، بل تقول رواية الأنجليز كذلك إن ملك الأنجليزي «جون» أرسل بعثة دبلوماسية بريطانية إلى المنصور يستنجد به بعد ان تفاقم نفوذ نبلاء قومه وهي أول بعثة دبلوماسية بريطانية إلى المغرب في أوائل القرن الثالث عشر، ويقال أنه تعهد بإعتناق الديانة الإسلامية إذا أنجده المنصور، وتلك هي رواية الآنسة مكنب، راجع جولات في مغرب الأمس ترجمة عبد المجيد بن جلون ص 54 – 55 ط النجاح نشر مكتبة المعارف بدون تاريخ.

لصالح الموحدين في مصر وبلاد المشرق المضطرب وقتها، لكن شيركوه الذي دخل مصر بجيوشه سنة 564هـ/ 1168م، والذي حررها من الصليبيين، ثم قضى على ما تبقى للفاطميين، ودعى للمستضئ العباسي ضد العاضد الفاطمي الذي كان على فراش الموت يلتقط أنفاسه، غير الاتجاه الذي حوره صلاح الدين في مصر للأيوبيين الذين حرروا بيت المقدس، وصلاح الدين هذا أيضا هو الذي وجه رسوله عبد الرحمن بن منقذ إلى يعقوب المنصور يطلب منه مساعدة الأسطول المغربي بقطع الطريق على قوات الصلبيين التي كانت تتجه نحو الشرق، وهو الموضوع الذي حلل بعضهم موقف يعقوب حوله بما يتفق والأهداف المقصودة من الذين سخروا أقلامهم لتشويه تاريخ المغرب، وتاريخ عظمائه، حيث استعملوا فكرة "الخلافة" والتطاحن حولها كعامل تفريق بين المسلمين في المشرق والمغرب، حول أقدس مكان كان مستهدفا لحرب الصلبيين الذين اتحدوا رغم عدم وجود العامل الذي يتوفر عليه المسلمون نحو بيت المقدس، وأول القبلتين، ورغم كل ما عرفه الموضوع فإننا نقول : إن الموحدين لم يكونوا يطمحون إلي حكم بلاد الإسلام بإسم «الخلافة الإسلامية» التي لها "شروطها" المعروفة، والتي فصلناها في ما سبق،(413) بل والتي لا يتوفر الموحدون على بعضها الذي هو الأساس خصوصا وأنهم لا يقولون بفكرة الخوارج، بل نقول للقوم الذين قالوا إن يعقوب المنصور لم يستجب لأن صلاح الدين لم يخاطبه بأمير المؤمنين(414) في حين أن صلاح الدين الذي حرر بيت المقدس سنة 583هـ/1187م(415) لم يكن يعقوب المنصور وقتها وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، قد مضى عليه في الملك سوى ثلاث سنوات. بل إن يعقوب المنصور بحربه للقشتاليين كان في المغرب يقوم بنفس الدور الذي كان يقوم به صلاح الدين في المشرق وهو محاربة الصليبيين أعداء الاسلام، ولولا أنه ضيق الخناق على المسيحيين، فلماذا كان إجماعهم

---

(413) راجع موضوع المذاهب التي ظهرت في المغرب قبل.

(414) بل إن السيوطي يقول في تاريخ الخلفاء عن سنة 580هـ أنه خطب للناصر بمعظم بلاد المغرب ص418، وهو ما لم يسجله تاريخ المغاربة، مع أن الدعوة للعباسيين على منابر المغرب كانت في عهد المرابطين وكبيرهم يوسف بن تاشفين، ولم تعرف في عهد الموحدين كما كانت الدعوة للناصر بن قلاوون من طرف الحفصيين حين انتصر لابن زكريا يحيى ضد أبي البقاء خالد من سنة 711 إلى 717هـ= 1311-1317.

(415) وهذا التاريخ هو الذي استخرجه إبن برجان من حساب الاية في تفسيره لقوله تعالى "آلم غلبت الروم"؟

بعد موته واتفاقهم بتوجيه من الكنيسة كما سنرى على محاربة ولده محمد الناصر في حرب العقاب؟

إن فكرة مؤاخذة صلاح الدين، وأبو الوليد ابن رشد 520-595هـ 1126-1198م الذي قيل عنه هو الآخر أنه نعت يعقوب المنصور بملك البربر، والتي استوجبت في نظر بعض المؤرخين ما حل بابن رشد، لهما موضوعان يحتاجان إلى مراجعة وتحليل غير الذي ذهب إليه المستشرقون واقتدى بهم المقتدون، ولم يتنبهوا أو ربما لم يريدوا أن ينتبهوا إلى أن ما حصل لابن رشد مصدره حساده من جانب، وبعض مرضى النفوس أشياخ الموحدين المتزمتين من جانب آخر، وكم لمثله من شبيه في حياة الذين يتقربون من الملوك في كل زمان ومكان .

إن يعقوب المنصور صاحب الذوق الرفيع في كل المجالات، بل المتدين المستمسك بلا تصنع ولا تملق للجماهير، ولا افتراء على الدين وعلماء الدين، بل هو الذي كرم العلماء وبالغ في تكريمهم اقتداء بسلفه، بل يعقوب الذي ورث عن أبيه وجده تكريم، ابن زهر، وابن باجه وابن طفيل، وابن رشد، بل العالم الذي أثبت التاريخ هيامه بالمعرفة، ينقلب ويلحق بابن رشد ما سجل التاريخ من نكبة أعظم مفكري الإسلام ولأتفه الأسباب؟ وبعدما أصبح ابن رشد في عهد يعقوب له سلطان على العقول والأفكار، لا رأي إلا رأيه ولا قول إلا قوله مجرد قوله في شرحه لكتاب «الحيوان» عن الزرافة إنه رآها عند "ملك البربر" وهي الكلمة الحشو التي قيل انها وجدت مكتوبة بخطه الذي قدمه إلى المنصور حساد ابن رشد من أشباه الفقهاء الذين عرفوا بالأشياخ مسايرة للموتورين فهم بسفك دمه لولا وجود صديق لابن رشد هو أبو عبد الله الأصولي الذي قال : وقد جرى في مجلس المنصور منع العمل بالشهادة على الحق : منعت الشهادة علي الحق في الدينار والدرهم، ويجيزونها في قتل المسلم، ثم قال أيضا إن ابن رشد كتب ورأيت الزرافة عند "ملك البرين" بر الأندلس، وبر المغرب، فاستحسن ذلك في الوقت وأسرها المنصور في نفسه، هذا ما رواه الأنصاري الذي علل هو الآخر كما علل غيره أن من أسباب نقمة المنصور ميل ابن رشد الكبير لأبي يحيى أخو المنصور(416) بل إن ما أورده المراكشي

(416) إبن رشد وفلسفته 15-16 .

وغيره حول فكرة "تأليه "الزهرة" ونفي وجود قوم عاد مما «يعتبر» مروقا، ليعتبر في نظرنا فضلا عن نظر المنصور زعم باطل في حق ابن رشد الذي لم يجف قلمه من الاستدلال القوي على الوحدانية وكل ما كتب في كتابه الذي لم يعرف لدى الباحثين بعد وهو "كفاية المقتصد"(417) بل الذي ألفه إثر انتصار أحد الإثنين يوسف أو يعقوب، وباقتراح من الوزير الذي سماه أبو الفضل رضوان وهو الكاتب الخاص للمنصور كما سبق، بل إن يعقوب الذي نقم على ابن رشد تأثر بما في هذا الكتاب حول الإمامة، والعصمة وما إلى ذلك، ولسوف يكشف لنا عن هذا التأثر ادريس المأمون الموحدي الذي سيصرح بنبذ فكرة المهدوية، والعصمة كما سنرى حين ثورة المامون، واستعانته بألفونصو، وبالتالي مجازره، وقضاؤه على الأشياخ،..من الموحدين عظمة في ظرف ثمانية أعوام من حكمه. بل إن يعقوب الذي لم يفعل مع أحد من التكريم ما فعله مع ابن رشد الذي استدعاه يوم خروجه من قرطبة لحرب ألفونس بالأندلس ليودعه عام 591هـ/ 1195م كما ذكر ابن أصيبعة نقلا عن القاضي أبو مروان الباجي.(418) سينقلب عليه انقلابا جر على المنصور من النقمة التاريخية الكثير من النعوت.

إن المحاكمة التي أشار إليها بعض المؤرخين والتي حوكم فيها إبن رشد، والمنشور الذي كتبه أبو عبد الله بن عياش، ثم وزع في ربوع المملكة ضد الفلسفة لا يكشفان لنا الحقيقة التي من أجلها نكب ابن رشد، بل..إن إبن رشد حين أبعد إلى أليسانة موطن اليهود قيل من خصومه وهم الفقهاء مع الأشياخ إنه أبعد إلى أبناء جلدته، بل قيل إنه فر إلى فاس، وفيها تعرض لاضطهاد العامةالذين قيدوه إلخ ما لفق حول ابن رشد من مفتريات.

إن الذين دبروا المكيدة ضد إبن رشد كانوا من خصوم الفكر العلمي عموما، والإسلامي بالأخص، إنهم الفقهاء الذين تواطأ معهم دعاة الشر ضد أعظم رجل في تاريخ العلم بالغرب الإسلامي والأندلس، لأنه عند ما ظهر إبن رشد بما ظهر به من أفكار رفعت من شأنه في قرطبة خصوصا، والأندلس والمغرب عموما، وقتها كانت أوربا يقول

(417) مخطوط خزانتنا وتاريخ نسخه 610هـ.

(418) إبن رشد وفلسفته ص 15 مصدر سابق.

صاحب قطف الزهور في تاريخ الدهور(419) عن الأفرنج إنهم "لم يكن منهم من يعرف ما في الحروف الهجائية، حتى ولا أشرافهم أيضا ، وهذا بقدر ما رفع صوت ابن رشد، ومكانته، زاد من عداوة الفقهاء له مع الأشياخ.

لقد كان إنتاج إبن رشد متنوعا ونافعا إعترف به المنصور واعتز به، وبعد لماذا نقم عليه بتلك الشراسة، بل وضم إليه في نكبته القاضي أبو عبد الله بن إبراهيم الأصولي يوم المحاكمة بالجامع الأعظم بقرطبة، حيث لم نعرف ما قيل في حقه هو الآخر بتفصيل، وأبو جعفر الذهبي، ومحمد بن إبراهيم قاضي بجاية، وأبو الربيع الكفيف، وأبو العباس الشاعر، هؤلاء جميعا، ما هو إنتاجهم؟ ما دوافع نكبتهم؟، أهي الفلسفة التي قيل إن المنصور أمر بإحراق كتبها لتلصق به هذه التهمة، حتى لا يذكر كبير الأساقفة إكريمنيس الإسباني الذي أحرق ثمانين ألف كتاب عربي؟(420). إن ما قيل عن إحراق يعقوب لكتب الفلسفة، بل الكتب دون ذكر الفلسفة، ما عدا كتب"الطب والحساب والمواقيت" في الوقت الذي كان يوسف يدرس الفلسفة(421) هو من زعم الاسبان، وإلا كيف عاد بعد للعفو عن ابن رشد ثم استدعاه من الأندلس إلى مراكش والشمس على أطراف المغيب، لكنه وقد أشرف على الثمانين ما وصل مراكش حتى لاحقه مرض الموت فتوفي بها يرحمه الله ليلة الخميس 9 صفر 595هـ / 1198/12/10م، ودفن بمقبرة باب تاغزوت خارج مراكش، ولمدة ثلاثة أشهر نقل جثمانه بعدها إلى قرطبة، حيث دفن في روضة سلفه إلى جانب والده القاضي أحمد بن رشد وجده القاضي محمد بن رشد 450–520هـ/ 1058–1126م بمقبرة أبي عياش، وبذلك استراح خصوم المعرفة الذين سجل التاريخ في حقهم الخزي، كما سجل في حق ابن رشد أنه بحق خير من كتب في مختلف العلوم، وفي الدلالة على صدق رسالة الاسلام حيث جمع في منهجه بين العقل والشرع، ويكفي للدلالة على ذلك ما ورد في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة».

كل ما سبق في حق ابن رشد لا يعتبر ضد قائله فحسب، بل هو من قبل ما قاله الغربيون في حق أولاد ابن رشد ما عدا أبو محمد عبد الله الذي كان طبيبا لمحمد

---

(419) يوحنا أفندى أبكاريوس ص 408 ط بيروت 1873.

(420) حضارة العرب لجوستاف لوبون 274 ط القاهرة 1956.

(421) المعجب 306 وابن رشد وفلسفته 20 ط 1903 مصدر سابق.

الناصر بن يعقوب، أما غيره فقد قيل في حقهم أنهم لجأوا بعد موت أبيهم إلى بلاد ألمانيا(422) إن المنصور الذي كان يؤم الناس في صلواتهم الخمس، ويعقد المجالس للمتقاضين، والذي احتفظ بنزاهة القاضي ابن بقى رغم معارضة الحاشية، المنصور هذا الذي لم يكن للمغرب منه إثنان، ولذلك أرجح أنه هو الآخر تعرض تاريخه الذي لم نتعرف عليه من مصادر موثقة أكثر، إلا من عبد الواحد المراكشي المعاصر والذي لم يكن بالقدر الكافي، لأنه كتب تاريخه في أرض الغربة (بغداد)(423)، ويعقوب المنصور هذا في نظرنا تعرض تاريخه لخبث وكيد مسلمة اليهود وأعلاج النصارى الذين أصبحوا لاهم من هؤلاء، ولا من أولئك والذين دسوا له ولغيره الدسائس الخفية كما عبر المراكشي(424) الذي تطرق لمحنة أبي الوليد بعد كلامه على وضعية اليهود في عهد يعقوب المنصور،(425) والذين أسلم الكثير منهم خديعة ومكرا بعدما رأوا قوة الإسلام، وقد أصبحت قاهرة للقشتاليين الذين كانوا لا يعرفون مع اليهود غير القتل والتنكيل كرد فعل لما كانوا يمكرون في الخلفاء، وحتى الذين أسلموا لم يكن يعقوب المنصور يؤمن بإسلامهم لأنهم ساهموا في الفتن التي كانت تحصل بين المسلمين والقشتاليين، وابن رشد الجد هو الذي جاز البحر سنة 520هـ/1126م إلى المغرب ليقدم النصح إلى عبد المومن بأن ينقل بعض المسيحيين من أسبانيا إلى شاطئ إفريقية لأنهم كانوا يساعدون ألفونس المحارب الذي يغير على الأندلس المرة بعد المرة، ويمهدون السبيل في وجهه، فسر السلطان عبد المومن بنصيحته ونقل ألوفا من نصارى الأندلس الأصليين إلى شواطئ طرابلس،(426) ومثلهم فعل باليهود الذين فرض عليهم لباسا خاصا عبارة عن "ثياب كحيلة وأكمام مفرطة السعة، تصل إلى قريب من أقدامهم، وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة، كأنها البرادع تبلغ إلى تحت آذانهم، فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب، ولم يزالوا كذلك

(422) ابن رشد وفلسفته 23 مصدر سابق.

(423) راجع نفس المرجع (المعجب للمراكشي).

(424) المعجب 305 .

(425) المصدر السابق 304 لكن رغم ذلك فالحقيقة لم ولن تضيع فقد قيض الله لفلسفة إبن رشد من حمل الراية للدفاع عنها، وأنها لا تخالف الدين، فكان ذلك على تلامذته أمثال : محمد بن حوط الله، وأبو الحسن سهل بن مالك، وأبو الربيع بن سالم، وأبو بكر بن جهور، وأبو القاسم بن الطيلسان، راجع إبن رشد وفلسفته ص23ط1903.

(426) ابن رشد وفلسفته9.

بقية أيام - يعقوب - وصدرا من أيام ابنه أبي عبد الله الذي غيره بعدما توسلوا إليه بكل وسيلة.. فأمرهم بلباس ثياب صفر وعمائم صفر(427) بل إن الذين أسلموا منهم كان لهم مثل هذا اللباس قصد التمييز، ولما لوحظ على يعقوب تمسكه بتمييزهم قال : لوصح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين، ولكني متردد في أمرهم(428) بل يقول المراكشي عن اليهود والنصارى في عهد المصامدة :

"ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة، وإنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد ويقرؤون أولادهم القرآن، جارين على ملتنا وسنتنا، والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم"(429) وإذا ماعرفت جموعهم المدن الكبيرة بالمغرب وشمال إفريقية، مثل فاس، ومراكش، وتلمسان، وتونس، فإنهم اندمجوا في مجتمعات المدن المذكورة اندماجا لم يعد لأصولهم معه ظهور في تلك المجتمعات خصوص تلك التي حكمت بعد بآل عثمان الذين كان حقدهم عليهم شديدا، خلافا للمغرب الذي تساهل ملوكه معهم حتى أصبح منهم الأمناء والوزراء كما سنرى على عهد الوطاسيين، ولما عرف المغرب منهم طوائف أخرى وقت سقوط الأندلس 898هـ/1492م ثم 1017هـ/1608م وظهر من خبثهم وما ينطوون عليه من مكر، تحولت معاملة المجتمع لهم فعرفوا بالبلديين(430) الذين لاقوا من مجتمع ناس الكثير من المتاعب، فأخذوا بعدها يبدلون أسماءهم الأصلية إلى فاسي واشبيلي وغرناطي(431)وغيرها هؤلاء مسلمة اليهود وأعلاج النصارى كان لهم ضلع في نكبة ابن

---

(427) المعجب 304- 305 مصدر سابق.

(428) المصدر السابق.

(429) المصدر السابق.

(430) راجع كتابنا التاريخ المفتري عليه في المغرب ط الرباط1969 .

(431) أصل كلمة غرنيط، غرنوط تحولت إلى غرنيق ثم غرنيط وهو إسم للكرنكي يقول عبد الواحد المراكشي رفصة ثابهم المعتزل فيه والتي حكم فيها ابن رشد وذكرها المراكشي ص 303 ط 1949 تدل على الاثر الذي كان لهم في فساد المجتمع، أما عن مدى حرص المغاربة على تقرير العهد لأهل الذمة ولو خارج المغرب راجع العبر ج 5/894-95.

رشد، والإساءة إلى يعقوب المنصور بنقمتهم على دولة الموحدين بعده ثم مساهمتهم الفعالة في تمزيقها والقضاء على سلطانها انتقاما، وكما سنرى ذلك في حياة دول المغرب عندما ينتهي مالها إلى الضعف والتفكك والإنحلال.

لقد قيل إن الفلسفة كانت السبب في نكبة أبي الوليد، أولم يكن أبو الوليد قد قضى في العمل الفلسفي ترجمة وتأليفا ونقاشاحتى مع والد يعقوب نفسه أكثر من ثلاثين سنة، منذ تعرف على عبد المومن حين رحل إلى المغرب 548هـ/ 1153م حتى يقال إن شرحه لفلسفة أرسطو خصوصا كتاب الحيوان إلى أخر ما أورده المراكشي في المعجب هي التي جرت عليه ما عرف من متاعب شيء فيه نظر.

لقد كان عبد المومن بن علي جد يعقوب من المتمسكين بل المتشددين أكثر فيما يتعلق بالعقيدة المهدوية وما أضيف إليها من "العصمة" التي فندها ابن رشد في كتابه "كفاية المقتصد"(432) بل في عهد عبد المومن وخلفه يوسف عرف بلاط الموحدين الذين عرفوا ما جره اضطهاد العلماء على المرابطين، أكبر فلاسفة الأندلس وقتها، وكأنهم بذلك يظهرون التحدي ضد المرابطين الذين أحرقوا كتب العلم والفلسفة، بل اضطهدوا العلماء والفلاسفة، عرف بلاط الموحدين على عهد عبد المومن: ابن زهر، وابن باجة وابن طفيل، ثم ابن رشد، الذي كان وقتها في شرخ الشباب(433) ولما يكمل العقد الثالث من العمر، ومع ذلك فقد رشحه ابن طفيل لشرح كتب أرسطو بعد ترجمتها زمن يوسف والد يعقوب الذي قرب إليه إبن رشد، حتى كان هذا الأخير يخاطبه بقوله : ياأخي؟ وفي هذا الجو لا شك شب وترعرع يعقوب بن يوسف الملقب بالمنصور، فكيف تنكر لمن كان عند والده له، بمنزلة الأخ؟

إن من قرأ كتاب كفاية المقتصد، وما أورده فيه ابن رشد حول المهدوية، والعصمة ربما يدرك أن السبب أيضا غيرما أورده المراكشي خصوصا وأننا نجد أن ابن رشد لم ينكب وحده، وإنما كان معه جماعة منهم الذهبي أبو جعفر، وقاضي بجاية محمد بن

---

(432) مخطوط خ نا ويخبرنا إدريس المامون بعد أن جده المنصور كان يعتزم إسقاط المهدوية وإعلان بطلانها، راجع الحلل 137-138 .

(433) راجع ابن رشد وفلسفته لفرح أنطوان ص22 ط 1903.

إبراهيم المهدي، وأبو الربيع الكفيف إلى آخر ما أورده ابن أبي أصيبعة حول «الفضلاء الأعيان» والذين ربما أصبح لهم رأي في عصمة المهدي مما لا يتفق وعقيدة الاتباع الذين في هذه المرحلة كان لهم تأثير على المنصور.

وإذا كانت تلك نزوات الملوك كلما تعرضوا لنزغات الشيطان في لحظات الغرور والجبروت بدافع التضليل من المفلسين والمتملقين ورفقاء الرذيلة، فإن المنصور لما نضج عاد فتنادم على ما حصل منه نحو أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد كما أشرنا قبل، رحم الله الجميع، لكن ابن رشد لم يتمتع بعد العفو إلا قليلا، كما لم يتمتع المنصور بعد بالملك هو الآخر إلا قليلا كذلك، فتوفي المنصور المأسوف عليه رحمه الله بمنزله بمراكش يقول الزياني في صدرِ سنة 595هـ/1198م ثم دفن بتينمل(434) وفي نفس السنة توفي المفكر العظيم ابن رشد رحمه الله ورحم معه المنصور برحمته التي وسعت كل شيء، وحول انتاج ابن رشد راجع الفصل 71 قبل، بعنوان «المغرب في عهد يوسف بن عبد المؤمن بين الاستقرار والازدهار».

راجع الفصل 77 بعد حيث المنشور الذي وزعه المأمون وفيه مضمون ما ورد في كفاية المقتصد لابن رشد حول المهدوية والعصمة المزعومة لابن تومرت.

---

(434) راجع ما قيل حول المنصور مما رواه ابن خلكان، وفيه دلالة على ما كان المشارقة يتأثرون به من خرافات حول تاريخ المغرب، ثم راجع المعجب 284 ت2، وفيه أنه زهد في الملك ورحل إلى أن توفي متصوفا في فلسطين إلى غير ذلك من الاختلاقات التي ربما كان السبب فيها هو قصد الاساءة للمنصور ممن أشرنا إليهم، ومن أشياخ الموحدين أنفسهم، لأن المنصور رفع الستارعن المعارف التي كشفت مزاعم المهدوية التي افتضحت بعد في زمن إدريس المامون كما سنرى.

الفصل الخامس والسبعون

دولة الموحدين والحروب الصليبية في الغرب الإسلامي

كان ليعقوب المنصور من الأولاد نحو الستة عشر(435) لم يختر منهم لولاية العهد سنة 586هـ/1190م غير محمد ابن الرومية زهر، وسنه وقتها لم يتجاوز العشر إلا بأشهر، إذ كان مولده سنة 576هـ/1180م، ومهما يقال عن صاحب هذا المزاج وهذا الاختيار، فإن عظمة المنصور الذي وضع الحد للفسوق والفجور السياسي، سواء بالنسبة لأهله الذين أصبحوا غير قادرين على سياسة الملك، أو الآخرين الذين أصبحوا مجردين من كل قوة وسلطان بالأندلس وغيرها، هؤلاء وأولئك وجدوا الفرصة مواتية ليتولى الطفل حتى يخلو لهم الجو، ورغم أجمل الصفات التي كان يتحلى بها محمد الناصر بن المنصور، فإنه لم يكن وهو ابن التاسعة عشرة ليقدر على تسيير أكبر دولة عرفها تاريخ المغرب الكبير، من سويقة بني مظعون بحدود مصر، إلى المحيط الأطلسي والأندلس، لذلك ما كاد ينصب حتى أسند منصب الوزارة إلى أخيه إبراهيم مكان أبي زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان وزير أبيه(436) ولم تنتظم إدارته ولو كما فعل سلفه حين الولاية بضم الأحسن للحسن، إلا ما كان من أبي عبد الله بن عياش المذكور من كتاب أبيه، وأبو الحسن بن عياش إبن كاتب عبد المومن، والفزازي أبو عبد الله محمد بن يخلفتن بن أحمد، ومن كتاب الجيش أبو الحجاج يوسف المراني من أهل مدينة شريش بالأندلس، ثم بعد أبو جعفر أحمد بن منيع، وأما منصب القضاء فقد أسنده لقاضي أبيه أبو القاسم أحمد بن محمد بن بقي الفقيه(437)، لكنه عزل سنة 601هـ/1204م، وحل محله محمد بن عبد الله

---

(435) المعجب 262.

(436) نفس المصدر.

(437) نفس المصدر 264-312.

بن طاهر من أهل مدينة فاس، والذي قال المراكشي إنه «يدعى الإنتساب لولد الحسين بن علي بن أبي طالب»(438) تولى بعده موسى بن عيسى بن عمران صديق المراكشي صاحب المعجب.

في ظل هذه الإدارة التي لم تكن منسجمة، تبدلت أحوال المغرب الذي عرف الكثير من الثورات في كل من سوس غربا، وغمارة، وفي إفريقية حيث يحيى بن إسحاق بن غانية، الذي استولى على ميورقة، كما ظهر ثائر آخر هو محمد بن عبد الكريم الرقراقي الذي قاتل الأعراب، ثم وقف في وجه الموحدين وبني غانية، واحتل المهدية كما حاصر مدينة تونس إلى أن قتله يحيى بن غانية عام 598هـ/ 1301م، الأمر الذي مكن ابن غانية من الإستيلاء على تونس، وبالتالي على كل إفريقية، الأمر الذي دفع أسرة محمد المنصور من آل عبد المومن بعد تردد، إلى أن يتجندوا بجانبه حيث تولى قيادة الجيوش عم أبيه ووزيره عبد الرحمن بن عمر، بن عبد المومن، بموازرة عبد الرحمن، بن موسى، وزير أبيه، وأبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص بشروط يقول صاحب العبر 583/6، كما جهز جيشا لغزو روم الأندلس أمر عليه علي بن عمر بن عبد المومن، ومعه أعيان الموحدين، وإذا هو انهزم ما بين بجاية وقسنطينية، فإنه كون جيشا آخر أرسله إلى إفريقية التي أمر عليها عبد الرحمن بن عبد المومن وذلك سنة 597هـ 1200م(439)، ولكن هذا الأخير تعرض لانهزام أمر أدى إلى سجنه، واستيلاء صاحب ميورقة على تونس، مما دفع بالناصر بن المنصور إلى أن يجهز جيشا ضخما سنة 601هـ/ 1204م، حيث قضى مدة ثلاثة أشهر في مدينة فاس هيأ فيها ما أمكنه من الإستعداد لغزو إفريقية برا وبحرا، وأمر على الأسطول محمد أبو العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المومن، وهو الذي سيمزق شمل الموحدين بعد، ويكتب التاريخ في حقه أوسخ صفحة في تاريخ الموحدين، كما أمر علي الجيش عثمان بن عمر من أشياخ الموحدين، وفي هذه المرة كتب النصر لجيوش محمد الناصر بن المنصور بمحض الصدفة، حين تعرض عبد الله بن إسحاق بن غانية لطعنة كردى صادفه وهو في حالة سكر بأحد أبواب المدينة وبجزيرة ميورقة وقد

---

(438) نفس المصدر 312، وقد توفي بالأندلس سنة 608هـ 1211م.

(439) كما ورد في المعجب 313.

كبى به فرسه(440) فضربه بسيفه حتى مات، وبسبب ذلك دخلت جيوش الموحدين الجزيرة في شهر ذي الحجة سنة 599هـ/ 1202م، ورغم هذا الانتصار، فقد ظهر ثانية من بني غانية يحيى الذي استولى على إفريقية، ولم تمنع له إلا قسطنطينة وبجاية، وكان هذا بسبب انشغال أبي عبد الله محمد الناصر بحرب الأندلس، فلما قربت نهايته عام 601هـ/ 1204م جهز جيشا أشرف عليه بنفسه وسار نحو إفريقية، فاستولى على فاس وحاصر المهدية التي تمنعت مدة أربعة أشهر انتهت بتسليم علي بن عبد الله عم يحيى بن غانية في شهر صفر 602هـ/1205م، والذي التجأ إلى الموحدين، كما استسلم أخو يحيى سير بن إسحاق بن محمد، فكانا محل تكريم كعادة الموحدين مع كبار القوم وخاصتهم من الخصوم، لكن ثورة إفريقية رغم ذلك عادت إلى الظهور سنة 604هـ/ 1307م، إلا أنها وإن لم تكن كذي قبل، فقد كلفت الناصر بحكم الموقع وحتى يضع لها حدا أن يكون جهازا عسكريا بإشراف أبي محمد عبد الواحد بن عمر الهنتاتي الذي أصبح المتصرف المطلق في المنطقة، وبذلك أصبحت الدولة الحفصية محققة القيام في قلب الإمبراطورية الموحدية التي بحق لم يكن في مقدور الناصر أن يحكمها كسلفه.

سبقت الإشارة إلى ما تم من أمر أول ملوك الدولة الأيوبية صلاح الدين يوسف الأيوبي الذي حكم مصر من سنة 567 هـ إلى أن مات بقلعة دمشق سنة 589هـ، فتولى بعده العزيز عماد الدين، لمدة ست سنين، توفي بعدها سنة 595هـ /1198م ثم تولى بعده، ابنه المنصور، وهو الثالث من الأيوبيين، وكان سنه ثمان سنين، قام بالأمر مكانه بهاء الدين قراقوش الأسدي الأتابكي وهو "عبد خصي" اختلف عليه الأمراء وكاتبوا عم المنصور الذي هو الملك الأفضل وكان في "صرخد"، فقدم واستولى على زمام الأمور وأراد أخذ دمشق من عمه الملك العادل، لكنه انهزم أمام العادل الذي أعاده إلى «صرخد»، ثم قام بكفالة المنصور إلي أن خلعه سنة 596هـ/ 1199م ثم حبسه بالقلعة في مصر حتى مات وانفرد بالسلطة في مصر والشام، وهو الذي أعاد للدولة هيبتها كما كانت في عهد صلاح الدين، حيث أعاد الفتوحات كما كانت، فاستولى على أثرها وتملك حوران ومعظم بلاد الشام.

---

(440) المصدر السابق 315.

في عهد هذا الملك العادل لم يعد للغرب الأوربي أمل في العودة إلى المشرق، وكانت الهزائم التي لحقت بهم لا يزال صداها يتردد بين جموع الرهبان ورجال الدين الذين كانوا يدفعون الملوك والأمراء إلى أخذ الثأر، وإذا لم يكن من ملوك المشرق فليكن من المسلمين في الغرب الإسلامي، وفي سنة 607هـ/ 1210م عاد ألفونصو8 المعروف ب"النبيل" 550-611هـ /1155-1214م بجزيرة الأندلس إلى سابق عهده، وقد اغتر بما رأى من الثورات على الموحدين في إفريقية، فنقض ما كان مبرما بينه وبين المنصور من عقد الهدنة، مما أدى بأبي عبد الله محمد الناصر، إلى أن يتوجه بجيوشه للأندلس التي دخلها في شهر ذي القعدة من نفس السنة، حيث قصد إشبيلية التي قضى بها بقية السنة، وفي أول سنة 608هـ/ 1211م دخل في حرب مع الأسبان حيث انتصر عليهم بالإستيلاء على شلبترة(441) التي كان المنصور قد حاصرها ثم تركها اشفاقا بما فيها من المسلمين، فكان انتصار أبي عبد الله الناصر عليها سببا في رعب ألفونصو الذي لم يجد وسيلة لمقاومة جيوش الموحدين بغير تحويل المعارك إلى حروب صليبية، إستنجد لها بملوك وشعوب أوربا، كما وجه طلبه إلى البابا أنوسان الثالث في روما ليوجه دعوته بذلك إلى أمم وشعوب أوربا، حيث حمل هذا الطلب جورهار أسقف سقوبية إلى البابا المذكور، كما أرسل رودريك مطران طليطلة إلى فرنسا وما في شرقها من البيرينيه إلى البحر الأسود، وإذا كان الفونصو قد سوى مشكلاته مع ملك نافار، ومع الأنجليز قبل بالمعاهدات التي أبرمت فإنه أصبح في استطاعته أن يدعو لمؤتمر قمة يحضره رؤساء دول النصرانية ليعلنوها حربا صليبية ضد الموحدين، وفعلا تم المؤتمر في قونة سنة 608هـ/1211م حضره من الملوك «فقط بيدرو الثاني»، ملك أراغون، كما حضره مندوبون عن جميع ملوك أروبا الذين وعدوا بالعون لخوض المعركة التي عرفت في التاريخ بمعركة

---

(441) نفس المصدر السابق 319، ثم راجع ما أورده يوسف أشباخ في كتابه عن المرابطين والموحدين في الأندلس جـ2/98-100-101، وأن محمد الناصر وافق على زواج أخته من ملك نافارساشو، مقابل مساعدته على ثورة قامت ضده ببلاد غمارة.، إلخ ما أورد من زعم باطل وخيال لا أصل له، وعند ابن خلدون أن الذي قدم عليه وهو بإشبيلية إنما هو الببوج صاحب ليون، وقد أفرط أشباخ في خياله، وأخذ عنه ما يشبه هذه المواقف عبد الله عنان الذي يعتبر في كثير من المواقف من الذين شوهوا تاريخ المغرب والأندلس، وعن هذا الموقف المفترى فيه على الناصر راجع العبر 183/4 - 249/6-250.

العقاب"،(442) والتي كانت بالنسبة للعروبة والإسلام بالأندلس بداية النهاية رغم ما بدله الموحدون وبنو مرين بعدهم، بل إن ما حققته أوربا في هذه المعركة دفع بها إلى عدم اليأس من زحزحة المسلمين عن تلك الديار، رغم الهزائم التي عرفها ملوك الأسبان في فترات مختلفة كما سنرى.

كانت أوربا خصوصا الدول المسيحية منها، وكلها كانت مسيحية في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، قد خاضت معارك طاحنة ضد الإسلام في بيت المقدس، وكان بطل هذه الحروب الثلاثة من جانب الأوربيين ملك الانجليز ريتشارد الذي لقبوه بقلب الأسد، والذي انتصر عليه وعلى جيوشه قبل صلاح الدين يوسف الأيوبي في الحرب التي انتهت سنة 588هـ/ 1192م، والتي خرج الصليبيون منها، ولم يحتفظوا بغير مكان ضيق بين يافا وصور، الأمر الذي كان بالنسبة للبابوية التي عرفت في هذا القرن سلطة ونفوذا كبيرين، لا على الشعوب فحسب، بل حتى على الملوك بطريق غير مشرف ولا مرض، وإذا كانت أوربا قد انهزمت في معارك المشرق، فإنها كذلك في المغرب الإسلامي حيث دارت المعارك في الأندلس، والتي فاز فيها يعقوب المنصور الذي سحق قوات ألفونس الثامن ملك قشتالة في معركة فرضت الصلح على هذا الأخير الذي طلبه بصغار سنة 591هـ/ 1194م، وبذلك تم للإسلام والمسلمين الإنتصار في المغرب مثل الذي حصل في المشرق، الأمر الذي دفع بكل ملوك أوربا إلى أن يستجيبوا لنداء ملك قشتالة ألفونس عند ما أراد أن يحول الحرب بينه وبين قوات الموحدين إلى حروب صليبية.

استطاع ألفونصو حل مشكلاته مع خصومه من الأصهار والجيران، عندما وجه نداءه لكل ملوك وشعوب أوربا بواسطة الرسل وبواسطة البابا أنوسان الثالث، وقبل شهرين على موعد المعركة أي في شهر ماي من سنة 609هـ/1212م بلغت قوات ملوك أوربا بإسبانيا أعدادا لم تقدم لنا المصادر أرقاما صحيحة لها، وإذا علمنا أنها كانت من

---

(442) العقاب طائر من كواسر الطير، قوي المخالب مسرول له منقار قصير أعقب حاد البصر، وفي المثل: أبصر من عقاب لفظ مؤنث للذكر والأنثى ج أعقب وعقبان، ولعل نسبة المعركة إليه ما عرفته من كثير القتلى راجع المعجم الوسيط.

ثم راجع التاريخ العام لفيليب فان نس مير الأمريكي مصدر سابق ص 251 فقرة583، 584 ط 1912.

البرتغال وفرنسا، حيث قاد جيوش الأولى «بيدرو ابن الملك سانشو»، وكذا قوات ليون بقيادة سانشو فيرنانديز، وكذا البارونات الذين بلغ عددهم نحو الألفين إلى جانب ما جلبوه معهم من أتباع وحاشية، بالإضافة إلى عشرة آلاف فارس يحملون الصلبان والجراب، ثم قوات بيدرو ملك أراجون التي وصفت بالفخامة، وكذا قوات ملك نافار الذي أقنع بنسيان خلافاته مع ملك قشتالة، وإذا نحن استوعبنا أعداد تلك القوات ندرك مدى الهول الذي عرفته معركة العقاب والحرب الضروس التي حصلت بين الموحدين والأوربيين، ولم يقتصر الإستعداد للمعركة على ما ذكر، بل قدمت الإمدادات كذلك من ليون، وجليقية، والبرتغال، وكان أكثر الوافدين من فرنسا، كما قدم جيوم أسقف بوردو، وأسقف نانت في جماعات من الفرسان وجيش كبير من ولايات جويان وليموج، وسانتوج، وبرى، وبواتو، وأنجو، وبريتانيا، وبرجونية، حتى كانت هذه القوات كما وصفتها مصادر أوربا بنفسها(443) مزيجا من الأزياء والسلاح والعادات والتقاليد واللغات، ورغم كثرة الملوك والأمراء والأباطرة والأساقفة ومختلف القيادات، فإن هذا الخليط الذي انفلت زمامه حتى كاد يخرب طليطلة وما حولها، بالإضافة إلى قتله اليهود الذين كاد يأتي عليهم لولا مبادرات ملك قشتالة، هذا الخليط كان عليه أن يحمل الصلبان ويندفع بحماس أمام ما كان يردده الأباطرة والقساوسة من أناشيد وصلوات، كانت تردد في روما حسب أوامر البابا أنوسان الثالث الذي أمر سكان هذه المدينة بالصوم ثلاثة أيام والإقتصار على الماء والخبز التماسا لإنتصار جيوش النصارى، كما عمد رجال الدين من الرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة.

أما جيوش الموحدين الذين قالت الرواية عنهم إنهم بلغوا أكثر من نصف مليون، وهو رقم قيل أكثر من مرة في معارك أحرى، وليس بصحيح كما قال أبو القاسم الزياني، فإن هذه القوات كانت بالإضافة إلى بقائها في الأندلس أكثر من سنة ونصف، قضتها في حروب بلا انقطاع، بحيث انتقل أبو عبد الله محمد الناصر بجيوشه في شهر

---

(443) راجع تاريخ المرابطين والموحدين ليوسف اشباخ ص 111، والمعجب 319، والعبر لابن خلدون 6/249-250، وروض القرطاس لإبن أبي زرع 156- 157 159- 160 وابن خلكان : وفيات الأعيان4/345. والتعليق قبله(442).

ذي القعدة سنة 607هـ/1210م، ورغم الانتصار الذي حققته جيوش الموحدين في الإستيلاء على شلبطرة، وقلعة رباح في أول ربيع الأول سنة 608هـ/ 1211م يقول الحميري، وكان المنصور قبل قد زهد في فتحها رغم حصاره الطويل لها، وقد قيل إنه تأخر عنها رحمة بالمسلمين الذين هم فيها، فكان فتح جيوش الناصر مما أضفى على تلك القوات نوعا من الرهبة والخوف في نفوس القشتاليين وملكهم ألفونس، ولكن رغم كل ذلك فإن محمد الناصر كان أمام وزيره أبي سعيد بن جامع شبه مسحور يقول الزياني وغيره، وقد أفسد ابن جامع هذا كل أعمال الناصر، ووتر العلاقة بين أفراد أسرة الموحدين الذين تدخل بينهم بالدس، بعدما ضيق عليهم وعلى الأندلسيين ما كان لهم من عطاء، بل بالغ حتى أنهم لم يتقاضوا ما اعتادوه طيلة أربعة أشهر الأمر الذي أدى إلى التذمر في صفوف القادة، وقربه إلى خليط الجند الذين قال عنهم المراكشي:«فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يسلوا سيفا - أي الوزراء والأمراء - ولا شرعوا رمحا، ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال، بل انهزموا لأول حملة الأفرنج عليهم قاصرين لذلك، وثبت أبو عبد الله هذا في ذلك اليوم ثباتا لم ير لملك قبله، ولولا ثباته هذا لا أستؤصلت تلك الجموع كلها قتلا وأسرا»(444)، ورغم ذلك فقد كانت الهزيمة على أبي عبد الله وجنوده في معركة العقاب.

كانت المعركة يوم الإثنين 15 صفر سنة 609 هـ/16 يوليه 1212م. وإذا هي بدئت وحالة جند الموحدين سيئة، ثم العلاقة بينهم وبين القيادة، ثم بين القيادة وأبي عبد الله الناصر، كما أراد لها طالع النحس أبو سعيد بن جامع، فإن الناصر والجنود أبلوا البلاء الحسن، وتحققت انتصارات أولية، لكنها سرعان ما تحولت بسبب موقف الوزراء والأمراء الذي أدى إلى فرار جند الأندلس وقت المعركة، وإذا ما تعرضت قوات أوربا للانهزام، وانعقد مجلس حربي بين الملوك والقادة الأوربيين، فإنهم بلا شك تعرفوا فيه على أحوال الموحدين ثم أدركوا أن ما حققه هؤلاء الجنود إنما يرجع إلى إيمانهم واندفاعهم، وأجيب هذا بإقامة الصلوات وترديد الأناشيد في صفوف جند أوربا وملك قشتالة، وإذا هم

---

(444) المعجب 322، ثم راجع رسالة الناصر إلى عبد الواحد الهنتاتي من شلبطرة في الروض المعطار خ نا.مخطوط خاص جـ2.

انطلقوا بحماس نحو حصن مجلون الذي دخلوه ثم قتلوا جميع من فيه، فإن ذلك مما دفع بهم إلى الأمان رغم شدة الحر ونقص المؤن التي أتى بها ملك قشتالة على عجل إنقاذا للموقف، وكان عليهم بعد الانتصار الأولي أن يتجهوا صوب قلعة رباح التي لم تجد في حمايتها الصنانير والخواريق الحديدية، وكان الهجوم بكل ما جمع الأوربيون من قوات نظمت في جيوش ثلاث:

أ – جيش قشتالة : يقوده ديجولوبيز، ومطراني أربونة وبوردو.

ب – الجيش الذي يقوده الملك بيدرو الثاني.

جـ – الجيش الثالث وهو أكثر الجيوش عدة وعددا بقيادة ملك قشتالة، وقد انضمت إليه قوات ليون والبرتغال.

كل هذه القوات تجمعت لإحتلال قلعة رباح التي دافع عنها أبو الحجاج يوسف بن قادس وجنده دفاع الأبطال، وأخيرا استسلم بشرف إنقاذا لأرواح الجند، مقابل أن يترك للملوك الأوربيين وجنودهم ما في القلعة من ذخائر، فوافقوا على ذلك، وانسحب محافظا على حياة الجند، وفي هذه الأثناء كان محمد الناصر ملك الموحدين قد توجه إلى إشبيلية، وفيها التحق به يوسف بن قادس فيمن نجا من الجند، فكان جزاؤه أن أمر الناصر بقتله بإشارة من طالع النحس أبو سعيد بن جامع الذي جر على الناصر من الهزائم التي نتجت عن الحقد والكراهية، ما لم تجره عليه القوات المعادية، فكان قتل يوسف بن قادس، وهو الذي كان قد ولاه يعقوب المنصور على قلعة رباح عندما حررها عام وقعة الأرك شعبان 1195/591، فكان قتله كما أراد ابن جامع طامة كبرى بما خلف في النفوس من حدة الحقد على عدم الوفاءونكران الجميل من الناصر الذي أصبح تحت رحمة ابن جامع وفاسد تأثيره وتوجيهه الماكر، ومن وقتها وجيوش الموحدين في تقهقر سينتهي آخر الأمر إلى سقوط ولد الناصر في المعركة بطريقة تكاد تكون مدبرة تشم فيها رائحة الإنتقام، كما ترك المجال لجيوش أوربا كي تنتصر فاقتحمت قلب جيوش الموحدين رغم كثرة عددهم حتى أصبحوا قاب قوسين من خيمة الناصر الذي سجل التاريخ أنه واجه الحرب في هذه المعركة بشجاعة كما وصف من حضر يقول المراكشي،(445) لكن ذلك لم يجد رغم

---

(445) نفس المصدر السابق .

ما حصل في صفوف الجيوش الأوربية من خلاف بسبب تهمة ألفونس أنه استأثر بغنائم قلعة رباح التي فاقت التقدير، والتي اتهمته بها جمعية الفرسان، وكذا الوافدين الذين أيدهم مطران بوردو، وكذا أحبارهم في الانسحاب والعودة إلى أوطانهم حيث انسحبوا وهم على مقربة من جيش الناصر.

كل هذه العوامل التي كان في الإمكان الاستفادة منها لم تفد في ما أصبح عليه جند الموحدين وقيادته من خلاف وحقد وكراهية، كان السبب فيها الوزير ابن جامع، وهكذا تقدم ملوك أوربا في الوقت الذي انسحب فيه الناصر إثر سقوط قلعة رباح إلى مدينة جيان، ومنها إلى بياسة على الضفة اليمنى للوادي الكبير، ورغم احتلال جنوده لممرات جبل الشارات المؤدية إلى أبدة وبياسة، فإن جيوش النصارى لما احتلوا القلعة فر إلى قمة الجبل، لكنهم غادروها بسبب بعدها عن الماء، ثم استطاعوا الوصول إلى سهل أبدة الذي انتقلوا إليه يوم السبت 13 صفر /16 يوليه، حيث تجمعت جيوش النصارى لتلقي البركة البابوية التي ستعينهم على خوض المعركة التي ابتدأت صباح يوم الإثنين 15 صفر سنة 609هـ /16 يوليه 1212م(446)، والتي كان ملك قشتالة فيها يقود قلب الجيش المكون من أربع فرق تتألف كما يلي:(447).

1) الأولى: تتكون من سكان الجبال القشتالية بقيادة ديجولويز.

2) الثانية: مكونة من فرسان قلعة رباح، وسنت ياقب، والاسبتارية، والدارية، وبعض جند الحدود القشتالية، بقيادة الكونت جونز الونونيز دى لارا.

3) الثالثة: من جند قشتالة القديمة واشتوريش، وبسكونيه، بقيادة الكونت ردريك دياز كامروس.

4) الفرقة الرابعة: وتتكون من جند طليطلة الإحتياطي وبعض قوات ليو بقيادة الملك نفسه.

أما الجناح الأيمن فكان يقوده سانشو ملك نافار، وكان جنده من فرسانه ومن جند

---

(446) راجع تخطيط ووصف المعركة في جل مصادر التاريخ الإسلامي المذكور قبل وفي المعجب 321-322-323.

(447) راجع أشباخ المرابطين والموحدين في الأندلس 117/2 مصدر سابق.

سريا، وآبلة وسقوبية ومدينة سالم، ومن الفرسان الفرنسيين الذين أتى بهم أرنولد مطران أربونة وجند جليقية والبرتغال.

وأما الجناح الأيسر فكان قوامه أربع فرق، وكله من قوات أرجون ما عدا بعض المشاة القشتاليين، ويقوده الملك بيدرو ومن حوله الأحبار والعظماء والأرغونيون(448)، أما قوات الموحدين بقيادة أبي عبد الله محمد الناصر بن يعقوب المنصور فقد كانت بمكانها من سهل تولوز موزعة على خمس فرق :

1) الفرقة الأولى وهي الأمامية تتألف من المتطوعين للجهاد، وقدروا بمائة وستين ألف (160.000) مقاتل.

2) الفرقة الثانية، خليط من أهل الأندلس، وكان موقعها الميمنة.

3) الفرقة الثالثة من البربر، وأهل المغرب، وموقعها الميسرة.

4) الفرقة الرابعة، خليط من الجيش النظامي الذي كان في وضع يشبه دائرة حول القبة الحمراء، التي يوجد بها محمد الناصر، والتي أحيطت بسلاسل من حديد تكون نصف دائرة، ولما اشتعلت نيران الحرب بين الطرفين فر الأندلسيون الذين كشفوا الميمنة فتعرضت قوات المسلمين للهزيمة التي كانت بادية قبل أشهر، وقد عرفها الجميع إلا محمد الناصر الذي أعماه طالع النحس أبو سعيد بن جامع، وزيره الذي وضع فيه ثقته، ولم يلتفت إلى ما كان لأعماله الفاسدة من أثر، وانجلت المعركة عن خسارة لم تقف عند حد الإنهزام العسكري في هذه المعركة، بل توالت الهزائم حتى انتهى الأسبان إلى أخذ قواعد الأندلس قرطبة، وإشبيلية، ومرسية، والمرية، وغيرها، وهم في كل مرة يستولون على حصن أو بلد حتى انتهى الأمر إلى بني الأحمر الذين بقوا وحدهم يناضلون، وقد أحاط بهم العدو من كل جانب.

كان لابد لنا من الإحاطة بأخطاء عبد الله الناصر في هذه المرحلة التي تعتبر بداية النهاية الأليمة التي سيعرفها مصير العروبة والإسلام في الأندلس، ولو بعد أكثر من

---

(448) يقول أشباخ في جـ 117/2 – 118– 121 إن الذي أرخ للمعركة هو المطران ردريك الطليطلي الذي كان ضمن فرق ملك قشتالة، ومما يطعن في تاريخ المطران ما أورد عن عدد ضحايا النصارى في المعركة، وهو كما قال عنه أشباخ نفسه يحمل طابع المبالغة، ولو لم يفعل لكان أحسن مادام المؤرخون المغاربة وغيرهم أجمعوا على أنها أكبر هزيمة عرفها تاريخ دولة الموحدين.

قرنين، وكل ما نسب إلى الناصر من أخطاء كان مصدرها والسبب الدافع إليها هو طالع النحس وزيره أبو سعيد بن جامع، حقا لقد كان الناصر أول أمره قد واجه سنوات 597-601-603هـ /1200- 1204-1206م حروبا قاسية شرق إفريقية، ولم يحسن التصرف إزاء قائد الغزاة الذي قتله إثر نقله الجند إلى الأندلس، وذلك بعدما ولى على إفريقية أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، وجعل قيادة الجيش لأخيه أبي زكريا يحيى بن عمر سنة 603هـ/ 1206م، وزيادة على هذه التصرفات وقبل أن يقع تحت تأثير ابن جامع، تعرض لغدر الوزراء الذين كانوا يخفون عنه أحوال البلاد خوفا من تصرفاته، خصوصا بعدما تنكر لأهله واستأثر به ابن جامع، وفي هذا الجو، وعلى هذه الحالة دخل الأندلس وخاض معركة العقاب، بل وفي هذا الجو قتل جماعة من قواد الجيش وقائدهم المحنك أبو الحجاج يوسف بن قادس بإشارة من ابن جامع فكان ما حصل من انهزام وإذلال.

وأخيرا عاد الناصر إلى مراكش قصد الإستعداد لغسل العار، لكنه انشغل عنه باللهو يقول الزياني، ولما قرر العودة إلى الأندلس سنة 610هـ/ 1213م خرج من مراكش مارا على الرباط، ولما نزلها فكر وزراؤه في قتله تذمرا منه، فسقوه السم في شربة ماء يقول الزياني، ولم تكن سكتة من ورم في دماغه أصيب بها كما قال غيره، بل ولم يقتله حراس قصره بمراكش طبقا للأوامر المشددة كما قال المراكشي(449)، وسقي يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان 610هـ /1213م، فكان ضحية ثقة وضعها فيمن لا يستحقها، وتلك عاقبة التهور والإهمال والاستبداد عبر التاريخ وفي كل زمان، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وما التاريخ إلا موعظة وعبر، قبل أن يكون قصصا وخبرا.

---

(449) المعجب323ت 1 على أن غيره يقول إنه قتل بأيدي عبيده من السودانيين وآخر يقول بعضة كلب، وغيره أنه أصيب بالصرع، راجع ابن خلكان 346/4، والزركشي تاريخ الدولتين 19 .

الفصل السادس والسبعون

دولة الموحدين بين التفريق والتمزيق

أما الانعكاسات التي ظهرت في المغرب إثر توالي سقوط معاقل الأندلس، ونهاية الناصر على تلك الحال، وتفكك أوصال أسرة بني عبد المومن، ولما يتم قرن على ظهور دعوة الموحدين، فقد كان منها ظهور بني مرين الذين نزلوا ناحية وادي ملوية كغزاة، وزاد الطين بلة ، عندما تولى يوسف الثاني ولد الناصر الذي لقب بالمستنصر، تولى وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر، إذ ولد في صدر شوال من سنة 594هـ/ 1197م من أم ولد رومية إسمها قمر، ولقبها حكيمة، ثم بويع يوم 11 شعبان 610هـ/ 1213م، ومن أول وهلة وضع يوسف المنتصر تحت الحجر إذ حجبه وزراؤه عن الناس ، وأصبح كل منهم يتصرف كما يريد(450).

لم يكن يوسف المستنصر في مستوى المسؤولية لأنه ولي الملك وسنه ست عشر سنة كما سبق، بل إن المراكشي ينص على أن أباه كان كثير الإنحراف عنه في آخر أيامه لما كان يسمع من سوء أخباره، ولعله لذلك وحتى يكون تحت رحمة الذين أفسدوا حياة أبيه وفي مقدمتهم ابن جامع، اختير من الذين كانوايتصرفون في امكانات الدولة ، والذين استغلوا شيخوخة يحيى بن عمر بن عبد المومن وعمه عيسى بن عبد المومن، اللذين وقفا بالباب يوم بيعته يأذنان للناس بذلك(451)، ومعهما عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد الهنتاتي الذي كان وزيرا ليعقوب المنصور، إلى أن مات وحل مكانه أبو بكر بن عبد الله بن عمر الينتي، ومن الذين تحمسوا لتولية المستنصر كذلك، عمر بن موسى

---

(450) لم يبدل من الذين تولوا الحكم بجانب أبيه غير طالع النحس أبو سعيد عثمان بن جامع، بعد خمس سنوات على توليته إذ بدله سنة 615و1218م، ثم تولى مكانه يحيى بن إسماعيل الهزرجي صاحب ابن تومرت يقول صاحب المعجب 224 وعن آل جامع راجع صفحات 310 ـ 324 233 ـ334.

(451) نفس المصدر326 .

بن عبد الواحد الشرقي، وعبد الملك بن يوسف بن سليمان، من أهل تينمل، كما قام بدور أحسن قيام، الكاتب محمد بن عياش الذي لم يعرف الراحة إلا بعد ما تمت البيعتين الخاصة و العامة، وذلك بحضور القرابة وأشياخ الموحدين، وبذلك تم الأمر للذين كانوا من قبل وهم : ابن جامع الذي دام فقط مدة خمس سنوات(452)، كما كان من حجابه مبشر الخصي حاجب أبيه، ثم بعده فارح الخصي، ثم قاضي أبيه موسى بن عيسى ، و الكاتبان عبد الله بن عياش كاتب أبيه وجده، وأبو الحسن بن عياش،(453)، ثم بعدهما محمد بن يخلفتن الفازازي وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش(454).

وهكذا رغم انتصار يوسف المستنصر على الثوار الثلاثة الذين قام أولهم بعد أربعة أشهر من ولايته(455) باسم أنه من سلالة العاضد الفاطمي المشار إليه قبل، لكنه رغم مالقي من إقبال المعارضين، فإنه انتهى إلى أسر بيد إسحاق بن يوسف بن عبد المومن الذي كان واليا على مدينة فاس، والذي أمر بقتله وصلبه كما حصل بعد لثائرين آخرين سنة612 -618هـ /1215- 1221م، الأول من جزولة بسوس والثاني من صنهاجة قتلا معا في التاريخ المذكور(456) وإذا ما قيل في حق يوسف المستنصر أنه كان من الذكاء إلى درجة اطلاعه على الجزئيات التي لم يتعرف عليها السوقة في حياة الشعب، كما أشار المراكشي الذي قابله على انفراد في غرة سنة 611هـ/ 1214م(457)، ولعل من حدة ذكائه وقد رأى تكالب قومه على ما كان لكل منهم من عطاء واتفاقهم مع الوزراء، الأمر الذي انتهى بأيام والده إلى فساد وتذمر وبأيامه إلى ظهور ثوار بالسلاح والرجال، ولذلك اختار من أول وهلة وقد وضع تحت الحجر، ثم حجب عن الناس- أن يشغل نفسه بتربية الحيوانات وانتاج الخيل والبقر منها إلى أن راح ضحية بقرة نطحته فأردته قتيلا يوم 3ذي الحجة620هـ/ 4 فبراير 1223م، وعند صاحب الحلل أن ملكه دام عشر سنين وأربعة

---

(452) راجع ت 270 من الجزء الثاني .
(453) توفيا سنة619 هـ/ 1222م .
(454) هو ابن المتوفي سنة 619 هـ .
(455) المعجب 327:
(456) راجع بعد ت.(440) في صلب الكتاب أعلى .
(457) 328المصدر السابق للمراكشي.

أشهر ويومين، كما يقول إن أيامه كانت كلها هدنة لم يظهر فيها ما يكدر الصفو، لا في الأندلس ولا في إفريقية، بل لم يخرج هو نفسه من مراكش إلا زائرا لمدينة تينمل على عادتهم في زيارة المهدي، ولم يبق من وزرائه إلا الشيخ عبد الله بن وانودين(458) كما نص على أن مدته كانت آخر ضخامة الدولة الموحدية، ولعل تلك الضخامة كانت بالنسبة للذين كان بيدهم سلطان الدولة، أما المستنصر فقد عاش في نظرنا مراهق التفكير، بل عاش عيشة حيوانية، وبذلك مات ضحية حيوان، بل لم يمت إلا بعدما رأى نتيجة سوء تصرف الولاة من رجال حكومته، وما أنتج من ثورات زادها الوباء الذي عرفه المغرب والأندلس سنة 610هـ/ 1213م استفحالا، كما كانت أيامه بداية تمزيق دولة الموحدين كما سنرى، ذلك أنه منذ عهد محمد الناصر سلف المستنصر، لم يعد للدولة سياسة قارة ولا حكيمة، بل أصبحت سياسة الولاة وكذا الذين هم على مذهب الولاة من بقية أسرة عبد المومن والأشياخ الذين أصبح همهم تحقيق ما كانوا يتقاضونه من عطاء ، حتى إن تولية عبد الواحد بن يوسف بن عبد المومن بعد المستنصر لم تدم إلا مدة ثمانية أشهر وتسعة أيام، ثم قامت عليه ضجة قومه الذين اختلفوا عليه ثم خلعوه، وقد كان شيخا تقيا ورعا تجاوز الستين من عمره، روى صاحب الحلل(459) عن الملاحي محمد بن عبد الواحد 619-549هـ/ 1154-1222م في كلمة ما اطنب فيه المراكشي(460) الذي سماه عبد العزيز، وهو عند صاحب الحلل كما عند الزياني في الترجمان(461) عبد الراحد بن يوسف بن عبد المومن، على أن ثمت آخر اسمه عبد الواحد الرشيد،(462)، لكنه غير هذا الذي كان رد الفعل بعد خلعه البحث عن الأطفال حتى يكونوا تحت تصرف المغرضين من المشايخ والوزراء .

وإذا ما تولى عبد الواحد المذكور وهو كما ذكرنا شيخ كبير السن، فإنه تعرض لطعنة قاتلة هي معارضة ابن أخيه عبد الله بن يعقوب المنصور الذي حل مكان عبد الواحد الذي عزل وتوفي بعد ثلاثة أيام من عزله عام 621 هـ/ 1224م، لكن العادل هو

---

(458) الحلل135 .

(459) 136 .

(460) المعجب 329 - 333.

(461) م خ 294، والقرطاس 162 .

(462) هو ابن إدريس المامون، وسيأتي ذكره، فهو ابن أبي العلاء إدريس من الرومية حبابة .

الآخر لم يدم في الملك إلا مدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وتسعة أيام، ثم توفي سنة 624هـ/ 1226م لأنه تعرض لمعارضة خانقة تزعمها آل جامع الذين كانوا خلف عبد الواحد بن يوسف نقمة على أسرة عبد المومن التي كانت تتدرج نحو الانهيار،(463) ولم يكن الذين في إمكانهم أن يعارضوا ليقبلوا كل من يسانده بنو جامع ، وهذا ما عجل بذهاب عبد الواحد بن يوسف الملقب بالرشيد، الذي قتل وأخذت أمواله من طرف الأشياخ ليحل محله عبد الله بن يعقوب الملقب بالعادل حسب الوعود التي قطعها على نفسه قصد البذل للأشياخ والوزراء الذين أصبحوا وقتها يتكالبون على المال بشكل مكنهم من العادل بل أصبحوا يولون ويعزلون ويقتلون ويصادرون، مما دفع أبناء عبد المومن بالأندلس إلى عدم بيعة العادل بن المنصور الذي أعلن الحرب عليهم وتوجه إلى الأندلس، وقد آزره أخاه إدريس المامون بن المنصور، لكن هذا الأخير وقد انتصر في معاركه ضد القوات المعارضة، فإنه وقد رأى النصر يتحقق على يده أن يدعو لنفسه، ثم خرج على أخيه، ولقب بالمامون، وإذا كان على جانب مهم من المعرفة استطاع بها أن يسيئ إلى خاتمة الموحدين عقيدة وسياسة، ثم إنه بذلك استطاع أن يجلب نحوه الحاقدين من أهل الأندلس الذين بايعوه كيدا ودسيسة وبلاشك كان وراء بيعتهم القاضي المكيدي الذي سوف نتعرف بعد على أهدافه وإجرامه ثم كتبوا بذلك إلى أهل مراكش الذين اجتمع رأيهم كذلك على خلع العادل صنو المأمون ، ثم قبضوا عليه وجعلوا رأسه في نافورة ماء، ثم خنقوه بعمامته وهو يقول «والله لا أموت إلا أميرا للمؤمنين»(464) حتى مات كما سبق، لكن هل صفى الجو لإدريس المامون الذي خرج عليه ابن أخيه الناصر، وهو يحيى الذي لقب بالمعتصم؟ والذي لم يتجاوز سنه ست عشرة سنة، مساندا من الذين استشعروا الخطر بتولي إدريس المامون من قبل قومه الذين ناصروه ، وكذا الأشياخ الذين أدركوا ما ينتظرهم بعدما علموا مساندة أهل الأندلس للمأمون، لكن تعلقهم بالطفل يحيى أعطى

---

(463) اعتبر المراكشي أن عبد الواحد بن يوسف بن عبد المومن هو آخر دولة الموحدين، ولذلك وقع في ارتباك، ثم سماه عبد العزيز رغم أنه قال : إنه تعرف عليه ثم وصف سلوكه واستقامته وتدينه ورغم ذلك قتله الأشياخ الذين أخذوا ماله.

(464) الترجمان المعرب 194 م خ ع .

نتيجة عكسية عندما ظهرت جموع العرب من الجشم، الذين بايعو إدريس المأمون كرد فعل ضد الطفل يحيى والأشياخ الذين ساندوه، كانوا وقتها أكثر جند الموحدين، حيث كانوايقدرون بمائة ألف ما بين فارس وراجل، وكان الذي تزعم ثورتهم على يحيى وانتصارهم للمامون، كبيرهم هلال بن المقدم الخلطي ، كما انتصر للمامون الفقيه أبو زيد عبد الرحمن الفزاري، فأمره المامون أن يمدح الخلط وشيخهم هلال بن المقدم(465) فأجابه ابن الصفار المعروف بالبرنامج كاتب يحيى المعتصم بقصيدة عارض بها قصيدة الفزاري، يعدد مساوئهم، وانتهى الأمر إلى حرب يحيى مع الخلط وشيخهم هلال، فكانت الهزيمة ليحيى الذي فر إلى تينمل ورجع أهل مراكش إلى المأمون، أما يحيى فقد عاد إلى مراكش بعد أربعة أشهر وقتل عامل المأمون عليها، الأمر الذي دفع المامون إلى أن يستجير بملك قشتالة الذي كان يتحين هذه الفرص فزوده باثني عشر ألف جندي مقابل شروط وتنازلات قدم بهم لمراكش قصد قتال يحيى المعتصم.

(465) راجع القصيدة في م خ الترجمان المعرب ص 295.

الفصل السابع والسبعون

ألفونصو وإدريس المامون والقضاء على المهدوية

كان إدريس المامون هو أول من أقدم على عمل يعتبر خيانة حين استنجد بجنود ملك قشتالة، وإذا لم يعرف قبل عمل كهذا من ملوك المغرب الأقصى، وبالطريقة التي نهجها إدريس المامون، فإنه بذلك أثار النقمة على نفسه وذويه، بل عجل بالقضاء على دولة الموحدين التي سيتناثر عقدها، ويوزع ما كان تحت نفوذها من بلاد بين الخارجين وطالبي الاستقلال في الأندلس، وإفريقية، وتلمسان، انتصر المامون على يحيى المعتصم واستقل بالسلطة الكاملة بمساندة أثنى عشر ألف من جند ملك قشتالة، الذين نقلهم إلى المغرب عن طريق سبتة حيث تم له الأمر سنة 624هـ /1226م، ولما تمكن وعاد إلى مراكش إحتجب ثلاثة(466) وكأنها لتدبر الشروط(467)، وتلقي الأوامر وتنفيذها، حسبما سبق له مع القشتاليين، وقواتهم التي سيظهر بعد أن ما قام به المأمون من أعمال القتل والفتك بوحشية لم يسبق لها مثيل في تاريخ المغرب قبل، بل لم تكن لتحصل اختيارا مهما بلغت قسوة المأمون كما سنرى.

خرج المامون بعد احتجابه في اليوم الرابع، ثم قصد المسجد الجامع، وفيه اعتلى المنبر ليتكلم بما في نفسه، وكان الخطاب عبارة عن منشور وجهه بعد إلى مختلف طبقات الشعب، في مختلف جهات الإمبراطورية ورد فيه ما يلي:(468) «من أمير المؤمنين إلى الطلبة، والأشراف، والأعيان، والكافة ومن معهم من المؤمنين ومن المسلمين، أوزعهم

---

(466) راجع الزياني المصدر السابق.

(467) أورد صاحب القرطاس الشروط التي اشترطها ملك قشتالة على المامون نظير إمداده بالجند ومنها 1) تسليم كثير من الحصون 2) إقامة كنيسة بمراكش 3) عدم الاعتراف بإسلام النصراني إذا أسلم 4) أن من دخل أرض المغرب وأظهر الإسلام يرد إلى قومه 5) عدم التعرض للمسلم المرتد. راجع إبن عذاري 181/3، والروض 167، والعبر 253/1 وأشباخ 162/2.

(468) الحلل الموشية 137، وفيها أنه كتب بخط يده ومن إنشائه.

الله شكر نعمه الجسام، ولا عدتهم طاقة أوجه الأيام الوسام، فإنا كتبناه لكم كتب الله لكم عملا منقادا، وسعدا وقادا، وخاطرا سالما، لا يزال على الطاعة مقيما، من حضرة مراكش كلأها الله، وليحق لسان قاطع، وحكم ساطع، وقضاء لا يرد، وباب لا يسد، وظلال على الآفاق، تمحو النفاق، وبعد :

فالذي أوصيكم به تقوى الله العظيم، والاستعانة به والتوكل عليه، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق، وأن لا مهدي إلا عيسى، وإن جرى ماحلت اللسان لا يسمى، ومايسمى مهديا إلا أنه لكم في المدى اعتقاد فاسد(469) فتلك بدعة قد أزلناها، والله يعيننا على هذه العبادة التي تقلدناها،، وقد أسقطنا اسمه، ولم تثبت له عصمة، فلذلك أزلنا عنه رسمه، فيمحى ويسقط ولا يثبت، وقد كان سيدنا المنصور هم أن يصدع بما به الآن صدعنا، وأن يرفع عن الأمة الحزن الذي رفعنا، فلم يساعده لذلك أمله، ولا أجله لزواله إلا أجله، فقدم على ربه بنية صدق خالص الطوية، وإذا كانت العصمة لم تثبت للصحابة، فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه، بل هم ضلوا وأضلوا، وتلفوا في ذلك وزلوا، ما تكون لهم الحجة على تلك الحاجة، اللاهم أشهد أننا تبرأنا منهم براءة أهل الجنة من أهل النار، ونعوذ بك من أمرهم الرتيب، وفعلهم الخبيث، لأنهم في المعتقد من أهل النار، وإنا نقول فيهم ما قال نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام، رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا والسلام".

لست أدري هنا كيف أعلل هذه الطفرة من المأمون الذي لم يكن مؤهلا لها سياسيا بعد.بل يتبادر إلى ذهن من تتبع من بعيد أثر رمزية محمد بن تومرت ومهدويته في نفوس المصامدة، وأن ما صدر من إدريس المامون هذا حفيد عبد المومن إنما هو نتيجة الشروط غير المذكورة التي التزم بها لملك قشتالة، لكن المطلع على ما ورد في كفاية المقتصد لإبن رشد «مخطوط خاص»، يرد ما صدر من المأمون، ويستدل من هذا أن أفكار إبن رشد قد أثمرت ولو بعد حين، ذلك أن ابن رشد نص في مقدمة الكتاب المذكور على صحة عقيدة المسلم، وأن الله تعالى جلت قدرته «لما كان من جملة صفاته كونه إلها يصح منه استسخار عبيده في العبادات،واستخدام مماليكه في ضروب الطاعات، بتكليفهم

---

(469) كذا أورد في نفس الصفحة ت 3 ط 1936.

وإرسال الرسل إليهم إحتجنا إلى النظر في إثبات النبوات، وما يتعلق بها من القواعد الشرعيات، من الإعادة والحشر والنشر، وينجر الكلام في ذلك إلى الكلام في الإنسان، والروح، والنفس، وما يتعلق بذلك من السمعيات،... والقول في الأمة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وأحكامها ولما لم يكن شيء مما قدمناه مدركا بالحواس ولا معلوما بالبداهة، وإنما يتوصل إليه بالنظر الدقيق، والخوض في مسلك التحقيق، إحتجنا إلى القول في إثبات النظر وإحكامه، وما يتعلق به من معرفة الأدلة والعلل، والحقائق، والحدود، والعلوم وأضدادها، وغير ذلك مما ياتي مفصلا في مواضعه إن شاء الله، فهذه جملة أغراض الكتاب والله الموفق للصواب"(470).

ولقد استطاع ابن رشد إبطال فكرة المهدوية والإمامة وما أحيطت بهما من إدعاء العصمة في نظر القوم بأسلوب العالم الخبير، حيث قال : قالوا وإذا كان الصلاح مرتبطا بالإمام، والفساد منوطا بعقده، فقد ثبت بواضح الدلائل أن الله تعالى لا يفعل بعباده إلا ما هو الأصلح لهم في أمر دينهم، وما يتعلق بتكاليفهم وفي أمر دنياهم أيضا عند كثير من الناس، وأنه لا يجوز العدول بهم عن أصح الأمور إلى ما هو دونه فكيف إلى الإضرار والاستفساد، وإذا كان كذلك، وجب عليه سبحانه نصب إمام معصوم عند انقراض عصر النبي صلى الله عليه وسلم المعصوم، والجواب عن ذلك من خمسة أوجه... إلا أنا نرميهم الان بسهم ينفد مقاتلهم(471) فنقول : إذا أوجبتم علي الله تعالى أن يفعل بالعباد ما هو الأصلح من إقامة الإمام، وجميع مصالح الدنيا والدين، وأنه لو لم يفعل ذلك بهم لكان بخلا يناقض الجود، وسفها يناقض الحكمة، وخرج بذلك عن استحقاق وصف الألهية واستيجاب نعت الحكمة والربوبية إلخ".

من هذا النص يتبين لنا أننا إذا نحن استوعبنا المنشور، ندرك أن المامون الذي كان متقفا ثقافة عالية هي إنتاج ما بعد عصر المنصور المشار إليه، والذي أفاد من أثر ابن رشد، وما جاء في كتابه من أدلة وبراهين قوامها الكتاب والسنة وسلامة الحس

(470) كفاية المقتصد ونهاية المجتهد م خ نا رقم 380 ص 4. تاريخها 16 صفر عام 610هـ.

(471) نفس المصدر 57 – 58، وقد ورد في أجوبته ما يظهر فساد معتقد المصامدة.

وحسن الادراك،(472) مما أبطل كل ما كانت المهدوية تزعمه وتدعيه، ومما انتهى بأصحابها إلى ما صرح به إدريس المامون الذي تبرأ منهم، ناهيك وأنهم عنده" ضلوا، وأضلوا، وتلفوا في ذلك وزلوا... اللاهم إشهد أننا تبرأنا منهم براءة أهل الجنة من أهل النار.. إلخ ولقد كان لفعله هذا أكبر الأثر في تمزيق وتحطيم الموحدين الذين كان اسم المهدي بعد لا يزال له تأثير على علاقتهم الخاصة والعامة.

أما الجانب الآخر أو الوجه السياسي لموقف إدريس المامون الذي استمد انتصاره الأول من الأندلس التي لم ينس أهلها ما حل بعالمهم الجليل ابن رشد، بل والذين كانوا السابقين لمناصرة هذا الجانب من سياسة إدريس المامون فإنهم بلا شك قد دفعوه لفعل ما سنرى مع أشياخ الموحدين الذين ضلوا وأضلوا... بل الذين أفسدوا على الملوك السابقين حياتهم، وجروا على الأمة ما تعيش من ويل ونكال تحت رحمة حكم المرابين والسفهاء الذين سيطهر المامون منهم البلاد، ورغم ما عرفته الدولة من جموح شهوات الأشياخ والأمراء، فإن ما صدر من حفيد عبد المومن وابن المنصور في حق المهدي الذي لعبت رمزيته رغم فسادها عقيدة في سياسة الدولة دورا عظيما وهاما، ما كان له أن يصدر بالشكل الذي صدر من المامون، لولا أنه مع بعض التحفظ وقع فريسة لخيانات أهل الأندلس الذين لهم حساب مع الأواخر من ملوك الموحدين، ناهيك وأن المامون التزم لملك قشتالة وبطانته التي قر عندها أن كلمة «أبابا يا مهدي» على أفواه الجند في قتالهم ومعاركهم، كانت تفعل فعل السحر في النفوس، بل كانت تضيف إلى حماس الجند معنويات طالما عرف منها جند النصارى ما لم يحصل لولاها في نظرهم، كمذهب وعقيدة والتزام، بل ووسيلة توحيد الصفوف بين المصامدة وغيرهم من سدنة الموحدين، مثل أبو زكريا يحيى الأول الذي كان عاملا على إفريقية باسم الموحدين، والذي بقي على ولائه للمهدوية لم يسقط اسم المهدي والدعاء له على المنابر في خطب الجمعة، كما منع ذكر اسم المأمون وغيره من آل عبد المومن، وتلك فرصة أفاد منها كوسيلة لتأسيس دولة الحفصيين.

---

(472) ولقد كان للقاضي المكيدي الأندلسي أثر كبير على إدريس المامون فهو الذي سيفتي بقتل جماعة الخمسين والسبعين دفعة واحدة كما سنرى، مما يستدل به على أن ثورة المامون كان مصدرها نقمة الأندلسيين وتدبيرهم، بدافع ما عاشته الدولة التي وقعت تحت تأثير ابن جامع في فترة حرجة من حياة دولة الموحدين.

الفصل الثامن والسبعون

أثر الرومية حبابة والقاضي المكيدي في نهاية الموحدين

لقد أمر المامون أن يسقط إسم المهدي من السكة المربعة التي كتب على وجهها الأول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وعلى الوجه الثاني" المهدي إمامنا" هذا بالإضافة إلى البراءة منه ومما كان عليه سلفه، أو لم يكن هذا ضمن الشروط السرية التي اشترطها ملك قشتالة، حقا وكما أشرنا أن المامون كان على جانب من الفقه والأدب، وكان أحق بإدراك آراء ابن رشد كما سبق، لكن لماذا فعل ما فعل في ذلك الظرف، ولما ينته من حروبه التي كلفت الشعب الكثير من الدماء؟ أو لم يكن قد وقع تحت ضغط قوي من الجنود الأجانب الذين حقق بهم النصر وأوامرهم بيد صاحب الشروط؟ كما كان أمر المامون بيد زوجته الرومية حبابة التي ربما لم يفعل ألفونصو ما فعل مع المامون إلا وعنده اليقين أنها كانت قد استحوذت على سمعه وبصره وعقله، والتي سنرى موقفها ومدى فعاليتها إثر موت المامون بوادي العبيد، وعملها لفائدة بيعة ولدها منه، عبد الواحد الملقب بالرشيد، والذي لم يتجاوز سن الرابعة عشرة يوم وفاة المامون.

لم يقف المأمون عند هذا الحد، وإنما زاد إلى ما هو أعظم، بل كان كل ما فعل إنما هو مقدمة للمجازر المفتعلة التي لم يعرف لها سبب ولا مثيل قبل في تاريخ المغرب، وإنما عرفت بالمأمون، وفي عهد المامون الذي احتمى بقوات الاسبان في أرض المغرب،، خرج المأمون من المسجد ليجد ما التف حوله من جند الموحدين والمرتزقة وجند قشتالة، وإلى جانبهم المرتزقة من المصامدة والروم قد اصطفوا منتبهين ومستعدين لتلقي الأوامر وتنفيذها مهما بلغت من القسوة والعنف، خصوصا منهم جند الروم، وكان أول ما أمر به إحضار أشياخ الموحدين من العرب والبربر بالمجلسين، مجلس الخمسين، ومجلس

السبعين، ولما حضروا بين يديه وسط الجنود أخرج لهم كتاب بيعته الأول ونكثهم لها، ثم عرفهم بقتل من قتلوه من الملوك أهل بيته، عمه وأخيه، وبما ارتكبوه من الإستخفاف بالدولة حتى أقروا بذلك، فاستفتى القاضي المكيدي الذي أتى معه من الأندلس، والذي يستفاد من تصرفاته أنه كان وبدهاء صاحب تأثير كبير على المأمون، وأنه كان يدفع به نحو ما يعجل هلاكه والقضاء على دولة الموحدين إنتقاما، وقد أفتى المكيدي بحضرة رجال المجلسين بإمضاء الحكم فيهم بالإعدام، فأمر المأمون بقتلهم جميعا ولم يفلت منهم أحد، كما قتل غيرهم وقد بلغ عدد قتلاه من الموحدين أربعة آلاف وست مائة(4600) ومن الخلط ألف ومائتان(473) ثم أمر بقطع رؤوسهم فعلقت بأسوار مدينة مراكش، ثم انتقل إلى قتل قرابته حتى انتهى إلى ولد لأخيه صغير، فلما وقف بين يديه قال له : يا عم أعف عني لثلاث صغر سني، ورحمي، وحفظي لكتاب الله،(474) فالتفت إلى القاضي كأنه يستشيره فقرأ القاضي قوله تعالى "إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا" فقتله ولم يشفق عليه،(476) وليس بعد هذا من دليل على أن المكيدي كان حاقدا على المصامدة وآل عبد المومن كل الحقد، وقد اتخذ لتحقيق أغراضه وسيلة تركيز السلطة لصالح المأمون الذي لم تعرف أيامه استقرارا كما لم تعرف نفسه ولا ما حوله اطمئنانا.

وهكذا لما انتهى المأمون من مجازره التي عمت الكثير من جهات مراكش وتينمل، إنتقل إلى فاس ثم تلمسان التي جعل عليها أخاه أبا سعيد خليفة،كما استوزر الحسن بن حيون الكومي، فكان طالعه نحس إذ أغراه بالقبض على مشايخ بني عبد الواد، فجاء قائد جند لمتونة ابن علاف مستشفعا، فلم تقبل شفاعته، الأمر الدي دفع ابن علاف لامتشاق حسامه في أصحابه، وقتله الوزير ابن حيون، وأخرج مشايخ بني عبد الواد، ثم

---

(473) الترجمان المعرب للزياني 297 ـ 298م خ ع . لم يحصل مثل هذا، بل أفظع إلا في عهد المولى إسماعيل مع قبيلة كروان عام 1104 هـ / 092 1م بعد حربه لآيت أمالو كما سنرى بعد في عهد الملك المذكور، وقبله يحيى بن يومر قائد عبد المومن مع أهل لبلة كما سبق.

(474) المصدر السابق.

(475) نوح : 27.

(476) نفس المصدر 299، ويظهر أن المكيدي هذا كان متأثرا بمذهب الأزارقة من الخوارج أتباع نافع بن الأزرق، فهو الذي أعلن مثل هذه الأحكام في حق المتخلفين من أتباعه، واعتبر دار المخالفين دار شرك شرع في حقهم أحكاما منها قتل نسائهم وأطفالهم.

نادى بخلع المامون، وأخرج أبا سعيد من تلمسان، لكن شيخ بني عبد الواد يوسف بن جابر الذي أنقذه بن علاف، هو الذي دبر قتل ابن علاف ونادى بطاعة المامون، ثم رد أبا سعيد، وفي هذه الأثناء قام عليه أخوه عمر بسبتة، كما كان يحيى بن الناصر قد هجم على مراكش مستغلا غياب المأمون عنها، ثم نهب قصر المامون وهدم الكنيسة التي كان المامون قد بناها ضمن الشروط الاثنى عشر التي شرطها عليه ألفونصو مقابل تزويده بالجند، ولما بلغ المأمون خبر يحيى توجه لمراكش وفي طريقه مات بوادي العبيد في ذي الحجة من سنة 629 هـ/1232م بعد ملك دام ثمانية أعوام كلها تفريق وتمزيق وتدهور وتقهقر عرفت الدولة الموحدية في عهده أعنف الضربات القاتلة، والتي كان مؤسسو دولة بني مرين المنتظرة يتمنونها وينتظرون نتائجها، خصوصا وأن الدولة أصبحت بسبب تطرف إدريس المامون في حالة احتضار، حيث استولى الإسبان وربما برضى المامون على بطليموس سنة 626هـ/ 1228م، واستولى ابن هود على جبل الفتح والجزيرة الخضراء، وخرج على الموحدين، بل تآمر عليهم من أمراء الطوائف الكثير منهم، بنو عصام في أريولة، وبنو عيسى في شاطبة، وابن احلى محمد في لورقة، والقرشي أبو عثمان في جزيرة ميورقة، بل أهل إشبيلية أنفسهم والذين كانوا أول من ناصره، وبذلك انقطعت دعوة الموحدين من الأندلس سنة 628 هـ/1230م، كما قام محمد بن يوسف من بني الأحمر بأرجونة، فبايعه أهلها بلا تردد، كما سنرى بعد سنة 633هـ/ 1235م.

مات المامون ولم يعلم به أحد غير زوجته الرومية حبابة، التي كتمت خبر موته، ثم بعثت إلى كانون بن جرمون السفياني، وشعيب الهسكوري من قواد الموحدين، وإلى فرشيشكو قائد جند الروم، أن يركب كل واحد منهم في عشرة آلاف من عسكره، ولما حضروا أخبرتهم بموت المامون، ثم طلبت إليهم بيعة ولدها أبو محمد عبد الواحد الرشيد، ففعلوا حيث تمت بوادي العبيد، ومن هذا يستدل على مدى التأثيرات التي كانت موجهة للمأمون، وأقواها كما رأينا تيار الرومية حبابة، أم ولده التي استطاعت أوامرها أن تحضر ثلاثة من كبار قواد الجيش يجرون وراءهم ثلاثين ألف، ما بين الروم وغيرهم، وما كان لأوامرها أن تطاع لولا أنها كانت كذلك عند زوجها ويعلم الناس وفي طليعتهم قواد الجيش ورجال الدولة ذلك، ويظهر أنه كان من خلفها خبراء في أدواء الموحدين وما

آلت إليه أوضاعهم، وأن تعلق بعضهم من المصامدة بالمهدوية لا يزال قويا، لذلك كان من أول شروطها حتى تركز لولدها هو إعادة العمل بالعقيدة المهدوية، أو لعل الذين دفعوا لذلك على العكس كانوا يهدفون إلى الإجهاز على البقية الباقية من أثر الموحدين، حين يشتد الخلاف ويتقوى التنازع والتطاحن بين الخصوم والأنصار على المهدوية، وإذا علمنا أن عرب الخلط وكان تعدادهم في جيوش الموحدين يتجاوز المائة ألف، وكذا المرتزقة من البربر والأجانب، كلهم كانوا ضد المهدوية التي كانت تمكن بعض ذوي الأعراق من المصامدة وكومية من الإمتيازات التي كانت قبل كثيرا ما تثير النقمة ورد الفعل في نفوس الجند، الذين قلت أرزاقهم، وضعف تنظيمهم، واشتد إهمالهم، عندما أصبح لجند الأسبان الإثنى عشر ألف ما أصبح لهم من الشأن، بحكم أنهم الذين مكنوا للمامون الذي مات وهو في رحلته عائد إلى مراكش، ومن ذلك يظهر أنه كان وراء فكرة العودة إلى المهدوية ما هو أكبر من رأي حبابة المرأة الرومية، وأنه كان يهدف الاجهاز على البقية الباقية من أثر الموحدين.

حمل عبد الواحد الرشيد جثمان والده ليدفن في مراكش التي اتجه إليها، لكن خبر تصرف حبابة الذي فاحت منه رائحة التواطؤ مع جند الأسبان وقائدهم فرشيشكو، كان سببا في جمع كلمة المراكشيين مع الخلط حول يحيى بن الناصر، الذي كان بالقصبة شريطة أن يخرج لمقاتلة الرشيد الذي كان قد وعد العسكر بفيء مراكش، لكن يحيى وقد كان بعيدا عن الميدان منذ زمن لم يقو على محاربة جيش الرشيد الذي استمد المال والرجال، بمكر وخديعة من سجلماسة التي استولى عليها عام 1233/631، فعاد يحيى إلى المدينة وأغلق أبوابها، لكن الرشيد حاصرها ثلاثة أيام، ثم أرسل يطالبهم بفتح الأبواب شريطة أن يدفع للجند من ماله ما وعد به من فيء، وأعطى قائد الروم خمسمائة ألف دينار.(477)

وفي هذه الأثناء قام محمد بن يوسف بن نصر المدعو إبن الأحمر ببلدة أرجونة كما أشرنا فبايعه أهلها ودعى للملك المستنصر العباسي، كما قام علي السعيد أخو الرشيد

---

(477) الترجمان المعرب للزياني 299- 300.

بمراكش، واستمر إلى سنة 633هـ/ 1235م، وفي هذه السنة سقطت قرطبة في الفخ الذي نصبه ملك قشتالة، وفي السنة بعدها 1236/634 أعلن الحفصيون استقلالهم، ودعي لأبي زكريا على منابر الجوامع بعد ذكر المهدي، كأنه الوارث للمهدوية، وسيقتدى به بنو عبد الواد في تلمسان، وفي سنة 1238/636 إستولى ملك أراغون على بلنسية، لكن الرشيد الذي كان قد اشترى الولاء بما دفع من مال استطاع القضاء عليه، ولما أرسل إلى أهل مراكش يطلب مساندتهم ضد الخلط الذين أرسل إلى مشايخهم لكنهم لما دخلوا عليه المدينة نهبوها ففر عنها الرشيد إلى سجلماسة ومعه جيش الروم(478) وخاصته، وبعث الخلط إلى يحيى بن الناصر وأدخلوه مراكش، وانتقل الرشيد إلى فاس بعد أن جمع الجموع من العرب والبربر، فأقام بها أياما وفرق المال بين علمائها وأعيانها ورجال الصلاح فيها، ثم توجه إلى مراكش حيث خرج إليه يحيى قصد أن يصده، لكنه انهزم أمام الرشيد، وفر إلى رباط تازة بعدوة عرب معقل، وهناك قتل بفج عبد الله، ثم أتوا برأسه إلى الرشيد، وأما الرشيد فقد بقي بمراكش إلى أن مات غريقا في بركة من برك القصر في جمادى الثانية عام 640هـ/ 1242م وفي يوم 10 جمادى الثانية، بويع أبو الحسن علي السعيد أخو الرشيد، وقد لقب بالمعتضد بالله، لكن ظروفه كانت أكثر صعوبة من سلفه، ففي سنة 642هـ/ و1244 قصد ملك الأسبان بلنسية، وفي سنة 644هـ/ 1246م ملك إشبيلية، كما قام بنو مرين الذين كانوا قبل نزلوا وادي ملوية، هذه المرة إنتشروا حتى ناحية الريف، وكان ظهورهم فيها مواتيا وأقوى مما سبق، حيث أخذت البلاد شرقا تعترف على أبي بكر بن عبد الحق المريني الذي استولى على مكناسة فخرج لحربه السعيد، ولما التقيا ببهت فر أبو بكر إلي جبل زرهون،ومنه توجه إلى الريف، فتوجه

---

(478) بقيت سيوف بعضهم محفوظة بسجلماسة وعليها الصليب من الجهتين الى عهدنا ومنها واحد بخزانتنا، ونلاحظ هنا أن ما أورده الكونت هنري دوكاستري في كتابه : «الإسلام خواطر وسوانح» ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا الملحق 4 ص 145 ط بدون تاريخ حول المرسلين الخمس الذين قتلوا في مراكش كما سجل، قس مدينة لسبون، وكما ورد في المصدر المذكور، أنهم قتلوايوم 1220/1/16م أي 617هـ، في حين أن التعليق كله كان حول علي بن يوسف بن تاشفين، وأنه الذي استعمل ألفا من النصارى كحرس خاص برأسهم دون بدور أخ ألفونصو ملك البرتغال، كما سبق في حين أن التاريخ أعلاه هو تاريخ دولة الموحدين، وزمن يوسف المستنصر ولد الناصر، الأمر الذي يؤكد أن واضع التعليق وقع في خلط.

السعيد إلى فاس بعدما نزل مكناسة، ووقتها قدم عليه وفد بني مرين طائعين طالبين الدخول في طاعته، والدفاع عنه ضد أهل تلمسان وسلطانهم أبو يحيى يغمراسن بن زيان، الذي كان قد أعلن العصيان عام 633هـ/1235م وما هي حسب الذي سيحصل الاخدعة تعرف عندما يقتل السعيد ووصيفه يوسف الشيطان من طرف يغمراسن،(479) ودخل كثير من رجال بني مرين باسم أبي بكر بن عبد الحق، الذي أرسل بيعته وهداياه إلى السعيد، مع يحيى بن الوزير الوطاسي، ثم التحق أبو بكر نفسه بالسعيد وأظهر له استعداده للقتال إلى جانبه بنفسه، وبذلك تمكن بنو مرين من التعرف على حقيقة وواقع السعيد، وما أصبحت عليه أحوال الموحدين الذين انتهوا وقتها إلى ضعف كبير، وأصبح الزناتيون في وضعهم الجديد أقدر على التخطيط والتنفيد لتحقيق الهدف الذي كانوا يقصدون، خصوصا وأنهم أصبحوا على مقربة من رجالات الدولة الذين يجب الخلاص منهم حسب الخطة التي رسمها أبو بكر بن عبد الحق، وإذا ما عرف أبو بكر وقومه مزاحمة وتضييقا من بني يغمراسن الذين أدركوا من أهداف ومقاصد أبناء عمومتهم بنو مرين ما لم يدركه الموحدون الذين اكتفوا منهم بالولاء وحسبوه كسبا كبيرا يساعدهم على هدم خصومهم، ناهيك وأن خمسمائة مقاتل الذين قدمهم أبو بكر لجند الموحدين أصبحوا قوة فعالة في صفوفهم، يقودهم عياد بن يحيى إبن عم علي السعيد.

---

(479) الترجمان 301 ـ302 ـ مخطوط خاص ـ مصدر سابق.

الفصل التاسع والسبعون

طلائع بني مرين وتصفية الموحدين

إنتقل السعيد من فاس إلى وجدة، وفيها لقيه الخارج على الموحدين يغمراسن بن زيان ببني عبد الواد وأحلافه من العرب، ونزلوا جبل بني سنوس بمعتصم تامزيرديت، حيث كانت الحرب بينهما أياما، وفي تلك الأيام خرج السعيد يوما في وقت الهاجرة مع وزيره وبعض خدامه قصد استكشاف الطريق الموصل إلى القلعة، ولما رآهم عيون يغمراسن أخبروه فاعترضهم غفلة بقواته وأتى على جميعهم قتلا في منسلخ صفر سنة 646 هـ/ 1248م، فكان السعيد ووزيره وخصيه ضمن القتلى، واستولى يغمراسن على مخلف السعيد وحريمه وأمواله وسلاحه، ووقتها وجد بنو مرين الفرصة مواتية لتنفيذ خطتهم التي أخفوها يوم قدموا على السعيد بولائهم بعد حروب أدركوا عدم جدواها، لأنهم كانوا يعرفون نوايا بني عبد الواد بزعامة يغمراسن ضدهم، وإذا كانوا قد قرروا ما قرروه إثر حرب بهت، فإن عليهم اليوم وقد مهد لهم يغمراسن الطريق لتحقيق الهدف – أن يستنفروا قبائل بني مرين التي أصبحت تتمتع بقيادة خبير هو أبو بكر بن عبد الحق الذي نشأ وشب في جو المعارضة للموحدين الذين لم يعترفوا لقومه وما أبلوه في سبيلهم منذ مات سلفهم المخطط عبد الحق الذي كاد يأتي على البقية من الموحدين حين استولى على كثير من المدن، ولما غنم منها ما غنم في المغرب بعد الحرب التي خاضها المنصور مع الأسبان سنة 519 /1194م توفي من أثر جراحه فلم يلتفت إلى قومه، بل كان الموحدون يهدفون إلى القضاء عليهم بالحروب،وإذا كان أبو بكر قد عرف كيف يستفيد من التمهيد الذي مهده له سلفه عبد الحق الذي وزع كل ما حصل عليه من الغنائم على قومه دون أن يبقي لنفسه شيئا، مما جمع القلوب حوله، لكنه قتل وابنه إدريس سنة 620 هـ/ 1227م

أيام الناصر(480)، ومن وقتها أقسم كبار قبائل زناتة أن لا يدفن عبد الحق وابنه إدريس إلا بعد الثأر لهما، وكان ذلك حين لعبوا للسعيد باسم الولاء كما سبق، لكنه ما كاد يقتل غدرا من يغمراسن وبني عبد الواد الذين كانوا يحقدون عليه بسبب إصراره على إذلالهم بعدم قبول الولاء الذي بعث به يغمراسن إلا وقد قدم هذا الأخير بنفسه على السعيد الذي رد وزير يغمراسن الفقيه عبدون، وكان ذلك من رأي كانون بن جرمون، صاحب السيطرة على نفسية السعيد، كما كان الناصر تحت رحمة طالع النحس أبو سعيد بن جامع، والويل للشعب إذا أصبح رئيسه لعبة بين أهواء نفسه والسفلة المحيطين به،

هكذا ما كاد السعيد يقتل غدرا من يغمراسن وبني عبد الواد، ويحل مكانه عمر المرتضى بن إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن، والذي بويع إثر قتل السعيد غدرا في صفر 646هـ/1248م حتى أظهر بنو مرين شوكتهم من جديد بقيادة أبي بكر بن عبد الحق الذي عرف كيف ينتهز الفرصة، فنظم الجند وكون البنود، وحتى يمعن في إذلال القوم والقضاء عليهم ، كان قد أظهر ولاءه قبل حيلة بالدعوة لأبي زكريا ابن أبي حفص صاحب إفريقية، لكنه اليوم وقد قتل السعيد وبويع لابنه عبد الله الذي قتل في الطريق، فإن بيعة الموحدين لعمه عمر المرتضى ابن إبراهيم بن يوسف بن عبد المومن عامل مدينة الرباط، والذي بحق عرف كيف يخوض المعارك ضد بني مرين، عطلت سيرهم نحو التمكين لظهور دولتهم، بل صرفتهم عن بعض المدن التي كانوا قد احتلوها، لكن المرتضى انهزم بالقرب من فاس في 6 ج الثانية سنة 653 هـ/1255م، حيث تآمر عليه أهل فاس مع قائديه زنار، وشديد، الروميين وقتلوا عامله السعود، الأمر الذي دفع به للعودة إلى مراكش، وبعدما كان قد استخلص الكثير من المدن التي استولى عليها بنو مرين فإن رجوعه لمراكش مكنهم من الاستيلاء ثانية على فاس وسلا والرباط ثم تقدموا إلى أم الربيع، خصوصا وأن المرتضى بقي بمراكش لم يبرحها مدة ما يقرب من تسعة عشر عاما، مما أدى إلى قيام إدريس أبو دبوس ابن عمه وقائد جنده ضده، فخاف المرتضى على نفسه واحتمى ببني مرين الذين كانوا قد أصبحوا ملوكا بقيادة يعقوب بن عبد الحق

---

(480) الترجمان م خ ص 306، وعند غيره 614 وهو غير صحيح كما يدرك من السياق.

المريني بعد موت أبي بكر(481) ورفض بني مرين لولده عمر الذي عزله عمه يعقوب بوادي عكس في شهر رجب سنة 656هـ/1258م، وكان هذا بعد ما تقدم أولاد عبد الحق ببيعتهم إلى يعقوب المريني الذي لقب هو الآخر بالمنصور، كما تقدم له بالبيعة رؤساء مرين والأشياخ نيابة عن قبائل بني علي من الأشراف، وبني عسكر، وبني ينجاس، وبني وطاس، فكانت البيعة التامة ليعقوب بمدينة فاس في التاريخ المذكور قبل، وتلك بداية ظهور دولة بني مرين لتحل مكان دولة الموحدين التي عجل بالقضاء عليها بنات الروم، وأولاد بنات الروم والاعتماد على قواد الجند من الروم إلى جانب الطغات والمستبدين من القوم.

وبعد هذه المرحلة قطع بنو مرين أشواطا بعيدة في سبيل بناء دولتهم التي أصبحت مسيطرة على أكثرجهات المغرب إلى وادي أم الربيع، وإذا ما بقي أبو دبوس مهددا بمراكش، فإنه لم يجد بدا من طلب حماية يعقوب المنصور له ضد عمر المرتضى مقابل أن يتنازل له على نصف ما يملك من البلاد، فاستجاب لذلك المنصور وزوده بثلاثة آلاف من الجند، وعشرين ألف دينار، حاصر بهم المرتضى الذي كانت جيوشه متفرقة لجمع الزكاة في البلاد(482). ودخل الجند المعاكس للمرتضى مدينة مراكش يوم السبت 22 محرم 665 هـ/ 1266، فما أمكن للمرتضى غير الفرار بأولاده ومتاعه لأزمور عند صهره ابن عطوش الذي كان واليا عليها من قبله، وابن عطوش هذا كان أسيرا ببلاد النصارى فكه المرتضى بمال كثير، وأنكحه ابنته وولاه آزمور، فلما بلغه عمر المرتضى قبضه وولده وأخذ ما عنده من المال والمتاع ثم قيدهما بالأغلال ووجهما لابن دبوس فقتلهما في شهرربيع الثاني سنة 665 هـ/ 1267م، ولما استولى أبو دبوس على مراكش تنكر لصنيع

(481) الترجمان 310، وفي بغية الرواد أن المؤسس لأسرة بني عبد الواد بتلمسان هو جابر بن محمد بن يوسف بن زيدان ؟؟

(482) الترجمان 311 - 313 وفي الجذوة 162/1 - 163 وزعت جيوش المرتضى كيدا ودسيسة الأمر الذي دفع بالمرتضى إلى الفرار بنفسه صحبة الوزير أبو زيد بن يعلو الكومي، وأبو موسى بن عزوز الهنتاتي إلى كدميوة ثم إلى شفشاوة، ومنها إلى آزمور يقول صاحب القرطاس الذي وصف المرتضى بثالث العمرين لخلقه ونزاهته وحسن سلوكه وتصوفه حتى أن مراكش لم تعرف رخاء في تاريخها مثل ما عرفته زمن عمر المرتضى بن إسحاق بن يوسف بن عبد المومن رحم الله الجميع . راجع الاستقصا جـ 2 - 252 - 258 وجل ما فيه نقلا عن الزياني حرفيا.

يعقوب بن عبد الحق المريني ورد له الجنود الذين وجههم معه حسب الشرط المذكور، ولم يف بوعده ولما كتب له يعقوب يطلبه الوفاء أجابه بأقبح جواب، الأمر الذي أدى به الى العزم للقضاء على بقايا الموحدين والاستعداد لأبي دبوس حتى يصفي معه الحساب.

كانت مدة ملك المرتضى بمراكش تسعة عشر عاما قضاها في دعة وسكون ولما آنتهت كما أراد له قدره، بويع مكانه بمراكش إدريس أبو دبوس الذي لقب بالواثق، ومن أول أمره كان طالعه نحس، حين التزم ليعقوب بن عبد الحق الذي أمده بالقوة التي انتصر بها مقابل شرط آختاره هو، ثم نقضه تمردا واغترار، ونسي أبو دبوس أن الحكم على أمثاله في هذا الموقف السافل قد سبق فيه حكم الله تعالى إذ يقول "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه» ولم يقف عمل أبي دبوس عند هذا الحد، بل أشار على يغمراسن أن يعلنها حربا على يعقوب حتى يشغله، كما آنتقل إلى السوس حيث عرب الخلط وشيخهم عبد المومن بن أبي الطيب بتامزاورت، كما أرسل إليه يغمراسن بن أبي زيان ببيعته، الأمر الذي أدى بيعقوب الى الخلاص من يغمراسن بحرب شنها عليه قبل أن يستجيب لرغبة آبن دبوس فهزمه وقتل ولده عمر بوادي تلاغ بالقرب من وادي ملوية يوم الإثنين 12 جمادى الثانية سنة 666هـ/1267م ثم فر يغمراسن ونهب معسكره(483)، بعدها تفرغ يعقوب لأبي دبوس ثم توجه الى مراكش فحاصرها طويلا، ولما طال حصاره لها إستعمل مكيدة العودة لفاس حتى يتبعه الواثق وقد فعل، ولما وصل وادي أم الربيع إنقلب عليه، فنجحت خطة يعقوب المنصور، حيث قتل إدريس الواثق وقطع رأسه يوم الأحد 2 محرم سنة 668هـ /1269م، ودخل يعقوب مدينة مراكش يوم الإثنين 9 محرم من نفس السنة، ويومها تسمى بأمير المسلمين اقتداء بيوسف بن تاشفين، وكان قبلها يلقب بالأمير فقط،وإذا ما استقر المنصور بمراكش لتدبير أحوالها فإنه أرسل ولده عبد الواحد إلى بلاد السوس وأرض المصامدة، للقضاء على فتن الثوار والخارجين الذين ظهروا نتيجة

---

(483) تقول رواية بغية الرواد إن بني عبد الواد من عرب قيس غيلان، بن مضر، بن نزار، بن عدنان، وقد انتحل لهم زعما هذا النسب الذي قيل عنه إن عبد الواحد بن صطفور بن مطماط، بن هودج، بن قيس، بن غيلان، أخوال «الشريف» بن زيان، بن ثابت، بن محمد، «الشريف» ، وفي دائرة المعارف جـ 473/10 أن بني عبد الواد من البربر، وعنه أخذ زامباور في كتابه الأسر الحاكمة ج 112/1 ، وهو ما عند السويدي في سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، فهم بطن من بربر زناتة راجع ط مصر 103 كما سنرى بعد.

الفوضى التي سادت بعد موت المرتضى واستبداد أبي دبوس، في ظروف مضطربة، وعندما عاد الأمير عبد الواحد بن يعقوب من السوس إلا بعد ما وطد الأمن، وقضى على كل الثوار وأسباب الفتن، وقد هنأه اللغوي الأديب المالقي مالك بن عبد الرحمن بن المرحل بقصيدة مطولة(484).

وبعدما قضى يعقوب بمراكش تسعة عشر شهرا خرج منها في أول يوم شهر رمضان 669 هـ /1270م متوجها إلى درعة التي قضى في الطريق الوعر إليها مدة نصف شهر، وكانت الثورة قد انتشرت فيها، ولما قضى على الثوار الخارجيين، عاد إلى مدينة مراكش في النصف من شوال، ولما يمض على خروجه منها إلا شهر ونصف الشهر، ولما استراح من انحراف في الجسم إنتقل إلى رباط الفتح حيث أدركه عيد الأضحى، وفي فترة الإحتفال بالعيد أخذ البيعة بولاية العهد لولده عبد الواحد الذي كان قد فرض وجوده بالقيام إلى جانب أبيه في حروب كبيرة، وقد كان يتوفر على كل المؤهلات العلمية والأخلاقية(485)، وإذا ما غضب بعض أبناء عمومة يعقوب لهذا الاختيار أعلنوا عصيانهم، ونفروا بقواتهم وما لهم من عصبية إلى جبل أمرگو بقبيلة قشتالة، فإن تدبير المنصور قطع عليهم الطريق بحصار قيادتهم المتمثلة في محمد بن إدريس بن عبد الحق، وابن عمه موسى بن رحو بن عبد الحق، ثم طوح بهم إلى تلمسان.

إنتهت دولة الموحدين بموت إدريس الواثق أبو دبوس، وتم لبني مرين من قبائل زناتة حكم المغرب نهائيا بعد موت إسحاق بن إبراهيم صنو المرتضى بعد سنة 674هـ 1275م، وبذلك كانت مدة حكم الموحدين منذ ظهور المهدي سنة 515 هـ 1121 إلى أن قتل الواثق سنة 668 هـ 1269م نحو الثلاثة وأربعين ومائة سنة(486).

لقد كان يعقوب المنصور المريني بحق رجل دولة استطاع أن يذلل الصعاب التي اعترضت طريقه، وينتصر في مختلف الواجهات، فقد دخل الأسبان العرائش عنوة وأحرقوها، وكانوا دخلوا مدينة سبتة،(487) فتداركهم يعقوب ثم أخرجهم بعدما خربوها

---

(484) راجع الذخيرة 119.

(485) نفس المصدر السابق 122- 123-124 .

(486) في الحلل ص 43 أعد مائة سنة واثنين وخمسين سنة؟ وهو خلاف ما عند المراكشي ص 336 .

(487) الترجمان م غ 310.

وسبوا نساءهم، ثم أضرموا فيها النار(488) لكن المنصور إذا كان قد قضى على آخر محاولة لبقايا الموحدين بالقضاء على إسحاق صنو الموتضى مع بقية أهله، والتمكين لسلطانه في كل من السوس ودرعة، فإنه تفرغ للناحية الشرقية من البلاد، وما كادت تنتهي سنة 672 هـ/ 1273م، حتى كان حكم بني مرين بقيادة يعقوب قد عم من سجلماسة إلى طنجة، ولم يجد صعوبة في تأسيسه غير مالاقاه من أبناء عمومته بني عبد الواد الذين حاول يعقوب ما استطاع أن يتجنب حربهم، ثم راودهم الصلح فلم يقبل، وذلك في الوقت الذي كان يخطط فيه لغزو الأندلس التي تطاول الأسبان فيها حتى هجموا على سبتة والعرائش، وقتها راود يعقوب يغمراسن في الصلح حتى يتفرغ لمخططه لكن يغمراسن وقد ركبه الغرور رد على يعقوب(489) بقوله كما أوردت المصادر.

فلا صلح حتى نرى السيف والقنا — وتأخذ عبد الوادي منكم بثأرها
وأشفي غليلي من مرين التي طغت — بسبي غوانيها وقتل خيارها

فأجابه الملزوزي شاعر البلاط بقصيدة مطولة أثارت غيرة يعقوب الذي أعلنها حربا علي يغمراسن، حيث التقيا بوجدة فانهزم يغمراسن، ولحق به يعقوب إلى تلمسان التي حاصرها أكثر من ثلاثة أشهر، أرسل بعدها وهو محاصر لتلمسان وجوه وأعيان مرين إلى يغمراسن يراوده الصلح الذي صمم عليه يعقوب حتى لا يراق الدم بين الإخوة، لكن يغمراسن استمر في غلوائه بحجة أن يعقوب قتل ولده عمر وسبى حرائر آل زيان، وهنا وجد يعقوب نفسه أمام واقع لا اختيار معه، فاضطر إلي التخطيط للمعركة بطريقة يتجنب معها سفك دم أبناء العمومة.

كان ضمن جند يغمراسن فرقة من المرتزقة النصارى من الأسبان، كما كان منهم ضمن حرسه الخاص كذلك،(490) مما دفع بيعقوب بن عبد الحق أن يستعمل هو الآخر

---

(488) نفس المصدر السابق ويقول الزياني الذي اعتاد المزج بين تاريخ المشرق والمغرب انه : في هذه السنة668 هـ ورد الخبر بموت أرطغل بن سليمان، تولى مكانه ولده عثمان شاه جد آل عثمان ملوك "الروم".

(489) كان ذلك سنة 669 هـ /1270م.

(490) دأب الموحدون في أخريات عهدهم على استعمال النصارى كمرتزقة في صفوف جنودهم، وقد كان لذلك أثره في التعجيل بانهيارهم بعد ما عرفت دولتهم على يد إدريس المامون ما عرفت ممن كانوا طرفا في تحقيقه إلى جانب النساء الروميات اللائى أصبحن سيدات ببلاط الموحدين من وراء أولادهن الذين أصبحوا ملوكا.

فرقة من النصارى المرتزقة، بلغ عدد جنودها المآت، وضع على قيادتهم بعد قزمان الذي اختلف مع ألفونصو العاشر، ثم فر إلى بلاط يعقوب يرافقه خمسون من رفاقه، وعشرة من خدمه، أيام كان يعقوب المنصور محاصرا للجزيرة الخضراء، كما سنرى بعد.

وفي شهر رجب كان يعقوب قد انتهى من الاستعداد للمعركة التي جلب لها ما استطاع من قوة وجند وضع بعضه تحت قيادته، والبعض تحت قيادة ولي عهده عبد الواحد وأخيه يوسف، وفي النصف من الشهر المذكور سنة 670هـ/ 1271م أعلن حربه على يغمراسن، والتي بدأها بهدم مدينة وجدة، ثم انتقل إلى تلمسان التي حاصرها بشدة بعد ما نقل جل فرسان حامية الأسبان الذين كانوا مع يغمراسن، ثم أسر قائدهم برنيس في وادي اسلي، وفي هذه الحرب قتل الولد الثاني ليغمراسن فارس، الأمر الذي هد من كيان يغمراسن ثم عرضه للإنهيار، وتركه حطاما، وإذا ما عاد يعقوب إلى مدينة فاس في فاتح المحرم سنة 671هـ/ 1272م، فإن ولده عبد الواحد ولي العهد توفي في صفر من نفس السنة الأمر الذي دفع بيعقوب إلى التنقل عبر البلاد قصد إعداد الجو لصالح ولده يوسف الذي كان قد اعتزم أن يسند إليه ولاية العهد، وإذا ما انتهى به المطاف إلى مراكش ونفذ رغبته، فإن ذلك قد كلفه حروبا أخرى بأرض السوس أشرف عليها وزيره فتح الله بن عمر السدراتي، كما قامت أخرى بطنجة أشرف عليها بنفسه.

وهكذا أصبحت دولة بني مرين قائمة في الوقت الذي انهارت فيه دولة الموحدين، وتفككت إلى دول كونها ولاتهم في كل من إفريقية، وتلمسان، والأندلس، أولئك هم الحفصيون أبناء أبي زكريا بإفريقية، وبنو يغمراسن بتلمسان، وبنو الأحمر الذين انحازوا إلى غرناطة، وبنو هود أيضا بالأندلس، وهي الدولة التي أصبح لها مجال في تاريخ المغرب السياسي، وبين كبار المؤرخين المغاربة،(491) الأمر الذي يحتم علينا التعرف على أصول هؤلاء (بني مرين) قبل أن نستمر في إنجازات مؤسسها وما قام به في الأندلس وما حقق من نصر.

وختاما لقد انتهت دولة الموحدين، والنتيجة هي : أن كل دولة قامت أسسها على الدين يكون زوالها والقضاء عليها حين يتحول الخلف إلى مفترين على مقاصد السلف،

---

(491) راجع العبر 593/6، والترجمان 302 إلخ .

وذلك ما حصل لكل ما بناه الموحدون السابقون، يتقدمهم عبد المومن بن علي، الذي كان بحق مثال الرجل المسلم العظيم، لكنه مع ذلك لم يضع الأسس الراسخة لما حصل بعده من بناء لم يعتمد الدين القوى السليم، بقدر ما اعتمد القوة والعنف والشدة والبطش، حتى إذا ما ضعفت كان للضعيف الهلاك، وإذا ما اشتدت، كان للشديد الظهور إلى حين، وما عرفته الدولة من عظمة بعض العلماء الذين ظهروا في عهدها والذين أصبحوا عالميين بعدها، لم يكونوا من نتاج المجتمع الذي عرفته دولة الموحدين، بل كانوا وهو الأرجح من نتاج بيئتهم أولا، وقليل من أثر الحاكم إن هو كان من أهل العلم ثانيا، ولا يعرف من الموحدين بهذا غير ثلاثة عبد المومن، وولده يوسف، وحفيده يعقوب المنصور الذي بزواله بدأت الدولة في الانهيار كما رأينا وقد غزاها الدخلاء من الداخل.

إن سرعة زوال ملك الموحدين وآثارهم بالطريقة التي سجلها التاريخ كان السبب فيها كما سبق لغيرهم الذين هم المرابطين، هو عدم اهتمامهم بالشعب المعني بكل ما اتسموا به من حضارة، بل كانت علاقة ملوك الموحدين بالشعوب التي خضعت لحكمهم من سويقت بني مظعون شرقا بليبيا وحدود مصر إلى شاطئ المحيط الأطلسي ثم الأندلس، مستمدة من نظرة قوادهم الحربيين إلى تلك الشعوب، ونظرة القواد وما تتسم به من عنف وشدة وقهر، هي في كل زمان وفي كل مكان خصوصا من القواد الذين نشأوا وشبوا تحت سلطة العنف والشدة والقهر لاتؤدي لغير المنحدر المفضى إلى الهاوية التي يقبر فيها الطغيان.

صحيح أن عبد المومن هو أول ملك في العالم الإسلامي العربي فرض التعليم الإبتدائي وجعله إجباريا في حق كل مكلف من الرجال والنساء، لكن ذلك كان منه قصد التمكين للمهدوية كعقيدة ووسيلة التمكين لدولته، وإذا ما تعلمت المرأة في عهد الموحدين، فإن تعليمها كان أكثر بين بنات أسرة عبد المومن اللائي ظهرت منهن زينب بنت يوسف بن عبد المومن التي عرفت بنبوغها في مختلف العلوم، وحتى حفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية، وورقاء بنت ينتان الفاسية، وأم العز العبدرية، وأم المجد مريم بنت الشيخ أبي الحسن الغافقي، وخيرونة، والطبيبة أم عمرو بنت أبي مروان بن زهر، هؤلاء النسوة لا نجد مثلهن في قرية من قرى المغرب أو باديته، مما يستدل به على أن الحركة كانت في المدن فقط، بل وفي الأسر التي لها سابقة في مجال المعرفة.

هذا ورغم كل ما سبق فإننا لا نفقد آثار الموحدين العمرانية في مختلف مدن غرب الكبير من تونس شرقا إلى سوس غربا، ثم الأندلس، خصوصا مراكش، وتينمل، سلا، والرباط، وفاس، وتازة، وتلمسان، وتاهرت، وبجاية والجزائر، وجبل طارق، شبيلية، وبطليموس، وقرطبة، ونجد من آثار علماء عصر الموحدين في مختلف مجالات عرفة في القرآن والتفسير، والحديث والفقه، وفي النحو، والأدب شعرا ونثرا، وكذا في تاريخ والجغرافيا، والفلك،والرياضة، والهندسة والحساب وفي علوم الطب، والصيدلة، زراعة، وغيرها إلا أن كل ذلك بعد لم يتناوله الدارسون المغاربة المعاصرون بما يكفي ن الكشف والتمحيص، وعسى أن يفعلوا فيخرجوا للناس من كنوز المغاربة وتراثهم ما عتز به الفكر الإسلامي العربي في هذه الديار.

إن آخر كلمة نودع بها دولة الموحدين هي أنها لو لم يكن من فضلها غير ما أنتجه بن رشد وطبعا بدافع اهتمام يوسف ويعقوب المنصور مما أفادت منه الإنسانية جمعاء كني لأنه إذا كان للفلسفة القديمة فضل في تقدم الفكر البشري، فإن الذي قدمها له هو ابن رشد، الذي رغم كل ما عرف من محن يرتفع قدرا وتعظيما فوق كل الذين عاصروه، ل والذين جاؤوا بعده وقد أنار لهم الدرب وعبد لهم الطريق.

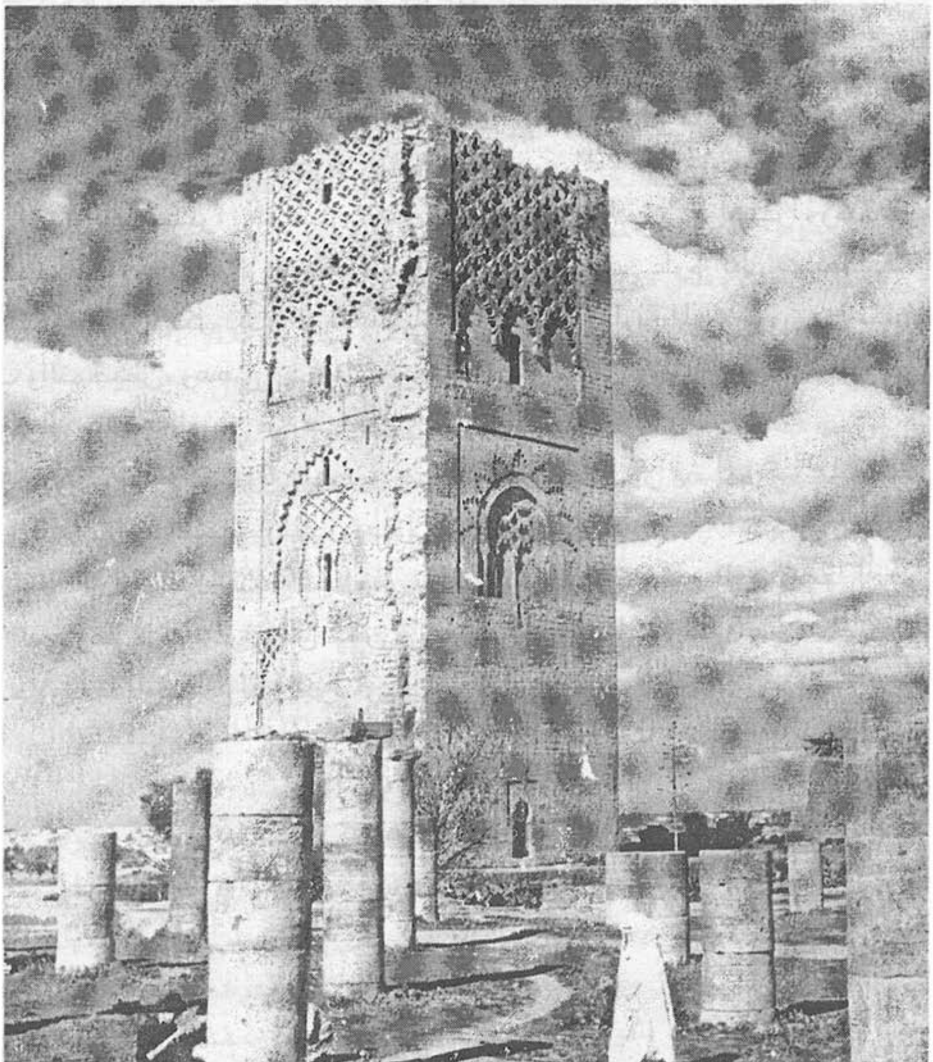

هذا الجامع ومنارته بالرباط من آثار يعقوب المنصور الموحدي الذي من آثاره كذلك منارة جامع اشبيلية بالاندلس ومنارة الكتبيين بمدينة مراكش. وفي سنة 641هـ/1243م نقض على السعيد أمير الموحدين اخشاب هذا الجامع وصنع بها المراكب لكنها احرقت بسبب ثورة شده بوادي ازمور سنة 643هـ/1243م راجع الذخيرة السنية ص62-66 ط 1972م.

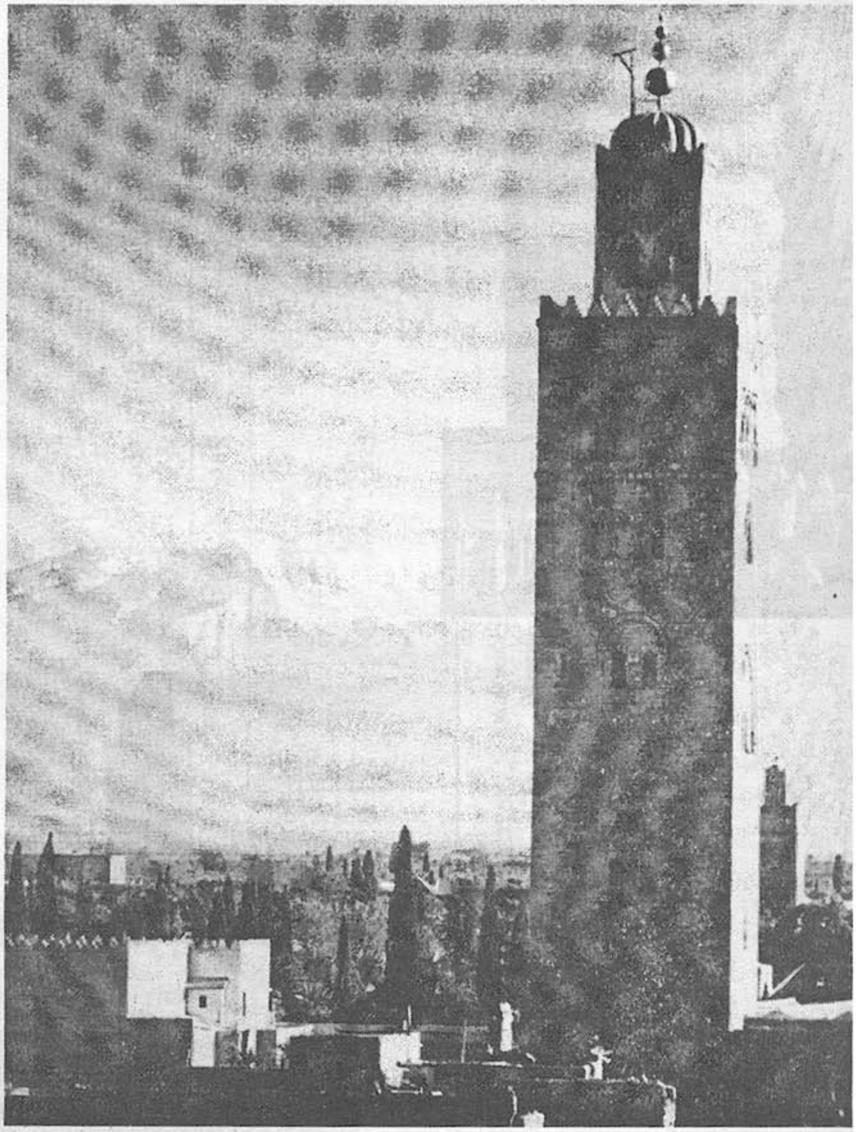

منارة الكتبيين بمدينة مراكش

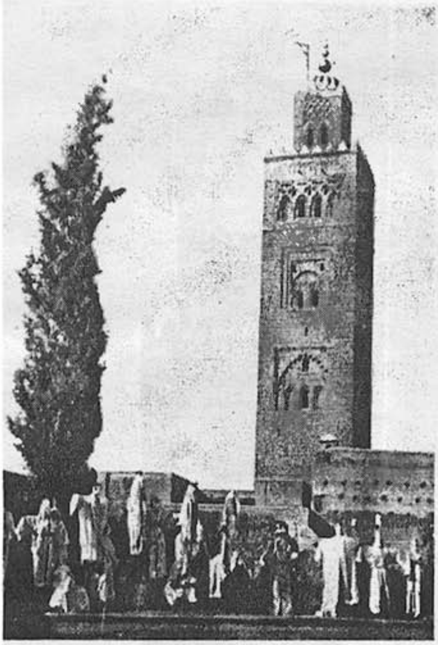

منارة جامع الكتبيين بمدينة مراكش
وهي من بناء الموحدين

المسجد الجامع لمدينة تازا وهو
من بناء الموحدين

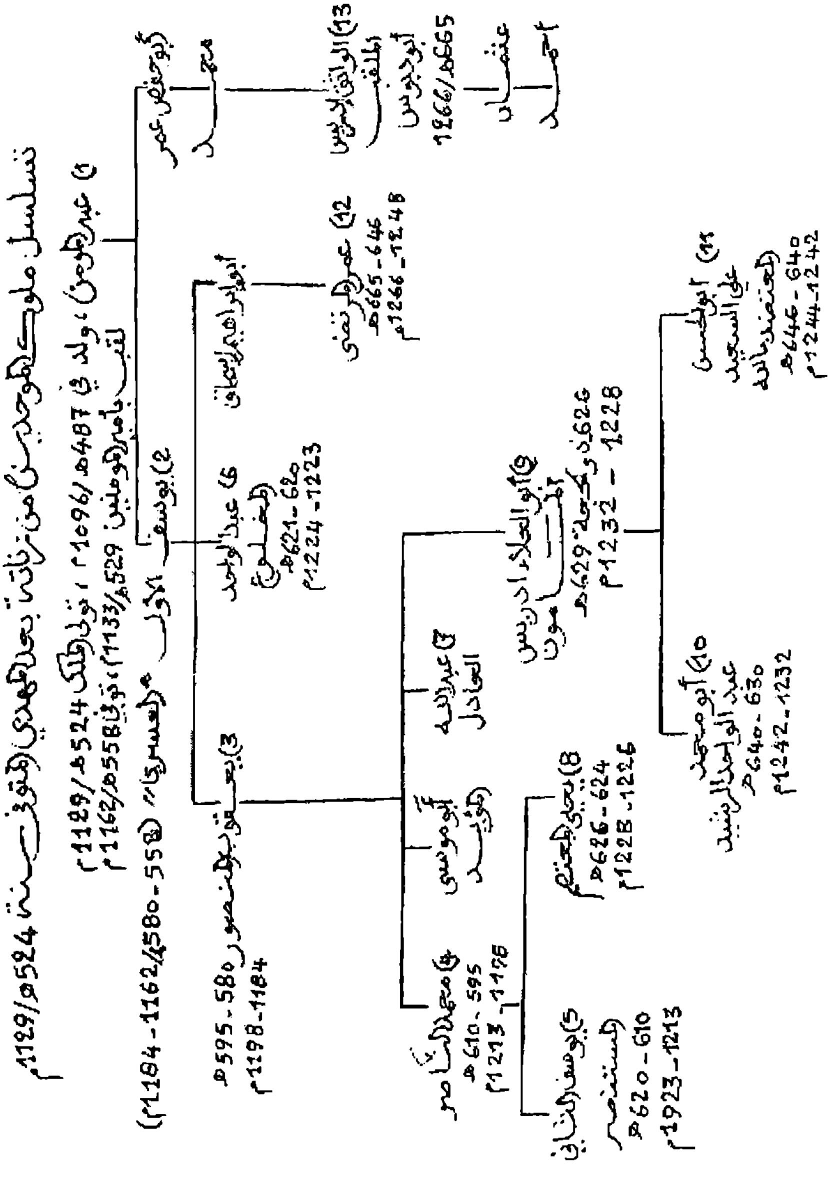

(492) الترجمان لأبي القاسم الزياني قبل والأسرات الحاكمة لزامباور جـ114/1 وابن أبي زرع 160-162 والعجب 17-336 والدخيرة السنية ص55 ط الرباط 1972

الموحدون الذين ملكوا

	هـ	م
محمد بن عبد الله "المهدي بن تومرت" = بو تامارت ومعناه الألحى	515	1121
1- عبد المومن بن علي الگومي	524	1129
2- أبو يعقوب يوسف الأول المعروف بالعسري جمادى الثانية	558	1162
3- أبو يوسف يعقوب المنصور	580	1184
4- محمد الناصر بن يعقوب المنصور	595	1198
5- "أبو يعقوب" يوسف الثاني المستنصر	611	1214
6- أبو محمد "عبد الواحد المخلوع بن الرشيد	620	1223
7- أبو محمد "عبد الله العادل بن يعقوب المنصور	621	1224
8- يحيى المعتصم بالله	624	1226
9- أبو العلاء إدريس المامون توفي في ذي الحجة 629 هـ	626	1228
10- أبو محمد عبد الواحد الرشيد بن إدريس المأمون توفي 10 ج 2س640	630	1230
11- "أبو الحسن" علي السعيد المعتضد بالله جمادى الثانية	640	1242
12- "أبو حفص" عمر المرتضى بن إسحاق	646	1248
13-"أبو العلاء" إدريس الواثق بالله بن أبي عبد الله بن عمر بن عبد المومن	665	1266

(إنقسام الدولة حيث آستولى بنو مرين على مراكش سنة 668)

ولاة بني حفص وسلاطينهم بتونس

	هـ	م
1- أبو زكريا الأول، إستقل عن الموحدين	125	1227
واتخذ لقب أمير		
2- أبو عبد الله محمد الأول المنتصر،		
اتخذ لنفسه لقب الخليفة بعد سقوط		
العباسيين. وأيده شريف مكة أبو نمي		
محمد الأول(493)	647	1249
3- أبو زكريا يحيى الثاني الواثق خلعه		
إبراهيم "الأول"	675	1276
4- أبو إسحاق إبراهيم الأول، أعدم		
سنة 681هـ، ثار بعد الانقسام أحمد		
بن مرزوق بن المدعى في		
رمضان 681 هـ(494)	678	1279
5- أبو حفص عمر الأول "بتونس"		
أبو زكريا يحيى المنتخب لاحياء دين الله بن إبراهيم		
الأول سنة. 683 هـ ببجاية حتى سنة 698هـ	683	1284
6- أبو عبد الله أبو عصيدة محمد الثاني بن يحيى		
الثاني بتونس	694	1294
7- أبو بكر الأول الشهيد بن يحيى الأول ببجاية، ثم انفرد		
بالحكم أبو بكر الثاني ببجاية وقسنطينة 711هـ	709	1309

(493) العبر 280/6 والحميري م خ نا 125/2.
(494) العبر 302/6.

8- أبو البقاء خالد الاول الناصر"وحده"(495)		
لكن أبعد بقوات مصرية انتصرت لأبي يحيى زكريا	709	1309
9- أبو يحيى زكريا اللحياني بن أحمد بتونس	711	1311
10- أبو ضربة محمد الثالث المنتصر بتونس	717	1317
11- أبو يحيى أبو بكر الثاني المتوكل	718	1318
12- أبو حفص عمر الثاني	747	1346
حكم بني مرين 1- أبو العباس أحمد الأول		
الفضل بقسنطينة وبجاية 749هـ أبو زيد		
عبد الرحمن بن أبو بكر بقسنطينة 749		
أبو عبد الله محمد المنصور بن زبي بكر الثاني		
ببجاية 749هـ		
13- أبو العباس أحمد الأول الفضل المتوكل نهائيا	750	1349
14- أبو إسحاق إبراهيم الثاني المستنصر	751	1350
بتونس حتى 770هـ(496)، إستولى بنو مرين علي بجاية		
عام 754هـ، ثم احتلوا إفريقية 758هـ(497)		
15- أبو البقاء خالد الثاني بن إبراهيم الثاني "بتونس"	770	1368
16- أبو العباس أحمد الثاني المستنصر "وحده"	772	1370
17- أبو فارس عبد العزيز المتوكل بن أحمد الثاني	796	1393
18- أبو عبد الله محمد الرابع المنتصر		
بن محمد (ذي الحجة)	837	1433
19- أبو عمر عثمان بن محمد الرابع (صفر)		
20- أبو زكريا يحيى الثالث بن مسعود		
بن محمد الرابع	893	1487
	839	1435

(495) إنفرد بالحكم بعد ذلك سنة 699.

(496) استقر بتونس، وتوفي في المحرم 793هـ.

(497) أبو عبد الله محمد المنصور إستقر ببجاية 761هـ.

	هـ	م
21- أبو عبد الله محمد الخامس المتوكل بن الحسن بن مسعود	899	1493
22- أبو عبد الله محمد الحسن بن محمد الخامس(498)	932	1525
23- أحمد بن الحسن(499)	948	1541
24- أبو عبد الله محمد السادس بن الحسن عامل الاسبان(500)	981	1573

بنو زكريا بجزيرة جربة
(عمال بني حفص شبه مستقلين)

1- أبو زكريا يحيى "خضع للعثمانيين
2- يحيى بن زكريا
3- سعيد بن يحيى: ومعه أخواه أحمد وصالح في وقت واحد، الغزو الفرنجي ثم الفتح العثماني، بقيادة بيالة باشا.

بنو مزني بالزاب
(حاضرتهم بسكرة)

	هـ	م
1- علي بن مزني	740	1339
2- حسن بن مزني		
3- أحمد بن مزني		
4- علي بن مزني		
5- أبو العباس بن مزني		

(498) بعد الفتح التركي الأول بقيادة خير الله بن بربروسن 941هـ، وفيه أبعد الحسن وأعيد 942هـ.
(499) الفتح التركي الثاني.
(500) تم فتح الأتراك لتونس نهائيا، وقد دام حكم الحفصيين 378 سنة.

الفصل الثمانون

أصول المرينيين من زناتة بالزاب وظهور سلطانهم في المغرب

ينتسب المرينيون إلى مرين وهو الجد السابع لمؤسس دولتهم الذي هو يعقوب، بن عبد الحق، بن محيو المتوفى سنة 592هـ/ 1195م فهو عند بعض المؤرخين عبد الحق، بن محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد بن كرناط بن مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر، بن يخفت، بن عبد الله بن ورتنيد بن المعز بن إبراهيم بن سجيح بن وانيش بن يصليتن بن مسرى بن زاكيا بن ورشيك بن زانات بن جانا بن يحيى بن تمزيت بن ضريس وهو جالوت الأول ملك البربر "بن رجيح ماذغيس الأبتر بن قيس بن عيلان بن نزار بن معد بن عدنان(501).

والمرينيون بطن من زناتة إخوة بني عبد الواد ملوك تلمسان كما هم إخوة جراوة ومغراوة، ومغيلة، ومديونة، وغيرها من البطون المشار إليها قبل(502)، وقد كانوا قبل في الزاب من إفريقية، ومنه تنقلوا خلف التلال كرعاة إلى أن وصلوا جرسيف على ضفاف ملوية حيث لاتزال أصولهم حتى اليوم، وقد تعربوا، ويعرفون بأولاد بن لحلو،(503) وفيهم أشراف من الوادغيريين حلوا بينهم، فأخذوا اسمهم، مثل السابقين، كما يعرفون في

---

(501) راجع الحلل 144-145-154 وابن عذارى 1/65-66، وهذا زعم باطل لأن جالوت لا ينتهي الى عدنان، وصاحب هذا الزعم هو ابن الأحمر الذي أورده فيما سماه روضة النسرين، وهو ما سنشير اليه بعد في تعليق(506)، راجع المسند لابن مرزوق - 107/ط الجزائر 1981/ تحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا.

(502) راجع أصول البربر. ج1 من هذا الكتاب.

(503) موطنهم أوطاط وميسور، وقال عنهم إبن عذارى ج1 ص66 نقلا عن رجار: وبنو مرين من العرب المريحيون؟ وقال فيهم في صبح الأعشى 1/362 وعنه نقل في نهاية الأرب 419 حيث قال: بنو مرين بطن من زناتة من البربر وهم: بنو مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن وجريج بن فاتن بن بدر يحفت بن عبد الله بن زرتبيص بن المعز بن إبراهيم بن زحيك بن واشين بن نصيبين بن سراء بن أحياء بن ورسيك بن أديث بن جانا، وجانا عرفنا به في غير هذا المكان وهو جالوت.

مدينة فاس باسم لحلو(504) وقد سبقت الإشارة إلى سبب دخولهم جيش الموحدين قبل موقعة العقاب سنة 609هـ 1212م كما حصلت قبل حروبا بينهم وبين أبناء عمر منهم من بني عبد الواد بسبب امرأة، فكان ذلك من عوامل مراسهم بالقتال، وتعرفهم على جند الدولة وأسرار العلاقة بين رجالاتها وما آنتهى إليه كل ذلك من تمزيق أخريات عهد الموحدين مما زاد في طموحهم، وتعلقهم بالنفوذ والسلطان الذي بدأ طموحهم وتعلقهم به منذ عهد محمد بن وزير بن فكوس، وابنه المخضب بن عسكر، ثم آبن عمه أبو بكر وولده محيو ثم عبد الحق، وتقول الرواية التاريخية إن مؤسس الدولة المرينية الذي هو أبو محمد عبد الحق ولد بالزاب من أرض إفريقية سنة 552هـ/1157م كما سجل التاريخ في حقه أنه كان على جانب كبير من الدين والخلق(505) الأمر الذي دفع به للمشاركة في الجهاد بالأندلس ضد الاسبان آخر أيام الموحدين كما سبق، لكنه وقومه تعرضوا لما أثار حقدهم وكراهيتهم ضد الموحدين، فانقلبوا ضد السلطة المركزية وخاضوا المعارك الضارية ضدها في شرق البلاد وغربها، وإذا ما تعددت آنتصارات بني مرين، فإن الموحدين الذين

---

(504) عرف بهم الزياني في كتابه "تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء" حين كتب مشيدا بالذين وقفوا الى جانب المولى سليمان لمازور السودي عبد الواحد وعبد المالك البيعة ضده لصالح إبراهيم بن اليزيد، راجع المصدر المذكور خ ع 241ك ومعه التاج والإكليل ص160، وكتابنا التاريخ المفترى عليه ص68 ط1969 وفي عبد المالك المرى السودي يقول: ثم شايعهم فيما آقترفوا، ومعينهم فيما بدلوا وحرفوا وطمعوا بالقضاء وأنصفوا، وليته لو طلب عليهم الحسبة فقد كانت لسلفه رتبة، أو تبع طريقة والده في القود وكراء البيوت، والجمع بين النسر والحوت، ولما كسدت به الصنعة وقلاه من كان يأتيه، شاعت به الابنة، إن قلت خنثى فلست بعابث أو حلفت أنه أنثى، فما أنت بحانث، فقد كان مرحاضا يبول به المسلمون واليهود، ثم صار مأبونا يأتيه السفلة والأفاريد والشهود، فكيف يصلح حال قوم قدموه؟ أم كيف يتم عمل من في خدمتهم أقاموه؟ فلا يصلح عبد المالك المرى إلا بالسعي في طرق المناكر والخزي، راجع ت رقم 84-85 من التاريخ المفتري عليه ص72-73 فقد وصفنا فيه كلا من السوديين وغيرهم من الذين آشتهروا بما وصفهم به أبو القاسم الزياني من الابنة وفساد الاخلاق قديما وحديثا اشتهر البوحاطي عبد القادر وعن السيد عبد الرحمن لحلو

الذي قال عنه الزياني "ديوانه من الحكم والنفائس لا يخلو ونسبه في مرين مجلو" أي واضح وظاهر، ومن قبائلهم المشهورة بني عسكر، وبني وطاس وبنو الكأس، وبنو يابان، وبنو تنالفت، وبنو فرنت، وربما هي المحرفة عند أهل فجيج الى بني جرنيت حيث قلبت الفاء جيما، وبنو يرنيان.

(505) راجع إبن خلدون في العبر، والزياني في الترجمان المصدرين السابقين، وكذا روضة النسرين لابن الأحمر، وهو الذي ربطهم بعدنان، ولعل السبب واضح من ظروفه رحمه الله، والتاريخ والواقع يناقضه بل هو نفسه إنما سلك ما قال به صاحب الذخيرة السنية الذي لفق لهم الإنتساب لعلي بن أبي طالب راجع الاستقصا 4/3 وما بعده.

آل أمرهم إلى ضعف زمن الناصر بن المنتصر، قد جمعوا شتاتهم لتركيز الهجوم على بني مرين بشكل لم يكن في حساب عبد الحق الذي قتل في معركة مع عرب رياح على مقربة من "تافرطاست" المتصلة بشمال زرهون "فرطاسة اليوم"(506) وذلك يوم 22جمادى الثاني 614هـ/ 1217م، كما قتل معه ولده إدريس المعروف بأبي سعيد، وهو الذي حقق بعض أهداف والده وقومه الى أن قتله ربيب نعمته وهو علج رباه صغيرا، طعنه بسهم حربة في منخره فمات لحينه 638هـ/ 1240م.

وإذا كان أبو سعيد عثمان قد قضى في القيادة مدة ثلاث وعشرين سنة وسبعة أشهر، فإنها كانت كافية لقطع مسافة هامة في سبيل التمهيد لقيام الدولة المنشودة وإضعاف الخصوم من أعقاب الموحدين، وهكذا قام بعد أبي سعيد عثمان أخوه محمد بن عبد الحق المعروف بأبي معرف لمدة أكثر من سنتين حين قتل هو الآخر بيد أحد الروم من أصحاب أبي الحسن علي السعيد بن إدريس المامون الموحدي، عشية يوم الخميس 9جمادى الثانية سنة 642هـ/ 1244م ليحل محله أخاه أبو بكر بن عبد الحق، الذي كان قد تكون في مدرسة الثورة وتطورها فعرف كيف يؤمن الجانب الشرقي من منطقة وجود بني مرين، وذلك حتى لا يتعرض القوم لهجوم مضاد من الحفصيين إن هو نظم المهاجمين من قومه ضد الموحدين، وقد سلك أبو بكر لذلك سلوكا دل على حنكة ومهارة حين سالم الحفصيين، ثم أظهر الولاء بالدعوة لصالحهم حتى يكونوا إلى جانبه قوة ضد الخصوم التقليديين، وهم بنو عبد الواد، بل بآسم الحفصيين دخل مدينة فاس سنة 643هـ/ 1245م، خصوصا وأن أبا زكريا الحفصي الذي آستقل ضد المامون الموحدي قبل، ثم تقدم بجيوشه فاستولى على قسنطينة وبجاية والجزائر، وتقدم بجيوشه كذلك نحو تلمسان التي كان هوارة قد أباحوها سنة 639هـ 1242م في الوقت الذي تولى فيه أبو معرف محمد بن عبد الحق قيادة بني مرين بعد موت أبي سعيد، وهي السنتان اللتان سبقتا ظهور أبي بكر، والتي كانت فترة حاسمة بين موت أبي سعيد وظهور أبي بكر بن عبد الحق.

كانت عملية الوفاق والولاء من أبي بكر المريني لأبي زكريا الحفصي مؤامرة أتقن حبكها مما جر جيش الموحدين للقيام بأكبر هجوم بعد الذي قام به السعيد الموحدي الذي

---

(506) الترجمان المعرب للزياني 310.

جمع ما أمكنه من الجيوش لمحاربة أبي بكر بن عبد الحق وقومه، لكن أجل السعيد كان قصيرا رغم إفتكاكه مكناسة، حيث توفي أبو الحسن علي السعيد المعتضد بالله الموحدي، يوم 30 جمادى الثانية 640هـ/ 1242م ليتولى مكانه كما سبق عمر المرتضى ثاني عشر ملوك الموحدين، والذي انهزم هو الآخر حسب الخطة التي وضعها بدقة أبو بكر سنة 65هـ 1255م، وإذا ما قضى أبو بكر على بقايا الموحدين ثم دخل فاسا دخول المنتصر، فإنه توفي فيها في شهر رجب سنة 656هـ ثم دفن داخل باب الجيزيين من عدوة الأندلس، بعدما قاد قومه أربع عشرة سنة وأشهر، تولى بعده القائم يعقوب الذي يعتبر بحق الفاتح الذي مكن للدولة الناشئة ثم وحد البلاد تحت سلطانها بفتحه آخر معقل هو مدينة سجلماسة يوم الجمعة 3 ربيع الأول سنة 673هـ/ 1274م، بعدما جمع حوله الى جانب مرين وكما سبق قبائل هوارة وتازة ورجراجة واتسول ومكناسة وبطيوة وقشتالة وسدراته ثم بهلولة ومديونة، بل هو الذي حرر بني مرين من تلك القيود التي آلتزم بها أبو بكر للحفصيين، ذلك أنه عندما أخذت دولة الحفصيين تتراجع الى الوراء بعد عهد المستنصر بالله، وتولية الواثق الذي نازعه عمه أبو إسحاق، ثم تعرض هذا الأخير لمثل ما فعل من ابن أبي عمارة الذي آغتصب ملكه ثم قتله قرب بجاية سنة 682هـ/ 1292م، فإن المرينيين الذين تمكنت قوتهم ورسخت أقدام دولتهم بقيادة يعقوب الذي قادهم من نصر إلى نصر، قد خطوا خطوة جريئة بمحاربتهم الاسبان في الأندلس، مما زادهم قوة وتمكينا ثم توجه المغاربة الى ما كان قد أهمل في أخريات الموحدين من أمر تلك البلاد حتى أصبح أهلها يستنجدون بالحفصيين خصوصا أهل بلنسية، ومرسية وإشبيلية، وشريش وجزيرة طريف حتى إنهم دانوا بالولاء لأبي زكريا الحفصي، إلى أن توفي ببونة "عنابة" سنة647هـ/1249م، فكان الذي ينجدهم ويقابل الاسبان، هو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي أفاد من ذلك كل الفائدة عندما كان قبل يخطط لتركيز دولة بني مرين بعيدا عن الحفصيين الذين آكتفوا منه بالولاء.

الفصل الواحد والثمانون

بنو مرين والاندلس

لم ينته المنصور من فتح عاصمة مدن المغرب القديمة بالجنوب سجلماسة يوم الجمعة 3 ربيع الأول سنة 672هـ/ 1273م، والتي قضى فيها على بني زيان، وما جمعوا فيها وحولها من عرب المعقل والمنبات، وذلك بعدما عقد ولده يوسف الصلح مع العزفي صاحب سبتة، وبعد فتحه لمدينة طنجة التي كان العزفي قد آستولى عليها بعد قتل عاملها، لم ينته يعقوب من كل ذلك حتى وجد نفسه مدفوعا الى التوجه نحو الأندلس لرد غارات المسيحيين، خصوصا وأن آبن الأحمر قد طلب منه النجدة بعدما آحتل الاسبان مدينتي قرطبة وإشبيلية، مما آضطر آبن الأحمر الى أن يلتجئ الى الشاطئ حيث آتخذ غرناطة عاصمة بعد ما بنى بها قصر الحمراء، وإذا ما آعتزم المنصور الجهاد بالأندلس فإن جيوشه، تجمعت بطنجة بعدما حاصرها مدة أشهر من سنة 673هـ 1274م(507)، وإذا ما حاول يغمراسن في هذه المرحلة إثارة الفتن ليجدها ال العزفي في طنجة، وآل إدريس بن عبد الحق وأولاد رحو بالأندلس التي كان قد أرسلهم إليها سنة 660هـ/ 1261م قصد الخلاص منهم، يجدوها فرصة لنقض ما كان لهم من عهد مع يعقوب، لكنهم لم يفعلوا بل حاول المنصور معالجة الموقف سياسيا حين أرسل ولده يوسف إلى يغمراسن قصد عقد الصلح بينهما، كما أرسل في نفس الوقت حفيده منديل الى قصر الجواز ليجد في عونه قوات العزفي صاحب سبته الذي خيب آمال يغمراسن، كما سيجيبه آل إدريس وأبناء رحو من بني مرين الذين تناسوا وقتها خلافاتهم مع إبن عمهم يعقوب بن عبد الحق.

خرج المنصور من فاس، في قوات جنده وجموع المتطوعين للجهاد، ولما نزل بقصر الجواز أمر حفيده منديل بالنزول في طريف بعدما آجتاز البحر مع الجند، وما كاد منديل

(507) راجع الترجمان 310، وروضة النسرين، والحلل 147م ط1936.

ينزل بطريف حتى شرع في القتال، ولم يتوقف الى أن وصل مدينة شريش، ولما بلغ المنصور أن حفيده لم يجد مقاومة في طريقه آجتاز البحر في آخر يوم من شهر، صفر، عام 674هـ/1275م، ونزل بطريف دون أن يشعر به أحد، ثم آتجه الى الجزيرة الخضراء، حيث قدم عليه آبن الأحمر وابن اشقليولة بجند الأندلس(508)، وكان بين آبن الاحمر وآبن اشقليوله شنآن وبغض كبير، وهو سبب ظهور الكفار عليهما(509) فأصلح المنصور بينهما وتوجها تحت ألويته للجهاد ضمن بقية جنده، إلى أن نزل غرناطة، ولم يقم بها، بل جد السير إلى أن وصل الوادي الكبير ثم أنزل جنده حيث آستولى على ما به من بقر وغنم، ثم عرج على المدور الذي أطلق فيه يد الجند وحين عودتهم إلى سجة إعترضهم الزعيم دقنة في جمع كبير من جيوش الفونس، قيل إن تعدادهم نحو السبعة آلاف(510)، فكانت الدائرة على الزعيم دقنة ومن معه جميعا، وإذا ما آستشعر آبن الأحمر الخطر من قوة بني مرين ثم خاف من سطوتهم، وظن بزعيمهم أنهم سيحاولون إذلاله، مادام لم يقم بغرناطة، وقد دخل الأندلس من أجل نجدته، فإن آبن الأحمر رغم كل ما حصل من ألفونسو العاشر ضده وضد بلاده، أراد أن يتملقه حين فصل رأس الزعيم دقنة من بين القتلى، ثم نظفه ووضعه في ربيعة وبعث به الى ألفونس ليكون له ذلك يدا عنده(511). لكن القدر سيكون بالمرصاد ليعكس ما دبر ابن الأحمر حين يدب الخلاف بين ألفونس العاشر وأحد سفرائه الى يعقوب المنصور وهو قزمان الذي طعن أحد أقرباء الفونس في نسبه أي قزمان بمحضر ألفونس، وعلى مرأى ومسمع من رجال البلاط بدون أن يبدي الملك آعتراضا ما، فطلب أن تعطى له شهادة تثبت نسبه كما هو المألوف في شريعة قشتالة، وبادر مع خمسين من أصدقائه وعشرة من خدمه يعرضون خدماتهم على أبي يوسف

---

(508) الترجمان 311، وبروكلمان 197/2.

(509) نفس المصدر السابق.

(510) نفس المصدر 311 وتقول بعض مصادر الاسبان المشكوك في صحتها: إنه حارب تلمسان، ولم ينتصر عليها، ولذلك توجه الى الأندلس بعدما آحتل سبتة، وإن يعقوب أمضى معاهدة مع المسمى خايمي الأول صاحب برشلونة، في 8 نوفمبر 1274م، ورد فيها أن ملك أراغون سيعير ليعقوب عشرين سفينة مسلحة وعشر مراكب وخمسين زروقا صغيرا، و500 فارس كل ذلك مقابل مائة ألف بيزيطة سبتية الخ. راجع مجلة الأنوار التطوانية س6 ع22 مارس وإبريل 1951 ص26.

(511) الترجمان المصدر السابق 311.

وهو بالجزيرة الخضراء، فما أن علم ذلك حتى أرسل للترحيب به قائد اللفيف الأجنبي للمرتزقة الاسبان غارسي مارتنيث دى گايگوس، على رأس ستمائة مسيحي، من الجنود الذين كانوا تحت إمرته، ثم آستقبله بنفسه إستقبالا حارا، وجعله قائدا لحرس القصر، ورئيسا لكل النصارى الملتحقين بخدمة المنصور(512) الى غير ذلك مما نجد عند الاسبان مبزوزا وغير موثق حول هذه المرحلة، وقد أوردنا ما سبق لنرد به على ما صدر من ابن الأحمر، من خيانة ومحاولة غدر من وراء ستار صدر من رجل معتمد عند ملك الاسبان، جهارا وعلانية بلا oجل ولا وجل.

بعد أربع سنوات 677هـ/1278م رجع المنصور الى الجزيرة الخضراء حيث قسم الغنائم وأمر ببناء المعسكر المجاور بعدما آستولى على إشبيلية وقرطبة، ثم قفل راجعا الى المغرب ليبدأ عمله ببناء المدينة البيضاء.. فاس الجديد.. مقر سكناه وحاشيته وجنده، وقد أحضر يوم وضع حجرها الأساسي الإمامين إبن الحباك وابن القطان(513) يقول الزياني اللذين رصدا للمدينة طالعا إختاره لتأسيسها، يوم 3 شوال 674هـ/ 1275م، وكان قد أمر في اليوم قبله بالشروع في بناء مدينة "حمص" لليهود "الملاح" وكانوا بسبب نفوذهم في الدولة وعلاقتهم بالمنصور ووزرائه، خصوصا منهم بنو وقاصة، قد تعرضوا لاضطهاد العامة بفاس حيث قتلوا منهم أربعة عشر ألف يهودي(514) ولولا ركوب يعقوب نفسه لنجدتهم، وقد كان هو المعني بهذه الثورة التي أعلنتها المعارضة ضد اليهود الذين تمكنوا من الدولة بسبب علاقتهم الخاصة بالمنصور، والذي لولاه لأهلكوهم عن آخرهم بسبب ما ظهر منهم بعد زوال سلطان الموحدين وتقادم العهد على ما كانوا عليه من وضعية، منذ زمن يعقوب المنصور الموحدي، ميزتهم كما ميزت الذين أسلموا منهم، ثم وضعت على سلوكهم، وما كانوا يدبرونه في الخفاء مما كشفه الاسبان والمسلمون بعد نقطة استفهام، ولذلك أمر يعقوب بن عبد الحق المريني ببناء مدينة سكنى اليهود "الملاح" جوار قصره حيث لا يزال حتى اليوم، ولولا ما قام به يوسف الناصر بعد في شهر

---

(512) نفس المصدر قبل الأخير.

(513) الجذوة لان القاضي 51/1.

(514) يقول الزياني: إن وقعة اليهود كانت سنة 675هـ/ 1276م الترجمان 311، وروضة النسرين ملخص ابن زاكور، مخطوط خاص والاستقصا 80/3 ط البيضاء 1954.

شعبان سنة 701هـ/1303م من القضاء عليهم وعلى وجودهم داخل قصر السلطان لأعيدت الكرة للفتك بهم، كما أنه بذلك غسل ما ألصق بوالده من التهم التي جرها عليه آرتباطه الشخصي ببعضهم، حتى أصبحوا من خواص ندمائه بعدما آرتقوا الى الوظائف العالية في قصره خصوصا وظائف: القهارمة الذين كان منهم خليفة بن وقاصة، وأخوه إبراهيم، وصهره موسى بن السبتي، وابن عمه خليفة الأصغر، لكن هؤلاء وغيرهم قتلوا جميعا بأمر من يوسف الناصر وهو يحاصر تلمسان، ولم يترك منهم إلا خليفة الأصغر احتقارا لشأنه يقول صاحب الاستقصا(515) نقلا عن الترجمان، وفي تلك الوقعة يقول الزياني أسلم الكثير من اليهود خوفا على أنفسهم لا رغبة في الإسلام، كما بنى المرس للنصارى، وإذا ما حلت سنة 676هـ/ 1277م، فإنه توجه إلى مراكش حيث وجه منها ولي عهده يوسف إلى السوس للإصلاح، وفي السنة الموالية 677هـ/ 1278م توجه للمرة الثانية إلى الأندلس حيث آستقر في الجزيرة ثم أخذ يرسل فرق التمهيد الى مختلف النواحي، ومثل ذلك فعل سنة 679هـ/ 1280م بعدما قام نصر بن الأحمر على أخيه محمد بن محمد بن محمد بن الأحمر، وخلعه ثم غربه وقتل وزيره الأديب عبد الله بن الحكيم، وشاعره أبو عبد الله بن خميس التلمساني سنة 678هـ/ 1279م، وكان هذا هو الجواز الثالث من يعقوب إلى الأندلس ثم رجع الى المغرب، وفي سنة 680هـ/ 1281م جهز جيشا نحو تلمسان حيث لقيه يغمراسن بخرزوزة، لكن هذا الأخير إنهزم فتبعه المنصور الى تلمسان وحاصر نواحيها، وقدم عليه محمد بن عبد القوي في بني توجين الذين أفسدوا وعاثوا وخربوا(516)، مما دفع بيغمراسن الى التحالف مع آبن الأحمر ضد المنصور، فقد كان المنصور قد آتفق مع إبن إشقيلولة على آستلام مدينة مالقة التي كان آبن الأحمر أراد الإستيلاء عليها متهددا إبن اشقيلولة إن لم يتسلمها المنصور يسلمها للاسبان، وإذا كان هجوم المنصور على يغمراسن قد جر عليه الدمار، فإن على يغمراسن أن يتحالف مع آبن الأحمر، وهما معا يتحالفان مع ألفونس الذي كان قد جهز على الحصون، واستولى على قرطبة، وإشبيلية، ثم دفع بابن الأحمر إلى شاطئ البحر، كما أشرنا قبل لولا نجدة

---

(515) 3-81/ط - 1954.

(516) الدخيرة السنية 100-106، والترجمان 312.

المنصور له، والذي حرر البلاد وقهر ألفونس ومزق جيوشه التي كان يقودها الزعيم دقنه الذي أرسل ابن الأحمر برأسه الى ألفونس يتملقه، ونسي ابن الأحمر كل ذلك وأصبح حليفا لألفونس ويغمراسن فأرسل ألفونس جيوشه وأساطيله التي بلغت سبعين سفينة إلى الزقاق ليمنع المنصو من العودة إلى الأندلس كما أثار ابن الأحمر كل الناقمين ضد المنصور ليقوموا بإثارة الفتن داخل المغرب والذين اشتراهم بالمال، الأمر الذي دفع المنصور إلى أن يشمر ويقضي على كل الفتن المصطنعة، ثم أرسل ولده يوسف لحماية طنجة وسبتة، أما الجزيرة الخضراء، فقد كانت محاصرة من جند ألفونس، لكن حصل ما لم يكن في الحسبان، حيث حصلت حرب انهزم فيها جند ألفونس كما كان مصير الناقين أنكى(517)، إذ ما كاد المنصور ينتهي من القضاء على الفتن الداخلية في المغرب حتى قام على ألفونس نفسه ولده سنة 681هـ/ 1282م، فأرسل يستنجد بالمنصور الذي وجدها فرصة مكنته من القضاء على التأثير، ثم ذهب الى جيان، وطليطلة، ومجريط مدريد التي خربها وبعث فيها الرعب والدمار، الأمر الذي دفع بابن الأحمر الى طلب الصلح، فتم وزال ما كان بينهما من خلاف فرح له أهل الأندلس، كما دفع ذلك بألفونس، بعد رأي العين ما حصل ببلاده إلى أن يطلب مهادنة ومصالحة المنصور، فكانت الشروط التي اشترطها المنصور:

أولا : مسالمة جميع المسلمين من قومه وغيرهم.

ثانيا: الوقوف عند مرضاته في سلوكه مع جيرانه من الملوك، فلا يعاديهم ولا يصادقهم إلا بإرادته.

ثالثا : رفع الضريبة عن تجار المسلمين وعدم الدخول بينهم في فتنة.

فقبل هذه الشروط، وطلب مقابلة السلطان الذي استقبله وقبل هديته، ثم طلب منه أن يرسل إليه الكتب التي استولى عليها الأسبان من بلاد الإسلام فأرسل إليه ثلاثة عشر

---

(517) كان غزو المنصور للأندلس أربع مرات وفي سنة 684هـ/ 1285م دخلها بجيش تعداده واحد وعشرون ألف جندي منهم ثلاثة عشر من المصامدة وتسعة آلاف من قبائل أخرى، راجع القرطاس 341 ط 1973 ولعل في مسالك الأمصار لابن فضل الله (700-749هـ/1300-1349م). ما يستفاد منه في تنظيم جيش بني مرين، وكذا المسند لابن مرزق، ط الجزائر، 1981.

جـمـلا مـحـملة بالكتب، وتمت المعاهدة يوم الأحد في العشرين من شعبان سنة 684هـ/1285م(518) لكن القدر لم يمهل يعقوب بن عبد الحق حتى يستمتع بآخر وأعظم آنتصاراته إذ مرض في آخر ذي القعدة، واشتد به المرض الذي لم يتركه ليفارق الجزيرة الخضراء، حيث توفي رحمه الله يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من المحرم فاتح سنة 685هـ/ 1286م، ثم حمله ولده يوسف الى الرباط ليدفن بمسجد شالة، وقبره اليوم طامس الاعلام يقول الناصر(519) مما يخزي ويحقر من شأن الذين جاؤوا بعده، ولم يهتموا به، ولو فقط كعظيم أو كتراث يشترك فيه جميع المغاربة، وما أكثر جعجعة وزارة الثقافة، وافتراءات المشرفين عليها في عهد الاستقلال.

وهكذا لم تنته حياة المنصور حتى ترك دولة بني مرين مستوفية لكل شروط الدولة، حيث وحد المغرب الأقصى، ومهد سبله، وبعث في أهله روحا عالية تتطلع إلى الحضارة بمفهومها العلمي، شيد المدارس والمستشفيات للمجانين، والمجذومين، والمقعدين، والعمي، والفقراء، وخصص لها جميعا من الأموال ما يضمن تسييرها واستمرارها، الأمر الذي يجعلنا وبحق نثبت أن المغرب بحكم قيام دولة مكان أخرى لم يعرف آنتكاسا حضاريا، بل عرف آستمرارا لنهضة العلم والآداب والفنون التي بدأت على عهد دولتي المرابطين والموحدين(520)، والتي آزدهرت أكثر في عهد بني مرين، ورغم أن إمبراطورية الموحدين آنقسمت الى دول متعددة، فإن تلك الدول جميعها أسهمت بحظ كبير في تقدم الحضارة الإسلامية العربية بالمغرب الكبير، وإذا كان التاريخ قد سجل أن الشعب تضرر سياسيا من التجزئة، فإنه سجل كذلك أنه لم يتضرر في الجانب الحضاري والعلمي، ذلك أن كل

---

(518) راجع الاستقصا 62/3 ط 954.

(519) الاستقصا 65/3 وليست قبور الموحدين بتينمل والمرينيين بشالة وفاس هي التي عرفت الإهمال فحسب، بل المآثر الدالة على أصالة المغرب والمغاربة وعظمائهم عموما، في سجلماسة وفاس ومراكش وتازة ومكناس وسلا والرباط وغيرها، كلها أهملت من طرف إدارة الحماية عن قصد وسابق إصرار، بل في عهد الاستقلال كذلك تركت للإهمال وعوامل الزوال.

(520) راجع كتاب الأستاذ محمد الهادي المنوني الحسني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين – ط2/1397-1977، وعن هذه المرحلة راجع منه المآثر العمرانية ص242 لتعرف ما آلت إليه حضارة المغرب.

دولة من الدول التي تكونت في كل من تلمسان وتونس(521) والأندلس، كانت تعمل جاهدة لجلب ما أمكن من المهاجرين من الأندلس، وإن كانت دولة بني مرين بحكم القوة والموقع أكثر حظا وأوفر منها جميعا حتى أنها آستطاعت في فترات وكما سنرى أن تستولى على سياستها فئة من اليهود وكذا مسلمة اليهود والنصارى(522) وبالتالي استولت دولة بني مرين في المغرب على بقية الدول التي تكونت في ربوع المغرب في فترة من الزمن كما رأينا وسنرى بعد.

توفي أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني عن سن تناهز السادسة والسبعين، إذ هو من مواليد سنة 609هـ/ 1212م، وإذا كان قد قضى في الحكم تسعا وعشرين سنة ونصف السنة، وإثنان وعشرون يوما، يكون زمن توليته قد جاوز الأربعين بخمس سنوات، ولذلك كانت كل أيام ملكه تمكين وبناء، بل هو الذي آستطاع أن يرسي قواعد دولة بني مرين ثم يتركها بلا خوف على مستقبلها في يد ولده يوسف بن يعقوب الذي لقب بـ – الناصر لدين الله، وبه آنتقل الملك الى خلف المنصور يعقوب بن عبد الحق الذي كان آخر الإخوة الأربعة من أبناء عبد الحق الذين تداولوا الملك من سنة 614هـ 1217م الى685هـ/1286م وهم: أبو سعيد عثمان بن عبد الحق الملقب.. أدرغال (الأعور) ثم محمد الأول بن عبد الحق، ثم أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق، ورابعهم أبو يوسف يعقوب الملقب

---

(521) لقد سجل التاريخ في حق يحيى بن عبد الواحد الحفصي الذي بنى جامع القصبة بتونس، أنه لما تم بناء الجامع أذن فيه بنفسه كما شيد دارا للكتب جمع بها 36000 كتاب، وفي عهده ازدهرت العلوم والمعارف، وتوفي سنة 647هـ، ثم خلفه محمد المستنصر بالله، والحفصيون ينتسبون إلى عمر بن يحيى الهنتاتي الذي كان مع المهدي ومن كبار أصحابه بعد عبد المومن بن علي الكومي، وقد تولى ابنه عبد الواحد حكم إفريقية (تونس) سنة 603هـ زمن محمد الناصر وفي سنة 662هـ/ 1263م خرج أبو زكريا عليهم، وخلع طاعتهم، وأسقط اسم عبد المومن، وأبقى اسم المهدي في الخطبة. ثم بعدها حذفوا اسم المهدي، ودعوا للناصر بن قلاوون صاحب مصر، راجع دولة بني قلاوون سياسة مصر الخارجية ص143 ط مصر 1947. وكتاب الفارسية للقسنطيني، مصدر سابق/ط تونس 1968، وتذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ج 103/1 ط مصر 1976، والأسر الحاكمة لزامباور جـ115/1-116-117 ط القاهرة1951 مصدر سابق.

(522) راجع تعليق(533) بعد زمن سليمان بن عبد الله بن يوسف الملقب بأبي الربيع الذي بويع بطنجة بعد موت أبي ثابت يوم الأحد 8 صفر 708هـ 1308=م، لكن أبا الربيع بسوء تصرفه، وما عرفه بلاطه من مؤامرات اليهود مات مسموما، ولما يتجاوز العشرين من عمره، حيث مات بمدينة تازة بين العشائين منسلخ جمادى الثانية عام 710هـ/1310م، ثم دفن في صحن مسجدها، ومع كل ما حصل في عهده، فقد ساهم في تشييد صرح بني مرين.

بالمنصور ابن عبد الحق، الذي تمت بيعته من كافة قبائل مرين وقبائل العرب يقول آبن القاضي في الجذوة 2/548 وذلك في غرة صفر سنة 685هـ/ 1286م وقد بلغ من العمر خمسا وأربعين سنة وثمانية أشهر، ووقتها عقد صلحا مع آبن الأحمر بعدما آجتاز الى الأندلس حين تمت له البيعة، فكان الصلح بتاريخ العشرة الأولى من شهر ربيع الأول سنة685هـ/ 1286م وفي هذه الأثناء خرج عليه آبن عمه محمد آبن إدريس بن عبد الحق بجبال ورغة من أحواز فاس، ولما طارده فر الى تلمسان كما سنرى.

الفصل الثاني والثمانون

الصراع المنهك بين بني مرين، وبني عبد الواد، وبني نصر بالأندلس

بويع ليوسف بن يعقوب الذي لقب هو الآخر بالناصر لدين الله، والذي كان شبيهها بأبيه يعقوب الذي كونه في مدرسته السياسية، ولكنه أحسن الإختيار حين قرب إليه أكثر كاتبه أبو محمد عبد الله بن أبي مدين، فكان أهلا لما أسند إليه، مما دفع جموع بني مرين الى توحيد صفوفها خلف يوسف والإقبال عليه، فتمكن سلطانه داخل المغرب، وبلغ من الجاه والعز مبلغا لم يعرفه سلفه، إذ وردت عليه الهدايا من ملوك المشرق مصر والشام وغيرها، فأرسل إليه الملك الناصر محمد الأول بن قلاوون 698-708هـ/1298-1308م، حيث قدم الوفد المحمل بالهدايا في شهر ربيع الثاني سنة 706هـ/ 1306م يرأسه الأمير البابلي وجماعة من الأتراك، وكان ضمن هدايا ابن قلاوون الفيل والزرافة، وجملة من الحيوانات والوحوش وأحمالا من الديباج، وثياب الهند(523)، وكانت هذه الهدية جوابا من الناصر بن قلاوون على الهدية التي بعث بها يوسف قبل سنة 704هـ مع وفد من كبار المغاربة يرأسهم أبو زيد الغفاري في طريقه الى الحجاز، وقد حمله يوسف نسخة من المصحف الشريف كتبها بخط يده ثم زينها بالذهب ورصعها بالأحجار

---

(523) راجع العبر لابن خلدون 5/903-904/ط بيروت، وفيه أن الذي رأس الوفد المغربي هو علاء الدين اليدغدي الشهرزوري، وان رئيسا وفد مصر الى المغرب ايدغدى البابلي وايدغدى الخوارزمي، والبابلي سمي في الترجمان313 بالتليلي ولعله قلب من الناسخ راجع العبر 904 المذكور، على أن صاحب تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه لم يتعرض لهذا الاتصال، راجع، ط دار الكتب، تحقيق د/ محمد محمد أمين/ط 1976/ج1/ص213-220-274-279، في حين أنه تعرض لما بعث به العاهل المغربي من هدايا سنة 714هـ في ص263، كما سجل موت أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن حمامة مقتولا، قتله بعض خدامه غدرا، ثم تولى بعده ولده أبو سالم، ثم قتل، ولم يتم له الأمر، ثم بعده أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن حمامة، وهو الذي أمر بقتل الخدام المخصيين عن آخرهم، ولم يترك للمملكة خادما خصيا، ثم قتل في سنة ثمان وسبعمائة... إلخ ص277.

الكريمة، ثم أرسلها إلى الحرم الشريف، مع الوفد الذي حمله كذلك إلى الناصر بن قلاوون هدية حافلة من الخيل، والبغال، والإبل، وكثير من ماعون المغرب، وسائر طرفه، وجملة من الذهب العين في ركب عظيم برآسة علاء الدين إدغدى الشهرزوري(524). ولما عاد الوفد من حجه حمل بالهدايا مثل المذكورة قبل، وغيرها مما سنتعرض له بعد، كما قدم عليه ضمن وفد الحجيج شريف مكة لبيدة بن أبي نمي. مستنجدا به ضد الأتراك الذين قبضوا على أخويه حميضة ورهيشة بعد مهلك والدهما. فبالغ يوسف في إكرامه مما دفع شرفاء مكة الى بيعة يوسف.

إشتغل يوسف بإصلاح البلاد من الداخل بأسلوب لم يسبقه اليه أحد من قومه، وإذا علمنا أن الفترة التي زاول فيها يوسف الحكم بعد أبيه يعقوب المنصور، هي الفترة التي آتصلت فيها الحضارة الأندلسية بالمغربية آتصال آنصهار أكثر من ذي قبل، سواء في مجال العمران أو في مختلف المجالات، ولولا ما آلت إليه الأندلس زمن بني الأحمر، لكانت أيام يوسف الذي لم يتجاوز عهده أكثر من آثني عشر سنة أحسن في هذا المجال مما سبق وأفضل، بل إن ما جد من صراع بين أبناء العمومة وجيرانهم لم يترك ليوسف المجال كما أراد.

كانت علاقة ملوك بني عبد الواد بتلمسان، وبني الأحمر بغرناطة الأندلس، مع بني مرين بالمغرب الأقصى، دائمة المد والجزر، تتقلب حسب الظروف لكل من البلدين المجاورين، وتتكيف بالعوامل الداخلية فتنعكس على العلاقة بين كل من هاتين الدولتين، وبني مرين الذين كان في آستطاعتهم وفي الغالب التحكم في ميزان القوى، في كل من القطرين الأندلس وتلمسان.

كانت سياسة بني الأحمر زمن محمد بن الفقيه، بل وفي عهد سلفه، لا تستقر على

(524) ذكر ابن خلدون ما حل بوفد الناصر إلى المغرب بعدما أدى المهمة وتجول في أقاليم المغرب وقبل أن يغادره توفي يوسف الناصر بن عبد الله سنة 706وهو محاصر لتلمسان، فتولى مكانه أبو ثابت الذي بالغ في تكريم الوفد، ثم حمله من الهدايا ما ذكر ابن خلدون، لكنه تعرض بعد للأذى حين مروره على تلمسان وبها أبو زيان، وأبو حمو، أبناء عثمان بن يغمراسن في الطريق ما بين تلمسان وافريقية، اعترضهم أشرار حصين بطن من زغبة فبالغوا في الدفاع فلم يغن عنهم، واستولى الاشرار على الركب ونهبوا الحجاج ورسل الملك الناصر معهم وخلصوا برؤوسهم إلى الشيخ بكر بن رغلى شيخ بني يزيد من زغبة بوطن حمزة الخ.

حال، مما أدى بالمنصور قبل إلى التعجيل بردع أبناء عمومته من بني عبد الواد، الذين ارتفعت حرارة حسدهم مما أصابه بنو مرين، بعدما آختار تطمين بني الأحمر بصلح لم يكن حقيقيا في نظر أصحاب غرناطة(525) حيث تنازل لهم عن الثغور الأندلسية ما عدا الجزيرة الخضراء ورندة وطريف، كما تبادل المنصور المودة مع الإسبان حسب الإتفاق الذي كان مع والده، لكن هذه الخطة أفسدها أبناء عمومته من بني إدريس، ذلك أنه ما كاد يستقر حتى تألبت عليه جموع الشر التي كان يتزعمها بنو إدريس بن عبد الحق وبقايا الموحدين، الأمر الذي دفعه لخوض معارك الإبادة ضدهم وللقضاء عليهم، وفي هذه الأثناء أي وقت آنشغاله بالقضاء على الثورات، قام الاسبان سنة 690هـ/ 1291م بقيادة سانشو بنقض العهد، ومهاجمة الثغور الأندلسية، وكانت الهجومات التي قام بها الاسبان قد دمرت الأسطول المغربي الذي قدمه الناصر قبل أن يلتحق به الى الأندلس، فكان هذا دافعا قويا لإعادة النظر في سياسته إزاء بني الأحمر التي أجلها إلى أن يعيد بناء الأسطول بشكل أقوى، ولما تحقق له ما أراد دخل الأندلس ثم زحف على مدن الاسبان كما أغار على إشبيلية وشريش، ولقد حاول الاسبان بحصارهم طريق إمداد الجيش المغربي من جهة المغرب، ومعاهدة آبن الأحمر لهم التأثير على معنويات أبي يعقوب يوسف الناصر، لكنهم أخطأوا التدبير، خصوصا عندما ظهر عدد جيوش الناصر بالكثافة التي لم تكن في حساب بني الأحمر، مما دفع بهذا الأخير الى الندم والعودة بندم إلى الناصر بواسطة وفد أرسل على رأسه إبن عمه أبو سعيد، فرج بن اسماعيل، والوزير أبو عزيز الداني، وكان الدافع هو ما صدر من بني الأحمر من تواطؤ مع سانشو ملك الاسبان على جزيرة طريف التي سلمها ابن الأحمر الى الاسبان مقابل تحالف ضد أبي يعقوب يوسف الناصر، لكن سياسة الناصر أبت إلا أن تجيب الوفد بالترحاب والصفح، الأمر الذي دفع بآبن الأحمر إلى أن يرحل بنفسه الى المغرب692هـ/ 1292م،

---

(525) أسس بنو الأحمر مملكتهم التي عرفت بالبيت النصري، بزعامة أبي عبد الله يوسف بن نصر الخزرجي، الذي ثار على أبي عبد الله محمد بن هود الجذامي ملك غرناطة، سنة 635-1237م، وقد كانت مملكة غرناطة تحت سلطة بني الأحمر تضم الى جانب العاصمة المرية، ومالقة، وشلوبين، والمنكب وبلش، ومربلة، واشبونة، ثم أضيف اليها جبل الفتح، والجزيرة الخضراء ورندة ولوشة ووادي من آش وبسطة، وأندراس، راجع أعمال الأعلام 5/3 والروض المعطارم خ 1-2/ وما فيهما من أسماء المدن المذكورة ونفح الطيب 156/1.

حيث آستقبله الناصر أحسن آستقبال، أرسل إليه أبناءه، ثم قدم في أثرهم الى طنجة وتلقاه بالترحاب، ومقابل هذه الحفاوة تنازل إبن الأحمر للناصر على الأماكن التي سبق لهذا الأخير التنازل عنها، وهي المشار إليها قبل، كما أرسل الناصر وزيره عمر بن مسعود لشد أزر ابن الأحمر، لكن تصرفات اليحصبيين من لخم وزراء بني الأحمر، كانت تتسم بالريبة إزاء بني مرين، بسبب ما حصل قبل بينهم وبين أسرة بني العلاء، الذين كان منهم شيخ الغزاة الذي خلفه المنصور قبل بغرناطة، والتي كانت تظهر آنعكاساتها السيئة على السياسة بين بني الأحمر وبني مرين، بل وفي المواقف التي كان يقصد منها تقوية سلطان بني مرين، كان اليحصبيون يقابلونها بالعكس، ولم تعرف سياستهم هذه تبديلا منذ أيام أبي بكر بن يوسف اللوثي اليحصبي إلى زمن أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندي(526)، الذي استأسد بموت محمد الثاني الفقيه بن الأحمر الذي طال حكمه أكثر من ثلاثين سنة حين دام من سنة 671هـ الى 701هـ/ 1271م-1302م(527) ولما حصل مكانه ولده الملقب بالمخلوع وهو أبو عبد الله محمد الثالث، ورغم أن هذا الملك الضرير، كان ضعيفا في مجال السياسة تقول المصادر، فإنه كان على جانب كبير من الحلم والعلم والكرم وحب الإصلاح.

كان المخلوع تحت سيطرة آبن الحكيم الذي جر عليه الوباء كما جره على نفسه بتصرفاته الشاذة التي كانت السبب في سوء علاقة أبي عبد الله مع بني مرين أو مع النصريين من قومه على السواء، وذلك بمكيدة آبن الحكيم الذي خلاله الجو، وظن أنه بلغ المنع والسلامة.

كان الناصر يكن العطف والود لأبي عبد الله، خصوصا وأنه كان على طرفي نقيض مع بني عبد الواد الذين حاصرهم ولا يزال، وأن الرماة من أهل الأندلس كانوا مشاركين في هذا الحصار حسب رغبة المنصور، وهو الحصار الذي دام حول تلمسان مدة مائة شهر، لكن تصرفات آبن الحكيم أدت بالناصر الى الإستغناء عن الرماة ثم إرسالهم الى بلدهم سنة 703هـ 1304م، بل عمل آبن الحكيم على إثارة الفتنة ضد الناصر

---

(526) هو صاحب آبن رشيد السبتي راجع الجذوة 1/289-291.

(527) راجع زامباور في الأسر الحاكمة ج 1/93-94-95/ط القاهرة 1951م.

في المغرب، وهو منشغل بحصار تلمسان، إذ باسم أبي عبد الله المخلوع أرسل عمه وصهره أبو سعيد فرج، صاحب مالقة الذي كان قبل رسول ود الى المغرب، أرسله هذه المرة للقيام بعمل لم يكن في حسبان الناصر ولا قومه، وهو ما دفع آل العزفي بسبتة القيام بثورة ضد يوسف الناصر والدعوة لخلعه، وإذا لم يفعلوا فلتكن الثورة بقوة بني الأحمر وتمويلهم، وكان ذلك بأتفاق مع أسرة أبي العلاء(528) الذين تمكنوا وأصبحوا قوة بغرناطة من عهد أبي يوسف الذي غرسهم بها فكاكا منهم ثم جعلهم حراسا لفائدة المرينيين بتولية شيخ الغزاة منهم، وهو منصب له خطورته في نظام الدولة المرينية، وبذلك أصبحوا هم أيضا وبدس من ابن الحكيم ضد الناصر، خصوصا عثمان بن أبي العلاء الذي قاد جنده وجند أبي سعيد فرح، للاستيلاء على سبتة في شهر شوال سنة 705هـ/ 1305م، فدخلها سعيد دخول الفاتح الغازي ثم استولى على مالآل العزفي، ونكبهم ثم حملهم الى غرناطة، وإذا كان الناصر في ظروف حصاره لتلمسان لم يتمكن من تأديب بني الأحمر، فإنه اكتفى بإرسال جيش الى سبتة تحت إمرة ولد أبو سالم سنة 706هـ/ 1306م، لكنه لم يقدر على حصار سبتة طويلا، فعاد مخلفا وراءه أبو العلاء وجنود بني الأحمر، تخرب وتدمر حسب الهوى ودافع الانتقام.

لقد كانت المنية على موعد مع الناصر يوسف الذي لم يمهله قدره حتى يلقن بني الأحمر وابن أبي العلاء ما عرف به من دروس في هذا المجال، حيث قتل غدرا يوم الأربعاء 7 قعدة سنة 706هـ/1306م قتله خصي من خصيانه وهو نائم، فحمل الى شالة وبموته أنتهى الحصار الطويل الذي عرفته تلمسان، والذي كلفها وقبائل بني عبد الواد أكثر من مائة وعشرين ألف قتيل(529)، بل تقول الرواية إن المحاصرين أكل بعضهم البعض حتى قيل إن ما بقي لأسرة الملك يوم فك الحصار سوى قوت يوم واحد. كما أورد ابن خلدون رواية عن محمد بن إبراهيم الآبلي الذي أخبره: أن السلطان أبازيان الأول

---

(528) هم أبناء إدريس أكبر أبناء عبد الحق، والذي قتل مع أبيه في المعارك التي حصلت بين رياح في تازطاست بالقرب من رزهون، ولما رأوا ما آل إليه أمر يعقوب وهو عمهم نقموا عليه، فنقلهم الى الأندلس بعدما فشلت ثورتهم بأرض غمارة سنة 660هـ 1261م، وكان أول من دخل منهم الأندلس على رأس الغزاة عامر بن إدريس.

(529) أورد صاحب بغية الرواد نفس العدد راجع ص125 ط الجزائر 1903 ثم راجع الاستقصا 3/85-86.

محمد بن عثمان بن يغمراسن، جلس صبيحة يوم الأربعاء سابع ذي القعدة -وهو يوم الفرج- في زاوية من زوايا قصره يفكر واستدعى آبن جحاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة؟ فقال له: إنما بقي عولة يوم وغد، فاستوصاه بكتمان ذلك، وبينما هم يتذاكرون في ذلك دخل عليهم أخوه أبو محمد فأخبره بذلك فوجم وجلسوا سكوتا لا ينطقون، وإذا بدعد قهرمانة القصر، وكانت وصيفة من وصائف بنت السلطان أبي إسحاق حظية أبيهم قد خرجت من القصر إليهم مرسولة وقالت لهم "تقول لكم حظايا قصركم، وبنات زيان(530) حرمكم..الخ. وإذا ما جمع أبو زيان قومه وقرروا الخروج في اليوم المذكور "فإما مُلْكٌ أو هلك" فإنه في ذلك اليوم كان الفرج الذي لم يكن منتظرا، مما دفع بأبي زيان الى أن كتب على العملة التي ضربت وقتها "ما أقرب فرج الله" ذلك الفرج الذي ظهر بموت يوسف الناصر، ووقتها آستأسد أبو زيان الذي قتل أبا سالم المريني آبن السلطان القتيل يوسف الناصر.

مات الناصر بعد حكم دام إحدى وعشرين سنة وأشهر، إذ قتل وسنه قد بلغ السادسة والستين، ثم تولى على رأس الدولة بعده إبن ولده عبد الله عامر بن عبد الله، الملقب بأبي ثابت، وذلك بمساعدة أخواله بني ورتاجن الذين التحق بهم، ودعى الى نفسه فوجد منهم إقبالا وانتصارا بالقوة جر إليهم جموع الذين كانوا قد أرهقتهم الحروب، ثم علموا ما تم بين أبي ثابت وبني عبد الواد من آتفاق سري ينص على قبوله لاجئا عندهم إن هو لم ينتصر في محاولته، وإن هو آنتصر يكون أول عمله فك الحصار.

بويع أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بالمنصورة التي شيدت لحصار تلمسان، وكانت بيعته صبيحة يوم الخميس 8 قعدة 706هـ/ 1306م، وإذا كان قد آعتلى العرش وهو آبن ثلاث وعشرين، حيث ولد في غرة رجب 683هـ/ 1284م، فإن ثلث عمره الناضج قد مضى في زمن الحصار الذي ضربه جده على تلمسان، وفي حرب بني عبد الواد، والذي دام مائة شهر كما يقولون، أو بالتحديد ثماني سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وقد عرف تاريخه من شعبان 698هـ إلى 7 قعدة 706هـ، وقد رأى أبو

---

(530) راجع الاستقصا 86/3 ود: الإسلامية 341/1.

ثابت رأي العين ما عرفه أهل تلمسان من قهر وإذلال، كما وقف على ما حل بجموعهم من ويل وعناد حتى أكل الناس بعضهم بعضا، فكان من أول أعماله إبرام الصلح مع أبي زيان الأول محمد بن عثمان اليغمراسني، وأخيه أبي حمو، ثم تنازل له عن البلاد التي كانت له بالمغرب الأوسط وهي من أعماله، وقد ظهر فيها من العصاة الذين فروا عليه، ومنها من مغراوة وبني توجين ما أدى الى انسلاخها من سلطة بني عبد الواد، ردت عليهم بمعاهدة صلح وقعت بعد آخر ذي الحجة 706هـ/ 1306م، وبعدها ولى أبو زيان على البلاد التي ردت إليه والتي طوعها بعد حروب دامت تسعة أشهر، ولى عليها مولاه مسامح.

بعد فك الحصار سرح أبو ثابت الجند الذي كان قد آنتهى الى ضعف نفساني بسبب طول الحصار، ولم يحتفظ منه الا بما كان في حاجة لاستعماله في القضاء على الثائرين ضده بمراكش وسبته حيث انتقصت البلاد بالإستيلاء على سبتة وقصر كتامة، وأصبح أبو عثمان بن العلاء يطمح في عرش بني مرين ومضايقتهم.

كانت دائرة أبي ثابت عامر مكونة من إبراهيم بن عبد الجليل الونجاسي كوزير، والكتابة لأبي عبد الله محمد بن أبي مدين، والحجابة لمولاه فرج وعبد الله الزرهوني، والقضاء لأبي عبد الله المغيلي، وكان هؤلاء عاشوا حياة جده التي عرفوا بلا شك أنه كان قد نفذ صبره من الحصار الذي ضربه على تلمسان والذي من أجله شيدت مدينة المنصورة التي آزدهرت بكل متطلبات المدن، ثم أصبحت بعد وفي زمن صاحبها وكأنها سجن أعد للجيش والحاشية الذين ضاقوا ذرعا بطول المدة، ومعانات الظروف التي سادت أكثر بالنسبة لهم ولبني زيان الذين كابدوا ولم يستسلموا، هذا بالإضافة الى ما حصل في سبتة ومراكش مما يستوجب الإهتمام أكثر والبحث عن الحلول للموقف، فكان أن آتفقوا جميعا على تسريح الجنود تمهيدا لعقد الصلح الذي تم كما أشرنا ولم يحتفظ أبو ثابت إلا بالقدر الذي يمكنه من غزو سبتة وتحريرها.

وفعلا جند أبو ثابت لهذه المهمة أكثر ما كان لديه من الجنود والعتاد، ثم وجههم لاسترداد مدينة سبتة، يوم فاتح ذي الحجة 706هـ/ 1306م بعدما وضع على رأس الجيش الحسن بن عامر بن عبد الحق، كما وضع على رأس الجيش الموجه لمراكش آبن عمه

يوسف بن محمد بن عياد بن عبد الحق الذي غدر ب; بقتله عامل مراكش، ثم خرج على آبن عمه أبي ثابت، لكنه لم يفلح وفر الى هسكورة مستجيرا بمخلوف بن هنو فلم يجره، بل قبض عليه وعلى من معه، وأرسلهم إلى أبي ثابث الذي قتلهم ثم بعث برأس يوسف بن محمد بن عباد الى مدينة فاس ليعلق بسورها، ومثل ذلك فعله بنحو ستمائة من عرب رياح، ونحو العشرين من مشايخ صنهاجة الذين ألقي القبض على ستين منهم، أما في الشمال فإن جيشه لم تقف أمامه أية قوة في طريقه، حيث حرر ما كان أبو عثمان قد آكتسحه مارا بطنجة الى سبتة، وقبل أن يصلها أمر ببناء تطوان لإقام$ الجند الذي سيحاصرها لكن -المنية عاجلته- حيث توفي أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق- مسموما - وليس مقتولا- بقصبة طنجة يوم الأحد 8 صفر 708هـ/ 1308م ولما يقض(531) في الملك أكثر من سنة وثلاثة أشهر، وبعد الدفن بها حمل الى شالة.

يلاحظ في هذه المرحلة من تاريخ بني مرين أن الدولة رغم ما عرفته من صراع طويل، كانت مركزة التنظيم متمكنة من ضبط البلاد بشكل جعل الحكومة القائمة وقتها، ولكي تستمر في السياسة المرسومة منذ عهد الناصر، إختارت للملك بعد أبي ثابت أخاه سليمان بن عبد الله بن يوسف الملقب بأبي الربيع، والذي بويع بنفس القصبة التي مات فيها أبو ثابت، ولسبب آقتضى نظر الحكومة أن يعود الجند الى العاصمة متخليا عن حصار سبتة، ربما لأن السلطان المبايع بويع وسنه لم يتجاوز الثامنة عشرة، مما يؤكد إشارتنا إلى ما كانت عليه الحكومة من آنسجام تم معه الإتفاق على عدم الدفع بأبي الربيع إلى آتخاذ موقف مرتجل في موضع يحتاج إلى تدبير قبل أن تتحد القوى المضادة والتي دفعت عم أبي الربيع إلى مزاحمة آبن أخيه، ذلكم هو علي بن يوسف الذي تولى بعيدا ولمدة يومين، عزل بعدها بطريقة أثبتت مدى سيطرة الحكومة على الموقف، ثم مدى أثر حملة التطهير التي قام بها أبو ثابت قبل، بل والتي كان مصدرها والمشرف على تدبيرها وتسييرها أفراد الحكومة المنسجمة.

---

(531) راجع روضة النسرين، وملخص ابن زاكورم، خ نا رقم 290 ص 20، والعبر 237/7، والإحاطة 359/1 و364، واللمحة البدرية 48-54 ود. المعارف الاسلامية 225/11، وفيها يقول كاتب المادة أن صاحب أراغون دون جاييم أمد أبا الربيع بخمسين سفينة وألف فارس، وهو الذي أستولى على سبتة سنة 708هـ/ 1308 دون أن يؤرخ اليوم والشهر، والواقع أن أبا الربيع لم يجدها محررة لأن تحريرها تم بعد تاريخ الموت أعلاه بكثير.

كانت القوة المعاكسة الأخرى التي هي قوة الأندلس من بني الأحمر والاسبان، وكذا قوة بني عبد الواد، قد أخذت تتحرك هي الأخرى تحسبا لما ينتج عن موت أبي ثابت الذي كان قد أبرم معاهدة صلح مع أبي زيان، وإذا كان أبو الربيع لا يقدر على مواجهة تلك القوى مجتمعة، فإن رجال دولته قد أوعزواإليه بأن يجدد عهد الصلح مع أبي حمو موسى بن يغمراسن، وإذا ما فعل فإن آل أبي العلاء ما كادوا يعلمون موت أبي ثابت وفرار أبي الربيع بعودة الجند تاركا حصار سبتة، حتى آعترضوه بقيادة أبي عثمان بن العلاء، لكن كانت أبا عثمان والذين ناصروه أن الجند كان قد آسترد نشاطه ونظم صفوفه بفضل الجهود التي بذلها رجال الدولة في السنتين اللتين مضتا على ترك معسكر المنصورة، وفك الحصار على تلمسان، فكانت الدائرة على أبي عثمان بن العلاء وجنده الذين مزقوا شر تمزيق، حتى إن جند الأندلس إنتهى الى الغرق والدمار بقتل أكثره وضمنه ولد آبن أبي العلاء أبو عثمان، مما أدى بهذا الأخير الى الفرار واللحاق بغرناطة، فكانت الدائرة بها أكبر عليه وعلى آبن الحكيم، حيث قامت الفتنة الكبرى ضده وضد أبي عبد الله الضرير بقيادة أخيه أبي عبد الله نصر، بن محمد بن الفقيه الملقب بأبي الجيوش الذي آختار إنقلابه يوم عيد الفطر من سنة 708هـ/ 1309م فكان الضحية الأولى آبن الحكيم الذي قتله الجمهور لأنه السبب في ما آل اليه أمر الجند الذين أبيدوا وقتلوا تقتيلا بسبب كيده ونزوة أبي عثمان بن أبي العلاء.

وإذا كانت غرناطة قد غرقت في بحر الفتن فإن سبتة قد عادت وأعلنت ولاءها لبني مرين في شخص أبي الربيع سنة 709هـ/ 1309م(532)، لكن هذا الإنتصار الذي حققته حكومة أبي الربيع أثار ضغينة جماعة كانت قد أبعدت عن السلطة وأصبحت عرضة للإهمال، يتقدمها الوزير المعروف برحو بن يعقوب الوطاسي، وبعض رجال المشيخة ثم

---

(532) راجع العبر، 7/240، والاستقصا، 3/101-102-103 ط1954. وكذا بيوتات فاس لابن الأحمر إسماعيل، ص 58/ط 1972، وهذا السلطان هو الذي أصبح لليهود في دولته سلطان يتقدمهم ابن ابراهيم بن وقاصة، وخليفته الذي حل مكانه في الحجابة بعد، ثم أصبح يعرف بـ "سيدي أبي خزر" وهو الذي دبر بخبث قتل عبد الله بن أبي مدين الذي استمر من عهد عبد الحق وابنه يوسف وأبي ثابت الى سليمان، والذي يعتبر أعظم رجال دولته، ذهب ضحية مؤامرة دنيئة دبرها اليهودي أبا خزر، والتي اكتشفها بعد سليمان بفضل اعتراف كاتب الرسالة التي نسبها أبو خزر الى إحدى جواري سليمان كتبتها لعبد الله بن أبي مدين.

قائد الجند العلج غنسالو الذي آستحسن مؤامرة رحو، هؤلاء جميعا قاموا بفتنة أعلنوا أثناءها بيعتهم لعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة من بني مرين، لكنهم تعرضوا لحرب أعلنها أبو الربيع فلاذوا بالفرار من تازة إلى تلمسان كما فر المبايع عبد الحق الى الاسبان.

وأما أبو عبد الله الضرير الذي خلع عن عرش غرناطة ثم وضعت الأغلال في عنقه، فإنه نقل سجينا الى حصن المنكب، الذي قضى به خمسة أعوام أعيد بعدها الى غرناطة وهو في حالة مرض الموت الذي وافاه قبل أن يحل بها يوم 10 رجب 713هـ/ 1313م، ورغم هذه الإنتصارات التي أقبلت على أبي الربيع ولما يمض عليه في الملك أكثر من سنتين وخمسة أشهر، بل ولما يتجاوز العشرين إلا بقليل فإنه هو الآخر مات مسموما بمدينة تازة بين العشاءين منسلخ جمادى الثاني 710هـ/ 1310م، وبعد دفنه بصحن مسجدها بويع لعم والده أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق.

ولد هذا السلطان يوم الجمعة 29 جمادى الثاني 675هـ/1276م ومعنى هذا أنه كان في الخامسة والثلاثين من عمره، الأمر الذي سيمكنه من الإستفادة مما أقامه سلفه من بنيان في مختلف مجالات الحياة، ولقد أبان منذ أول أمره أنه ذو عزم وحزم، فما كاد يعتلي العرش حتى رفع المظالم وسرح السجون، كما عامل أهل فاس بالسياسة التي تتفق وطبيعتهم التي جبلوا عليها، فسلك الطريقة التي قومت آنحرافهم، وسكنت جانب شرهم الذي آعتادوه من أجل المال وفي سبيله، حيث رفع عنهم وظيفة الربا ع قبل أن يحل بها في 10رجب من نفس السنة، كما نظم البلاد وجند الجند، وأصبحت الدولة في عهده وقد أخذت طريقها في التركيز نحو التمكين للعلم ونشر الحضارة التي ميزت عصر الدولة المرينية بحق، فهو الذي شيد مدرسة العطارين سنة 723هـ 1323م والتي أشرف على هندستها عبد الله بن قاسم المزوار، ومدرسة فاس الجديد، كما شيد المستشفيات، والقناطر وجهز الجيوش برا وبحرا، وبالتالي ففي عهده عرفت الحضارة التي بدلت وجه العمران في المغرب، وأدخلت عليه ما عرف بالأندلس قبل من فخامة ورقة وجمال، تبعه فيها كل الذين جاءوا بعده، وقبل التعرف على ما كان لهذا السلطان من أثر عظيم في مختلف مظاهر الحياة وجب أن نتعرف على الذين كانوا الى جانبه.

كان من وزرائه أبو الحجاج بن عيسى الحشمي، وعمر بن عيسى الفودودي، ومن كتابه عبد المهيمن الحضرمي وأحمد بن القراق(533)، ولقد كانت أيام هذا السلطان وما يضع من أسس لبناء المجتمع المغربي علميا وحضاريا بحق المنطلق لحضارة وعظمة بني مرين، ولولا الزهو الذي أدى به إلى تقديم ولده عمر كولي للعهد، في الوقت الذي لم يحسن اختيار بطانته قبل أن يبلغ الرشد، بل أسند إليه تسيير الشؤون التي كانت أكبر منه، مما أدى به إلى الجموح والطيش والغرور، حتى فكر في الخروج على والده بإيعاز من رفاقه النصارى الذين فعل أمثالهم مثل ذلك في بلاط بني عبد الواد، حين دفعوا أبا تاشفين الأول لقتل أبيه(534)، ومثله أراد عمر الذي حارب أباه حربا كانت السبب في مرضه، فلم يتراجع بل ألزم أباه وهو على فراش المرض بوضع آتفاق للمرة الأولى والثانية حسب شروط يتولى بمقتضاها عمر حكم المغرب ثم يقتصر الأب على حكم تازة في الأول، وفي الثاني على أن يتولى عمر حكم سجلماسة، فكان له ما أراد وامتد سلطانه شرقا وغربا حتى السوس وإلى تيكورارين، وكان ذلك بعد سنة 722هـ/ 1322م حيث توجه للمرة الثانية، ثم تخلى أبو سعيد عن ولده عمر كولي للعهد، وجعل مكانه ولده الثاني آبن الحبشية البار علي أبو الحسن، وتفاديا لمثل هذه الحوادث، كان قد عقد أبو سعيد لأخيه الأمير أبو البقا يعيش على ثغور الأندلس ورندة وما وليها من الحصون سنة 711هـ/1311م، لكن هذا الأخير هو الآخر سيظهر منه الغدر ويلتحق ببلاط بني عبد الواد كما سنرى.

في هذه المرحلة كانت البلاد بعد لم تعرف الاستقرار الكامل، مما دفع بأبي سعيد إلى أن يتوجه الى مراكش سنة 714هـ/ 1314م لمطاردة الثائر عدي بن هند، الذي آندفع للتشويش إثر الفتنة التي كان قد أحدثها عبد الحق بن عثمان، بخروجه قبل علي أبي الربيع، وتغلبه على تازة بمظاهرة الحسن بن علي بن الطلاق، كبير بني عسكر، فاعترف به بنو عبد الواد مناوأة لبني مرين، حيث راسله أبو حمو موسى 665-718هـ/1265-1318م

---

(533) راجع العبر.

(534) كان ذلك يوم 22 جمادى الأولى سنة 728هـ/ 22 يوليوز 1318 بمساعدة نصراني أعتقه وسمي هلال القطاني، وآخر آسمه سامح الصغير، لكن أبا تاشفين اللعين لم يتمتع بالملك، راجع العبر 215/7، ودائرة المعارف الإسلامية 435/1 والبستاني 51/2.

بن عثمان بن يغمراسن بن زيان، وكان أبو حمو هذا لم يعرف عدلا ولا رحمة بمن حكم، بل كان همه الشاغل هو الخوف والاستعداد لما يظهر من بني مرين الذين سبق لهم أن حاصروا تلمسان وأذاقوها من وبالهم ما علق أكثر من غيره بذهن أبي حمو، لذلك كان يميل بشغف نحو كل من يعمل على كسر شوكة بني مرين، ولو كان منهم، ولذلك بادر الى الاعتراف قبل بالثائر عبد الحق بن عثمان، بل أكرمه ومن معه، مما أثار الضغينة في صدر أبي سعيد الذي ما كاد يتم له الأمر، ويتفرغ من المشاكل التي أحدثها ولده عمر، حتى فكر في القضاء على المخالفات التي عششت ناحية مراكش، ليلتفت الى بني عبد الواد فيصفي مع مستبدها الحساب، لكن مكر أبي حمو وخبثه دبرها مكيدة شغلت أبو سعيد ضد حاشيته، حين كاتب أبو حمو رجال الدولة المرينية بآسم عبد الحق بن عثمان، فكانت أجوبة بعضهم بالإيجاب، الأمر الذي دفع بأبي حمو الى أن يوجه ما كتب القوم الى أبي سعيد الذي وقف على خطوط القوم وما أبدوه من آستعداد لمبايعة الذي وعدهم مكانة أسمى وعطاء أحسن من أبي سعيد وهو عبد الحق بن عثمان، وقد آختار أبو حمو لدسيسته هذه، الوقت الذي كان أبو سعيد يحاصر فيه أبا حمو مما فت في عضده وأعطاه صورة قاتمة عن الحاشية ومن حوله من النفعيين الوصوليين، وازدادت هموم أبي سعيد بآعتقاده الغدر في القوم عندما هرب أبو البقاء يعيش، وهو أخوه الذي أسند إليه قبل منصبا هاما ودفاعيا في الدولة بثغور الأندلس هرب هو الآخر لعدوه اللدود أبي حمو، فما كان من أبي سعيد إلا أن فك الحصار رغم ما كان باديا من الإنتصار على تلمسان ثم رجع إلى العاصمة ليواجه مشاكله التي تعددت من وزيره إبراهيم اليرناني، الى مشكلة أبي سعيد منديل لكتامي، ثم آل العزفي ثانية بسبتة، والذين تحركوا بسبب فعلة أبي البقاء وما ذاع وانتشر مما دبره أبو حمو، لكنها جميعا انتهت كما أراد أبو سعيد(535)، ثم تفرغ لوضع تخطيط جديد لمضايقة بني عبد الواد، حيث طلب مصاهرة الحفصيين بتونس بإبنة أبي بكر بن يحيى الحفصي فاطمة، لإبنه البار أبو الحسن، وقد آختار لذلك ظرفا مناسبا هو أن الحفصيين كانوا قد دخلوا في نزاع مع بني عبد الواد

---

(535) راجع العبر 504/7.

ين أمتدت مضايقتهم للحفصيين شرقا سنة 712هـ/ 1312م، وكان الحفصيون قبل طلب ماهرة قد أستنجدوا بأبي سعيد، وبعد تلبية طلب المصاهرة أصبح لزاما عليه الوقوف ى جانبهم إذا لم يستجب بنو عبد الواد لرغبة أبي سعيد في إصلاح ذات البين بين مرنيين خصوصا عندما أمتدت أطماع أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو عثمان بن براسن إلى أطراف مملكة الحفصيين بواسطة أحد أعقاب الحفصيين محمد بن أبي عران، الذي أنهضه قبل أبو حمو لمناوأة أبي بكر ثم قومه بجيش قدم لقيادته موسى بن ى العزفي، وبعدما كان يطمح الى مد حدوده شرقا إنتهى الى الإستيلاء على بجاية نسطينة، مما أدى بأبي بكر إلى أن يفر إلى بونة "عناية"(536) جريحا كما يقبض على بنيه أحمد وعمر، ومنها استنجد بأبي سعيد بواسطة وفد يرأسه ولده أبو زكريا، ووزيره و محمد عبد الله بن تافراكين، فلم يكن من أبي سعيد إلا أنه تعهد برفع الظلم عن أبي كر الصهر المنتظر، ولو أدى الأمر إلى سحق بني عبد الواد، لكن ما كاد أبو سعيد ستعد لسحق تلمسان بعد حتى بلغه خبر رحيل المعتدين على تونس وعودة أبي بكر إلى عاصمته، فبلغ سعيد الخبر السار إلى وفد النجدة، وهنا تقول الرواية الثانية خطرت فكرة لمصاهرة(537).

وإذا كان أبو الحسن قد قال لابن أبي بكر يحيى ومعه إبن تافراكين حين قدم وفد استنجاد ونزلوا بغساسة من ساحل المغرب، ثم دخلوا فاسا «يا بني لقد أكبر قومنا نصدك وموصلك، وواليت لأبذلن في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي، ولأسيرن بعساكري لى تلمسان فأنزلها مع أبيك» لكنه رغم ذلك أشترط أن يقوم جند الحفصيين ضد بني عبد الواد يقوده السلطان أبو بكر بن يحيى، فقبل الشرط، وأوفى أبو سعيد بما تعهد به

---

(536) يقول إبن خلدون 23/7 إن أبا بكر إعتزم الوفادة على أبي سعيد بنفسه لولا رأي وزيره.

(537) راجع العبر 520/7 ثم راجع كتاب دولة بني قلاوون، وسياسة مصر الخارجية للدكتور محمد جمال دين سرور ص142-150 ط القاهرة 1947، وفيه رواية عن ابن كثير. أن الأمير أبو يحيى زكريا خشي على نفسه من أمير أبي بكر بن يحيى أخو خالد أبو البقاء، وخرج من إمارته سنة 717هـ/ 1317م قاصدا قابس فظل بها فترة من زمن ثم توجه الى طرابلس وأبحر منها مع أهله الى الاسكندرية سنة 719هـ/ 1319م حيث عاش زاهدا في الملك لى أن توفي بالقاهرة في المحرم من سنة 727هـ/ 1329م راجع البداية والنهاية لإبن كثير ج 120/14-130، وابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة جـ206/2-208/ط 1966 تحقيق محمد سيد جاد الحق. وأبو الفداء مختصر في أخبار البشر ج189/3-190.

ثم قام على رأس جيشه الذي عسكر بصبرة على نهر ملوية، ووقتها ورد خبر الانتصار المشار إليه وذلك سنة 731هـ/ 1330م، فكانت مناسبة تم فيها لأبي الحسن ما أراد من المصاهرة التي تم العقد بها ثم زف السلطان أبو بكر آبنته فاطمة شقيقة يحيى التي آختار أبو سعيد هو الآخر نفس الظرف فأرسل وفدا لاستقدام العروس كونه من إبراهيم حاتم العزفي، والقاضي أبي عبد الله بن عبد الرزاق، فلم يكن من السلطان أبي بكر هو الآخر إلا أن كون جهاز آبنته بما وصفه صاحب العبر، ثم أرسلها برفقة شقيقها أبي زكريا يحيى، ومشيخة الموحدين على رأسهم أبو القاسم بن عتو في أساطيل أبي بكر التي رست بغساسة، حيث آنتقلت الى مدينة تازة في حفل عظيم وبهيج، لتجد قصر السلطان أبي سعيد وقد كساه من الزينة ما تفننت فيه عقول وأفكار الحاشية، كبيرا وصغيرا خصوصا وأن أبا سعيد قد أعد لهذا الزفاف ما يفوق الوصف تقديرا لأبيها حتى أنه من كثرة الإجهاد الذي أصابه حين آرتحل إلى مدينة تازة ليشرف بنفسه على آستقبال العروس، أصيب بمرض ألزمه الراحة قبل أن يلتحق بفاس التي نقله إليها ولي عهده أبو الحسن، وإذا كان قد أصيب بعلة "النقرز" التي الزمت الوقوف به مرات في الطريق، فإنه ما كاد يدخل المدينة حتى توفي يوم الجمعة 25 قعدة 731هـ/ 1330م، ودفن أبو سعيد بمقبرة شالة بعد حكم دام واحدا وعشرين سنة وأربعة أشهر(538)، فكان الذي تولى بعده هو ولده علي الملقب أبو الحسن.

---

(538) روضة النسرين م خ واللمحة البدرية 77–52 والعبر 525/7 وفيه أنه توفي في ذي الحجة بدون تاريخ اليوم.

الفصل الثالث والثمانون

عظمة أبي الحسن والصدع الأعظم في دولة بني مرين

بعد أبي سعيد عثمان تولى ولده الملقب بأبي الحسن، إذ هو علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني ويعتبر أبو الحسن هذا من أعظم ملوك بني مرين وواسطة عقدهم كما يقال، بعد جده يعقوب بن عبد الحق الذي طوع المغرب ومكن لدولة بني مرين، وأبو الحسن هو أكبر أولاد أبيه عثمان، وأمه حبشية، وقد ولد في شهر صفر من سنة697هـ/1297م، وقد رأينا كيف آلت إليه ولاية العهد بعدما كانت لأخيه العاق عمر، الملقب بأبي علي والذي انتزعت منه بعد خروجه على والده، حين رحل هذا الأخير لحرب مع بني عبد الواد، وانتهى الأمر بالمفاوضة التي نتج عنها إسناد حكم سجلماسة إلى الولد عمر، وقتها أسندت لأبي الحسن ولاية العهد سنة 720هـ/1320م وبذلك يكون أبو الحسن في مدة الأحد عشر عاما التي قضاها وليا للعهد، وقد كان وقتها ابن ثلاث وعشرين سنة، قد تكون تكوينا أهله للمكانة التي وضعه فيها المؤرخون عن جدارة.

ولقد أفاد أبو الحسن بحق حين أصبح زمام الأمر بيده، كما كون حكومته من ذوي الخبرة المحنكين الذين حققوا إلي جانبه ما كان يهدف له من رقي وعظمة، بل لقد أثبت أبو الحسن أنه خبر الرجال، وعرف كيف يسوس الحكم، لولا جموح طموحه نحو حكم المغرب الكبير في ظروف غير مواتية بالنسبة لشرق المغرب الذي لم يكن قد خبره كما خبر أقصاه، مما أدى به وقد نجح في رد اعتباره بالقضاء على سلطان بني عبد الواد، إلى قتل عمر بن يحيى سلطان الحفصيين، ورغم ذلك فإن عهد أبي الحسن بعد أبيه أبي سعيد هو الذي تفتح المغرب فيه على كل أنواع الحضارة، بل على آفاق واسعة في الداخل والخارج بحيث عرفت له سياسة خارجية أظهرته بما يستحق من التقدير والاعتبار، سواء بالنسبة لأوربا التي كانت كل من إيطاليا وفرنسا تتهدد شرقه، وقد فعلت

بعد عندما زالت الهيبة التي فرضها أبو الحسن، وبعده ولده أبو عنان، كما سنرى من حملة لويس التاسع أو القديس على تونس بعد الحملات الصليبيبة على الشرق، والتي كان صدى تاريخها يتردد في الغرب بروح فيها نوع من التطلع لتحرير الذين هم خلف البحار من حكم الهمجية؟ كما عبر فكتور هيجو في خطابه أمام الجمعية الوطنية(539) بعد مآت السنين.

أبو الحسن هذا هو السلطان "الأكحل" أي الأسود كما يسميه عامة المغاربة، لأنه آبن الحبشية كما أشرنا، ولم يكن بالأسود، وقد أكد المؤرخون أنه كان على جانب كبير من الخلق وقد فصل في ذلك ابن مرزوق في كتابه المسند(540) وأنه كان أديبا، ويميل الى معرفة الطب مما حال بينه وبين شرب الخمر، سواء في الصغر او في الكبر، وهو تأكيد يستدل منه أن الشعب كان يحصى أنفاس ملوكه ويتبع حركاتهم كما هو الشأن في كل أزمنة التاريخ قديما وحديثا.

وزر له عامر ابن فتح الله السدراتي، ويحيى بن طلحة بن يحيى بن محلى البطيوي، وغازى بن يحيى بن إدريس، وعبد الله بن إبراهيم الفودودي، وكان حاجبه عبد الواحد بن ناصح، ومن كتابه عبد المهيمن بن محمد الحضرمي، ومحمد بن عبد الله بن أبي مدين، وعلي بن علي القبائلي الموحدي التينملي، وقاضيه محمد بن علي المليلي، وعبد الله بن أحمد بن الملجوم الأزدى، ومحمد بن علي بن عبد الرزاق الجزولي، ومن تراجم هؤلاء يدرك المرء حقيقة ما دونه آبن مرزوق حول أبي الحسن، إذ المرء بقرنائه وبمن حوله، والمثل يقول: قل لي من ترافق أقول لك من أنت.

سبق أن أشرنا الى خطبة فاطمة بنت أبي بكر الحفصي التي وصلت الى المغرب في الوقت الذي آنتهت فيه حياة أبي سعيد الذي وافاه أجله، فكانت بيعة أبي الحسن مقرونة بالزفاف، كما أشرنا إلى أن أبا بكر الحفصي كان قد آستنجد بأبي سعيد، واليوم وقد أصبح خلفه أبو الحسن صاحب السلطة العليا، وهو صهر أبي بكر فقد أصبحت

---

(539) راجع تاريخ الدولة العلية لمحمد بك فريد /ط مصر 1912، وكذا تاج البلاغة لفكتور هوجو.

(540) الجذوة 461/2/ط الرباط. والمسند الصحيح الحسن في مآثر أبي الحسن لابن مرزوق تحقيق ماريا خيسوس بغيرا /ط الجزائر 1981. تقديم ذ/محمود بوعياد.

الرغبة أكثر من أبي الحسن في نجدة صهره، خصوصا وأن فاطمة أصبحت عند أبي الحسن مثال الزوجة الصالحة التي ظهرت آثارها في الحياة العامة وبشكل ملحوظ في السنوات الأولى من حياة ملك أبي الحسن رغم ما كدرها بما حدث من حرب الأخوين التي أشعلها بينهما كيد وخبث ومكر ودسائس تاشفين كبير بني عبد الواد.

كان أبو الحسن قد آعتزم القيام برحلة تأديبية نحو بني عبد الواد، وقبل أن يفعل توجه الى سجلماسة عندما آل إليه الملك حتى يتعرف على مدى ولاء أخيه أبي علي الذي أظهر له الطاعة والولاء بالاستقبال الكبير الذي استقبل به أبو الحسن مما بعث في هذا الأخير الاطمئنان الى أخيه والتمكين لسلطانه في سجلماسة، بشكل يبعد ما يمكن للمندسين إحداثه بين الأخوين، لكن تاشفين العبد الوادي وقد كان على علم بأهداف أبي الحسن نحوه إستطاع وبطريقة دلت على أن أبا علي آنخدع له أن يثير في نفسه روح النقمة على أخيه رغم ما حصل، وأن يتفق أبو علي مع تاشفين على القيام ضد أبي الحسن إن هو قام بحرب تلمسان ظنا منه أن ذلك يمكنه من الملك، وقد كان المرشح له من قبل، وفعلا ما كاد أبو الحسن يقرر حصار تلمسان ويأخذ في التدبير حتى بلغه الخبر أن أبا علي قد نقض العهد وثار ضد أخيه ليطعنه من الخلف، فلم يكن من أبي الحسن الا ان بدل الموقف من حصار تلمسان الى حصار سجلماسة، ولمدة سنة(541) عرفت فيها الإرهاق الذي دفع أبا علي الى الاستسلام ذليلا، فألقي عليه القبض ثم نقل سجينا الى مدينة فاس حيث قتل خنقا، ووقتها تبدلت الخطة من حصار تلمسان الى نجدة الأندلس، ففي الوقت الذي كان أبو الحسن قد قرر الرحلة الى تونس قبل الحرب مع بني عبد الواد،لكنه أيضا ما كاد يعزم حتى ورد عليه طلب بني الأحمر من محمد بن إسماعيل 725-733هـ/1325-1333م يستنجد ويستغيث بإلحاح ضد ألفونس الحادي عشر، خصوصا

---

(541) وقتها طمس اولا عين الحياة، ولسوف يزيد في طمسها بعد حين حر به مع ولده أبي عنان كما سنرى بعد هزيمة أبي الحسن في تونس، وعودته في البحر الذي ابتلع كل من كان معه، ولم ينج غيره، وأخر معه، وبذلك تطاول أبو عنان، فانتزع الملك لنفسه رغم أنه لم يتأكد من موت أبيه، وإنما بدافع اتهامه إياه بالشطط كما سنرى بعد عودة أبي الحسن من تونس سنة 749هـ/1248م.

وقد كان محمد بن إسماعيل بن الأحمر(542) هذا قد عبر البحر قبل إلى بلاط أبي الحسن أواخر سنة 732هـ/ 1331م بعد سقوط جبل طارق، فلم يكن من أبي الحسن إلا أن جهز ولده أبا مالك بخمسة آلاف جندي تمكن بهم من رد جبل الفتح سنة 733هـ/ 1332م، والذي كان الإسبان قد استولوا عليه سنة 709هـ 1309، وذلك في عهد رابع ملوك بني الأحمر، نصر بن محمد الفقيه 686-722هـ/ 1287-1322م، ثم ضيقوا الخناق على المسلمين، وكان هذا الانتصار أحد مفاخر أبي الحسن الذي وجه ولده ، عبد الملك إلى الجزيرة بعدما ترك بالجبل الوزير يحيى بن طلحة، لكن هذا الإنتصار لم يكن ساراً بالنسبة لأبناء عمومة آل عبد الحق، وهم أصحاب مشيخة الغزاة من أبناء أبي العلاء إدريس الذين طالما عملوا على الفصل بين بني الأحمر وبني مرين أبناء عمومتهم والخصوم القدامى، وكان أبو الحسن قد تطلع هو الآخر إلى أن الجزاء على النجدة من بني الأحمر سيكون هو الخلاص من أبناء أبي العلاء إدريس، وهذا ما فطن له هؤلاء فكانوا السباقين بالمبادرة، وإذا كانت مشيخة الغزاة بأيديهم، فإن عليهم أن يبرهنوا لأبي الحسن أنهم قوة فعالة في دولة بني الأحمر، وإن فاتهم أن يكونوا كذلك في بني مرين، بل في مقدورهم الخلاص من سلطانهم محمد بن إسماعيل الذي قتلوه غدراً، وهو في طريق عودته من جبل الفتح إلى عاصمته غرناطة، وذلك بإيعاز من عثمان بن أبي العلاء، ثم تركت جثته في العراء حتى نقلت بعد إلى مالقة (544) وإذا ما أضيف ماحل بابن الأحمر إلى قتل ولد أبو الحسن أبو مالك، فإن الكارثة أصبحت أكبر من أن يتحملها أبو الحسن، لكنه تجلد متقدما إلى الأمام(545).

خصوصا وقد تولى ملك بني الأحمر سابعهم أبو الحجاج يوسف الأول النيار بن

---

(542) العبر 7/558- واللمحة البدرية 77 والدرر الكامنة 3/390 قتله بعض قواد القوات المغاربة «أبناء أبي العلاء» في جيشه، لانه كما قال ابن الخطيب «توغرت عليه صدور رؤساء جنده من المغاربة، إذ كان شرها لسانه، غير جزوع ولا هيابة، فربما تكلم بملء فيه من الوعيد، ذلك أنه لما انتهى من إسترداد جبل الفتح الذي كان الإفرنج قد ملكوه سنة 709 هـ/ 1309 م كمن له بعضهم فقتلوه، ونقل إلى مالقة فدفن بها.

(543) تقول بعض المصادر 707 هـ راجع اللمحة البدرية 57 والدرر الكامنة 4/392.

(544) المصدر السابق 77-82 وروضة النسرين وملخص ابن زاكورم خ 25.

545) راجع العبر 7/530- 531-532-550 ط 1959، والاحاطة 1/349-355، والمسند الصحيح الحسن مصدر سابق، ومنظومة رقم الحلل لابن الخطيب. مصدر سابق.

إسماعيل 733-755هـ 1332-1354م، والذي لم يتجاوز سنه خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر، الأمر الذي - لولا ما كان ينتظر أبا الحسن في كل من تلمسان وإفريقية- لأمكنه أن يشرف على تنصيب وتوجيه يوسف الذي لم يكن بعد قد توفرت له من الحنكة والتجارب ما يمكنه بهما تسيير مملكة تقف في المواجهة ضد الإسبان الذين وجدوها فرصة بعد في الواقعتين اللتين حصلتا في عهد يوسف، وهما وقعة البحر بأسطول الروم، وموقعة ظاهر طريف سنة 743هـ/ 1342(546)، لكن أبا الحسن وقد عرفنا مدى علاقته ببني عبد الواد زائد تربص أبناء أبي العلاء، جعله ينهج نهجاً جديداً مع بني عبد الواد، حتى يتفرغ لمهمته في إفريقية وتونس، ذلك أنه اختار هذه المرة مع بني عبد الواد جانبا غير الذي اعتادوه منه، فأرسل يطلب منهم الصلح مع أبي بكر، وقد أرسل لذلك وفداً وجهه إلى العاق تاشفين قاتل أبيه الذي لم يدرك ماكان يخبئ له القدر على يد أبي الحسن، لكن تاشفين وكأنه اغتر بما حل بأبي الحسن من قتل ولده، فظن أن ذلك يفت في عضده، ناهيك وأن تاشفين تقدم إلى الأمام في غزو أملاك الحفصيين شرقاً، فأرسل إليه يطلب منه التراجع عما أخذ، لكن تاشفين وهو الواقع تحت تأثير طالع النحس بضغط الغرور وحاشية أعلاج النصارى، إندفع إلى الرد على وفد أبي الحسن، ولم يقتصر الأمر على تاشفين وما أبداه من فحش القول للوفد، بل تعداه إلى حاشيته من أعلاج النصارى الذين يتزعمهم الإسلامي هلال القطاني، وسامح الصغير، فرجع الوفد جريحا إلى أبي الحسن الذي ماكاد يعلم حتى ثار لكرامته، وهذه المرة سيكون تأديب بني عبد الواد بجمع أكثر ما يمكن من الرجال الذين جمعهم من مختلف جهات المغرب سنة 735هـ/ 1334م.

خرج أبو الحسن وبلا شك في حالة نفسية بلغت منتهى حدتها في النقمة على بني عبد الواد، وحتى يحقق فيهم ما خطط وأراد، إكتسح في طريقه وجدة وما حولها إلى ندرومة، ثم تقدم إلى تلمسان التي ذكرها بعهد يوسف الناصر الذي شيد حولها

---

(546) المصادر السابقة، وأعلام الإعلام القسم الثاني 350-352، والحلل السندسية للأمير شكيب أرسلان ج 229/3 ومابعدها، والاستقصا 140/3 عن الترجمان المعرب، ولقد سبق لابي سعيد والد أبي الحسن أن امتنع قبل سنة 719هـ/ 1319م من نجدة الغالب بالله أبو الوليد بن فرج بن نصر 713-725هـ/ 1313-1324م، ورغم ذلك انتصر على الاسبان بفضل جيش المغاربة الذين ينقمون على محمد بن إسماعيل لاستنجاده بأبي الحسن راجع تعليق(543) قبل.

المنصورة، بل إن أبا الحسن شيد بالقرب من تلمسان برجا فقط، كدليل على عدم رغبته في الإطالة ثم حاصرها بالجند حصارا ضيق على تاشفين وبطانته بشكل حال بينهم وبين الدفاع عن غير تلمسان التي انطلق أبو الحسن إلى ماحولها، فاستولى على وهران،(547)، وهنين، ومليانة، وتدليس، والجزائر(548) وغيرها من المدن والجهات التي استولى عليها سنة 736 هـ/ 1335م، وإذا ماترك تلمسان في حصارها تعاني من شدة الضيق، فإنه عاد إليها بعد ماجردها ليخنق أنفاس تاشفين ومن حوله، وبعد قتال لم يكن فيه تاشفين في المستوى قبض عليه بعد قتل أولاده الثلاثة، وبعض وزرائه الذين حضروا مجلسه يوم حمل وفد أبي الحسن ماحمله من الشتائم، وهكذا اختار أبو الحسن لقتل تاشفين يوم 30 رمضان 737هـ/ 1336م، بعده رجع إلى المغرب رجوع المنتصر الذي حقق ما لم يحققه سلفه إزاء بني عبد الواد الذين أزال ملكهم وقضى على دولتهم التي ظهرت يوم ظهور أبناء عمومتهم من بني مرين الذين لم يعرفوا معهم سلماً ولاهناء مدة أكثر من قرن مضى.

---

(547) من أهم مدن المغرب الكبير بموقعها على ساحل البحر الابيض المتوسط، ومقابلتها للأندلس أسسها ملوك مغراوة قبل الاسلام، عرفت تقلبات سياسية كثيرة منذ عهد السليمانيين الحسنيين الذين يوجدون بكثرة في جبال مهاجة، وقد انتجت الكثير من العلماء راجع مختلف المعاجم.

(548) وهي اليوم عاصمة القطر الذي يعرف بها، وموقعها على ساحل نفس البحر أسسها بلكين بن زيري الصنهاجي، وقد عرفت أيضا بجزائر بني مزغنه الصنهاجيين، كما نص على ذلك صاحب القاموس وغيره، والذي عمرها ووسع عمرانها هو بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وقد سبق لنا ذكرها في عهود المرابطين، والموحدين، إلى أن قامت دولة بني مرين فأصبحت الجزائر داخل حكم بني عبد الواد الذين أسسوا مملكتهم بتلمسان، وقد عرفت كما عرفت كل مدن الشواطئ في المغرب الكبير، صراعات عبر التاريخ راجع المصادر السابق ذكرها وكل مصادر تاريخ المغرب الكبير التي لاتخلو من أعلام الجزائر وعلمائها خصوصا بالمعنى العام والروض المعطار للحميري 163/1 ط 1980 ، ومعجم نويهض ط1971، الشيء الذي يبطل دعوى المفترين على تاريخ الجزائر كما سنرى بعد وقت طلائع الاستعمار الاوروبي في القرن 19.

الفصل الرابع والثمانون

أبو الحسن وبني قلاوون بمصر

عاد أبو الحسن وقد عمت فرحة أنتصاراته الكبير والصغير في ربوع مملكته، خصوصا أفراد أسرته رجالا ونساء، ومنهم شقيقته فاطمة التي كانت ترغب في أداء فريضة الحج مكان والدتها التي طالما تطلعت لذلك ولم تتحقق آمالها بسبب ما كان عليه بنو عبد الواد ومن في ركابهم من قطع الطريق على كل من يمت إلى بني مرين بصلة، ومن ذلك وفد الناصر بن محمد بن قلاوون، ثم ركب الحجيج في عهد يوسف الناصر من بني مرين، وإذا ما زالت تلك الأسباب التي كانت تحول بين المغاربة تحت حكم بني مرين وأداء الفريضة ربطوا علاقة الود مع سلفه الذي هو جده يوسف ووالده عثمان، زمن الناصر محمد بن قلاوون، كما أشرنا لذلك قبل ثم تبادلوا معه الهدايا والتحف التي تغنى المؤرخون بها كثرة وعظمة، فإن على أبي الحسن أن يجدد العهد بما لم يسبق لسلفه كثرة، ولعاهل مصر أن رآه عظمة وروعة، ذلك هو المصحف الشريف الذي خطه أبو الحسن بيده، وقد حلاه بأنفس الجواهر وكريم الاحجار. كتب أبو الحسن إلى الناصر محمد بن قلاوون الذي عاد إلى الحكم للمرة الثالثة في مصر التي زاحمه عليها العادل زين الدين كتبغا للمرة الأولى، والذي أعقبه المنصور حسام الدين لاجين ثم المظفر بيبرس الجاشنكير للمرة الثانية(549)، كان كتاب التمهيد من أبي الحسن يحمل خبر فتح تلمسان سنة 737هـ/ 1338م، وفيه يخبره أنه قضى على ما كان يحول بين المغرب ومصر من أعمال قطاع الطريق على وفود الحجيج(550)، وفي الوقت نفسه كان أبو الحسن يهيء

---

(549) أرسله مع فارس بن ميمون بن ودرار الذي عاد بجواب الناصر بن قلاوون يؤكد فيه ما كان لسلف أبي الحسن معه. العبر 7/551.

(550) العبر 7/551 وصبح الأعش 8/87-88- 89-ج7/1395-407 السابق، والمقريزي السلوك 2/464 ب. وتذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه للحسن بن عمر بن حبيب المتوفي 779هـ /1377م/ج 2- تحقيق د/محمد محمد أمين - ط مصر 1982.

الركب الذي سيرافق محظية والده إلى الحج، وقد أعد من الهدايا ما يتفق ومكانة التي قال عنها إنها عوض أمه، وقد سجل التاريخ أرقام الأموال التي زود بها أبو الحسن أفراد الركب من الأميرة الى آخر فرد منه، كما سجل الهدايا في كتاب بعث به الى الناصر آخر سنة 738هـ/ 1339، من بينها خمسمائة جواد مغربي مجهزة بما يليق من سلطان لآخر، ثم خمسمائة أحمال من أقمشة الحرير، والصوف والكتان، والأواني الخزفية، وأصناف الدر والياقوت(551) الذي آستأثر به الناصر بن قلاوون بعد ما وزع على حاشيته ما دونه كما يقول آبن خلدون، وأكثر منه آبن مرزوق في المسند الصحيح الحسن، وقد ورد في بعض الكتاب ما يلي "... إنا نحيط علم الإخاء الأعز ما كان من عزم مولاتنا الوالدة، قدس الله روحها، ونور ضريحها على أداء فريضة الحج الواجبة، فاعترض الحمام دون ذلك المرام، وعاق القدر دون بلوغ ذلك الوطر، وإن لدينا من نوجب إعظامها... وهي محل والدتنا المكرمة، ... وقد شيعناها إلى بيت الله الحرام... وحين شخص لذلكم الغرض الكريم موكبها... أصحبناها من حور دولتنا وأحظيائها، ووجوه دولتنا العلية وأوليائها، من آخترناه لهذه الوجهة الحميدة الأثر... من أعيان بني مرين والعرب وأولاد المشايخ أولي الديانة والتقوى، وقصدهم من أداء فرض الحج قصدها، وسيرنا من تحف هذه البلاد إليكم ما تيسر في الوقت تسييره... ومعظم قصدنا من هذه الوجهة المباركة إيصال المصحف العزيز الذي خططناه بيدنا إلى مسجد سيدنا ومولانا وعصمة ديننا ودنيانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم(552).."

---

(551) راجع الوصف في العبر 7/ المصدر السابق، وإعمال الأعلام لابن الخطيب 98. والمسند ص 452 مصدر سابق.

(552) راجع ما أضفاه أبو الحسن على محفظة المصحف الشريف من عظيم التقدير، وما حلاها به من صفائح الذهب، والآبنوس والعاج والصندل وما نظمت به من جوهر وياقوت، العبر ج 7/552-554-562، وقد فعل أبو الحسن مثل ذلك بنسختين أخريين واحدة أوقفها على القراء، وأخرى لبيت المقدس، ولقد فعل أبو الحسن مع الناصر بن قلاوون ما فعل من مبالغة في الهدايا حتى يشعره أنه أعظم ملوك المغرب الذين آتصلوا بابن قلاوون بما في ذلك صاحب إفريقيةوبني عبد الواد وبني الأحمر، راجع القلقشندي في صبح الأعشى ج 7/414-416 ج 8/87-85، والمقريزي في السلوك 2/ القسم الأول 198-199 د 1/447-448، ونفح الطيب 2/538-546و4/62-63، تاريخ تمبكتو لعمر أقيت مخطوط، خاص، ورحلة إبن بطوطة 2/302 ط 1939، وفيها يقول آبن جزي: إن الذي قدم رسولا على أبي الحسن هو الحاج موسى الونجراتي ص 206، وكذا الترجمان للزياني المخطوط السابق ذكره، ويفهم=

ويخبرنا المقريزي عن مقام أخت أبي الحسن وحاشيتها بالقاهرة في ضيافة الناصر، وقد حلت بها في رمضان سنة 738هـ/ 1336م حيث أنزلهم بإحدى دور القلعة ثم خصص لهم كل يوم ثلاثين رأسا من الغنم، ونصف أردب أرز، وقنطارا من حب الرمان، وربع قنطار سكر، وغير ذلك مما يلزمهم من الشمع، والتوابل، ثم ندب السلطان الأمير جمال الدين متولي الجيزة للسفر معها الى بلاد الحجاز، وأمره بأن يعد لها ركابا خاصا بها، كما كتب إلى أميري مكة، والمدينة بأن يكونا في خدمتها"(553)، كما أرسل الى أبي الحسن يخبره بوصول الركب، وقد ورد في رسالته: ما تعرض له كذلك آبن خلدون، يقول الناصر بن قلاوون مخاطبا أبا الحسن "... لقد آستقبلناهم على بعد بالإكرام... وأسد لنا الخلع على جميعهم، واحتفلنا بهم في قدومهم، ومقامهم، وتشييعهم، وعرضوا بين أيدينا ما أصحبتهم من الطرف والهدايا، التي لا تحملها ظهور البحار، فكيف ظهور المطايا، فتقبلنا أجناسها وأنواعها، وتأملنا غرائبها وإبداعها، ثم آستصفينا منها نفائس آثرنا إلينا إرجاعها، وفرقنا في أوليائنا إجتماعها... وسطرنا "هذا الكتاب" وركبكم المبارك قد رامت السرى نجائبهم، وأمت أم القري ركائبهم، وكتبنا الى أمراء المدينة المشرفة أن تتلقى بالقبول الحسن مصحفه، وتحله بين الروضة والمنبر، وعما قليل يتم حجهم واعتمارهم... ثم يصدرون إن شاء الله اليكم ركائبهم بالمنائح مثقلات..."(554).

هذا وقد ذكر، ابن خلدون ما رد به محمد بن قلاوون وفد أبي الحسن من الهدايا،

= من رواية العبر ان المرسلة إلى الحج إنما هي محظية والد أبي الحسن، وذلك من قوله "وهي محل والدتنا الكريمة" وقد صرح صاحب العبر 440/5-441 باسمها "مريم الحرة" بل الحرة مريم هي عند ابن مرزوق أم أخته أم ولد أبيه وقد قال عنها بعضهم "آبنته"، راجع دولة بني قلاوون في مصر د. محمد جمال الدين سرور ص144-145 ط1947م. ثم راجع المسند ص 451-454 ط الجزائر 1981م، وفيه أورد ابن مرزوق كل ما أرسله أبو الحسن لابن قلاوون بالوصف الدقيق، والذي ربما عنه أخذ ابن خلدون بلا شك من غير أن يذكره، وتلك عادته في الكثير مما أورده من العجائب، ولعله من خلال تلك الهدايا يدرك المرء ما انتهت إليه الحضارة اجتماعيا واقتصاديا في بلاد ملوك المغرب زمن بني مرين.

(553) المقريزي السلوك 460/2-أ- وكان يوم وفادتهم على الناصر بمصر يوما مشهودا تحدث به الناس دهرا، يقول آبن خلدون 553/7، بل بقي حديث الهديتين المتبادلتين إلى زمن ابن خلدون حديث الناس كما ذكر، خصوصا وقد آستمرت العلاقة بين الملكين إلى أن توفي الناصر 741هـ، ثم تولى ولده أبو الفداء إسماعيل فتجددت بينهما العلاقة كذلك.

(554) القلقشندي صبح الأعشى جـ 389/7-390.

وضمنها خيمة مصنوعة بالشام فيها أمثال البيوت والقباب ومبطنة من الداخل بالحرير العراقي، وصوان من الحرير مربع الشكل، وعشرة جياد بسرج، ولجم مصنوعة من الذهب، والفضة ومرصعة بالآلئ... الخ ولما عاد ركب المغرب ومعه رسل صاحب مصر والشام، ردهم أبو الحسن بكتاب أثنى فيه عليه، وقد آستمرت العلاقة بين المشرق والمغرب طيلة حياة أبي الحسن الذي يعتبر بحق خير من عرف المشارقة بالمغرب.

ولم يكن ذلك هو ما فعله أبو الحسن لرفع صوت المغرب وربط علاقته بالخارج، بل كذلك وجه رسله محملين بالهدايا إلى ملك مالي، الذي يعتبر جارا لمملكته، وهو منسا موسى الذي كان قد أرسل إليه يهنيه بالانتصار على بني عبد الواد، فرد عليه أبو الحسن بوفد يرأسه أبو طالب محمد بن أبي مدين ومولاه عنبر الخصي بعد موت منسا سليمان بن منسا موسى، الذي كان قد توفي قبل رجوع وفد مالي من المغرب، ورافق الوفد كدليل وحارس علي بن غانم أمير أولاد جابر الله من المعقل، ولما عاد الوفد صحبه رسل سلطان مالي مبالغة في العرفان والشكر لأبي الحسن(555).

وبعد كل هذا عاد أبو الحسن وقد آنتشى بنصره الى التفكير في أصهاره من الحفصيين الذين دب الخلاف في صفوفهم، وأصبحت خلافاتهم فيما بينهم عامل ضعف وتخاذل آنتهت بهم إلى تمزيق شمل وسوء مصير، ظهر بشكل مزعج في السنوات الثلاث التي أعقبت القضاء على بني عبد الواد، الأمر الذي أدى بآبي الحسن الى التفكير في القيام بجولة تأديبية الى تونس يقوم بها آعوجاج الحفصيين، وفي هذه المرحلة أيضا عاد أبو الحسن الى سياسة الحلم مع بني عبد الواد الذين زال ملكهم، وبادت دولتهم، فرفع من شأنهم بالعطاءات وفرض لهم الجرايات، كما نظم بعضهم في جيش المراسي تحت إمرة كثير من الزناتيين الذين ولاهم الثغور تأليفا لهم، كما فكر قبل رحلته لتونس أن يؤمن الجانب الشمالي بالقضاء على غطرسة الإسبان الذين قتلوا ولده أبا مالك، ومحمد بن إسماعيل بن الأحمر الذي قتل غدرا بيد أبناء أبي العلاء الذين لم يفتأوا يتربصون الفرص ضد بني مرين.

---

(555) العبر 7/555 ط 1959، ولم تستمر هذه العلاقة فقط سوى في عهد أبي الحسن راجع النفح جـ 6/ 120-135، والاستقصا 3/ 143-147-151.

الفصل الخامس والثمانون

موقعة طريف وأسباب الهزيمة فيها

جهز أبو الحسن جيوشه التي خرجت منتصرة في حروبها الطاحنة بالمغرب الأوسط، ثم قطع البحر بأساطيله التي تعززت بأسطول الحفصيين غازيا تخوم الأندلس، فكانت آماله وكما تعود طالعه الظفر والانتصار الذي طالما أشاد به الشعراء قبل، ثم ردده وعددوه في هذه المرحلة يوم حل بدار الإنشاء من مدينة سبتة 740هـ/ 1339م، ودخل أبو الحسن بجنده بلاد الأندلس، بحيث آنضم الى جند أبي الحجاج بن الأحمر حيث أحاطوا بطريف مع جند أبي الحسن، وعندما آلتقى الجيشان، جيش الإسبان وجيش أبي الحسن، وتقابل الأسطولان، كان النصر لجيوش أبي الحسن الذين قضوا على الإسبان وأسطولهم، فكان هذا الإنتصار مما دفع الى انتشاء واعتزاز أبي الحسن الذي جلس ليلقي عليه الشعراء قصائدهم في مدحه والثناء عليه، يوم السبت شوال740هـ/1339م، الأمر الذي زاد في حرارة وحماس أبي الحسن نفسه، فلم يقتصر على ذلك، بل تهيأ لخوض معارك أخرى دون أن يحيط تخطيطه بالحزم الذي يجب في مثل تلك المعارك من كل الجوانب، بل إن آنتصاره وما سمع من مديح أنساه التدبير في أمر المندسين في مملكة بني الأحمر، وواقع جندها وقيادته، خصوصا وأن جند أبي الحسن وقتها كان تعداده ستون ألفا وزيادة، وقطع الأسطول الذي عزز بأسطول الحفصيين قد جاوز المائة وأربعين بقليل، يقوم على القيادة العامة محمد بن علي العزفي، صاحب سبتة، لكن كل هذه الاستعدادات سيكون مآلها الفشل والانهزام في المعركة الكبرى التي عرفت بعد بـ "معركة طريف" أو "الوقيعة العظمى" كما سماها آبن الخطيب، و"سالادو" كما سماها الاسبان نسبة الى النهر، وذلك بسبب الخيانة والغدر الداخلي الذي سيشارك في تدبيره خصوم أبي الحسن القدامى والذين لم يفكر فيهم، بل ولم يكشفوا بسهولة.

أحـاط جند أبي الحـسن بجـزيرة طريف من يوم نزولهم بتـاريخ 9 صـفـر سنة 741هـ/14-9-1340م، وما كادت جيوش أبي الحسن تأخذ مواقعها حسب خريطة الميدان حتى كان يوسف بن الأحمر معهم وقد تقدم إلى أبي الحسن في جيشه الأندلسي ومعه بعض أعـيـان مملكتـه الذين منهم عـبـد الله والد لسـان الدين ابن الخطيب 713-776هـ/ 1313-1374م.

تخلف نيابة عن ابن الأحمر بغرناطة أخوه ومحمد بن يحيى الأشعري المالقي قاضي الجماعة المعروف، ولئن كان أبو الحسن قد وفق قبل في معركة الأسطول، فإنه في هذه كان ضعيف التخطيط، ذلك أنه لم يأخذ الحيطة بحماية طريق النجدة أولا، ثم ثانيا لم يوفر التمويل الكافي مهما طالت المدة، وهكذا علم العدو بنقط الضعف هذه فركز عليها، حيث شدد في الحصار حتى لا يصل أي مدد، ثم أطال مدة اللقاء دون قتال مدة ستة أشهر، نفذ فيها ما كان لدى أبي الحسن وجيوشه، وشيء آخر هو: أن ما عرف به القوم قبل من الإنتصارات فوت عليهم هذه المرة أن يتدبروا أحوال الجند الغرناطي، وأن يدركوا أن أبناء أبي العلاء، وهم قواده ورجاله قبل لا يزالون يتمتعون فيه بنفوذ لم يكن لأبي الحجاج، ولا بطانته منه قليل ولا كثير فيهم، وأنهم يعلمون يقينا أنه إن انتصر أبو الحسن لا يكون له حساب مع غيرهم، كل هذا لم يعره أبو الحسن ولا رجاله أي حساب، مما أدى إلى إهمالهم التخطيط بإحكام للمعركة، فتسربت بعض جيوش الاسبان ولعله بتدبير مع أبناء أبي العلاء وبطانتهم داخل المدينة، وإذا ما أحس بهم جند أبي الحسن ثم قتل بعضهم، فإن البعض بقي مختبئا داخل المدينة، ودلس على أبي الحجاج نفسه، والذي لم يكن بعد قد تأهل لخوض مثل تلك المعارك، إذ لم يكن قد أكمل الخامسة والعشرين بعد، بل وربما كان الذين هم قادرون من رجال دولته قد استشعروا الخطر فلاذوا بالصمت أمام ماكان يدبر مما سيظهر أثره في تصرفات أبي الحجاج نفسه بعد، ولذلك قيل إنه لم يدخل المدينة غير الذين قتلوا من الإسبان فلم يحصل التفتيش بالقدر المطلوب اعتمادا على أقوال الحراس، بيد أن الكمين بقي داخل المدينة في انتظار الحملة التي كانوا يعلمون تجهيزها من طرف الاسبان والبرتغال الذين سيهجمون على المدينة في اليوم التالي، وهو السابع من جمادى الثاني 741هـ/10/1340م.

وعندما التحم القتال أمكن لفريق الكمين المندس أن يخرج ويقتل النساء والأطفال داخل المدينة، وكان من بينهم حرم السلطان أبي الحسن، وفيهم عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب المريني، وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى الحفصي، كما أشعلوا النار في الفسطاط والمعسكر بعدما انتهبوه، وأحس المسلمون بما وراءهم فاختل النظام وارتدوا على أعقابهم، وألقي القبض في هذه المعركة على تاشفين ابن السلطان أبي الحسن، كما أكثروا القتل في النساء والأولاد، ورجعوا الى بلادهم كما رجع ابن الأحمر إلى غرناطة بعدما خلف أحسن رجال دولته في المعركة، وأبو الحسن إلى الجزيرة ثم إلى جبل الفتح، ومنه ركب البحر الى سبتة حيث(556) استقر رأيه على دراسة أسباب الهزيمة وتفاديها، بعدما ترك الآخر كل هيبته ومكانة دولته في هذه المعركة التي سيحاول تكرارها، لكنه سيتعرض لأكثر من الكيد الذي دبر قبل، إلا أنه بدون قتال، ذلك لأن ابن الأحمر وقد رأى ما رأى اختار الصلح من وراء ستار، ولو أنه أخبر أبا الحسن لما أقدم على العمل والنداء بالجهاد ثانية.

لم يستسلم أبو الحسن أمام هذه الكارثة، بل جهز جيشا آخر من جميع أطراف المغرب وضعه هذه المرة تحت إمرة وزيره عسكر محمد ين العباس بن تاحضريت، وموسى بن إبراهيم اليرنياني، وقدم على الجزيرة معه محمد بن العباس بن تاحضريت، كما بعث مددا من الجند تحت إمرة موسى بن إبراهيم اليرنياني، ثم جهز من الأسطول مائة وأربعين سفينة، منها عدد كبير من السفن الحربية.

أما جيوش الاسبان والبرتغال بقيادة ألفونس الحادي عشر710-751هـ/ 1310-1350م، فإن النصر الذي حققوه قبل دفع بهم الى الإقدام في قوة وعنف عندما تقابل الجيشان برا وبحرا، فظهر لأبي الحجاج يوسف بن الأحمر أنهم أقدر على الانتصار، كما أدى به الى الاتصال سرا قصد إبرام الصلح من وراء أبي الحسن الذي بقي بسبتة يشرف على الإمدادات العسكرية، واغتر ابن الأحمر بما رآه من إقامة بيوت الخشب في معسكرات الاسبان، وتركيز أسطولهم في بحر الزقاق بعدما ركزوا هجومهم العنيف على الجزيرة الخضراء وطريف، بينما كانت جيوش يوسف مقابل جبل الفتح وأبو الحسن

---

(556) العبر 7/261-262.

بسبتة، وما كان لهذه المعركة أن تفشل فيها جيوش أبي الحسن لولا ما حدث من إغراء ابن الأحمر للعدو حين طلب السلم والصلح، فما كان من أبي الحسن إلا أن سحب جيوشه ثم رجع إلى المغرب بأمان تاركا لابن الأحمر أمره في إتمام الصلح الذي تم بينه وبين ألفونس، وقد آتهم أبو الحسن كذلك وزيره عسكر بن تاحضريت بالتقصير فقبض عليه بعد العودة الى المغرب، وكان ذلك سنة 743هـ/ 1342م.

كانت هزيمة أبي الحسن التي قتلت فيها زوجته فاطمة قد نغصت عليه حياته، خصوصا وأن الزوجة بأصالتها وكريم محتدها كانت على جانب كبير من البر والحب والوفاء، مما دفع بأبي الحسن أن يفكر في خطبة أختها، فأرسل لذلك وفدا يتكون من عريف بن يحيى أمير زغبة، وأبا الفضل عبد الله بن أبي مدين، كاتب الجباية والعسكر، ومولاه عنبر الخصي، سنة 746هـ/ 1345م، فاستقبلهم أبو بكر الحفصي الذي تردد في القبول، لكنه أذعن أخيرا بسبب تدخل حاجبه آبن تافراكين، وفعلا جهزت العروس ثم أرسلت مع شقيقها الفضل(557) صاحب بونة وجماعة من مشيخة الموحدين، فاستقبلهم أبو الحسن أحسن آستقبال، وبينما هم في الطريق توفي أبو بكر والد العروس، فبلغ الخبر إلى أبي الحسن الذي واسى رجال الوفد ثم سمح لهم بالعودة ، ما عدا شقيق العروس الذي آحتفظ به في ضيافته حتى أخذه معه بعد، إذ كان يعتزم غزو إفريقية لولا وجود صهره أبو بكر، وإذا ما توفي هذا الأخير وتولى مكانه ولده أبو حفص عمر بالقوة، رغم أنه أصغر ولد أبي بكر، ذلك أنه لما توفي والده أبو بكر ثاني يوم من شهر رجب سنة 747هـ/1346م، آقتحم القصر، واستولى عليه بالقوة التي هدد بها الحاجب أبو محمد بن تافراكين، ومشيخة الموحدين، فأخذوا له البيعة من رجالات الجند، وأعيان الدولة متحديا بذلك ولاية العهد التي كانت لأخيه أحمد، الذي كان وقتها بأرض الجريد من جنوب تونس، فلما سمع الخبر قدم على تونس، لكنه لقي حتفه في حرب مع أخيه عمر، الأمر الذي أدى بإبن تافراكين إلى الفرار الى أبي الحسن، فأبلغه الخبر ثم حثه على محاربة أبي حفص، وزين له الاستيلاء على ملك الحفصيين الذين طالما فكر فيهم أبو الحسن وفي

---

(557) العبر، المصدر السابق، والخلاصة النقية في أمراء إفريقية ص75 ط تونس 1283، وخلاصة تاريخ تونس-حسن حسني عبد الوهاب /ط تونس 1972 ص18، والدولة الحفصية 127-129.

غزوهم والاستيلاء على بلادهم، تحقيقا لفكرة التوسع التي كانت تستولى على أبي الحسن وتبعد عنه الراحة، وهي التي سوف تجره الى هلاك وسوء منقلب على يد ولده أبي عنان.

وإذا لم يكن أبو الحسن رغم عظمته وما حقق من تقدم حضاري في مجالات مختلفة مثل سلفه يوسف بن تاشفين، وعبد المومن اللذين كانا يقصدان من فتوحاتهما بالمغرب الكبير التوحيد، وضم الصفوف، وجمع الشمل، لمواجهة قوة العدو المتربص بالأندلس، بل كان ما يطمح إليه أبو الحسن هو الفخر، والعظمة، وتحقيق الذكر بين الناس، فدفعه ذلك الى الوقوع في أخطاء جد كبيرة أدت إلى ضعف الدولة الذي بدأ يدب في أوصالها في حياته، وإن كان ولده أبو عنان بعده يعتبر آخر من عاش عظمة بني مرين لكنها عظمة ممزوجة بمرارة سوء سلوكه مع والده في أخريات حياته كما سنرى.

وهكذا سنرى تأكيد هذه الحقيقة في آنهزام أبي الحسن أمام التونسيين وأعرابهم الذين سيلتفون حول خياط يستمد القوة لمحاربة أبي الحسن من أصول يؤكدها التونسيون الذي ينقمون على أبي الحسن روح توسعه وأهداف آستغلاله، فتكون هزائمه المتوالية في حربه الغير المشروعة، سببا فيما آل إليه أمر دولة بني مرين من ضعف وانهيار، رغم محاولات أبي عنان التي سوف تقتصر على حياته القصيرة، وسنوات حمكه الممتدة في عشرة أعوام إلا ثلاثة أشهر كما سنرى بعد، أما الأندلس فقد كان ما مضى آخر عهده بها، بل آخر عهدها بوسائل الإنقاذ الجادة الا ما كان من بعض المحاولات التي كان يقصد منها الجهاد مثل تلك التي قام بها علي الشريف العلوي(558) ورفيقه أبو إبراهيم العمري جد الشرقاويين آل أبي الجعد، ودفين تافيلالت كما سنرى بعد، بل إن أخطاء أبي الحسن وما جره عليه حب التوسع بلا هدف غير حب النفس والعظمة الجوفاء سيكون السبب في آندفاع كل الذين ملوا من مسايرة أبي الحسن لينقلبوا عليه بعدما انتهى الى فشل في تونس، بل وسينقلب ضده ولده أبو عنان كما سنرى، وياليت أبا الحسن وجه تلك القوة الهائلة التي توجه بها إلى تونس- إلى الأندلس فلو فعل لكان المصير غير المصير.

(558) راجع الأنوار الحسنية لأحمد عبد العزيز العلوي، تحقيق عبد الكريم الفيلالي-ط/المحمدية 1966.

الفصل السادس والثمانون

جموح أبي الحسن ومحاربته الحفصيين بتونس

قضى أبو الحسن عيد الأضحى من سنة 747هـ/ 1346م، ثم عقد لابنه أبي عنان على المغرب الأوسط تلمسان، وبعدها استعد للرحيل إلى إفريقية غازيا فأسند قيادة الجند الى قائد حربه أحمد بن مكي، ثم جد في الرحيل مارا بتلسمان، ومنها إلى وهران دون أن يصدر منه ما يكدر، مما جعل المشايخ يقبلون عليه وهو في طريقه إلى أن حل ببجاية التي لاقاه فيها منصور بن الفضل بن مزين أمير الزاب وبسكرة، ويعقوب بن أحمد قائد الزواودة، وأمير البدو بضاحية بجاية، وقسنطينة فتلقاهم بالإكرام وألزمهم ساقته.

دخل أبو الحسن بجاية(559)، ثم عقد عليها لمحمد بن النوار الذي أنزل معه حامية من بني مرين وكاتب الخراج بركات بن حسون بن البراق، ثم آرتحل منها، وحل بقسنطينة حيث تلقاه أميرها أبو زيد، حفيد السلطان أبي يحيى وأخوه أبو العباس أحمد، وأبو يحيى زكريا وسائر إخوتهم ببيعتهم ونزلوا له عن عملهم فأكرمهم، وعقد لبعضهم ثم دخل البلد وعقد عليها لغيرهم، الأمر الذي يستفاد منه أن أبا الحسن أصبح يرتجل في تصرفاته إزاء الحفصيين وأن تصرفاته كانت بسبب تأثره حسب المعلومات التي أستقاها من خصومهم، وأنه بما أقدم عليه لم يعمل على جمع الشمل وجبر الخواطر، بقدر ما كان عمله السبب في زيادة آتساع الخرق والتمكين للشقاق المهلك كما سنرى.

---

(559) عرفت بجاية التي بنيت سنة 457هـ/ 1064م بصناعاتها المتعددة في مختلف البضائع وبزراعاتها، وذلك بحسن موقعها الذي يبعد عن الجزائر شرقا بـ 200كم وعن قسنطينة غربا بـ 227كم، وباسمها عرف الشمع الذي أطلق عليه الفرنسيون Bougie إلخ راجع د. البستاني ج 5/ 198، وقد كانت بجاية قاعدة بني حماد منذ جددها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مناد بن بلكين، وسميت الناصرة، نسبة إليه، وعندما أزدهرت كان رواجها أكثر مع المغرب الأقصى.

عندما كان أبو الحسن في بجاية قدم عليه عمر بن حمزة سيد الكعوب وأمير البلد، فأخبره برحيل السلطان الذي نصب نفسه ضاربا عرض الحائط بعهد أبيه، وهو أبو حفص عمر المشار إليه فارا من تونس متوجها الى ناحية قابس، فأشار عمر بن حمزة على السلطان بتسريح العساكر لاعتراضه قبل أن يصل طرابلس، ففعل دون تدبر، وهذه بداية دخول أبي الحسن في معارك جانبيه، وكانت أولاها دبرت بمكر لاضعافه، واستنزاف قواه، كما كان لما قام به أبو الحسن أثره في زيادة البلبلة والارتياب في أمره قبل أن يستولي ويركز سلطانه في إفريقية وتونس، وبقية قبائل الاعراب الذين لا يستقرون في ولائهم ولا يخلصون في ودهم، وذلك هو خلقهم منذ كانوا وعبر تاريخ وجودهم في تلك الجهات، كما يخبرنا التاريخ قديما وحديثا.

أرسل أبو الحسن حمو بن يحيى العسكري قائد عسكر بني مرين لمطاردة أبي حفص في الوقت الذي أمر قيادة جنده بالتقدم الى تونس للاستيلاء عليها، فتم لهم ذلك قبل أن يصلها يوم 8 جمادى الثاني 748هـ/ 1347م، فدخلها دخول الفاتح، حيث صفت الجيوش مسافة أكثر من ثلاثة أميال من معسكره بسيجوم الي باب البلد، في موكب ضم وليه عريف بن يحيى أمير زغبة، وابن تافراكين الناقم على أبي حفص، وبعدما صادر مخلفات هذا الأخير وقتل قواده وسجن صاحبه، إرتحل إلى القيروان ثم إلى المهدية ورباط الأجم والمنستير، ثم عاد الى تونس حيث استقبل الشعراء الذين نوهوا بأبي الحسن وما أصبح له من سلطان إمتد من أرض سوس إلى مصراته بأرض ليبيا شرقا، ومن رندة إلى تخوم السودان شمالا وجنوبا، وفي ذلك يقول أبو القاسم الرحوي في قصيدة(560) عدد أبياتها 68 بيتا يبدو عليه التكلف فيها وعدم الصدق في القول وإنما هو مجاراة الشاعر المتملق لغرور السلطان المغرور، وما يعانيه من مركب دفع به الى الطغيان

---

(560) القصيدة طويلة أوردها ابن خلدون في العبر ج 563/7- 564-566- ط 1959م، وفي ص 270/جـ 7، ط مصر، والقصيدة فيها من الأوصاف ما لا قبل لأبي الحسن بها، وويل لذي سلطان إذا ما أصبح الواصل بينه ومن حوله النفاق، والكذب، والتزوير، وقلب الحقائق، بشره بالدمار وسوء المنقلب، وتلك عبر التاريخ مذكان، ولو أن أبا الحسن كان في هذا الجانب كما كان في غيره من الجوانب التي عددها له ابن مرزوق، لما انتهى الى ما أنتهى إليه من مآسي برحلة الغزو لتونس التي حذره منها الحسن بن أبي الطلاق عامله على جبل الفتح، فلم يقبل منه كما سنرى مما سجله ابن خلدون.

والتجبر الذي يعبر عنه الشاعر بقوله الكاذب:

أجابك شرق إذ دعوت ومغرب   فمكة هشت للقاء ويثرب
وناداك مصر والعراق وشامه   بدارا فصدع الدين عندك يشعب
وحيتك أو كادت تحيي منابر   عليها دعاة الحق باسمك تخطب

وهكذا لم يكن ما مدح به أبو الحسن في تونس حقيقة، وإنما كان تصنعا وخوفا مما ظهر منه، ومن حوله من القواد والجنود، الذين أذلوا كبار القوم وساداتهم، بل كان الشعراء الذين تكاثروا على باب أبي الحسن وقتها لا يختلفون عن رجال الصحافة المصنوعة في عصرنا، الذين يغالطون الجبابرة والمتغطرسين ولا يدركون نتيجة ما يفعلون بنفوسهم، وبقول الزور وما يفترون، لم يدرك ابن الرحوي وغيره أن تصرف أبي الحسن إزاء الحفصيين ربما كان من أثر فاطمة الحفصية، الزوجة التي استهوته الى درجة أنه لم يصبر عليها حتى إنه تخفيفا استبدلها بأختها، رجاء أن يجد فيها ما فقده في أختها(561) مع ان فاطمة لم تكن شقيقة لغير أبي الفضل وهو من الذين استبدلهم قهرا أبو الحسن من الحفصيين أهل بونة، وبجاية، وتونس وأن هؤلاء كان لهم من الأتباع والأنصار الذين كانوا في مراكز القوة ما لم يدركه أبو الحسن أو يعيره ما يليق من الاعتبار، ومن يدري هل الزوجة الثانية كانت على نفس النهج الذي كانت عليه أختها فأثرت هي الأخري في اتجاه أبي الحسن وماذ هب إليه خصوصا وأن أبا حفص لم يكن شقيقها، أو لربما أساء بنته الى أحب الناس إليها، وقد عرفنا التاريخ أن ما يحدث من كراهية بين الأخوة غير الأشقاء مما يكون سببه تربية الأمهات يكون أشد عنفا، والأغبياء هم الذين ينساقون وراء الصراع الناتج عن ذلك، وكم عرف التاريخ لهؤلاء الأغبياء من أعداد لا تحصى كثرة ذهبوا ضحية إفلاس السياسة وغرور المتناطحين، وعلى كل فقد كانت أيام أبي الحسن كلها فخر وعظمة ومجد كبير الى نهاية العقد الخامس من القرن الثامن حيث ظهر أن تلك العظمة إنما صنعها من كانوا حوله من الرجال الذين فقدهم في موقعة طريف، إذ لم يكن أحد قبل يتصور أن عظمة أبي الحسن وقوة جحافله. ستنهار أمام قوة البدو الذين

---

(561) لقد روى عن ابن خلدون أنه قال: من لم يتزوج تونسية فقد مات أعزب ونفس الرواية تنسب الى الشافعي في حق المصرية؟.

سيلتفون حول رجل بدوي بسيط هو أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب من سليم، الذين آقتحموا شمال إفريقية لإتمام ما بدأه بنو هلال قبل من تخريب زمن الفاطميين، ولعل الكعوب كانوا يضمرون الحقد لأبي الحسن الذي طوعهم قبل، ثم أخضعهم للحفصيين بعدما كانوا طلقاء، حتى إنهم سنة 742هـ/ 1341م، هاجموا كبير الحفصيين وسلطانهم أبا بكر، فكان النصر الى جانب عمر بن أبي بكر الذي سامهم الذل والهوان، الأمر الذي دفع بهم الى جانب ولي العهد أبي العباس أحمد الذي لم ينتصر له أبو الحسن، ولذلك فهم وآل حمزة لا ينسون قتل أخيهم أبي الهول بن حمزة صبرا بباب داره بالقصبة، وبسبب ذلك قدموا على أبي الحسن وقد بيتوا ما بيتوا ثم زينوا له غزو إفريقية حيلة، ومكيدة، رغم أنهم كانوا يتمتعون بآمتيازات كبيرة مكنهم منها الحفصيون إئتلافا، ولما تم الأمر لأبي الحسن أنكر عليهم ذلك ظنا منه وتقديرا أنه السبب في دوام غلظتهم وثوراتهم، وغاب عن أبي الحسن أنه لو كان في ذلك علاج لما غفل عنه الحفصيون قبل، بل لفعلوه وأقدموا عليه يوم مزقهم أبو حفص في حياة والده أبي بكر.

الفصل السابع والثمانون

بعث الموحدين لمقاومة أبي الحسن بتونس

إستطاع الكعوب بلا شك إقناع أحلافهم من أعراب القوتين من الشعوب ببرقة بني علاق بإفريقية، أن ما قام به أبو الحسن من قطع أرزاق الذين كانوا يتمتعون بالقوة والبطش، أنها فكرة ترمي الى إضعافهم والقضاء على مكانتهم بين القبائل، وبذلك أصبح عليهم أن يبحثوا عن واحد ممن له قدرة وأصالة ترعب بني مرين، وتجمع قوة الأعراب والبربر غير زناتة، ثم تمكن من الوقوف في وجه أبي الحسن وجنوده، وكان في مدينة توزر رجل خياط عرف وتحقق منه الناس أنه من سلالة إدريس بن عبد الحق الموحدي، إسمه أحمد بن عبد السلام بن عثمان بن إدريس وأنه بلا شك من أسرة أبي العلاء المعروف بمواقفه المتطرفة مع الموحدين وآثار مهديهم ومشايخهم، الأمر الذي أدى بخلفه إلى الخروج من المغرب منذ عهد بعيد.

كان أحمد هذا خياطا بتوزر، وهي مدينة عريقة بالجنوب التونسي، وفد عليها من الاسكندرية التي كان أبو بكر الحفصي قد غرب أسرته إليها سنة 744هـ/ 1343م، بسبب تطلعهم وطموحهم، ولما رجع لم يكن له من طموح إلى أن اكتشفه ابن أبي الليل الذي استعمله ليحقق به فكرة خروجه عن بني مرين. الذين شردوا قومه وقتلوا الأعيان منهم بعدما كانواهم قوة أبي حفص بن أبي بكر التي حقق بها كل مطامحه، بل بهم سطا على ذلك بعد موت أبيه ضد أخيه ولي العهد أبو العباس أحمد.

جمع أبو الليل قوته حول أحمد بن عبد السلام بن عثمان الخياط(562) الذي حوله إلى زعيم ورمز وكون له حاشية وجيشا وهالة ملك، ثم تقدم به سنة 748هـ/ 1347م، في تونس الذي كان أبو الحسن ورجال دولته وكبار العلماء الذين حمل معه يستمتعون

---

(562) راجع العبر 571-575 ط بيروت.

بفتوحاتهم في العاصمة تونس، دون أن يعلم ما يدبر له من المعارضة التي صنعها بتصرفاته، وأطماعه، التي حالت دون تقديره لواقع البلاد وظروف قبائلها، ومكانة رجالاتها الذين بالغ في إذلالهم، ومنهم أبو الليل الذي أصبح في إمكانه وقد نظم قواته حول أحد بقايا الموحدين أن يحارب أبا الحسن العظيم وجنوده ونستنتج من الموقف أن أبا الحسن المندفع كون بتصرفاته معارضة عمت البلاد ثم وحدت الصفوف ضده، وإلا لما أمكن لأبي الليل أن يحقق ما حقق من قوة وتنظيم ضد أبي الحسن، خصوصا وأن فكرة الموحدين ما كادت تعلن حتى ظهرت قوات مختلفة، وفي جهات مختلفة لتأييدها والانتصار لها، ناهيك وأنها وسلطانها على النفوس قريبة العهد وأنها لم تفقد قوتها في السيطرة والنفوذ والتولية، والعزل لسلاطين الحفصيين إلا زمن جد القائم الذي نصبه أبو الليل(563)، وهو أحمد بن عبد السلام بن عثمان، هذا بالإضافة الى ما كان يعمل في نفوس بني عبد الواد، ومغراوة، من حقد على أبي الحسن، وقد أصبحوا ضمن جنوده الذين رأوا ما فعل بقومهم وذويهم.

كان عيد الأضحى قد أقبل يوم أخذ أبو الليل يستعد وقومه، وقد كانت مناسبة أثيرت فيها النفوس، وما كادت المناسبةتمر حتى كانت الجموع قد تكاثرت بإسم الموحدين الأولين، وانتشر خبرهم عندما عسكروا بالثنية من بسيط تونس والقيروان، فكان على أبي الحسن أن يعمل للقضاء عليهم حيث رحل إليهم بجنود لا قبل لهم بها، مما دفع بالجموع لمواجهته وقتال جنده، وحين التحم الجمعان، وكان ضمن جند أبي الحسن فرق من بني عبد الواد، ومغراوة، المشار إليهم والذين في قلوبهم مرض من جهة أبي الحسن، فدسوا لجماعة الكعوب –وهم إخوة العلاق– من آتفق معهم على أنهم سوف لا يجدون منهم مقاومة، وأنهم يريدون لهم الانتصار، وعليهم أن يصبّحوا معسكر السلطان وأن يفاجئوه، وفعلا ما كادت الكعوب والجموع تهجم حتى وجدت الفراغ، بل التآمر الذي أوقع أبا

---

(563) الحفصيون يرجعون إلى أبي عمر الهنتاتي، أحد أصفياء آبن تومرت ومن رجالات حربه المؤسسين لدولة الموحدين، ويقول آبن خلدون إنه قد بلغ من تعظيم الناس لقدرهم أنهم تناوبوا الحكم في المغرب والأندلس، سنة 603هـ/ 1207م، حيث عين أبا محمد بن أبي حفص حاكما على إفريقية. لقمع ثورة آبن غانية، ولما أنتصر بقي حاكما إلى سنة 618هـ حيث توفي، فولى مشايخ الموحدين ولده عبد الرحمن حفيد أبي حفص، لكنه عزل، وفي عهد العادل تولى أبو زكريا الذي خرج عن طاعة الموحدين، راجع الفارسية لابن القنفذ ط تونس 1968 مصدر سابق.

الحسن وقواته بل وحريمه في شبكة الهزيمة، بل حتى إبن تافراكين الذي خلع عليه أبو الحسن رداءه تكريما إنحاز إلى جانب أحمد الذي أصبح يعرف بابن أبي دبوس، بل تونس نفسها وما فيها من أشياخ الموحدين، والتي كان الشعراء بالأمس وفي مقدمتهم الرحوي يبالغون في مدح أبي الحسن مال أهلها الى الخارجين عليه، وقد ظهرت الثغرات الواسعة في صفوف جند أبي الحسن، كما ارتفعت ألوية المعارضين محققة النصر إلى الأمام، لكن هذا الانتصار الخاطف للكعوب وصاحبهم أدخل الخلاف في الصفوف من أجل القيادة قبل أن ينفلت الزمام من يد الكعوب وأحلافهم، ولم يكن آبن أبي الليل ولا من انحاز إليه يحسبون أن الخطة ستنجح، ويصبح موحدي قديم بهذه القوة من جديد، فوقع الخلاف وانفك الحصار عن القيروان وتونس، وعاد آبن أبي الليل ومعه أولاد المهلهل الذين التزموا له بالخروج الى سوسة، حيث مراكبه وأسطوله، لكنهم غدروا، وما كاد خبر الانفراج يصل إلى آبن تافراكين الذي كان قد حاصر قصبة تونس غيظا لفائدة آبن أبي دبوس، حتى خرج فارا إلى الاسكندرية عن طريق البحر، وانتهى الأمر بإلقاء القبض على ابن أبي دبوس وتقديمه لأبي الحسن الذي سجنه كما خطب إبنة كبير بني حمزة عمر لابنه أبي الفضل ترضية لهم. لكن كل هذا لم يكن ليخفف على أبي الحسن ما حل به، بل إن الفضل بن أبي بكر الحفصي شقيق زوجته هو الآخر، كان يضمر الحقد والكراهية لأبي الحسن الذي لم يف ما وعده به من توليته مكان أبيه، وقد وعده بذلك عندما قدم عليه مع شقيقته التي زفت لأبي الحسن، لكنه لم يفعل معه أكثر من رده الى ولاية بونة كما كان من قبل في عهد أبيه، لذلك وجدها فرصة للخروج على أبي الحسن مثل غيره، بل أكثر من ذلك، فقد كان عندما بلغه خبر آنكساره في القيروان، وكان خبر انتصاراته وفتوحاته بإفريقية وتونس قد بلغ المغرب، فتكون وفد لحق به برئاسة ولده عبد الله، فلما علم بهم الفضل الحفصي ولم يكونوا قد علموا ما حل بأبي الحسن في القيروان إنقض عليهم، ومثله فعل بنو عبد الواد الذين خرجوا ضد أبي الحسن بتلمسان، ومغراوة بشلف، وبني توجين بالمرية(564)، بل يخبرنا آبن خلدون أن بني عبد الواد لما سمعوا ما حل بأبي

(564) نفس المصدر السابق، العبر 7/582-583-584-585.

الحسن الذي دمر ملكهم بايعوا عثمان بن عبد الرحمن، ومغراوة بايعوا علي بن راشد، ورجعت جموعهم بعد آتفاق الى كل من شلف وتلمسان(565)، كما خرجت الثغور ببجاية وقسنطينة، فأرسل أبو الحسن ولده الناصر وولد عريف بن يحيى لرد الخارجين، لكنهما آنهزما، ورجع الناصر الى أبيه، أما ولد عريف فقد رحل إلى أبي عنان الذي آرتجف عليه خبر موت أبيه أبي الحسن، الأمر الذي دفع بأبي عنان إلى آدعاء الملك لنفسه، وإذا كان كل ذلك نتيجة خروج أبي الفضل الحفصي، فإن هذا الأخير لم يقف عند حد مطاردة وفد المغرب، وعلى رأسه الأمير عبد الله الذي قدم بعدما بلغ خبر فتح إفريقية وتونس الى المغرب، كما قدم لنفس الغرض وفد من الأندلس وآخر من السودان أرسله منسا سليمان صاحب مالي، وكلا الوفدين تعرضا لمصادرة أبي الفضل الذي آستولى على قسنطينة، وبجاية لكن هذه الأخيرة آنتزعها منه بنو عبد الواد ومغراوة وبني توجين، بل تقدم الفضل يريد إفريقية، وتونس، الأمر الذي دفع بأبي الحسن وقد بلغه خبر أبي عنان أن يعجل الرحيل إلى الغرب بعد ما قضى عيد الفطر سنة 750هـ/ 1349م، وبعدما عقد لابنه الفضل على تونس ثم تركه وإلى جانبه أصهاره بنو حمزة، وقتها أمر سفنه بالاستعداد للرحيل(566).

(565) نفس المصدر 591.

(566) نفس المصدر السابق 612/7.

الفصل الثامن والثمانون

متاعب أبي الحسن بين البحر وعقوق أبي عنان

خرج أبو الحسن من مرسى تونس في فصل الشتاء، ولما وصل بجاية وأراد التزود منها بالماء منع، بل تعدى المنع الى الساحل الممتد فالتجأ إلى مقاتلة المانعين الى أن تزودت سفنه وكان عددها ستمائة سفينة، تعرضت كلها لعتو الموج بساحل تدلس، فقذف بعضها نحو الشاطئ بعدما أغرق الكثير منها، وكان أبو الحسن ممن قذف بهم الموج الى الجزيرة قرب الساحل من بلاد زواوة، مع بعض حشمه عراة من كل شيء، وتقول الرواية إنه مات في هذه الكارثة أربعمائة من صفوة علماء المغرب وأعلامه، فكانت النتيجة صحة تنبؤات الحسن بن أبي الطلاق، والى أبي الحسن على جبل الفتح الذي نصح له قبل رحلته بعدم الذهاب إلى إفريقية لتغلب الأعراب عليها، وبعد عهدهم بالإنقياد، لكنه أعرض عن نصيحته لما كانت أطماعه قد تطلعت إلى تملكها كما يقول في العبر(567)، ولعل الدافع الأكثر لأبي الحسن في نظرنا هو ما لاحظ من ميل الحفصيين الى بني قلاوون بمصر وامتداد نفوذ هؤلاء الى طرابلس. فاندفع بحب التوسع والشره إلى حتفه بظلفه.

بات أبو الحسن ليلته في الساحل الذي انتهى إليه نجاة من الغرق هو ومن معه، ولولا جفن من أسطوله لحق به وكان قد نجا بأعجوبة لكانت نهايته أليمة بسبب الحملة التي جردها ضده بربر زواوة، لكنه أسرع به إلى الجزائر حيث لحق به ابنه الناصر من بسكرة، كما لحقت به السفن التي سلمت، وكذا من سلم من أتباعه وحاشيته، كما لحق به ولده أبو الفضل الذي خلفه بتونس، طرده منها الفضل بن أبي بكر بن يحيى، بعدما غلب عليها ثم أرسله بأمان حتى التحق بأبيه.

---

(567) نفس المصدر السابق العبر 612/7.

وفي الجزائر وفى له عدي بن يوسف المنتزي بالمدية من بني عبد القوي، فصار في جملته وخرج له عن الأمر، وزعم أنه إنما كان قائما بدعوته، وهذه مكرمة من عدي بن يوسف الذي لم يكره بقوة على ما فعل من رحمة "عزيز ذل"، بل فعل ذلك بدافع الإحسان وكريم الشيم التي لم يتوفر عليها الآخرون الذين أضافوا نقمتهم على أبي الحسن إلى نقمة البحر الذي سلبه كل شيء، فكان فعل عدي بحق فعلا كريما يستحق عليه التكريم الذي يسجله التاريخ في حقه، خصوصا وأن أبا الحسن واسطة عقد بني مرين رغم خطئه الكبير أخيرا في حق نفسه وشعبه وفي حق الحفصيين، كان قد تجرد من قوته شرقا وغربا ولم يعد له من مساند غير القبائل التي التحقت به، بل خرج عليه حتى ولده أبو عنان الذي دعى لنفسه، أما القبائل التي ساندته في نكبته سويد، وحصين، والحارث بزعامة وليه "وترمار بن عريف"، كما وفد عليه علي بن راشد أمير مغراوة ضاربا عرض الحائط بالاتفاق الذي أبرمه مع بني عبد الواد، وإذا هو فعل ذلك تحت ضغط عاطفة النخوة التي حركها عدي بن يوسف، فإن علي بن راشد سرعان ما عاد فانسلخ من جانب أبي الحسن لما علم بخروج ولده أبي عنان عليه، ولم يبق مع أبي الحسن غير "وترمار بن عريف" الذي سيفر هو الآخر بعد بسبب تهديد أبي عنان أنه سينكل بوالده الذي كان قبل قد آختار جانب أبي عنان العاق المتمرد الذي لعنه الشارع الأمين بعدما كفره بنص الحديث النبوي، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "إذا بويع أمير، ثم خرج عليه أمير، فاقطعوا رأس الذي خرج، ومن بايع الثاني فقد كفر"، ناهيك وأن المبايع المخطئ أب وولي شرعا، وأبو عنان سوف لا يقتصر على ما حصل ثم يتوب، بل قاتل أباه، حتى قتل الأب التائه الضائع مهينا مشردا بسلاح ولده العاق من أجل المتعة الزائلة التي عادت بالحسرة والألم، ولعنة التاريخ والناس مدى الحياة.

خرج أبو الحسن من الجزائر الى أمتيجه، ثم شلف، وفي شدونة حصلت المعارك بينه وبين الخارجين عليه، فقتل فيها ولده الناصر والحقت بأبي الحسن هزيمة دفعت به فارا إلى ونشريس حيث التحق بجبل منيع، بعدما لاحقه الخارجون، ولما تراجعوا وكان قد بلغه خبر خروج ولده أبي عنان عليه ودعوته لنفسه ثم أخذه البيعة كما أراد، توجه الى سجلماسة التي وصلها مهزوما ومنهوكا، وقد فرت من حوله جموع بني مرين الذين

مددهم أبو عنان، والذين وجدوها فرصة للخلاص مما أضناهم به أبو الحسن من كثرة القتال وطول الأسفار، ومع ذلك فقد وجد أبو الحسن في سجلماسة وأهلها استقبالا حسنا عوضه ما ضاع من المال والرجال، زوده بهما قادة المنبات(568) ورجالات معقل(569) ورياح(570) وصباح(571) وغيرهم من أهل سجلماسة .

توجه أبو عنان الى سجلماسة بقوة كبيرة من بني مرين لمطاردة أبيه، لكن الخبر سرعان ما نقل الى أبي الحسن الذي فر منها خائفا سنة 751هـ/ 1350م، متوجها إلى مراكش التي لقيه أهلها بفروض الطاعة وكبير الولاء، ثم انضمت اليه قبائل طاع الله والصامدة، وغيرها،و أما أبو عنان فإنه لما دخل سجلماسة دخول الغازي ولى عليها يحيى بن عمر بن عبد المومن كبير بني ونكاسن(572) الذي لم يحسن التصرف، الأمر الذي دفع عامل مراكش وليجنب بلاده سوء معاملة أبي عنان وجنوده أن يتخلى عن أبي الحسن ويناصر أبي عنان خلافا لصاحب الجباية أبو المجد بن أبي مدين الذي انحاز الى جانب أبي الحسن، ومع ذلك فقد لحق به أبو عنان مطاردا ولم يكن لأبي الحسن مفر من المواجهة لكنه انهزم، وهنا تفرقت عنه كلية جموع بني مرين بتامرغوست في شهر صفر سنة 751هـ/ 1350م.

---

(569) المنبات بطن من أحلاف ذوي منصور إحدى قبائل المغرب الأقصى، وكان لهذا البطن كثرة لأول دولة بني مرين العبر 3/67-68.

(570) معقل بن الحارث بطن من مذحج من القحطانية وهم: بنو معقل. وهو ربيعة بن الحارث بن كعب بن جلد بن مذحج، كانوا في القرن الثامن الهجري من أوفر قبائل العرب بالمغرب الأقصى مجاورين بني عامر من زغبة، في مواطنهم بقبلة تلمسان، وينتهون الى البحر المحيط من جانب المغرب، وهم ثلاث بطون: ذوي عبيد – ذوي منصور – ذوي حسان، راجع العبر جـ7 والقلقشندي والجمهرة.

(571) رياح التحقوا بسجلماسة ونواحيها وقت زوال ملك بني عبد الواد، في العقد الخامس من ق 8 هـ.

(572) هم صباح بن طريف: بطن من ضبة من العدنانية، وهم بنو صباح بن طريف بن زيد بن عمرو بن عامر بن ربيعة، بن كعب، بن عميرة، بن سعد، بن ضبة، بن أد، بن طابخة ،ومنهم معقل ابن عاصم. وبنو شقرة بكسر القاف، راجع نهاية الأرب ص: 312-306 ط 1959 القاهرة، ولسان العرب لابن منظور 3/338-539، ونسب عدنان وقحطان للمبرد ص 118، والاشتقاق لابن دريد 119-122 ، ومعجم قبائل العرب لكحالة 2/628-629- ط دمشق1949، وعرب الصباح بوادي زيز الذين كانوا يتوفرون على قناطير التبر، وكثير من الأسلحة، الأمر الذي دفع بأبي عنان الى أن يلاحقه قبل أن يتمكن وينظم الرجال لحربه.

(573) العبر، 7/595.

كانت هذه المعركة آخر معارك أبي الحسن الذي هوى به فرسه وهو في الرابعة والستين من عمره، فتجمع حوله بعض حاشيته الذين أنقذوه من الهلاك المحقق ثم نقلوه إلى جبل هنتاتة بمساعدة أبي دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الدواودة، وكبير هنتاتة عبد العزيز بن محمد بن علي، الذي نزل عليه أبو الحسن فدافع عنه بشرف رغم. قوة أبي عنان التي أحاطت بجبل هنتاتة، ولما طال الحصار طلب أبو الحسن المريض من ولده أن يمده بالطعام والملابس، فأرسل إليه حاجبه محمد بن عمر الذي حمل إليه ما طلب.

تقول الرواية وما أظنها إلا مفتعله لصالح أبي عنان، أن هذا الحاجب كان رسول خير آلتمس من أبي الحسن الصفح والرضى عن ولده، وأن يسند إليه ولاية العهد، فأسندها إليه، وإذا كان أبو عنان قد آنتزع الملك من والده بحد السيف بل ألجأه إلى أسوأ مصير والموت على أقبح صورة، فكيف يحتاج الى آعترافه والرضى عنه؟

إن من آستوعب تصرفات أبي الحسن بعد الهزيمة التي حلت به في الأندلس، وما أقدم عليه من عمل مرتجل في إفريقية وتونس، يكاد يقول إن ما قام به أبو عنان كان عملا لابد منه للحفاظ على ملك بني مرين، ولو لم يفعل أبو عنان لكان مصير أبي الحسن أسوأ بالثورات التي كانت منتظرة من القبائل المتذمرة من كثرة الحروب، بل ومن رؤسائها الذين لم يقتصر إذلال أبي الحسن لفريق منهم دون آخر شرقا وغربا، لكن رغم ذلك فإن ما حصل ما كان ليكون بالطريقة التي حصل بها من أبي عنان الذي سفك الدماء من أجل استعجاله تحقيق السلطة.

إشتد المرض على أبي الحسن وتوفي بجبل هنتاتة ليلة الثلاثاء 27 ربيع الأول سنة752هـ/1351م، وعمره خمس وستون سنة، وتقول رواية آبن القاضي(574) إنه قتل مسموما بتدبير من ولده أبي عنان، وهي رواية ترقى إلى القبول إذا اعتبر ما حصل بين الابن ووالده من حروب عرفت القسوة والعنف العنيف وما آل إليه أبو الحسن ثم ترك للإهمال.

نقل جثمان أبي الحسن بعد دفنه بمراكش ليقبر في مقبرة شالة حيث لا يزال قبره بها في حالة من الإهمال تزري بكل الذين تعرفوا عليه، ثم تركوه على ما هو عليه.

(574) الجذوة 462/2 ط الرباط 1974.

انتهى حكم أبي الحسن للمغرب الذي دام عشرون سنة وثلاثة أشهر ويومان، حكم فيهما شمال إفريقية من تونس إلى أقصى سوس، لكن ما عرفه من مرارة أخريات حياته أنساه حلاوة أولها، وإذا كان أبو عنان إلى جانب تصرفات أبي الحسن وجموحه السبب في ذلك، فلسوف يرى أبو عنان من ذلك ما يكثر آلامه وينغص عليه رغم ما حققه من أعمال وخلد من مؤسسات لم يرد بها وجه الله، وياليته لم يفعل، ذلك أنه رغم ما رأيناه من أخطاء أبي الحسن السياسية ورغبته الغير المشروعة في التوسع شرق المغرب الكبير، فإنه كان بحق واسطة عقد بني مرين إذ في عهده عرف المغرب ألوانا من الحضارة العالية سواء في مجالات العمران، والعلم والاجتماع، وقد عرف بذلك أكثر ابن مرزوق الذي ترجم له في كتاب خاص سماه "المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن أبي الحسن"(575) بل ما زرعه أبو عنان من أشواك سوف تنمو ويتمرغ فيها عاريا، ولا يرحمه أقرب الناس إليه كما سنرى.

---

(575) ثم راجع روضة النسرين وملخصها لابن زاكور، والترجمان للزياني، وكذا رقم الحلل لابن الخطيب، والعبر لابن خلدون، وغيرها من المصادر السابق ذكرها.

الفصل التاسع والثمانون

إبن الرومية أبو عنان ومتاعبه

تولى الملك أبو عنان بعد والده أبي الحسن الذي مات غما أو قتل مسموما حسب الرواية المشار إليها، وقد تولاه بالطريقة التي آختارها، وقد سبقه إليها قاتل أبيه كذلك، أبو تاشفين الأول من بني عبد الواد، مع والده أبي حمو، وعمر صنو أبى الحسن مع والده أبي سعيد عثمان(575)، وإن كان لم يقتله، سلك أبو عنان نفس النهج بطريقة أعنف مع والد عظيم كان أرحم وأعطف، ومع ذلك لقب أبو عنان كما آختار لنفسه وسايره التاريخ المزور بـ "فارس والمتوكل على الله"، فعرف في التاريخ بفارس ابن علي ابن عثمان بن عبد الحق.

ولد بفاس الجديد من أم ولد رومية إسمها شمس الضحى(576) يوم 12 ربيع الأول سنة 729هـ/ 1328م وكانت بيعته بتلمسان التي كان واليا عليها من قبل أبيه الذي أنابه يوم خروجه لغزو إفريقية وتونس، يوم الثلاثاء منسلخ ربيع الأول 749هـ/ 1348م، وذلك بحيلة دبرها لما آتصل به خبر الواقعة على أبيه بظاهر القيروان(577) وفي هذه السنة عرفت أوربا الوباء الذي أطلقوا عليه "الموت الأسود" 1347–49م" مات فيه ما يزيد على 25 مليونا في مجموع أوربا حتى كانت السفن تسير في الأبيض المتوسط والمحيط

(575) راجع تعليق(535) قبل وما بعده.

(576) كانت بمكانة عالية عند أبي الحسن حتى إنها لما توفيت يوم الجمعة 15 رجب 750هـ/ 1349م ودفنت بشالة حضر لدفنها أعيان المشرق والمغرب يقول صاحب الاستقصا 3/181–182 ط 1954 بالبيضاء، ومن تاريخ الوفاة يدرك أنها تأثرت بما حصل لزوجها من نكبات في إفريقية، ثم بما قام به ولدها الذي خرج على أبيه ثم دعى لنفسه في نفس التاريخ.

ومثل أبي عنان ابن الرومية يوسف بن اسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الانصاري المعروف بأبي الحجاج، فهو كذلك مولد من أم نصرانية استولدها أبوه، فولد يوسف بغرناطة عاصمة بني الأحمر يوم 28 ربيع الثاني عام 728هـ/ 28 يونيو 1318م.

(577) راجع العبر، وروضة النسرين، والترجمان، والتاريخ العام لفيليب فان فقرة 626 ص272 ط1912.

الأطلسي وليس فيها حي. كما فسدت المزروعات التي لم تجد من يتولاها.

تقول مختلف الروايات عن أبي عنان هذا أنه كان على جانب مهم من العلم، عارفا بالمنطق، وأصول الدين، شاعرا مجيدا، وكاتبا بارعا، وقد عرف أبو عنان ضخامة الملك وعظمة السلطان، لكنه لم يعرف كيف يختار حاشيته التي لم يكن فيها غير المنافقين، الذين لم يخلصوا إليه بقدر ما صانعوه وتملقوه، شأن كل جبار مع من حوله، بل كل الذين مكن بهم لسلطانه في حياته، كانوا يضمرون له الحقد والكراهية، شأن ذوي المصالح والشهوات مع الملوك المستبدين الذين لا يقف سلطانهم عند حدود، والمتسلطين على الرقاب بما حولهم من ذوي النفوس الخبيثة الذين لا يعرفون من القيم والمكارم ما يردعهم ويردهم الى أقوم السبل ومكارم الأخلاق، وقد وقف أبو عنان على ذلك يوم رجع لنفسه، وعرف أن مملكته لا تتوفر على رجل صالح إلا واحد كما عبر، وحتى الواحد كما يظهر من قول أبي عنان كان مستبدا ظلوما "وددت لو أصَبْتُ رجلا يكفيني ناحية الشرق من سلطاني، كما كفاني عامر آبن محمد(578) ناحية الغرب وأتورع(579).

وهكذا بسبب حاشية أبي عنان وفساد بطانته عرفت مدة ملكه التي لم تزد على تسع سنوات إلا قليلا، الكثير من الفتن والثورات ضده سواء في المغرب، أو إفريقية وتونس رغم أنه آستطاع القضاء على آبن أخيه منصوربن أبي مالك عبد الواحد، بن أبي الحسن، الذي استولى على فاس بحصار ساهم فيه إلى جانب أبي عنان إدريس بن أبي العلاء وقومه الذين كانوا بسجن قصبة مكناس، ثم سرحهم أبو عنان، كما أن أهل سبتة خرجوا عن عاملهم عبد الله بن علي بن سعيد، الذي تمسك ببيعة أبي الحسن، بل قيدوه وأتوا به مصفدا إلى أبي عنان يتزعمهم أحمد بن محمد بن رافع الصقلي الحسيني.

ولئن كان ملوك بني مرين قد آعتادوا جميعا التمكين لسلطانهم بغزو أبناء عمومتهم

---

(578) هو عامر بن محمد الهنتاتي، ربيب نعمة أبي الحسن، وقد خالف أبا عنان لما خرج على أبيه ثم صافاه لما توفي أبو الحسن، ومن موقفه يظهر أنه كان داهية.

(579) راجع العبر 627/7 والإتحاف لابن زيدان 304/1-311، وفيه ما حصل لأبي عنان مع آبن عاشر أحمد من مراسلة تدل على عصر أبي عنان وما كان فيه للعلماء من نفوذ، بل وما كان عليه أبو عنان من تصنع للتواضع، وتعلق غير حقيقي بالدين قصد الدعاية إلى درجة أنه ذل وأهين من طرف ابن عاشر، ومع ذلك توسل اليه بكل ما يلين قلبه، ويجعله يقبل عليه كما سنرى في الفصل 95 بعده من هذا الكتاب، ناهيك، وأن هذا الولي الصالح رضي الله عنه كان صادق النصيحة يهدف إلى خير الراعي والرعية بالحث على استعمال العدل والشورى.

من بني عبد الواد بتلمسان، فإن أبا عنان لم يفعل ذلك بنفس الدافع، بل إن أبا سعيد عثمان بن عبد الرحمن الزياني من بني عبد الواد، سنة 753هـ/ 1352م، هو الذي لم يعتبر ما آل إليه أمر أبي عنان، وبقي متمسكا بما حققه مع قومه من الإستيلاء غدرا على تلمسان زمن الفتنة التي أعقبت نكبة أبي الحسن الذي أحسن إليهم بالعطاء والتكريم رغم أنتصاره الحاسم في القضاء عليهم كما سبق، ومع ذلك لم يحاربهم أبو عنان إلا بعد رفضهم لشفاعته في مغراوة الذين حاصرهم أبو سعيد(580)، ولما ألتقى الجمعان بأنكاد حصل غدر من بني عبد الواد، أدى إلى إطلاق يد الجيش المريني فيهم، وألقي القبض على السلطان أبي سعيد في ربيع سنة 753هـ/ 1352م، واحتل تلمسان ثم أستفتى أبو عنان الفقهاء في أمره فأفتوه بقتله، الأمر الذي أدى بأخيه أبو ثابت إلى الفرار شرقا إلى شلف من أرض مغراوة، حيث أجتمعت عليه قوات زناتة، ولما بلغ خبره لأبي عنان جهز جيشا وضع قيادته بيد وزيره فارس بن ميمون بن ودرار الذي طاردهم واستولى على حريمهم وما يملكون، كما تقدم نحو زواوة والجزائر فطوعها قبل أن يقبض على أبي ثابت الذي فر، وكانت بجاية تحت حكم محمد حفيد أبي يحيى الحفصي، فأرسل إليه فارس بن ميمون وإلى واليه ونزمار ويعقوب بن علي، ليقضوا على أبي ثابت وابن أخيه أبو زيان بن أبي سعيد، وكانا مع وزير أبي سعيد قد لاذوا بالفرار، فألقى عليهم القبض ثم وجههم الى بجاية حيث أخذهم أميرها إلى أبي عنان الذي كان بالمدية، والتي حل بها في شعبان من سنة 753هـ/1352م، فأكرم أبو عنان أبا عبد الله محمد حفيد أبي يحيى كما أكرم الداودة ووفد عامل الزاب وبسكرة يوسف بن مزني.

وهكذا نرى أبا عنان وقد استفاد من أخطاء أبيه تجاه أعراب الناحية الشرقية، الذين كان ولاؤهم لمنافعهم العاجلة مع من كان، بحيث لم يصدر منه ما سبق أن صدر من والده أبي الحسن الذي جرد مشايخهم بعد القضاء على سلطان الحفصيين، ثم ضايقهم في أرزاقهم التي كانت لكبارهم فريضة على قومهم بحد السيف وتقاليد القبيلة، بل إن أبا عنان لما فتح المغرب الأوسط ثم تقدم شرقا لم يفعل أكثر من تأليف قلوب الذين

(580) بغية الرواد 158/1 والعبر 598/7.

كانوا بين مد وجزر تجاه بني مرين، ومع ذلك لم يتمكن من قلوبهم بسبب الجرح الذي عمقه تصرف والده، رغم المبالغة في الإكرام والتطمين الذي أظهره لهم، ولم يستعمل أبو عنان من سياسة المكر مع أحد منهم شيئا إلا ما كان من أبي عبد الله محمد صاحب بجاية الذي آشتكى من حاله مع أهل ولايته الذين قال إنهم لا يمتثلون أوامره، سواء في ذلك الخواص أو العوام، بل حتى البطانة آستبدوا عليه، وكذا جند الحامية، حتى آمتنع الناس من أداء الجبايات، وبدل أن يساعده أبو عنان بقوة تمكن لسلطانه بوسيلة أو بأخرى أشار عليه بالتنازل عن السلطة مقابل أن يعوضه ما شاء من بلاده، فقبل أبو عبد الله الذي أقر بذلك أمام قومه ونكاية فيهم، وبمحضر الحاجب محمد بن أبي عمرو، الأمر الذي دفع ببعضهم إلى النقمة والفرار إلى إفريقية ثم حمل السلاح ضد نفوذ أبي عنان ومنهم علي بن القائد محمد بن الحكيم(581).

واشتدت المعارضة التي قوت صفوف الخارجين عندما أمر أبو عنان أبا عبد الله أن يكتب التنازل بخطه إلى عامله على البلد، وتمكين عمال أبي عنان منها، ففعل مبالغة في النكاية بالذين انتهوا به إلى ذلك الموقف، وقتها عقد أبو عنان على المدينة لعمر بن علي الوطاسي من أولاد الوزير بتازوطا(582)، وهو عمل لم يكن فيه أبو عنان بالموفق ولا المصيب إذا نحن رأينا بعد ما سينتج عن ذلك من فتن.

رجع أبو عنان إلى تلمسان ليقضي بها عيد الفطر من سنة 753هـ/ 1352م، لكنه كان يقصد إرهاب أهلها بحمل أبي ثابت ووزيره يحيى بن داود مقيدين على جملين، أدخلهما تلمسان في ذلك الحفل، محمولين بين سماطين، فكانا عبرة لمن حضر ثم قتلا في الغد رميا بالسهام، وبقدر ما حط أبو عنان من قدر أبي ثابت آبن عمه البعيد، رفع من قدر أبي عبد الله الحفصي حفيد أبي يحيى الذي تنازل له عن بجاية، والذي أصبح عند أبي عنان في مكان رفيع إلى درجة أنه فرش له بجانبه، وقربه إليه تقريب المتربص المستفيد، أما أهل بجاية فإنهم لم يرتاحوا لحكمهم الجديد، خصوصا صنهاجة وكتامة من بني ورياكل الذين حركهم حاجب أبي عبد الله فارح، مولى آبن سيد الناس

(581) العبر 601/7.

(582) نفس المصدر السابق.

الذي كان عريفا عليهم من عهد أبيه الأمير زكريا، وكان مستبدا على أبي عبد الله، فلما نزل عن إمارته لأبي عنان سخط ذلك ونقمه عليه(583)، فأثارها فتنة أتت عليه وعلى قومه بعد، عندما رجع مع عمر بن علي الوطاسي لنقل حرم ومتاع أبي عبد الله من بجاية، ولما وصلها وجد الصنهاجيين كما أشرنا، زين لهم الثورة على بني مرين والقيام بدعوة الموحدين بآسم أبي زيد، صاحب قسنطينة، فبدأ معركتهم بالفتك بعمر بن علي بمجلسه من القصبة، وذلك بزعامة أحد مشايخهم الكبار منصور بن الحاج الذي دخل عليه بداره ولما تقدم كأنه يريد السلام عليه بلثم أطرافه طعنه، بخنجر ثم فر وكانت تلك بداية الثورة في أول ذي الحجة 753هـ 1352م، فلم يكن من الحاجب فارح إلا أن تطوع للدعوة لأبي يزيد الذي آستدعوه، لكنه تباطأ بل أرسل المعلوجي مكانه يقول آبن خلدون، ولما بلغ الخبر الى أبي عنان آتهم أبا عبد الله بتدبير ما حصل مع حاجبه فاعتقله واعتقل معه وفدا من أهل بجاية، لكن رجالات دولة أبي عبد الله، بل ورجال أبي يزيد آتفقوا على الفتك بفارح الذي قطعت رأسه ثم أرسلت الى أبي عنان كما أشهدوا قائد تدلس يحياتن، بن عمر، بن عبد المومن الونكاسي على ولائهم لأبي عنان الذي أمر حاجبه محمد بن أبي عمرو(584) بالتوجه الى بجاية في خمسة آلاف من جنوده، توجهوا من تلمسان بعد قضاء عيد الأضحى، لكن صنهاجة أعلنت عصيانها، وتوجهت جموعها الى تونس إلا أن جيوش السلطان ألقت القبض على القائد هلال(585) كما ألقي القبض على نحو الماتين وأرسل الجميع الى المغرب في فاتح المحرم 754هـ/ 1353م، أما الدواودة

فقد أعلنوا ولاءهم لأبي عنان كما أعلنه عامل الزاب يوسف، ثم تكون وفد قدم على السلطان في تلمسان أول جمادى من نفس السنة، وكان من بينهم آبن خلدون الذي خلع عليه السلطان وأجزل صلته ضمن وفد يوسف بن مزني ويعقوب بن علي، ثم آنصرفوا لأول شعبان من نفس السنة، وانتهت مشكلة أبي عبد الله وحاجبه عندما أسند أبو عنان

---

(583) راجع ترجمته في العبر 606/7، وقد آرتقى في ظل أبي عنان إلى درجة العلامة، والقيادة والحجابة والسفارة وديوان الجند، والحساب والقهرمة، وسائر ألقاب دولته وخصوصيات داره يقول ابن خلدون، لكنه أخيرا عزل من جميع المناصب ووجه إلى بجاية التي خاض فيها معارك ضد تاشفين بن أبي الحسن وغيره، وبقي إلى أن توفي في المحرم من سنة 766هـ/ 1365م ثم نقل جثمانه الى تلمسان.

(584) راجع العبر 291/7 ط القاهرة.

رغم قدرته الفائقة على التسيير وقوة التدبير، لم يعرف ملكه آستقرارا، ومع ذلك خلف الكثير جدا مما يستدل به لا على عظمته، بل عظمة مهاجرة الأندلس من معاصريه، بل لولا الفتن التي عرفها عهده لخلف لنا المغاربة في عصره من ألوان الحضارة وأشكال العمران، أكثر مما هو باق يشهد بما قررناه في حقهم، لكنه بفعل غرور أبي عنان لم تنته فتن المشرق حتى قامت عليه أخرى بالمغرب، دبرها أخواه أبو سالم إبراهيم، وأبو الفضل، خصوصا هذا الأخير وهو الأكبر الذي كان والده قد تركه على تونس الى أن غلبه عليها الفضل بن يحيى الحفصي، ولما توفي أبو الحسن لحق بأخيه أبي عنان، فأرسله وأبا سالم إلى أبي الحجاج بن الأحمر صاحب الأندلس ليتخلص منهما، وهناك دبر أبو الفضل تدبيرا سيئا لمقاومة أخيه أبي عنان، حيث ذهب الى ملك الاسبان سنة 754هـ/ 1353م فزوده بالرجال والسلاح، وكذا بالسفن التي قادته إلى مرسى سوس، وتقول بعض الرواية إن ذلك كان بإيعاز من أبي الحجاج بن الأحمر.

لما نزل أبو الفضل بالسوس التحق بالسكسيوي عبد الله، ثم دعى لنفسه، وقد آختار الوقت الذي أرسل فيه أبو عنان خمسة الاف من جنده الى بجاية برئاسة حاجبه محمد بن أبي عمرو، الأمر الذي دعى بأبي عنان إلى أن يجهز جيشا آخر بقيادة وزيره فارس بن ميمون بن ودرار، ثم وجهه لحرب السكسيوى الذي لما رأى ما حل ببلاده فإنه لم يجد بدا من العودة الى الطاعة وإعلان التوجه لفارس بن ميمون كي يرفعها إلى أبي عنان، خصوصا وأن فارسا وزع جيوشه على المراكز الحساسة بإقليم سوس، وهي يفران وفوريان وتارودانت، كما لاحق أبا الفضل الذي فر إلى زناگة عند علي بن حميد قرب درعة، وكان عامل درعة وقتها عبد الله بن مسلم الزدالي، فواجه آبن حميد بقوة أرعبته ودفعت به للتفاوض على مال مقابل تسليمه لأبي الفضل، فكان له ما أراد من مال دفع به إلى التدبير والكيد لأبي الفضل بآسم أنه سيناصره إلى أن قدم عليه ثم قبضه وسلمه الى الزدالي الذي سلمه بدوره الى الوزير فارس بن ميمون، فقدم به على أبي عنان الذي قتله خنقا سنة 755هـ/ 1354م وأما أبو سالم فقد بقي بغرناطة إلى أن مات أبو عنان، ومهما يكن، فقد كان لأبي عنان وجه آخر جميل، وجميل جدا، وإن كانت خاتمته مؤلمة.

الفصل التسعون

خاتمة أبي عنان بيد صنائعه

من الأكيد أن التاريخ والواقع اللذين عاشهما أبو عنان لا يشهدان له بحسن النية وجميل القصد، لأنه حين أقدم على ما أقدم عليه كان بدافع ما اقتنع به أو أقنعته به بطانته التي كان لأغلبها مع والده حساب ربما أدركه أو لم يدركه أبو عنان، ورغم ما تخلل حياته مع والده وهو لم يتجاوز بداية العقد الثالث من عمره، فقد كان أبو عنان لا كما وصفه التاريخ الحق يتمتع بصفاء ذهن وبثقافة دفعته الى تأسيس خزانة للقرويين عام 750هـ، ثم أهلته أن يكون ملكا لاشوريا بل مستبدا كل الاستبداد ولو طالت حياته لعرف المغرب الكثير من المتاعب، ذلك ما يقره الواقع إذا لم ينخدع المرء ببعض ما قيل إنه من أقواله نثرا وشعرا، وإذا لم ينخدع بما تصنع من سلوك مع أحمد بن عاشر دفين سلا المشار إليه قبل "تعليق580".

لقد سبقت الاشارة الى قولته حول الولاة، وأما "شعره" السياسي المزعوم، والمنسوب إليه قوله، ومادون منه مما قيل يعبر عن معرفته وإدراكه لحدود سلطة الحاكم، والذي قيل بتصنع إنه كان مكتوبا على محبرته كما يخبرنا المقري(586)، والذي لا شك كان المقري يرمز به لشيء في نفسه:

أنـا دواة فـارس ... أبـي عـنـان المـعـتـمد
حلفت من يكتب بي ... بالواحد الفرد الصمد
أن لا يـمـد مـدة ... فـي قـطـع رزق لأحـد

---

(586) أزهار الرياض 40/1 ط 1939، كما كان قاسيا مع الولاة الظلمة، مثل ما حصل له مع عامله على سجلماسة يحيى بن عمر بن عبد المومن، كبير بني ونكاسن الذي كان بها عندما تغلب أبو عنان على والده حين عاد مهزوما من تونس عام 751هـ/1350م.

أية مكرمة أكرم من سلطان لا يرد أمره، فلا يأمر بقطع رزق أحد مهما بلغت خطيئته ما لم يتعد إلى غيره، وأية نفس أكرم من ملك لم يهتم بذكر شيء أكثر من اهتمامه بأرزاق الآخرين، فأقسم وسجل القسم على دواة تلازمه أن لا يخط قلمه ما يكون السبب في قطع الرزق لأحد، وبذلك يريد القائل منا أن ندرك أنه وإن كان نفوذه وجموح سلطانه يدفعانه دفعا في بعض المواقف، ولو كان قتل منافس أو خارج عليه، فإنه لم يقدم على ما أقسم أن لا يقدم عليه، ولم يقل أبو عنان هذا ويسجله في مكان التذكير اللازم لحياته إلا إدراكا لما بدر منه ولعواقبه وآثار مآسيه في نفوس معاصريه، وبذلك يكون أبو عنان قد عرف وخبر جراح النفس التي تمس في رزقها، وأن صاحبها يقدم على ما لم يكن ليقدم عليه لو لم يفعل به ذلك، خصوصا إذا كان المعني صاحب مسؤولية عائلية، وهذا معنى جميل لوصف العدالة، بل للحكم وسلامة قصد الحاكم، وهذا ما كان يتطلع إلى تمكينه كدعاية وأن أبا عنان يريد تطبيقه في مملكته لولا بطانة الشر، ،حاشية السوء التي كونها الأشرار من حوله، مثل ابن أبي الطلاق الذي ثار عليه وهو ولي نعمته لالشيء إلا لأن أبا عنان لما انتصر، وتمكن أدرك أن الحكم بلا شورى معناه الهلاك والفساد، وليس ابن أبي الطلاق وحده، بل غيره من الذين كونهم أبو عنان وأغدق عليهم حتى أصبحوا قوة عادت عليه بالشر، لكن أكبر مثال لهم هو عيسى بن الحسن بن أبي الطلاق الذي ولاه بعد جبل الفتح، ثم ولاه التحكم في المناصب القريبة والبعيدة، فكان من المقربين الذين يأخذ أبو عنان بآرائهم في كثير من الرجال والمواقف ويعمل بها بلا تردد.

ذهب عيسى بن أبي الطلاق فيما أسند إليه من ولاية إلى أبعد من حدوده، ومثله فعل كثيرون غيره مما عكر الصفو وأدى إلي تعميم الظلم الأمر الذي دفع أمثال أحمد بن عاشر الأندلسي الأنصاري الذي عرف بالعلم وسمو الأخلاق أن ينكر على أبي عنان عام757هـ/ 1356م، ويرفض مقابلته، حيث قيل إنه وقف ببابه طويلا، فلم يأذن له، وكرر ذلك مرارا، وتبعه يوم الجمعة ماشيا على رجليه و الناس ينظرونه وهو لا ينظر، فقال: منعنا هذا الولي، ثم أرسل إليه ولده مستعطفا فأجابه بما قطع رجاءه منه، وهو ما نقله صاحب الإتحاف عن ابن صاعد في النجم الثاقب، هذا وهو السلطان المتوج، فلم يغضب، ولم يثر لكرامته، بل عمل بالنصيحة ثم انصاع إلى حكم الشورى والعمل به،

وبذلك لم يعد مجال لأمثال ابن أبي الطلاق من الأشرار، وكان هو أعلاهم كعبا في الاستبداد، وانتهاك الحرمات، وإطلاق العنان لسافل الشهوات، خصوصا وهو الوالي على جبل الفتح، المعني وأمثاله بما تحدثه الشورى من قيود ظهرت في النظام الجديد الذي امتد إلى تقييده بتنصيب يحيى القرقاجي ليتولى المسؤولية عن أموال الجبايات التي كان سلطان الولاة يفعل فيها ما يشاء، الأمر الذي أثار الشر في نفوسهم جميعا ، فعبر عنه ابن أبي الطلاق الذي لم يقبل المراقبة المالية من مسؤول غيره، فطرد القرقاجي الذي عين في المنصب المذكور، ولما نقل الخبر إلى أبي عنان، أرسل خادمه مسعود بن كندوز يستجلي الخبر، ويتعرف على الأسباب، فكان مصيره الطرد والتحقير مثل سابقه، ولم يقف ابن إبي الطلاق عند هذا الحد بل أعلنها ثورة فردية لم يستجب له فيها أحد حتى الحامية التي كان أفرادها يأتمرون بأوامره، بل ثارت عليه قبائل غمارة، وكذا سليمان بن داود الذي كان عيسى بن أبي الطلاق السبب في ولايته على رندة، مما يدل على أن الشعب في مختلف جهات المملكة المغربية كان قد ارتاح إلى النظام الجديد الذي هو الشورى المفضية إلى العدل ضد الاستبداد، فكانت النتيجة أن ألقي ألقبض على عيسى وولده وقتلهما بفاس، ثم أسندت ولاية جبل الفتح إلى سليمان بن داود الذي ارتقى بعد إلى منصب الوزارة، وهو الذي فتح به افريقية وتونس سنتي 758–759هـ/ 1356هـ/ 1357م ترى ألم يكن نفس الكاتب، وليكن هو الكاتب الخاص لأبي عنان، وهو عبد الرحمان بن خلدون الذي ستعرفنا الأيام أنه بمكره ودهائه يصنع كل هذا وأكثر، وبلاشك هو الذي حاول أن يصنع من أبي عنان ما جعله يعرف ثم يصبح بعده كاتبا لأبي سالم، ثم يتدرج كما سنرى، ومع ذلك، فإن ماكتبه فيه كثير من الريبة والشك لأنه من أعداء الناقم أبي الطلاق، ومن المتملقين لأبي عنان، وأنه يريد أن يركز الدعاية لصالح أبي عنان بقوله: لقد كان الحكم على أبي الطلاق وسيلة أمكن لأبي عنان أن يقضي بها على الشر في نفوس الطغاة من الولاة، وأن يمهد بذلك لخلق مجتمع قوي البنيان سليم التكوين، متطلع إلى مستقبل أحسن وأفضل مما كان في عهد أبيه، لكنه قبل أن يتمكن من ذلك سبقته قوى البغي إلى جمع شتاتها لمواجهته بالطرق التي لم يكن لأبي عنان وبطانته أن يحيطوا بها، ويسدوا منافذها جميعا، وفي تلك الفترة الوجيزة وبالنفر القليل الذي آمن بحقه المغتصب والمفترى عليه، وإذا كان التاريخ قد أثبت في كل مكان وزمان أن من الصعب عودة

الأشرار إلى طريق الخير، فإن أصعب منه هو ذلك التحول الذي يكون أكبر وأشد على حاشية السلطان التي اعتادت الفساد وتطبعت به، ولا يمكنها أن تنمو وتترعرع إلا في ظله، وبالأخص من بين أولئك الذين يندسون ويتمكنون من السطو على النفوذ من خلف وبلاحق بل وبأحط الوسائل وأخسها، والتي هي فساد الأخلاق وأرذل الشهوات، وهكذا أيضا قيل تصنعا عندما قرر أبو عنان العودة بنظام الملك إلى أحسن الطرق وأقوم السبل، كان الثمن أنه دفع حياته قبل أن يحقق ما كان عليه أن يؤمن هو وغيره من السابقين واللاحقين أنه الحق الذي جاءت به ديانات التوحيد وفي طليعتها الإسلام الذي رفض الاستبداد ولم يقبل غير الشورى حتى من أكرم الرسل الذين عصمهم الله من الخطإ. ونسي المفتري على هذه المكرمات، ونسبتها لأبي عنان أن ما فعله مع والده الذي مات مشردا جريحا يبعد كل مكرمة عن ساحة أبي عنان، بل الذي يليق به هو المصير العادل الذي انتهى إليه، وقد ساقته عدالة السماء.

تعرض أبو عنان للموت خنقا بيد أحد وزرائه الفودودي يقول صاحب روضه النسرين، وله ثلاثون عاما(587) يوم السبت 27 حجة مختتم 759هـ1358م، ولمايعش في حياته غير ثلاثين سنة إذ هو من مواليد 12 ربيع الأول 729هـ/1328م، هذا ولما يحكم منها غير تسعة أعوام وتسعة أشهر، ودفن بالجامع الأعظم بفاس الجديد، حيث طمس قبره والذي لا يعرف عند المورخين(588). وهكذا بنهاية أبي عنان الذي كان آخر الملوك والذي قيل عنه من عظماء دولة بني مرين بموته، ومازرع عرفت هذه الدولة تراجعا وتقهقرا انتهى بها إلى زوال بعد ما عرف ملوكها بدءا من أبي عنان القتل خنقا وشنقا وغدرا من صنائعهم يتقدمهم الوزير الفاجر الغادر الحسن بن عمر الفودودي الذي سوف يكون جزاؤه من جنس ما قدم. ولقد بقيت أسرة الفودودي في سجلماسة معروفة، وإلى العهد الذي نحياه توجد بالغرفة من تافيلالت، كما توجد أسرة على بن عمرو يغلان بقصره المعروف بهذا الاسم حتى اليوم بمنطقة السفلة بتافيلات، وبالغرفة أيضا القصر الجديد، وهي أسره لايعرف الخلف منها قليل ولا كثير عن السلف.

---

(587) ملخص ابن زاكور م خ رقم 290 ص 21.

(588) وقفت عليه صدفة سنة 1959م حيث علم برخامة صغيرة مقياس 25 x20، وقد ثبتت على جدار في مكان مهمل أعد للجنائز وفي عهده دخلت تلمسان ضمن ممتلكات المغرب بعدما قتل سلطانها عثمان بن عبد الرحمن العبد الوادي، كما حكم تونس يقول صاحب روضة النسرين في ملوك بني مرين.

الفصل الواحد والتسعون

دولة المرينيين من الازدهار إلى الإنهيار

كان أبو عنان على فراش الموت وقبل أن يلفظ أنفاسه خنقا، كان مصير أولاده الخمسة ما بين متم للعقد الثاني، وآخر في الخامسة من عمره ، في الميزان بين يدي السماسرة من الصنائع الذين لم يقتصر مكرهم وفاسد قصدهم عى التعجيل بكتم أنفاس أبي عنان، وكان الحقد على ان يحيى المسمى أبو بكر السعيد أضعف لأنه لم يتجاوز الخامسة، والذي بويع رغم البيعة الثابتة لأخيه أبي زيان محمد، الذي هو ولي العهد، والذي قتل خنقا هو الآخر بيد الوزير الحسن بن عمر الفودودي يوم الأربعاء 24 حجة 759هـ/ 1358م، لكن أبا بكر الطفل لم يدم في الملك هو الآخر أكثر من سبعة أشهر، ثم خلع يوم الثلاثاء 12شعبان 760هـ / 1358م ليقتل غرقا في البحر...

تولى الملك بحد السيف عم أبناء أبي عنان، أبو سالم إبراهيم الملقب بالمستعين بالله، بن أبي الحسن، بعد حروب وفتن تغلب فيها أبو سالم على خصوم أخيه السالف الذين لم يتعرف عليهم أبو عنان قط، حتى عندما أصبح تحت رحمتهم لا يعي ولا يعرف، كانت النقمة قد تبلورت ضد أولاد أبي عنان الذين ولاهم المناصب العالية في الدولة وهم أطفال لايدركون الفرق بين الخير والشر، ولا بين الحق والباطل مما يستدل على بهتانه وفاسد صنع المفترين ما اختلقوا من المكرمات ونسبوا إليه ، وهكذا لما انتهى أبو عنان إلى ما انتهى إليه وهو طريح الفراش، أشعلت النار بين الوزير موسى بن عيسى العقولي الوصي على أبي زيان، والوزير الحسن بن عمر الذي كان الأول يتربص به، فجر الميل إلى الطفل السعيد الذي لم يتجاوز الخمس سنوات، وبذلك استطاع الفودودي والأغلبية التي انتصرت إليه أن يبادروا بالقبض على الوزيربن موسى بن عيسى، وعمر بن ميمون، ويقتلوهما، ثم أسندت الوزارة إلى مسعود بن رحو بن ماساي الذي قبض هو الآخر على

أبي زيان حتى بايع أخاه الطفل، ثم قتله، وبذلك تم الأمر للحسن بن عمر حسب زعمه، ونسي أن الذي سيقضي على الجميع إنما هو أبو سالم، الذي سينتهزها فرصة بعد ما تضعف قوى المتطاحنين على النفوذ باسم أولاد أبي عنان وما تبقى منهم مثل عبد الرحمن والمعتصم الذي كان بسجلماسة، والمعتمد الذي كان تحت كفالة عامر بن محمد الهنتاتي(589). لكن الفودودي كان له بالمرصاد، وذلكم هو حصاد مازرع السابق للاحق.

في هذا الجو المضطرب، كان بالأندلس إبراهيم الملقب بأبي سالم المولود سنة 735هـ/ 1334م، والذي بويع له يوم الجمعة منتصف شعبان 760هـ/ 1358م، وإذا كان هو الآخر لم يتجاوز الخامسة والعشرين فإنه ابن أبي الحسن علي بن سعيد عثمان بن عبد الحق أي أخو أبي عنان، الذي كان قد أرسله وأخاه أبو الفضل إلى الأندلس عند أبي الحجاج ابن الأحمر، تخلصا مما كانا يطمحان إليه ضده، وإذا ماانتحر أبو الفضل بتسرعه، ثم قتل بيد أبي عنان، فإن أبا سالم الذي ترك الأمر للزمان بترقبه الأحداث التي ذهبت بأبي الحجاج الذي توفي وحل مكانه ولده أبو عبد الله محمد بن الأحمر ، الذي أصبح تحت رحمة مولاه رضوان، في الوقت الذي خلا فيه الجو لأبي سالم بموت أبي عنان، وبذلك أصبح المطالب بالعرش، وفعلا وجه الدعاة، وأكثر من الإتصالات مع الذين كان في الإمكان الإعتماد عليهم مقابل الوعود التي لم تكن بطانة ملوك بني مرين تتحرك بدونها الى جانب الناقمين على عهد أبي عنان وعهد والده من قبل، في كل من سبتة، وطنجة ومراكش، ولكي يدخل أبو سالم بقوة تساعده على تحقيق أهدافه، إلتجأ الى ملك قشتالة الذي كان يرغب ويلح في أنتهاز مثل تلك الفرص كلما ظهرت، خصوصا وأن رضوان صاحب الأمر علي أبي عبد الله محمد بن الأحمر بغرناطة لم يوافق أبا سالم على ما أراد فوجدها ملك الاسبان فرصة لدفع أبي سالم الذي إن هو أنتصر يكون على طرفي نقيض تجاه أصحاب غرناطة، مما سيضعف قوة أهل الأندلس من المسلمين ويجعلها عرضة لسطو الاسبان، بل عندما ينتصر أبو سالم ويغرق أهله في البحر وهم في طريقهم الى منفاهم بالاندلس، ينقض أهل غرنانطة على أبي عبد الله محمد الخامس فيخلعوه ويقتلوا مولاه رضوان، وينصب إسماعيل أصغر أولاد أبي الحجاج، أما ذو

---

(589) راجع العبر 7/621-622.

الوزارتين لسان الدين إبن الخطيب(590) فيكون حظه من هذه الفتنة السجن لأنه كان على اتفاق ووفاق مع القتيل رضوان.

وفعلا آستطاع أبو سالم إبراهيم أن يحصل على ما أراد من القوة والعتاد من ملك الاسبان، فتوجه الى مراكش لكنه قوبل بالرفض الشديد والطرد بعيدا، وقتها عاد إلى نواحي سبتة، وطنجة، حيث تهافت على نصرته بعض رجالات الدولة، والأعيان الذين كان أبو العباس الحفصي قد جلبهم بالدعاية لصالح أبي سالم هو وأبو القاسم التلمساني، فأقبلت عليه قبائل غمارة والخلط، وغيرها، مما قوى عزيمته على التوجه الى فاس، وكان قد ثار بها منصور بن سليمان، فد خلها، وقد آنهزم أمامه الثائر وأقبل عليه المتذمرون من فساد الأوضاع في شهر شعبان 760هـ/ 1358م، وقتها عقد للحسن بن عمر على مراكش، وأسند منصب الوزارة الى مسعود بن رحو بن ما ساي، والى يوسف الورتاجني، وقرب اليه محمد بن أحمد بن مرزوق صاحب والده والمشار إليه وإلى تأليفه في أبي الحسن قبل "المسند"، كما جعل كتابة سره والتوقيع لابن خلدون سنة 760هـ/ 1358م كما كان زمن أبي عنان، وبعدها عينه أبو سالم قاضيا للقضاة(591).

---

(590) بعدها سيطلبه أبو سالم مع ابن الأحمر، ويحلا بالمغرب في ضيافته الى سنة 763هـ/ 1362م حيث يسترجع ملكه ويعود الى الأندلس ثم يستمر الى سنة 794/1391م وإذا ما عاد معه آبن الخطيب الوزير، فإنه وقد تعرض للكيد والدس سيفر بسبب ذلك إلى المغرب سنة 773هـ/1371م، عن طريق جبل طارق وسبتة، ثم تلمسان أيام السلطان عبد العزيز بن أبي سعيد، وقصته بعد الفرار وما آتهم به مشهورة، وقتله بإيعاز من سليمان بن داود الحاقد عليه راجع النفح 222/3-55/4،240 الخ، ود. الإسلامية 150/1-152 ط 33.

(591) راجع ترجمة ابن خلدون آخر ج7 من العبر ص795 ط 1959 بيروت، وفي د. الاسلامية 152/1-153 ط1933 والبستاني 462/1-468. ويرجع عبد الرحمان ابن خلدون الى أسرة إشبيلية هاجرت الى تونس واتصلت بالحفصيين، وقد تعرف على رجالات دولة بني مرين زمن فتح أبي الحسن لتونس، وعبد الرحمن بن خلدون المولود عام 732هـ/1329م هو الذي نبغ من بين إخوته الأربعة الآخرين محمد، وعمر، وموسى، ويحيى، فقد دخل آبن خلدون المغرب وهو شاب دون الخامسة والعشرين حيث آستقدم الى مدينة فاس بطلب من أبي عنان سنة 755هـ/ 1358م والذي سرعان ما غضب عليه ثم أدخله السجن مرتين الأولى سنة 757هـ/ 1356م، وفي الثانية بقي إلى أن توفي أبو عنان سنة 759هـ/ 1358م، وكان أبو عنان قد وعد بسراحه بعدما تلقى منه قصيدة مدح، لكن آبن خلدون بقي بسجن "الدكاكين" حيث بقي مكانه معروفا لدى المؤرخين المغاربة. وقد وقفت على البيت الذي سجن به حيث لايزال معروفا حتى اليوم حافظت عليه مديرية الاثار في عهد الحماية ورشمته.

لقد كان آبن خلدون بحق عبقري زمانه، الا أن عبقريته لم تجد مجالا أوسع من المغرب ففيه أتم دراسته على أبي عبد الله محمد الصفار المراكشي، ومحمد المغربي التلمساني، ومحمد بن أحمد الشريف العلوي، =

ولقد كان أبو سالم في جل أعماله وعلاقته مع الآخرين يقصد إظهار أخطاء أخيه أبي عنان الذي كان قد سجن آبن خلدون، فأطلق سراحه قبل، بتوجيه من الحسن بن عمر الفودودي في المرة الأولى، أملا أن يقف إلى جانبه مادام قد نصب محمد السعيد، لكن آبن خلدون إنحاز الي جانب الثائر، المنصور بن سليمان ضد جيش السعيد الذي يشرف عليه الحسن بن عمر، ولما ظهر أبو سالم وكان آبن خلدون قد عمل لصالحه آقتداء بأبي العباس الحفصي، وأبي القاسم التلمساني، كافأه أحسن مكافأة، لكنه ما كاد يستقر في وظيفته السامية من جديد مع أبي سالم وينعم بوافر الحياة والمال في ظله، حتى ظهر حساد نقموا عليه بالوشايات والدسائس، مما دفع به الى المؤامرة، ولو ضد ولي نعمته أبي سالم، وفي هذه المرة مع الوزير عمر بن عبد الله شريكه في المؤامرة الأولى التي كانت لصالح الأمير الحفصي، ويا لله ما أوسخ الطمع في جو المؤمرات التي ما عرفت لها ميدانا أوسع وأليق من القرب من السلطان الذي لا حد لشهواته وأطماعه وعدم أمانته. فكان أكبر مثال لذلك ابن خلدون قبل أن تعرف أوروبا ميكياڤيلي ورشيليو، لكن الذي أكده التاريخ والناس هو ماورد في قوله تعالى: "فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" الآية.

وهنا لم يجد آبن خلدون وقد آنكشف أمره بدا من محاولة الرحلة الى تلمسان، حيث أبو حمو الثاني(592) الذي كان قد دخل تلمسان إثر وفاة أبي عنان في 10 ربيع الأول سنة 760هـ/ 9-2-1359م، لكن آبن خلدون سرعان ما تعرض لنفس الحالة التي تعرض لها قبل في فاس، فكانت منافسة محمد بن أحمد بن مرزوق، سببا في فراره من تلمسان، حيث دس آبن مرزوق لابن خلدون عند أبي سالم، لكن الدائرة كانت على ابن مرزوق حيث ثار الوزير عمر بن عبد الله على أبي سالم، ورجع إلى آبن خلدون فقربه وزاد في التوسيع عليه، لما كان بينهما أيام أبي عنان من حب وصفاء وود.

= وأبو القاسم محمد بن يحيى البرجي، وأبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق، وقد عرف آبن خلدون تقلبات كثيرة في مجال السياسة منذ شبابه وعمله مع أبي إسحاق الثاني الحفصي ولما آنهزم هذا في حرب امزاب فر آبن خلدون وسنه 23 حيث آكتشف أبو عنان مؤامرته مع أبى عبد الله صاحب بجاية الذي كان سجينا عند أبي عنان والذي أخذ يحاول العودة الى ملكه السليب.. الخ.

(592) راجع الإسلامية 1/328-330. ط 1933.

وإذا كان أبو سالم كسلفه لا يستقر له قرار الا بالسيطرة على تلمسان فإنه من أجل ذلك أطلق سراح أبي زيان محمد بن أبي سعيد عثمان بن تاشفين، بن عبد الرحمن بن يغمراسن بن زيان، المعروف بالفتى وكان سجينا عند أبي عنان منذ تغلب أبو عنان على عمه أبو ثابت الذي كان قد اعترض أبى الحسن بعد هزيمته وعودته من تونس، ثم حاربه وقتل ابنه الناصر وبعث بنات أبي الحسن الى أبي عنان، وقتل علي بن راشد، مما أدى بأبي عنان الى جمع فلوله والهجوم على أبي سعيد صاحب تلمسان، ثم إلقاء القبض عليه وتوبيخه ثم قتله بعد تسعة أيام، أما أبو ثابت فقد فر، وفي بلاد زواوة ترجل عن فرسه ثم رحل مع بعض أصحابه في حالة إهمال، لكنه ألقي عليه القبض وقتل طعنا بالرماح مع وزيره أبي سعيد كما سبق وأشرنا إليه سنة 753هـ/1352م، أما أبو زيان وقد كان معهما، فقد تركه أبو عنان سجينا إلى أن ملك أبو سالم ثم أراد أن يستعمله ضد ابن عمه أبي حمو صاحب تلمسان، فأعطاه السلاح وزوده بالمال، لكن أبا سالم توفي ولم يجن ثمرة مجهوداته، قتله أخوه تاشفين بن أبي الحسن الذي ثار عليه بالمدينة البيضاء، فاس الجديد بمساعدة قائد جند أبي سالم غارسيه بن أنطول، وعمر بن عبد الله بن علي بن سعيد الفودودي، وكان أبو سالم لما انتقل الى فاس المدينة وكل الى الوزير عمر الفودودي إدارة فاس البيضاء، ثم قرب أبو سالم إليه كوزير محمد بن أحمد بن مرزوق، الأمر الذي دفع الفودودي الى الاتفاق مع غارسيا قائد الجند وتدبير الإنقلاب ضد أبي سالم، ثم تنصيب تاشفين بن أبي الحسن المعروف بالموسوس، وذلك يوم الثلاثاء 17 ذي القعدة من سنة 762هـ/ 1360م، ولما تفرقت جموع أبي سالم من حوله ولم يعد له مناصر، طلب النجاة بنفسه فرارا، لكنه ألقي عليه القبض، وقطعت رأسه يوم الخميس 21 قعدة ثم وضعت في مخلاة(593) وقدمت للوزير عمر الذي تولى سطوة الدولة باسم المنصب صوريا تاشفين، ولم تكن تلك إلا مرحلة من المراحل التي وضع تخطيطها هذا الوزير الماكر والبارع في الدهاء، فقد كانت المرحلة الأولى هي الإيحاء الى أبي سالم بواسطة المنجمين

---

(593) يقول صاحب روضة النسرين ملخص ابن زاكور ص21 "وقتل رحمه الله وأنا انظر اليه، وابكي على أن ابن خلدون قد بالغ في وصف ما لم يكن في إمكانه الوقوف عليه من هذا الموقف، راجع العبر 652/7، خصوصا وأنه رحل وقته الى غرناطة حيث قضى سنتين في نعمة مقابل ما كان قد قدمه من خدمات الى محمد الخامس.

أن يترك قصر البيضاء آبتعادا مما سيلحقه من مكروه إن هو بقي به، وفعلا إنتقل الى فاس المدينة، أما المرحلة الثانية، فكانت آستمالة قائد الجند غارسيا إلى أن يقضي به مهمته ثم يقتله وقومه هو الآخر، وقد فعل كما فعل بتاشفين كما سنرى.

بعد أبي سالم نصب تاشفين الموسوس لمدة ثلاثة أشهر ويومين، ثم خلع يوم الإثنين 22 صفر 763هـ/ 1361م، وعمره ستون سنة، وقد كانت أيامه كلها فتن آنتهت بالقضاء عليه خنقا، والقائه في بئر بتدبير من الفودودي الذي أشاع أنه سقط عن دابته وهو سكران، وقد فعل به ذلك بسبب فشله وعدم صلاحيته لمواجهة الثائر عليه عبد الحليم بن أبي علي، بن أبي سعيد(594) الذي آستقدمه مشايخ بني مرين من سجلماسة، لكنه لم ينجح في حصار فاس، الأمر الذي أدى بالوزير عمر الى تنصيب أبي زيان محمد الملقب بالمتوكل على الله بن عبد الرحمن، بن أبي الحسن.

كان أبو زيان محمد المتوكل هذا قد آلتجأ الى صاحب غرناطة ثم إلى ملك الاسبان فرارا من مذابح ودسائس عمه أبو سالم سنة 760هـ/1358م وبقي مستجيرا بملك الاسبان الذي حماه بمدينة إشبيلية إلى أن قتل أبو سالم ونصب تاشفين الموسوس الذي لم يسعفه عقله ولا سنه على مقاومة الدسائس التي كانت قد آستفحلت وتمكنت في كل جهة وركن من أركان الدولة، حتى أصبح النساء يشاركن في قتل الملوك والأمراء، تارة بالسم، وأخرى بحراسة من يقوم بأداء تلك المهمة من أعوان الوزراء المتكالبين على النفوذ، وهكذا لما آستدعي أبو زيان لتولى العرش لم يقبل إلا بموافقة ملك الاسبان الذي أبرم معه معاهدة، وقتها إنتقل إلى المغرب يوم فاتح محمرم 763هـ/1360م ثم نزل بسبتة التي كان ينتظره بها سعيد بن عثمان قريب الوزير، كي يحمل خبره فيدبر لتاشفين ما

---

(594) لم يكن عبد الحليم أكثر خطأ من إخوته وأبناء عمومته في هذه المرحلة، فقد حاول آستمالة عرب المعقل بسجلماسة من الأحلاف وأولاد حسين، بواسطة أخيه عبد المومن، لكنه لم يفلح، فاختار عبد الحليم الرحيل لأداء فريضة الحج عن طريق ركب مالي، ولما كان عائدا توفي قرب الإسكندرية سنة 766هـ/ 1364م، وقتها أصبحت سجلماسة مملكة لأخيه عبد المومن، إلى أن أخرجه منها آبن ماساي، فذهب الى مراكش، حيث اعتقل في هنتاتة بتدبير من الوزير عمر الذي لم ينعم هو الاخر براحة حيث قامت عليه الفتن من كل جانب من مسعود بن ماساي، وعبد الرحمن بن يفلوسن اللذين تغلب عليهما، ولم يبق له إلا عامر بن محمد الهنتاتي، بناحية مراكش، فرحل إليه في رجب 767هـ/ 1365م، وقصر أولاد عبد الحليم لا يزال معروفا حتى اليوم بتافيلالت، وقد آتخذه العلويون بعد قيام الدولة مقرا لخلفاء السلطان بالمنطقة، وكان آخر من سكنه المهدي بن الرشيد بن محمد بن عبد الرحمن، وهو اليوم خراب ويبعد عن ضريح المولى علي الشريف بنحو الميل، راجع العبر 7/648-664-666، ونفح الطيب 3/378 والجذوة 1/197 ط 1974.

كان ينتظره من مصير، لكنه لما اَنتقل إلى فاس في نصف صفر وجد أمامه معارضة هوجاء من جميع بني مرين، يتقدمهم عبد المومن بن عبد الرحمن وأبناء السلطان أبي علي، لكن قوة الوزير عمر الفودودي طاردتهم جميعا، ففر بعضهم الى تازة وذهب عمهم وكبيرهم عبد الحليم الى سجلماسة، حيث أسس له مملكة جديدة هناك بدل التي كان يتمنى له صاحب تلمسان، الذي نسي نفوذ الأحلاف وأولاد حسين بسجلماسة، وأنه لا يتم أمر بدونهم، وهؤلاء راموا جانب القوى الذي هو عمر وصاحبه، خصوصا وأن عمر أختار في هذا الموقف جانب السياسة وشراء كبار القوم من أولاد حسين والأحلاف الذين سلطهم على عبد الحليم، بعدما كان قد فكر في غزوه ثم وصل الى جبل العياشي، لكنه عاد بقواته وقد اَعترف له بسجلماسة بعد صلح صوري.

وهكذا إذا علمنا أن دولة بني مرين بعد أبي عنان اَنطلقت نحو المنحدر، أدركنا أن أبا زيان هذا هو الآخر لم يكن غير مرحلة من المراحل التي كان يخطط لها الوزير عمر الفوودي، والذي حاول بكل الوسائل حتى لا يخرج السلطان والنفوذ من يده، ولو أدى الأمر الى قتل أبي زيان هو الآخر، خصوصا عندما تحرك يريد أن تكون له سلطة الملك ونفوذ السلطان، فلم يكن من الوزير إلا أن أحاط صاحبه بالمتربصين الذين تعودوا العمل حسب التخطيط المرسوم، وضمنهم بعض نساء القصر اللائي أخذن يحصين أنفاس أبي زيان، وينقلن الى الوزير ما يتلفظ به مما يتصل بالوزير، ولما تحقق له أن أبا زيان أصبح يفكر وينطق كملك. آختار الخلاص منه بنفس الطريقة التي تعودها، والتي أصبحت بعيدة في نظره عن الطعن مادامت الخمور والفجور قد تردد صداها بين جنبات القصر، وعلم بها المحيطون من كل جانب، وهكذا وكل به ليلة من تبعه الى روض الغزلان حيث اَستطاع أن يجره ثم يخنقه ويرمي به في الساقية ثم يتركه إلي أن يكتشف، فيقول الوزير إنه ثمل وسقط، وكان هذا مما يقبل بسهولة في نظر الدائرة وما خلف الدائرة.

كان ذلك يوم الأحد 22 حجة 767هـ/ 1365م، ولما يتجاوز سن أبي زيان الثامنة والعشرين، ثم دفن بجامع القصر الملكي(595) بعد أربعة أعوام وعشرة أشهر ويوم واحد،

(595) يوجد قبره بالقوس المفضى الى مقصورة المحراب بالجامع الأعظم من فاس الجديد، وبجانبه قبور أخرى، وقد وضع فوقه وما حوله من القبور غطاء من خشب كالبلاط، ويعتبر وضعه والقبور الأخرى غير سليم بالنسبة للمصلين الذين كثيرا ما يصلون اليوم فوق تلك القبور، خصوصا أعوان الخليفة السلطاني بفاس الجديد الذين يتصرون على ذلك المكان يوم الجمعة كما عشنا زمن الطفولة.

وكان أبو زيان كما تقول المصادر فاضلا، مهيبا، طيبا، محبوب السيرة، وقد مدحه لسان الدين ابن الخطيب، وعند ابن خلدون أنه قتل غدرا فاتح المحرم 768هـ(596)، وهكذا قبل أن يصل الفودودي إلى هذه المرحلة كان قد قضى على أغلب الذين هم غير متفقين معه سواء في ذلك الوزراء وقواد الجيش، بل وحتى الممتازين من أسرة بني مرين، قضى عليهم بالطريقة التي آختارها، والتي سيلاقي مصيره بها لا محالة، إذ المرء مقتول بما قتل به، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بعد أبي زيان جيء بأبي فارس عبد العزيز، ولما يتجاوز الثامنة عشرة من العمر، إذ هو عبد العزيز بن أبي الحسن الذي بويع كما بويع قبل آبن أخيه، ويذكر في حياة هذا السلطان لسان الدين محمد آبن الخطيب السلماني، الذي كان والده قبل في بلاط أبي الحجاج يوسف بن الأحمر السابق ذكره، ولما توفي في معركة طريف سنة 742هـ/1341م، حل محله ولده لسان الدين،باختيار الوزير آبن الجياب، ثم لما توفي هذا الأخير بالوباء سنة 750هـ/ 1349م، حل محله آبن الخطيب وأصبح في إمكانه القيام بدور كبير في حياة الدولة، وقد وقف الى جانب أبي فارس عبد العزيز حين عمل على إبعاد كل الذين كانوا بغرناطة من أعمام أبي فارس وخصومه حتى لا يشوشوا عليه أو يزاحموه في طلب الملك، وذلك بإقناعهم والتوسيع عليهم مقابل تعهدهم واعتقال من يستحق الاعتقال منهم، وكان هذا العمل خالصا من آبن الخطيب لأبي فارس الذي سيذكره لابن الخطيب الذي قريبا سيكون في أشد الحاجة إليه، فيلاقي منه ما يستحق من الاجلال والتكريم وحسن الوفاء، حين يكيد لابن الخطيب خصومه ثم يضطر أمام تهمة القاضي أبو الحسن بن أبي الحسن وتلفيقه كلمات مزورة دست في كتابه "روضة التعريف" الذي عارض به "ديوان الصبابة"، والتي زندقه بها وأباح دمه بعدما فر الى المغرب بحيلة القيام بتفتيش حصون السواحل، ولما حل بالمغرب فرارا للمرة الثانية من التفتيش سنة 773هـ/1371م، تنكر له حتى تلميذه وربيب نعمته آبن زمرك، لكن أبا فارس عبد العزيز لم يسلمه، وبقي الى أن سلمه أبو العباس بعد كما سنرى(597)، وكان ما فعله أبو فارس مع آبن الخطيب إنما هو

(596) العبر 670/7.

(597) النفح، والعبر 689/7.

رد فعل ضد صاحب غرناطة الذي فعل مثل ذلك مع عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن السلطان أبي علي المزاحم لأبي فارس، والذي ولاه صاحب غرناطة وظيف شيخ الغزاة محل علي بن بدر الدين المتوفى 769هـ/ 1367م، فما كان من آبن الخطيب إلا أن سعي في سجنه ووزيره مسعود آبن ماساي الذي فر هو الآخر الى غرناطة.

الفصل الثاني والتسعون

محاولة أبي فارس عبد العزيز

لقد كان أبو فارس بحق ابن أبي الحسن، ذلك أنه ما كاد يتمكن ويدرك أسباب ضعف الدولة وانهيارها، وأنه طغيان الوزير الحسن بن عمر حتى دبر له مكيدة باتفاق مع خصيان القصر، ولم تختلف عن تلك التي كان الوزير ينسجها مع ذوي المصالح وضعاف النفوس والأخلاق من الرجال والنساء، في قصر السلطان الذي يريد القضاء عليه، وإذا هو لم يقتصر على واحد ممن سبقوا أبا فارس مما أدى الى مقته وافتضاح أمره، فإن أبا فارس وقد صمم على قتله لم يجد كبير عناء، رغم أن ابن عمر صاهر السلطان بإبنة أبي عنان لا تقربا وإنما مبالغة في الاستبداد وطغيان السلطان الذي بلغه الحسن بن عمر الفودودي الذي أصبح يولي ويعزل من يشاء من الأمراء، وكذلك أراد بأبي فارس ليحل محله ولد أبي عنان، حسب وعده، لكن أبا فارس دبر أمره وفاجأه قبل أن يفتك به حين أغلق الأبواب دونه ثم انقض عليه قوم عبد العزيز في الوقت الذي كان ابن عمر قد استعد وقومه للفتك به، وبذلك انتهت حياة أكبر مستبد ساهم في تدهور ملك بني مرين. لكنه مع ذلك كان متأخرا، فقد تدهورت السمعة، وانتشر بين الكبير والصغير ان العملة التي يروج لها ويتعامل بها كل من في القصور، إنما هي عملة البغي والطغيان والخمور والفجور، بل إن تلك القصور أصبحت وبتسلط الفودودي وعصابته بؤرة نتنة بمن قتل فيها من أبرياء، وما سفكت فيها من دماء، وما أقبر فيها من متظلمين بتدبير ماكر وخبيث من الفودودي، الذي صدق عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "المرء مقتول بما قتل به، إن سيفا فسيفا، وإن خنجرا فخنجرا"، فقد قتل ابن عمر الفودودي شر قتله .

كان ذلك يوم 15 ذي القعدة سنة 768هـ/ 1366م، وهو تاريخ نكبة آل عمر الذين لم يقتصر أبو فارس على عميدهم، بل ألقى القبض على جميع أفراد أسرته، ولده وعمه

وجميع أقربائه، بل وحاشيته، بل وعلى الذين أخلصوا له من الوزراء، مثل سليمان بن داود، ومحمد السبيع اللذين آعتقلهما، وكذا علال بن محمد، والشريف أبا القاسم(598) وبعد تصفية الحساب مع عمر وقومه الذين قتل أكثرهم، نصب حكومته التي كونها من وزراء ثلاث منع عليهم كل عمل كبر أو صغر إلا بإذنه، وهؤلاء الوزراء هم: عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة، من بني مرين، ثم شعيب بن ميمون بن ودرار من الجشم، ويحيى بن ميمون أمصمود من الموالي، وهو آبن أخ لعلال بن محمد السابق الذكر، وممن كان لهم دور في حياة أبي عنان السياسية، لكنه تعرض لكيد عمه علال بن محمد الذي دس له(599) بالافتراء، فقتله بعد أبو فارس ظلما رغم أنه أصبح من أعمدة ملكه، كما كان في عهد أخيه أبي عنان الذي ولاه بجاية مدة آنضمامها إلى المغرب، إلى أن خلصها الحفصيون، فانتقل الى تونس التي اعتقل بها مدة، ثم صرفوه الى المغرب أيام الوزير عمر الذي اختص به، لكنه لم ينغمس، مما أدى إلى اختياره من أبي فارس لكن ياليته لم يفعل.

لما انتهى أبو فارس من تصفية مخلفات الوزير الحسن بن عمر الفودودي التفت الى أحوال المملكة التي كان قد خدش وحدتها أبو الفضل بن أبي سالم، وعبد المومن أخو عبد الحليم، الذي كان سجينا عند أبي الفضل، وإذا ماكان عامر الهنتاتي هو الذي أقام أبا الفضل نكاية ضد الوزير ابن عمر الهالك، فإن عليه وقد زالت آثاره أن يدبر حيلة يعود بها إلى صف الجماعة، ومن أجل ذلك فكر في وسيلة يترك بها صاحبه لأبي فارس عبد العزيز الذي بلغه أنه بحق يمثل آمتداد أبي الحسن، وأنه يعتزم القيام بحملة غزو إلى مراكش ويستعد لها، وهكذا لم يجد عامر غير وسيلة الرحيل إلى جبله بحجة انه مريض، وإذا غاب عن وجه أبي الفضل، يكون بذلك قد أعطى الدليل لأبي فارس أنه تخلى عنه بطريقة فيها نوع من الاعتبار، وما كاد عامر يغادر مراكش حتى بلغه أن أبا الفضل سكر حتى ثمل، ثم أمر قائد جند النصارى بقتل عبد المومن في محبسه ففعل وأتاه برأسه، ولما سمعها عامر يقول صاحب العبر تنفس الصعداء ظنا منه أنها وسيلة تحول

---

(598) تشفع فيهما ابن الخطيب بعد: العبر 672/7.

(599) وأنه يريد تحويل الدعوة لصالح أحد القرابة من آل عبد الحق، العبر675/7.

بينه وبين صاحبه كي يتخلى عنه، وبالتالي يعتبرها له أبو فارس، لكن كل تلك الحسابات كانت خاطئة، وعند أبي فارس غيرها.

لم يكن ما صدر من أبي الفضل إزاء عبد المومن فقط مما عرضه للهلاك والدمار، بل وقع في مكيدة أخرى حيث محمد بن محمد بن منديل الكناني، ومبارك بن إبراهيم غيطة الخلطي، وكان الكناني يقول ابن خلدون على طرفي نقيض مع طلحة التينودي، فقتل طلحة كما فكر في محاربة عامر الهنتاتي الذي تخلى عن أبي الفضل بن أبي سالم، لكنه ما كاد يخرج من مراكش حتى بلغ جنده الخبر بحركة السلطان عبد العزيز إليها، فسقط في يده وتفرق الجند وهرب جله، وفي هذه الأثناء كان عامر قد وجه بيعته لأبي فارس الذي أعد الرحلة إلى مراكش سنة 769هـ/ 1367م، وإذا هو آستولى على مراكش وأسند ولايتها إلي علي ابن محمد بن أجانا، ثم أمره بالتضييق على عامر بن محمد، فإن أجانا لم يكن كفؤا لذلك، إذ ما كاد أبو فارس يرجع إلى فاس بعد القضاء على أبي الفضل وقومه حتى بلغه خبر آنهزام أجانا أمام عامر الذي ألقي عليه القبض وعلى الذين معه من قواد الجيش، ووقتها كان أبو فارس يستعد لغزو تلمسان، لكنه عدل وتوجه إلى مراكش بعدما جمع الجيوش واستنفر القبائل، ثم وضع على رأس القيادة العامة أبا بكر بن غازي بن يحيى بن الكأس.

كان عامر وقد بلغه ما أراد به أبو فارس الذي ربما هو الآخر وقع في حبال الحاقدين المتخوفين من عامر إذا ما آقترب من أبي فارس، خصوصا وقد علمنا المقدمات التي آتخذها للتخلي عن أبي الفضل وإظهار ولائه لأبي فارس، لكن هذا الأخير لم يعطه الفرصة بعد قضائه على أبي الفضل ليتقرب منه بل أسند ولاية مراكش الى أجانا، ثم أمر بالتضييق على عامر في الوقت الذي كان هذا الأخير أقوى جندا وأكثر مراسا بالحرب وهكذا عاد عامر إلى ما كان عليه، فنصب تاشفين ولد أبي ثابت بن يعقوب بن عبد الله، وقد أضاف إليه تأييد علي بن عمر ويغلان، من شيوخ بني ورتاجن كبير بني مرين وصاحب الشورى فيهم لعهده.

كان أبو فارس قد أعد لحرب عامر أكثر مما يستحق، وبالمقابل كان عامر الذي أعتاد جلب الرجال والدفع بهم إلى الاستماتة في تحقيق أهدافه بالمال، وكثرة العطاء،

لكنه هذه المرة قد تغير ولم يجد على المقاتلين بما آعتادوه وليس ذلك عن قلة، وإنما ربما لأنه كان يفكر في طول الحرب مع أبي فارس، وقد أقبل فصل الشتاء بقره الشديد في المنطقة، ونسي عامر أن تصرفه هذا هو الذي سيجلب عليه الهزيمة وكبير الفشل وذلك ما عرفه كل من سلكوا سبيل الرشوة لتحقيق النصر في كل زمان، الويل والثبور والتحقير، ولعنة التاريخ، واحتقار الأجيال بها يذكرون بين الناس.

وفعلا ما كادت الحرب تستعر، حتى أخذ عامر يتقهقر من مكان إلى آخر في الجبل، إلى أن تعلق بأعلاه في المكان المعروف تامسكروط(600) حيث بدأ المفاوضة مع عامر الذي أظهر الولاء تصنعا، وبعدها فر منه يريد أرض السوس، لكنه عاد مقبوضا عليه بعدما صدته الثلوج، واختبأ، وما تبقى من أهله الذين هلك جلهم بقر الثلج وشديد الخوف، كما ألقي القبض على محمد بن الكناني، وأطلق عبد العزيز أيدي الجند في مدخرات عامر التي قال عنها ابن خلدون أنها ضمت من الأموال والسلاح والذخيرة والزرع والأقوات ما لا عين رأت ولا خطر على قلب أحد وقتها، وكان ذلك في رمضان 771هـ/ 1369م، أي بعد سنة من الحصار، وقتها ولي على هنتاتة فارس بن عبد العزيز بن محمد بن علي بعد قتل عامر صبرا، وبعد عذاب شديد سلط عليه ومعه الكناني، أما سلطانهم تاشفين فقد قتل بطريقة تختلف كما أطال حبس مبارك بن إبراهيم ثم قتله بعد.

عاد أبو فارس عبد العزيز الى فاس بعد آنتصاره بمراكش، لكنه لم يكن الانتصار الأخير مادام أبو حمو من بني عبد الواد الذي كان قد أطلق سراحه أبو سالم، وفي عهد أبي زيان محمد الملقب بالمتوكل. حاول أبو حمو وفي خضم الفتن غزو نواح من الغرب خصوصا ناحية الجنوب حيث عرب المعقل الأحلاف وأولاد احسين الذين كان يتخذ منهم قوة يدافع بها ما حوله من قبائل زغبة، وكانت أيام الوزير الحسن بن عمر بن عبد الله الفودودي بفتنها ودسائسها تحول دون إيقاف أبي حمو عند حده، حتى إنه استطاع أن يثير الفتنة في دبدو، ويقسمها شطرين، ولما صفى الجو لأبي فارس أراد غزوه، لكن صده ما كانت عليه مراكش، وقيام أبي الفضل فيها بزعامة عامر بن محمد الهنتاتي، وإذا هو آنتهى منها بانتصار فإنه لا يتم الا بتشريد أبي حمو وقومه، وقبل القيام بذلك عليه أن

(600) راجع العبر 676/7.

يبيد الجنود ويقضي على كل أثر لما يثبط العزم، خصوصا وقد حاول مفاوضة أبي حمو كي يترك عنه عرب المعقل فلم يقبل، لأنه كان يعتمد دسائس عبد الله بن مسلم عامل درعة الذي كان يؤثر على عرب المعقل بها، ثم بتافيلالت وما حول سجلماسة، وإذا كان أبو فارس قد آستطاع أن يجرده من ذلك باستمالة عرب المعقل بواسطة ونزمار الذي كان صاحب نفوذ أقرب وأكبر فيهم، خصوصا بعد موت عبد الله بن مسلم، فإن عليه اليوم ولم يبق أمامه غير أبي حمو وقواته التي لا تستطيع الوقوف أمام جحافل أبي فارس التي أعتادت الغزو من حين لآخر، أن يوجهها نحو تلمسان كي تحقق أغراضها من الغزو الذي توقف نحو الناحية الشرقية زمنا غير قصير، وفعلا جهز أبو فارس جيشه الذي آستعرضه ليلة عيد الأضحى بضاحية فاس، وبعد العيد خرج متوجها نحو تلمسان التي لم يجد كبير جهد في آحتلالها الذي تم يوم عاشوراء من سنة 772هـ/ 1370م، وذلك بعدما فر منها أبو حمو فرار المنهزم هو وقومه وعشيرته، وبعدما تخلى عنه كل الذين كانوا حوله حتى آبن خلدون الذي كان عنده حاول السفر الى الأندلس عن طريق البحر من مرسى هنين "العبر 683/7"، فما كان إلا أن وشى به من قالوا أنه يحمل مالا مهربا فاستدعاه أبو فارس فلم يجد عليه ما آفتراه المرجفون، مما دفع به لإكرامه، ثم أجزل له العطاء، وطلب إليه التوجه إلى قبائل رياح كي يستميلها حتى تنضم إلى جانب أبي فارس، وتعلن ولاءها إليه، وفعلا قام آبن خلدون بالمهمة ونجح مما يستدل به على "مرونة" ابن خلدون الذي عمل مع مختلف الاتجاهات منذ عهد أبي عنان الى عهد الوزير المستبد ابن عمر الذي كان يستعمله هو الآخر في كثير من المهمات كتلك التي أشار إلى بعضها عندما واجه الوزير ثورة عبد الحليم ومن معه ثم آنتصر عليه فبعث بخبر الانتصار وكان الرسول ابن خلدون(601) كما نص على ذلك.

وهكذا أصبح أبو فارس صاحب النفوذ على المغربين الأقصى والأوسط كما كان والده أبو الحسن وأخوه أبو عنان، أما أبو حمو فقد بقي بين مد وجزر يقارع الخطوب غير مستسلم بين كر وفر أغلب حياته، إنتصار على الشدائد حتى حين نفاه ولده وأركبه

---

(601) العبر 7/660-687-688، وكان السلطان وقتها محمد بن عبد الرحمن الذي آستقدمه عامر من الأندلس وهو حفيد أبي الحسن وقد عرفنا به قبل.

البحر الى الحجاز نزل بحيلة ثم عاد إلى ملكه، وهو بحق أعظم ملوك بني زيان من بني عبد الواد إطلاقا، ذلك أن أبا حمو لم يكن من المعدين لملك بني عبد الواد، ومع ذلك تولاه واستطاع أن يخلد ذكره دون غيره بواسطة المآثر العمرانية والعلمية التي خلدت له الذكر الجميل أبد الدهر، لكن نهايته للاسف كانت مأساة حين قتله أحد جنود ولده غدرا بالغيران في فاتح ذي الحجة سنة 791هـ/ 1388(602)، وذلك عن عمر يناهز الثانية والسبعين، إذ هو من مواليد 723هـ 1323م.

لقد انتهى أبو فارس الى هذه النتيجة التي ما كان لغيره أن يحققها تحت حكم واستبداد الوزير ابن عمر الذي قضى عليه أبو فارس، وبذلك أبان عن قوة شخصية وكفاءة ضمت الى ما استطاع ان يحيط به من رجال ذوي تجربة واقتدار، وهكذا استطاع أبو فارس بالإضافة إلى ما حققه من انتصارات أن يضيف إلى ذلك موقفه من بني الأحمر إزاء ابن الخطيب الذي فر إلى المغرب سنة 773هـ/ 1371م، فلم يسلمه أبو فارس إلى خصومه ولا تأثر بما أثاروه حوله رغم كل الوسائل التي ما كان لمثل أبي فارس في النصف الأول من العقد الثالث من العمر أن يصمد لها ولا يعيرها أي اهتمام رغم السفارات المتوالية من محمد الخامس ابن الاحمر بل أضاف إلى إكرامه لابن الخطيب إستقدام أمواله، وإكرام أهله، ومن وفد على المغرب من قرابته وحاشيته، وبقي ابن الخطيب مكرما إلى أن مات أبو فارس عبد العزيز يوم الخميس 22 ربيع الثاني سنة 774هـ اكتوبر 1372 عن أربع وعشرين سنة بتلمسان ثم نقل منها إلى مدينة فاس حيث دفن بجامع القصر الملكي، وكانت مدة حكمه التي تعتبر بحق محاولة لبعث أمجاد بني مرين، ست سنوات وأربعة أشهر(603) حقق فيها الكثير من الخطوات في سبيل تصحيح الوضع، لكن أجله كان قصيرا وبذلك كانت محاولة البعث قصيرة كذلك، فعادت البلاد إلى سابق عهدها، وما عرفت من ويلات سلطة الوزراء وتناحر الأمراء، ولو طالت حياة أبي

---

(602) راجع دائرة المعارف الاسلامية 328/1 وفيها لم يقف عمل تاشفين على حرب أبيه، بل قتل يحيى إبن خلدون الذي كان كاتب سر والده قتله في رمضان سنة 780هـ/ ديسمبر 1378م، كما قبض على أبيه آخر عام 778هـ وجميع إخوته، وقد سجل التاريخ لأبي حمو أنه وضع لولده رسالة في سياسة الملك عنوانها "واسطة السلوك في سياسة الملوك" نشرت بتونس 1279هـ/ 1862م، وهو صاحب المدرسة اليعقوبية نسبة إلى والده يعقوب الذي دفن بها، راجع المصادر المذكورة بالمصدر السابق الذكر ثم معجم المطبوعات لسركس ص113.

(603) روضة النسرين، وابن زاكور والعبر 696/7.

فارس لتحقق ما كان يطمح إليه آبن الخطيب من تحريضه لاحتلال غرناطة، خصوصا وأن ابن الأحمر بالغ في عدائه لآبن الخطيب، مما دفع هذا الأخير الى أن يزين لعبد العزيز إضافة ملك غرناطة إلى ملكه الذي أصبح يشمل المغربين الأقصى والأوسط، مما أدخل الرعب والفزع في قلب آبن الأحمر ودفع به الى أن يوجه لأبي فارس هدية ما تقدمت ولا عرفت محتوياتها عظمة يقول آبن خلدون، لكن الموت كما أشرنا جعل الحد لكل ما كان ينسجه ابن الخطيب ويرسم من رسوم أثارت آهتمام أبي فارس.

لما توفي أبو فارس عبد العزيز من أثر مرض مزمن كان يظهر ثم يختفي(604) حدث نزاع في الحكم لم يسده آستيلاء الوزير أبي بكر بن الكأس الذي نصب أبا زيان محمد السعيد آبن أبي فارس عبد العزيز بعد موت والده، ولما يتجاوز الخامسة من العمر، وذلك في الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني عام 774هـ/ 1372/10/21م، وإذا كان أبو فارس بن أبي الحسن قد مسك البلاد بحزم وعزم، فإن أبا بكر بن غازي بن الكأس لم يكن في المستوى، خصوصا وقد خلف أبو فارس مشاكل لم تحل مع بني عبد الواد بتلمسان، الذين عاد أبو حمو ليجدد ملكهم بعد موت عبد العزيز بطريقة لم تكن منتظرة، وأخرى مع بني الأحمر بسبب الوزير اللاجئ آبن الخطيب، وإذا كان أبو حمو قد آنشغل بملكه وظروفه مؤقتا فإن آبن الأحمر قد وجدها فرصة ثم وجد معها ما يمكنه بواسطته مضايقة ابن غازي بعدما طلب منه تسليم ابن الخطيب ثم آمتنع، خصوصا وقد كان أبو فارس طرد المطالبين بالعرش بل المزاحمين من أبناء عمومته الى الأندلس، كما فعل سلفه، ومنهم أبو العباس أحمد بن أبي سالم بن إبراهيم بن أبي الحسن، والذي كان معتقلا بطنجة، وكذا عبد الرحمن بن يفلوسن والوزير محمد بن عثمان، اللذين تسبب لهما آبن الخطيب في الاعتقال بأمر من إبن الأحمر خدمة لأبي فارس عبد العزيز، عاد آبن الأحمر فربط الصلة مع الجميع، وكان السفير أحمد الرعيني(605)، وبذلك أصبح آبن غازي وهو غير كفء أمام خصوم أمكن لبعضهم، وهو أبو العباس أحمد بن أبي سالم أن يتمكن من مساعدة أهل سبتة، وطنجة الذين نقموا من تولية طفل لم يتجاوز الخامسة،

(604) العبر 7/688-689.

(605) يقول ابن خلدون إن أبا الحسن أيام نكبته في طريف تزوج أم الرعيني بسبب فقده لأهله، ولما ورد عليه دربه من فاس ردها إلى أهلها، العبر 7/703.

كما أمكن لابن يفلوسن أن يستعين بقبيلة بطيوة التي نزل بها في شهر ذي القعدة من سنة 774هـ/ 1372م، لكن الذي سبق وتمكن هو أبو العباس، فتمت له البيعة العامة بفاس يوم الأحد 6 محرم من سنة 777هـ/ 1375م، وبذلك تم له الأمر بعد آستسلام ابن غازى بأمان فبادر بإرسال السلطان الطفل إلى الأندلس.

الفصل الثالث والتسعون

مأساة آبن الخطيب والغدر به في فاس

عرفنا بآبن الخطيب تعريفا موجزا قبل(606). لقد حاول آبن غازى الوفاء لعهد أبي فارس بالتمسك بابن الخطيب، لكن هذا الوزير لم يستطع فعل أكثر مما فعل، حتى آنتهى الأمر الى أن فعل أبو العباس بأبي فارس ما فعله هذا الأخير بأبي العباس، وبذلك تجرد ابن الخطيب من كل حماية، وأصبح أمام خصومه وجها لوجه، لكنه كان أقوى وأعظم منهم جميعا.

كان القاسم المشترك بين آبن الأحمر وابن يفلوسن والوزير محمد بن عثمان بالأخص، عداوة لسان الدين آبن الخطيب الذي تعهد كل الطامعين في عرش بني مرين بتسليمه لابن الأحمر إذا ما تم النصر، ولما رأى آبن الأحمر وهو الذي يتميز غيظا على ابن الخطيب أن أكثرهم حظا وأقربهم الى النصر هو أبو العباس، بذل له المساعدة التي لم يبذلها لغيره، مع الاحتفاظ بعلاقته مع غيره كرأس حربة يخيفه كلما آبتعد عن الخط، وبذلك دفع عبد الرحمن آبن يفلوسن إلى التنازل بشرط أن يتولى مراكش، وفعلا دخل أبو العباس مدينته كما أشرنا ثم وفى لابن يفلوسن، وأسند الوزارة الى محمد بن عثمان الرتاجني، ورئاسة الشورى الى سليمان بن داود، لكنه رغم ذلك لم ينعم براحة، ولم يتذوق لذة الملك حتى قامت عليه الفتن التي كان عليه أن يردعها، وأن يعمل في نفس الوقت على إعادة ما كان بنو عبد الواد قد تجرؤوا عليه زمن الفوضى أيام حكم آبن غازى، لكنه قبل أن يفعل عليه أن يحقق ما آلتزم به لآبن الأحمر حتى لا يثير عليه الفتن،

---

(606) راجع ما قبل تعليق(598)، وابن الخطيب هو محمد بن عبد الله السلماني اليمني الأصل، ولد بلوشة بلدة بالأندلس عام 713هـ/ 1313م، ونشأ وشب بغرناطة، وقتل ظلما بفاس عام 776هـ/ 1374م.

راجع نفح الطيب، وغيره من المصادر المشار إليها قبل، كالإحاطة، والعبر، واللمحة البدرية.. إلخ، وكذلك ابن الخطيب للفقيه محمد بن أبي بكر التطواني ساكن سلا.

وكان الإلتزام هو تسليم آبن الخطيب الذي أصبح الشغل الشاغل لآبن الأحمر ومن حوله.

كان آبن الخطيب كما سبق لنا، في عز زمن أبي فارس عبد العزيز الذي كان قد بالغ في تكريمه وأهله الذين آستقدمهم بواسطة كاتبه أبي يحيى بن مدين، وهو الذي رد على آبن الأحمر لما وقع فريسة الساعين ضد ابن الخطيب، ثم طالب به لينفذ فيه حكم القاضي أبي الحسن آبن أبي الحسن، الذي آتهمه بالزندقة، والذي قدم سفيرا على أبي فارس من أجل ذلك، فأجابه يقول ابن خلدون "هل آنتقمتم منه وهو عندكم، وأنتم عالمون بما كان عليه، وأما أنا فلا يخلص إليه أحد بذلك ما كان في جواري(607) " وإذا كان ابن الخطيب هو الآخر وفى مع أبي فارس بعيد موته بتأييده لسياسة أبي بكر بن غازى بن الكأس، لكن هذا الأخير آنهزم أمام عبد الرحمن بن أبي يفلوسن الذي تخلى هو الآخر لأبي العباس(608) حسب رغبة آبن الأحمر كما أشرنا، وبذلك أصبح أبو العباس ولا آختيار له أمام ما يمليه آبن الأحمر الذي طالب بآبن الخطيب، بل كان الشرط الأول لتأييد ابن الأحمر لأبي العباس الذي ما كاد يستقر بفاس وكان ابن الخطيب قد دخلها مع الوزير أبي بكر بن عثمان حتى أوحى إليه سليمان بن داود بالقبض عليه واعتقاله، ثم أرسلوا بالخبر الى آبن الأحمر، وفي السجن سعى آبن زمرك المجرم أخزاه الله من نذل حقير بما كان له من كتابات آبن الخطيب، وما فيها من عبارات نقد للأوضاع في ظل بني الأحمر، مما دفع لتعذيبه والتنكيل به بطريقة سجلها التاريخ في حق آبن داود، الذي فعل التاريخ بخلفه ما فعله والمجرمون معه بابن الخطيب، وقبل أن يعرف ابن الخطيب ما عرف من التعذيب آستدعاه أبو العباس من حبسه ليرد على التهمة الموجهة إليه، وإذا كان آبن الخطيب وهو السياسي المحنك العظيم يعرف مقدما أن الذي حقق لأبي العباس ما أصبح يتمتع به من ملك بني مرين الذي لم يكن يحلم به هو غريمه، وأن آبن أبي يفلوسن وابن داود سليمان الذي فوت عليه ابن الخطيب وظيف شيخ الغزاة، ثم زاد في تحقيره بقوله "إنما هي لأعياص الملك من بني عبد الحق.." وهما عدوان لدودان لابن الخطيب لهما في

---

(607) بل إن آبن الأحمر، يقول آبن خلدون بعث الى أبي فارس هدية لم تعرف قبل من ملك من أجل أن يسلمه آبن الخطيب لكنه رفض وأبى. العبر 7/701.

(608) كان ذلك في 7 محرم 775هـ.

حكم المغرب نصيب، وأن القاضي أبا الحسن بن أبي الحسن، وابن زمرك الذي قدم إلى فاس لا يقر لهما قرار إلي جانب محمد بن يوسف ابن الأحمر إلا إذا آنتهت حياة آبن الخطيب، فإن على آبن الخطيب أن يحتقر الجميع ممثلين في شخص السلطان أبي العباس، بإمساكه عن الجواب على السؤال الذي وجه إليه في مجلسه، وأدرك أبو العباس نفس الغاية من الإمساك، فرده الى سجنه بعد التوبيخ والتنكيل، يقول إبن خلدون "وفي السجن دس إليه سليمان بن داود بعض الأوغاد من حاشيته" قتلوه غدرا حيث خنق تحت ستار الظلام، وفي الصباح أخرج شلوه ليدفن بمقبرة باب المحروق وفي اليوم الذي بعد إقباره وجد طريحا خارج قبره وقد جمع المجرمون حول جثته الحطب قصد حرقها، لكنهم اكتشفوا قبل أن تلتهمه النار التي مرت على الشعر وسودت الجلد" فأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك إنتهاء محنته"(609) ورغم ذلك فإن ابن الخطيب شاء له القدر أن يعيش عظيما، وأن يموت عظيما، ثم يبقى في التاريخ الإسلامي العربي عظيما كذلك، وقبل أن تظهر عبقرية المقرى ويسجل في حقه ما سجله من مفاخر، سبقه الكثيرون من عباقرة الأندلس والمغرب، بل خلد آبن الخطيب نفسه بتدوين تراثه ومنه آخر ما أنتج وهو على بلاط حبسه وكأنه يرثى نفسه بنفسه حيث قال نظما رحمه الله(610):

بعدنا وإن جاورتنا البيوت   وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأصواتنا سكنت دفعة   كجهر صلاة تلاة القنوت

(609) العبر 7/709.

(610) القصيدة مطولة أوردتها المصادر العربية، وفي مقدمتها نفح الطيب 7/135- 8/150، والاعلام للزركلي 8/112، والبستاني، وإعمال الأعلام تحقيق د العبادي. ط البيضاء 1964 ، القسم 3، وفيه قصيدة يرثى بها زوجته المخلصة التي توفيت بمدينة سلا، وهي التي استقربها في المرة الأولى التي عرف فيها النفي عام 760هـ، إذ توفيت يوم 6 ذي القعدة 762هـ، على أن قصة نهاية ابن الخطيب أوردها اسماعيل بن الأحمر في شكل آخر، ونسبتها الى أندلسيي فاس. راجع بيوتات فاس، بيت آبن أبي مدين، ص62/ط 1972 ، وفيه يقول ابن الأحمر، إن باب المحروق سمي كذلك بسبب إحراق ثائر... إلخ، وهو غير صحيح، وأشير هنا إلى أنه لولا إجماع الذين كتبوا حول ابن الخطيب على نسبة القصيدة -المقول عنها إنه يرثي بها نفسه- إليه، لقلت إن التفكير السليم حين يضع في الميزان الظروف التي كان فيها ابن الخطيب ليستبعد قدرته على ذلك النظم البديع، بل وينسبها لبعض عشاق ابن الخطيب، وما أكثر عشاقه.

إلى أن يقول:

فقل للعدا ذهب إبن الخطيب ... وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منهم له ... فقد يفرح اليوم من لا يموت
سيبلى الجميع إذا ما المدى ... تتابع آحاده والسبوت
ولا تغترر بسراب الحياة ... فإنك عما قليل تموت

قتل ذو الوزارتين: القلم والسيف أوذو العمرين لاشتغاله بالتصنيف في ليله، وبتدبير المملكة في نهاره، قتل لسان الدين غدرا ليغفر الله ذنبه كما ورد في الحديث، وقد خلف ضمن التراث العربي الإسلامي في المغرب، من المؤلفات ما يقدر بستين كتابا(611) منها: الإحاطة في أخبار غرناطة، ومعظم كتبه في التاريخ وتخطيط البلدان، والشعر، والأدب، والتصوف، والفلسفة، والطب، وغيرها. وبذلك شاء القدر لابن الخطيب أن يكتب ضمن لائحة الخالدين في المجد، في الوقت الذي لم يهمل ما فعله الأخرون بدافع الحسد وضعف النفس وحقارتها، بل أكثر من ذلك، فقد شاءت عدالة السماء أن تصيب آبن زمرك، وأكبر أولاده، وفي منزله وأمام أهله بما لم يعرفه آبن الخطيب حيث مزقته السيوف تمزيقا، وشوه بها تشويها لم يحصل لابن الخطيب.

(611) راجع مؤلفاته في نفح الطيب 3/ط بولاق وجذوة الاقتباس لابن القاضي والدرر الكامنة 3/ 469 وغيرها، مثل دائرة المعارف الاسلامية 1/150-152، ومجلة كلية الاداب بالرباط موضوع مؤلفات لسان الدين بن الخطيب، وفهرس الخزانة العام بالرباط أرقام 757-786-788د.

الفصل الرابع والتسعون

تطاحن بني الأحمر، وبني مرين وأثر اليهود في سقوط الدولتين

كان موت أبي فارس عبد العزيز المفاجئ، مرحلة تحول خطير في حياة دولة بني مرين التي عرفت محاولة البحث من جديد مدة ست سنوات من حياة هذا السلطان، الذي ما كاد يعلن خبر موته حتى عاد أبو حمو سلطان بني عبد الواد إلى تلمسان بعدما كان منفيا بالزاب، فاحتل تلمسان هو الآخر بمساعدة ابن الأحمر الذي نصب أبي العباس، لكن هذا الأخير ما كاد يفرغ من التزاماته لإبن الأحمر حيث سلمه جبل طارق وألقى القبض على ابن الخطيب، حتى التفت الى بني عبد الواد الذين ما كان ابن الأحمر ليتخلى عنهم حتى لا تعود دولة بني مرين إلى قوتها التي كانت بالأمس القريب تهدده زمن عبد العزيز أبي فارس الذي حاول ابن الأحمر التقرب إليه وصده عن احتلال غرناطة بأفخم وأعظم الهدايا التي ذكرنا.

إحتل أبو العباس تلمسان سنة 785هـ/ 1383م، ثم ولى عليها ولده أبو فارس بعدما خربها ودمر أجمل معالمها، وكان بعمله هذا قد أغضب ابن الأحمر الذي ما كان يرضيه ما فعل ببني عبد الواد، وبذلك اعتبر متحديا له مادام قد فعل بدون مشورته، فسعى لخلعه وتولية موسى المتوكل على الله بن أبي عنان، الذي بويع يوم الخميس 20 ربيع الأول سنة 786هـ/ 1384م، لكن موسى هذا تعرض للموت بالسم الذي سقاه إياه وزيره مسعود بن ماساي لما علم أنه يريد الفتك به، وهكذا تعرضت دولة بني مرين إلى الهدم السريع بسبب تآمر ابن الأحمر ومواقف الوزراء(613) وتطاحن الأمراء على العرش، وإذا ما تولى

---

(613) ولعل هذه الفترة التي عاشها ابن خلدون في أخريات حياته السياسية بين الدولتين بل والتي ألف فيها مقدمته التي رفعته أعلى مقام، راجع العبر 795/7 وما بعدها، ثم راجع نهاية سليمان بن داود وأبو بكر بن غازي، وغيرهما في العبر كذلك جـ 7/710-713.

أبو زيان محمد المنتصر بعد موسى، فإنه تعرض للخلع بعد أيام، كما سيستولى آبن الأحمر على سبتة، ثم دفع الواثق بالله بن أبي الحسن، إلى الإستيلاء على الملك حيث بويع هو الآخر يوم الجمعة 15 شوال سنة 788هـ/ 1386م، وخلع يوم الخميس 5 رمضان789هـ /1387م، ثم قتل بطنجة ودفن بها، فوجدها آبن الأحمر فرصة، ثم آثارها فتنة مع آبن ماساي على مدينة سبتة، مكنته من مساندة أبي العباس الذي كان عنده بغرناطة بعد خلعه وقد أذاقه من الذل ما يكفي لردعه حين أخذه مقيدا في أغلاله، ثم أصبح يعيش تحت رحمته، وجهه من الحمراء في مجموعة من السفن الى مدينة سبتة التي أصبحت تحت سلطان ابن الأحمر، ومنها إلى مدينة فاس التي صده عنها مسعود بن ماساي، لكن أهل مراكش التي كانت تحت نفوذ أولياء أبي العباس، سارعت الى نصرته وإمداده بالقوة التي مكنته من آحتلال مدينة فاس في رمضان من سنة 789هـ/1387م، ثم تمكن من مسعود بن ماساي فنكبه وقتله، وفي هذه المرة وبعدما أدرك مقاصد آبن الأحمر ما كاد يستتب له الأمر ويركز سلطانه حتى آنقلب عليه، خصوصا بعد قتله لابن ما ساي عدو آبن الأحمر وعدوه كذلك، ولعل أبو العباس في هذه المرة قد أدرك الأخطاء التي أدت به إلى أن يكون وغيره من بني مرين لعبة في يد آبن الأحمر، فتفاداها، ما أمكن، وبذلك آمتد حكمه بلا منازع قوي الي سنة 796هـ/ 1396م، حيث توفي ليلة الخميس 7 محرم من نفس السنة بمدينة تازة، وذلك عن تسع وثلاثين سنة، ثم دفن بالقلة من مدينة فاس، بعد حكم دام سبع سنوات وقد كان أبو العباس هذا مثقفا يقرض الشعر وهو القائل في الغزل:

أما الهوى يا صاحبي — وعهدته في عهد أيام الصبا
ورأيته قوت النفوس وحليها — فاتخذته دينا الي ومذهبا
ولبست دون الناس منه حلة — كان الوفاء لها الطراز المذهب.... الخ

وبعد أبي العباس تولى ولده أبو فارس عبد العزيز المنتصر بالله، الذي بويع يوم السبت 9 محرم سنة 796هـ/ 1393م، وكان هو الآخرشاعرا مثل أبيه، رقيق القلب بعيدا

عن القسوة وسفك الدماء(613)، وقد دام حكمه ثلاثة أعوام، توفي بعدها يوم السبت 8صفر799هـ/ 1396م عن آثنين وعشرين سنة، ثم دفن هو الآخر كذلك بالقلة من مدينة فاس ومن شعره:

الله يلطف بالعباد فواجب — أن يشكروا في كل حال نعمته
فهو الذي فيهم ينزل غيثه — من بعدما قنطوا وينشر رحمته

وبعد هذا السلطان الشاعر الشاب، تولى أبو عامر أحمد المستنصر بالله ابن أبي العباس الذي بويع بعد وفاة أخيه، لكنه لم يبايع حتى أشرفت شمس بني مرين على المغيب، حيث أصبحت السلطة في يد الوزراء بشكل أشد قسوة من الماضي، وتوفي ولما يقضي في الملك أكثر من نصف سنة بعد عصر يوم الثلاثاء منسلخ جمادى الآخرة سنة800هـ/ 1397م، ولما يتجاوز العشرين سنة، تولى بعده أخوه أبو سعيد عثمان بن أبي العباس أحمد(614) الذي بويع يوم وفاة أخيه ولما يتجاوز السادسة عشرة من عمره، فسلم أموره للوزراء وتفرغ لشهواته، وفي عهده استولى الاسبان على مدينة سبتة واستمروا بها مائتي سنة، وإذا هو حاول الاستيلاء على جبل طارق بحرب جند لها من جنود المغرب من أنضاف له من الجنود بجبل طارق تحت قيادة أخيه عبد الله، فإن هذا الأخير وقع في أسر آبن الأحمر الذي آتخذه بعد حين وسيلة لمزاحمة أبي سعيد، فانتصر عبد الله على أخيه بعد حرب دفعه إليها آبن الأحمر، ولما وقع أبو سعيد في يد أخيه تركه سجينا حتى توفي سنة 823هـ/1397م،لكن عبد الله لم ينعم بالسلطان طويلا إذ توفي بعده سنة824هـ/1421م، فتنازع بعده آثنان من إخوته،آنتهى نزاعهما إلى ضعف وهلاك رد بني

---

(613) كان معاصرا لأبي فارس عبد العزيز أو عزوز، من الحفصيين أحمد بن المنتصر ابن أبي عبد الله، محمد بن يحيى بن أبي بكر بن أبي زكريا يحيى الحفصي، راجع مختلف المصادر السابق ذكرها، ودائرة البستاني2/290، ولقد انشغل الحفصيون في هذه المرحلة عن المغرب، كذلك بأحوال القبائل التي انطلقت للنهب والسلب حتى أدى ذلك إلى فتاوى العلماء والتصريح بقتالهم ومشروعية الجهاد فيهم، وهذه القبائل هي عرب الديالم وسعيد، رياح، وسويد، وبني عامر، عرب المغرب الأوسط راجع المعيار 2/435-439.

(614) هو االذي بنى جامع السوق بفاس الجديد، وأوقف عليه كتبا كثيرة راجع الترجمان المعرب للزياني ص320م خ ع، وفي عهده أخذ الاسبان مدينة سبتة 818هـ 1414م.

مرين الى أن يقدموا عبد الحق الأصغر بن أبي سعيد ليتولى العرش، وقد كان هذا السلطان بحق أكثر بني مرين شقاء، إذ كان أمره بيد الوزراء من أول أمره، وهم الذين دفعوه بلا شك إلى قتل خمسة من الأمراء، ولما تنبه وأراد القضاء على نفوذ الوزراء من الوطاسيين الذين كانوا السبب في ما آل إليه أمر الدولة المرينية من ضعف، تحرك بمكر، ثم أحدث فيهم مجزرة عنيفة، لم تخلصه ولم تحقق له ما قصد، ذلك أنه خرج من نفوذ الوطاسيين الى نفوذ اليهود الذين أصبحوا كل شيء في الدولة، يتقدمهم هارون، وشاويل، فكان ذلك من أسباب الوباء عليه حين قامت ضده ثورة مهلكة اشترك فيها عامة المواطنين بمشورة الفقيه عبد العزيز الورياغلي(615) وإذا هو نجا من الإنقلاب الأول، فإن هذا الذي تولى فيه حكم فاس الشريف الجوطي أبو عبد الله محمد بن علي الحفيد، والذي حملت العامة فيه على اليهود وجموعهم بفاس، ثم قتلوا منهم الكثير، فإن عبد الحق لم يفلت هذه المرة التي تزعمها الورباغلي، بل ذبح عبد الحق كما تذبح الشاة عشية يوم الجمعة 28 رمضان سنة 869هـ 1464م، وبه كانت نهاية دولة بني مرين التي حكمت المغرب ثم نهضت به نحو الحضارة بشكل لم تزاحمها دولة أخرى قبل وبعد، وبقي الشريف الجوطي(616) حاكما لمدينة فاس الى سنة 875هـ/ 1470م حيث نزعه من الحكم يوسف بن المنصور بن زيان الوطاسي، كما تولت أخت يوسف المذكور حكم فاس الجديد، وهي الزهراء المدعوة زهور مع قائده الشكري إلى أن تولى محمد المدعو الشيخ البرتغالي بن أبي زكريا، بن زيان، بن عمر الوطاسي(617)، وهو ثالث الوطاسيين بعد أبي زكريا يحيى بن زيان

---

(615) هو عبد الحق بن أبي سعيد، بن أحمد، بن أبي سالم، بن أبي الحسن، بن عثمان، بن يعقوب بن عبد الحق المريني، راجع درة الحجال 391 والجذوة لابن القاضي 388/2 ط 1974.

(616) المصدر السابق ج 211/1 ودرة الحجال 145/2 وفيه أن الشريف أنتقل إلى تونس حيث توفي في 27 رمضان سنة 875هـ/ 1470م، وفيها على ما نرجح وضع الكتاب المنسوب الى السيوطي في الأنساب، ومثله الذي نسب للعشماوي، وإن كنت لم أتصور، ولم أعرف من هو السيوطي المكناسي الذي صرح به بعض الباحثين من غير تعريف مقبول.

(617) في الترجمان أبو زكريا يحيى بن زيان بن عمر، وعند زامباور 123/1، وهؤلاء بنو وطاس من زناتة أعقاب بني مرين غير فرع بني عبد الواد، وقد كانوا في الريف لما أقتسم المرينيون المغرب، وتقول رواية ابن خلدون إنهم من بني الوزير، وهؤلاء كانوا بطونا وأفخاذا تشعبت مع الأيام بأرض إفريقية وصحراء برقة، وأرض الزاب، وغدامس، قبل دخولهم المغرب، ويرون أن نسبهم دخل بني مرين، وانهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني=

الوصي على عبد الحق الصغير، ثم أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان، ثم محمد الأول أبو زكريا، ثم محمد الثاني الشيخ الذي تغلب على الجوطي، والذي بويع بفاس، وفي عهده سقطت الاندلس وغرناطة سنة 897هـ/ 1491م، ثم دخل آبن الأحمر الى مدينة فاس فاستوطنها إلى أن توفي سنة 940هـ/ 1533م وإذا ما توفي محمد الشيخ الوطاسي كما سنرى 910هـ/ 1504م، فقد تولى مكانه ولده أحمد بن محمد الثاني ثم محمد بن أحمد بن محمد الثاني، وبه إنقرضت دولة الوطاسيين التي ستكون نهايتها على يد السعديين كما سنرى بعد صراع عنيف زمن محمد الشيخ السعدي.

= لحقوا بالبدو ونزلوا على بني وطاس، وأنهم لم يفقدوا قط شعورهم بالرجوع الى يوسف بن تاشفين، وبذلك كانوا دائما يسعون إلى الرئاسة ويخرجون على بني عبد الحق الذين أستعملوهم ولاة في الأقاليم، وفي عهد أبي غنان عرفنا عمر بن أبي الوطاس على بجاية، عندما تخلى عنها أبو عبد الله محمد بن الأمير أبي زكريا الخ، راجع العبر 122/7-450-452. 601 ط بيروت 1959.

ملوك بني مرين

	هـ	م
1- أبو محمد عبد الحق بن أبي خالد محيو بن أبي بكر بن حمامة محمد المريني	592	1195
2- أبو سعيد عثمان بن عبد الحق "أدرغال" الأعور	614	1217
3- أبو معروف محمد الأول بن عبد الحق	637	1239
4- أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق أبو حفص عمر، (الا ان بيعته لم تتم فاختير عمه)	642	1244
5- أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور	656	1258
6- أبو يعقوب يوسف بن يعقوب الناصر لدين الله صفر	685	1286
7- أبو ثابت عامر بن أبي عامر عبد الله	706	1306
8- أبو الربيع سليمان بن أبي عامر عبد الله(619)	708	1308
9- أبو سعيد عثمان الثاني بن يعقوب	710	1310
10- أبو الحسن علي بن عثمان أفخم ملوك بني مرين	731	1331
11- أبو عنان فارس المتوكل بن علي، في غيبة أبيه بتونس، ولم يتم له الأمر، إلا سنة 752هـ، ثم أبو فارس بن أبي عنان ولي ثم عزل في الحال.(24 ذي الحجة 759هـ.)	749	1348
12- محمد السعيد بن أبي عنان بعدما قتل والده خنقا (25 ذي الحجة)	759	1357
13- أبو سالم إبراهيم بن علي المستعين. رمضان	760	1358

(619) هو الذي أصبح اليهودي ابن ابراهيم حاجبا له. بل وكان له شأن خطير في الدولة، ثم بعده أبو خزر اليهودي أيضا. راجع بيوتات فاس مصدر سابق ص58/ط 1972.

14- أبو عامر تاشفين بن علي	762	1360
15- عبد الحليم بن أبي على عمر "إنفرد بسلجماسة من ربيع الأول 763هـ/ 1361م محرم .	762	1360
16- أبو زيان محمد الثاني المنتصر بن أبي عبد الرحمن قتل في 22 ذي الحجة 767هـ. ربيع الأول	762	1360
17- أبو فارس عبد العزيز المستنصر بن علي الذي ألف إبن خلدون كتابه بإسمه محرم.	768	1366
18- أبو زيان محمد "الثالث" السعيد بالله بن عبد العزيز تحت وصاية الوزير ابن غازي (22 ربيع الثاني).	774	1372
19- أبو العباس أحمد المستنصر بالله بن إبراهيم الذي ولى الملك ومعه:	776	1374
19 ب- عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بمراكش ثم انفرد أحمد بالأمر منذ رجب 784 محرم.	776	1374
20- موسى بن أبي عنان المتوكل علي أبو فارس الذي سمه وزيره مسعود بن ماساي ربيع الثاني.	786	1384
21- أبو زيان محمد المنتصر بالله بن أحمد "43 يوما" 3 رمضان	788	1386
22- أبو زيان محمد "الرابع" الواثق بالله بن أبي الفضل المنتصر.	788	1386
23- أبو فارس بن أحمد المنتصر بالله صفر	796	1393
24- عبد العزيز أحمد .	799	1396
25- أبو عامر أحمد المستنصر بالله أبي العباس وعند صاحب الاستقصا عبد الله.	800	1397
26- أبو سعيد عثمان الثاني بن أبي العباس.	801	1398

لم يتلولى أحد من بني زيان من سنة 823 الى
سنة 831هـ تولى أبو مالك عبد الواحد بن موسى
سنة 831هـ 1427 .
27- أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد عثمان "الثاني"
لم يتولى أحد من بني مرين إلى 28 رمضان 869 هـ
حينما ولي المزوار أبو عبد الله محمد بن علي بن عمران
الجوطي الذي تفجرت الثورة في عهده ضد اليهود
الذين كان أبو سعيد قد تقرب منهم أكثر، فكان ذلك سبب قطع رأسه.

بنو وطاس

1- أبو زكريا يحي بن زيان الوطاسي الوصي على عبد الحق الصغير.	831	1427
2- علي بن أبي الحجاج يوسف بن منصور بن زيان توفي سنة 863هـ 1452م.	852	1448
3- محمد "الأول" أبو زكريا يحيى بن يحيى بن زيان.	863	1458
4- محمد "الثاني" الشيخ البرتغالي بن محمد الأول في عهده استولى البرتغال على طنجة (876هـ/ 1471م)، وآسفي 914هـ 1508م ولبريجة (919هـ 1513م).	875	1470
5- أحمد بن محمد الثاني.	931	1524
6- محمد بن أحمد بن محمد الثاني.	957	1550

بنو زيان بتلمسان

أ- الفرع الأكبر بنو عبد الواد:		
1- أبو يحيى يغمراسن بن زيان	633	1235
2- أبو سعيد عثمان الأول بن يغمراسن		
بن زيان ذو الحجة	681	1282
3- أبو زيان محمد الأول بن عثمان توفي		
في شوال 707هـ. وتولى في ذي القعدة	703	1303
4- أبو حمو موسى الأول بن عثمان		
"قتله ولده تاشفين الأول في 21 جمادى الأولى		
818هـ 21 شوال	707	1307
5- أبو تاشفين عبد الرحمن الأول		
بن موسى، توفي 30 رمضان سنة		
737 تولى 23 جمادى الأولى	718	1318
ب- عهد السيادة المرينية:		
أبو الحسن علي شوال	735	1335
أبو عنان فارس	737	1336
زيانيون كانوا بالمنفى ثم حكموا في وقت واحد		
أ- أبو سعيد عثمان الثاني بن عبد الرحمن توفي		
جمادى الأولى سنة 753هـ		
ب- ابو ثابت الزعيم عبد الرحمن		
ج- الفرع الأصغر "بنو زيان"		
6- أبو حمو موسى "الثاني" بن يوسف بالمنفى	760	1358

سنة 761هـ ومن سنة 771هـ إلى 773هـ ومن 785هـ إلى 789 هـ بداية صفر. أبو زيان محمد الثاني عثمان بن عبد الرحمن (3 رجب) 761هـ(620).

7- أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني بن موسى توفي في 17 رجب سنة 798هـ (مستهل ذي الحجة)	791	1388
8- أبو ثابت يوسف بن موسى (عشرة أشهر)	795	1392
9- أبو الحجاج يوسف بن موسى (عشرة أشهر)	795	1392
10- أبو زيان محمد الثالث بن موسى عامل بني مرين. (المحرم)	696	1393
11- أبو محمد عبد الله "الأول" بن موسى	800	1397
12- أبو عبد الله محمد "الثاني" بن موسى	803	1400
13- عبد الرحمن الثالث بن محمد الثاني ثمران	804	1411
14 سعيد بن موسى	814	1411
15- أبو مالك عبد الواحد بن موسى "للمرة الأولى" شعبان	815	1412
16- أبو عبد الله محمد الثالث بن عبد الرحمن "الثاني"	827	1423
17- عبد الواحد (للمرة الثانية) توفي في 5 ذي القعدة 833هـ وفيها تولى أبو العباس أحمد المعتصم بن موسى.	833	1429
18- أبو عبد الله محمد الرابع المتوكل	866	1461
19- أبو عبد الله محمد الخامس الثابتي بن محمد توفي في 11 ذي القعدة 913	881	1476
20- أبو عبد الله محمد السادس "الثابتي" أصبح حاكما من قبل الإسبانيين سنة 918هـ 1512م.	911	1505

(620) كان وزيره يحيى بن خلدون المؤرخ شقيق عبد الرحمن، وقد قتل يحيى سنة 780هـ 1378م، وهو صاحب كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" راجع الأعلام للزركلي 211/9 ط2.

21- أبو حمو موسى "الثالث" بن محمد الرابع. 922 1516

إستولى أورج على تلمسان في ذي الحجة 923 هـ 1517م.

22- أبو محمد عبد الله الثاني بن محمد الرابع 934 1527

23- أبو زيان أحمد الثالث بن عبد الله الثاني

"للمرة الأولى" وقد أقصاه الاسبانيون في 30 ذي القعدة

949 هـ (رمضان) 947 1542

24- أبو عبد الله محمد "السابع" بن عبد الله "الثاني"

(في المحرم) 950 1543

ثم أبو زيان أحمد الثالث للمرة الثانية" كعامل عثماني

في ربيع الأول 950هـ 1543م

25- الحسن بن عبد الله الثاني توفي بوهران سنة

963هـ 1555م، تنصر ولده وفي عهده آستولى صلاح

رئيس باشا على تلمسان نهائيا سنة 962هـ 1554م.(621)

---

(621) نظرا لارتباط تاريخ بني مرين من أوله إلى آخره بدولة بني عبد الواد فقد آرتأينا إثبات جدول تاريخ دولة ملوكهم نقلا عن كتاب الاسر الحاكمة لزامباور 119/1 ط 1951 كما أعتمدنا معه بغية الرواد، والعبر لإبن خلدون والترجمان للزياني ودوائر المعارف الاسلامية والبستانية، ووجدى.

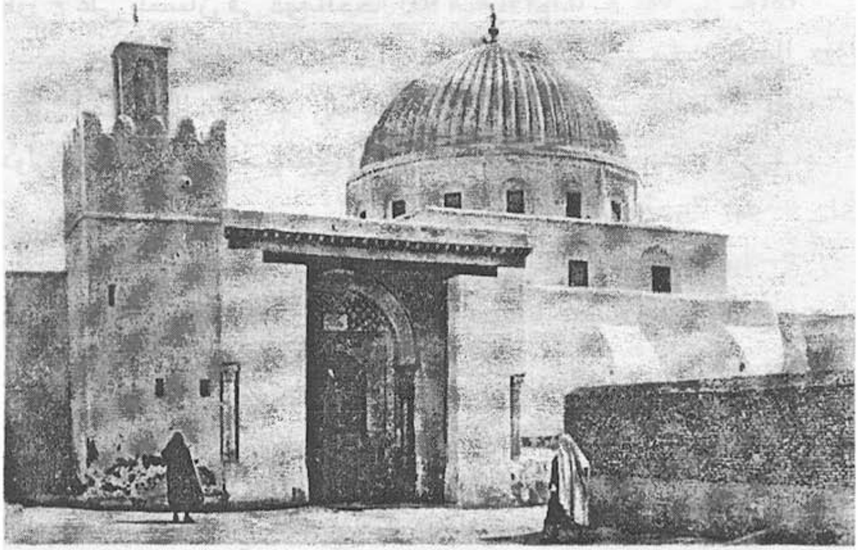

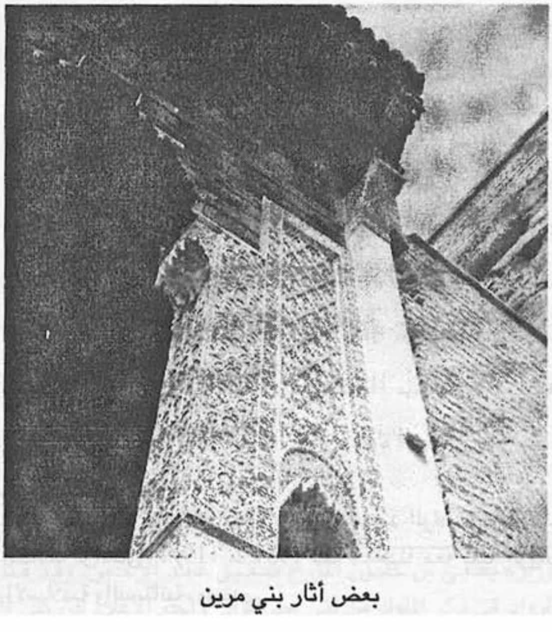

بعض أثار بني مرين

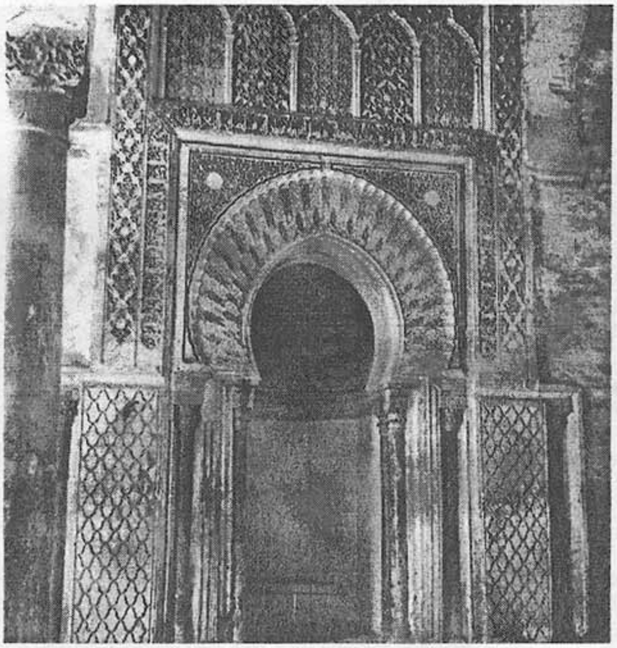

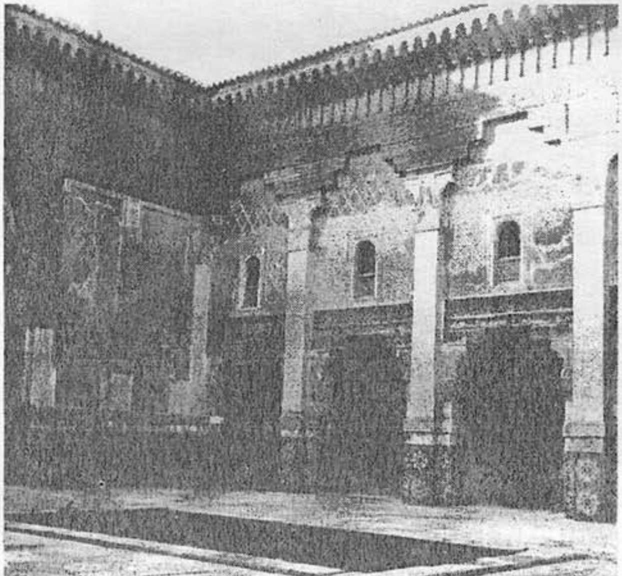

من آثار المرابطين مدرسة علي
بن يوسف بمدينة مراكش
وقد جددها بنو مرين

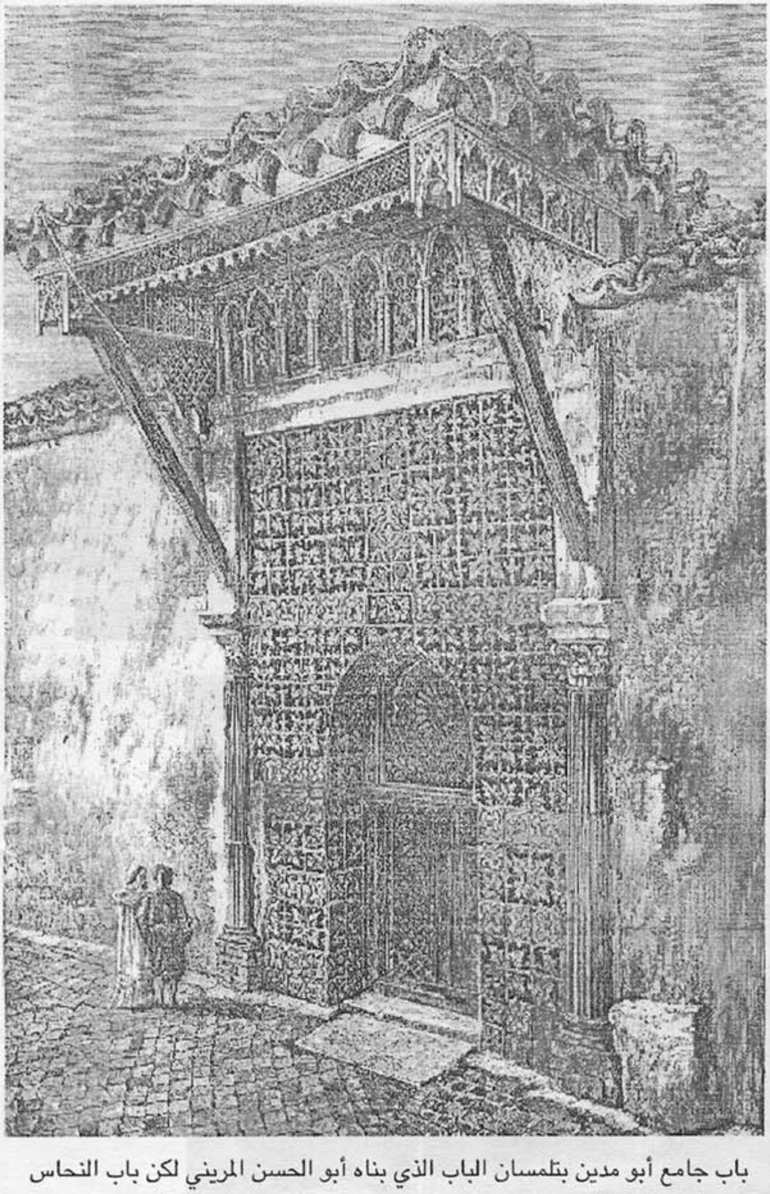

باب جامع أبو مدين بتلمسان الباب الذي بناه أبو الحسن المريني لكن باب النحاس
أزيل إذ انه كان يشتمل على مصراعين. راجع المسند الحسن لأبي مرزوق
ص404 ط الجزائر 1981

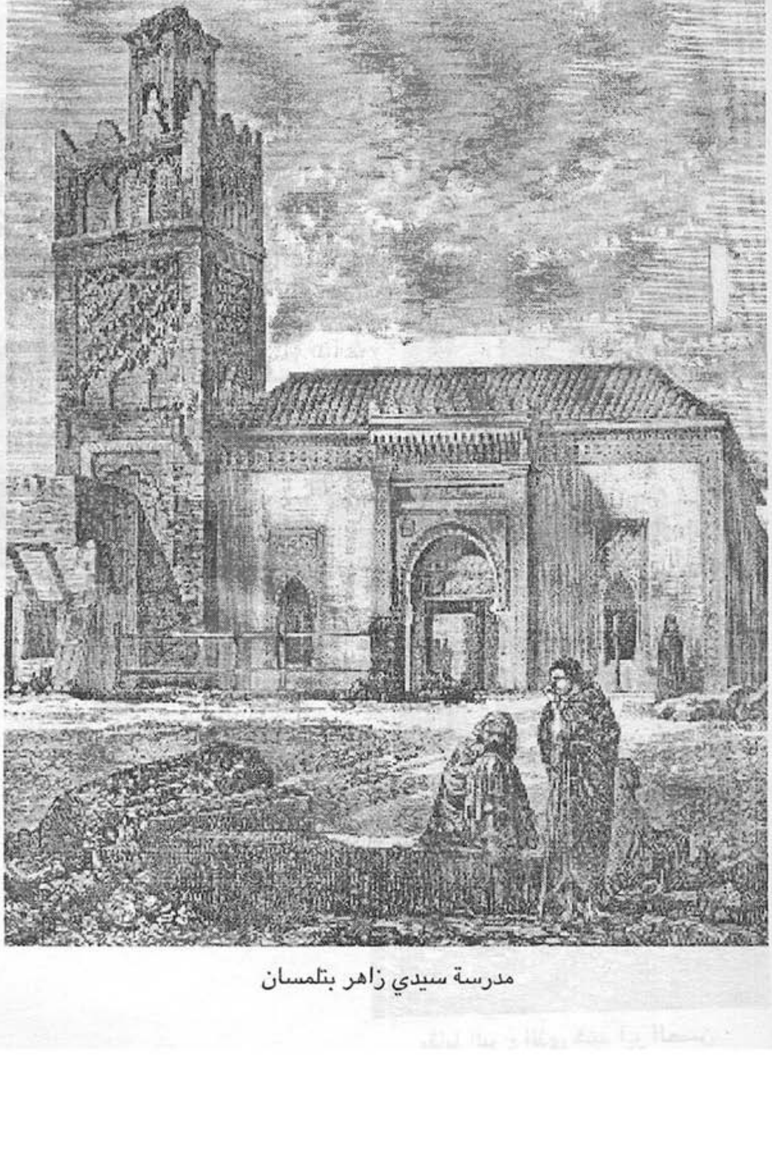

مدرسة سيدي زاهر بتلمسان

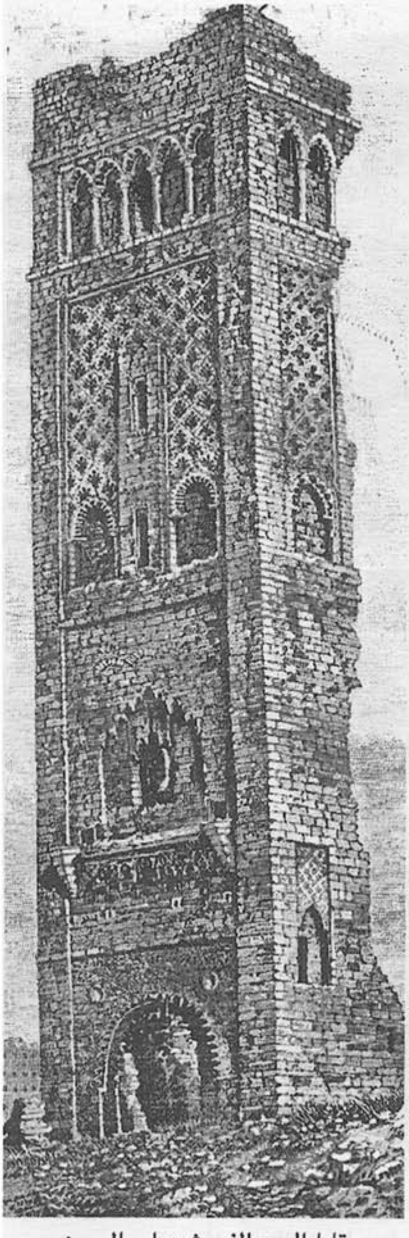

بقايا البرج الذي شيد ابو الحسن
لحصار تلمسان

ابن بطوطة

الباب الثالث عشر
المعارك الفاصلة بين الإسلام والمسيحية
في المغرب الكبير قبل ظهور السعديين

الفصل الخامس والتسعون

من القسطنطينية(622) إلى غرناطة(623)

عندما آلت دولة الوطاسيين إلى السقوط في المغرب الأقصى وكانت دولة الاسلام في الأندلس تلتقط أنفاسها بعد حكم دام ثمانية قرون، وبعد نحو 3700 معركة بين العرب والإسبان من يوم دخولها إلى تاريخ خروجهم(624)، كان على عرش الأتراك محمد الفاتح(625) ,هو سابع سلاطين آل عثمان، هو الذي فتح ماتبقى من بلاد البلقان، كما فتح عاصمة الروم القسطنطينية، التي حاصرها باستعدادات هائلة أوائل أبريل 1443م من الناحية البرية وبعدد من الجنود بلغ250.000 ومن جهة البحر ب 180 سفينة وأقام حولها 14 بطارية مدفعية ضخمة من صنع المجرى أوربان تقذف كرات من الحجر إلى مسافة ميل(5) والتي كانت ضرباتها الموجهة إلى المدينة تحدث فجوات في السور الذي أمر محمد الفاتح أن تحفر تحته أنفاق تؤدي إلى المدينة، وكان يقوم بالحفر عمال مناجم «نوفوبودة بالصرب» وإذا ما استنجد الإمبراطور قسطنطين بسفن جينوا، واستطاعت أن تنتصر على سفن الأتراك مؤقتا، فإن الطريقة التي استعملها محمد الفاتح كي تدخل سفنه إلى ميناء القسطنطينية المحاصر بالسلاسل، لم تعرف قبل ولايمكن لها أن تتكرر في التاريخ، ذلك أنه أمر بإنشاء طريق للسفن في البرطوله فرسخان بين البوسفور

---

(622) راجع الموسوعة العربية والمعيار للونشريسي2/.260-66خ نا ص 1380 ط 1965.

(623) المصدر السابق ص 1254.

(624) تاريخ الدهور ليوحنا أبكاريوس ص 417 ط 1873.

(625) ولد يوم 26 رجب 833هـ /420هـ/1429م، تولى يوم 5محــرم 855هـ /1451/2/9م تاريخ الدولة العلية العثمانية ص 58ط 1912 لمحمد فريدبك، ومحاسن السلوك محمد بك غنيم ص 229ط مصر 1938

(626) راجع تاريخ الدولة العلية59، وفي هذا الحصار اكتشف قبر أبي أيوب الانصاري الذي استشهد في حصار القسطنطينية سنة 82هـ/ 672م، أيام معاوية بن أبي سفيان، راجع أبطال الفتح وقد أورد هذا الحصار بتطويل عبد الله عنان في كتاب مواقف حاسمة لكنه كتب بروح فيها تملق للكنيسة راجع ص 136-166ط1952.

والقرن الذهبي، قوامه ألواح من الخشب صب عليها مقادير من الزيت والشحم، لتسهيل اندفاع المراكب، فنقلت عليه إلى الميناء سبعون سفينة بجنودها في ليلة واحدة، وبهذه الطريقة استطاع الجنود العثمانيون يوم 5اجمادى الأول سنة 857هـ/ 1453م أن يكتموا أنفاس الإمبراطور وعاصمته التي حفظت حضارة الروم قرونا طويلة، ولقد كان قسطنطين هو الذي اختار أن يموت بشرف حين رفض التسليم مقابل الشروط التي تقدم بها محمد الثاني رغم سلامتها واتفاقها مع الظروف التي وجدت فيها القسطنطينية وإمبراطورها، والذي قال إنه لم يستسلم، وقد أقسم اليمين على ذلك مادام فيه نفس، وقد كان وفيا لقسمه رغم انتحاره، وعدم قبوله سلامة الأرواح والممتلكات، ورغم ذلك فقد كان محمد الثاني رجل دولة يختلف كثيرا عن سيىء الأخلاق شارل الخامس وزوجته إيزابيلا الكاثوليكية اللذين سيقتحمان غرناطة وبمعاهدة ضمت ستون بندا، ومع ذلك سيكون الغدر والقسوة سلوكهما مع عامة الشعب كما سنرى(627).

في يوم 20 جمادى الأولى سنة 857هـ-5-29 /1453 م وبعد حصار دام ثلاثا وخمسين يوما، إقتحم المدينة مائة وخمسون ألف جندي(628) دخل محمد الثاني ممتطيا صهوة جواده من الفجوة التي أحدثتها المدافع عند باب القديس رومانوس، ودخل معه الوزراء ورجالات الدولة وقت الظهيرة تقول المصادر.

وعند باب كنيسة القديسة أيا صوفيا التي غصت بالجماهير التي التجأت إليها وقف محمد الفاتح ليأمر أن يؤذن أذان الظهر فصعد إلى مذبح الكنيسة وأقام أول صلاة فيها حولتها من ذلك اليوم إلى مسجد، كما حولت اسم المدينة إلى إسلامبول، وماكاد الفاتح ينتهي من صلاته حتى أقبل رجاله وهم يصيحون أنهم وجدوا الإمبراطور قسطنطين باليولوجوسن قتيلا عند الثغرة التي دخل منها السلطان، وقد ألقوا وقتها القبض على الغرندوق نوتاراس، ثم جاؤوا به فأظهر له الفاتح عطفا أزال خوفه، كما أمر

---

(627) حين دخول غرناطة أمر القائد الراهب كريمينيس بإحراق 80.000 من الكتب العربية المحفوظة منذ قرون يقول سيديو 203-204، وأبطال الفتح 265/2، وقد أرسل محمد الفاتح إلى قسطنطين يخبره أنه إذا سلم البلد إليه طوعا يتعهد له بعدم مس حرية الأهالي أو أملاكهم وأن يعطيه جزيرة مورة، راجع تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك ص 160,ب- 161ط 1912.

(628) المصدر السابق ومواقف حاسمة عبد الله عنان 136-66ط القاهرة 1952.

الجنود بالكف عن الأهالي وعدم الاعتداء، ثم طلب من الغرندوق جردا بأسماء رجالات الدولة الذين يخشى خطرهم، وقد فعل مما سهل على محمد الثاني التقاطهم والقضاء عليهم، وقتها أصدر أمره أن يجعل نصف كنائس المدينة مساجد، ثم جمع المطارنة الذين انتخبوا جورج أسكولاريوس رئيسا للبطارقة من طائفة الروم، واحتفل بتنصيبه بنفس الطريقة التي كانت متبعة أيام ملوك الروم، وأعطاه حرسا من جيش الانكشارية، ومنحه حق الفصل في القضايا المدنية والجنائية الخاصة بالروم، كما عين معه مجلسامشكلا من أكبر موظفي الكنيسة وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقُسس وفي مقابل هذا فرض عليهم دفع الخراج الذي قدره ب 12000 دوكما، مستثنيا من ذلك أئمة الدين.

وبعد إعادة النظام وإصلاح ما تهدم من المدينة ، إستأنف محمد الثاني فتوحاته من بلاد الشرق وأوربا ، حيث فتح الكثيرمن البلاد حتى أصبحت الإمبراطورية العثمانية زمن سليمان القانوني(629) الذي تولى بعد سليم الأول بن بايزيد، وسليمان هذا هو عاشر سلاطين آل عثمان الذي دام في الملك إثنان وأربعون سنة، كلها جهاد ودفاع عن أرض الإسلام وتمكينا للفتوحات، فكانت الإمبراطورية في عهده تضُم من الغرب إلى الشرق: الجزائر وتونس وطرابلس وبرقة، ومصر، وجزيرة العرب، وفلسطين، ولبنان، وسوريا، وآسيا الصغرى، والبحر الأسود بكافة الممالك، والبلدان الواقعة عليه، من القوقاز، والقرم، وورومانيا، وبلغاريا، كما شملت مقدونيا، وصربيا ، والمجر ، والالبان، واليونان الخ، فكان الصراع الذي عرفته المسيحية مع الأتراك، والتي لم تجد وسليلة لرد الفعل في غير الأندلس التي هي الأخرى حاول آل عثمان نجدتها وإغاثة غرناطة سنة 891هـ/1489م(630) لكن ظروفهم، ثم توحيد الحكم أيام شارل الخامس وإيزابيلا، والمعاهدة الأسبانية البرتغالية بإشراف البابا، وظروف بني الأحمر أنفسهم، حالت دون وصول نجدة آل عثمان الذين ما كان لهم أن يحجموا وقد أنجدوا ملك فرنسا، ورغم الأخطاء التي وقع فيها بعضهم تأثرا بخصومهم الدينيين «الكاثوليك، فإنهم في هذه المرحلة

---

(629) تولى يوم 9 شوال 926هـ/22-9-1520م المصدر السابق ص، 79، وتاريخ ميلاده كان في غرة شعبان سنة 900هـ /27-4-1494م.

(630) راجع عن سقوط غرناطة نفح الطيب للمقرى 612/2-615ط القاهرة . وأزهار الرياض جـ1 ومواقف حاسمة مصدر سابق ص 239.

جماعة من الأتراك في الجزائر في عهد بربروس

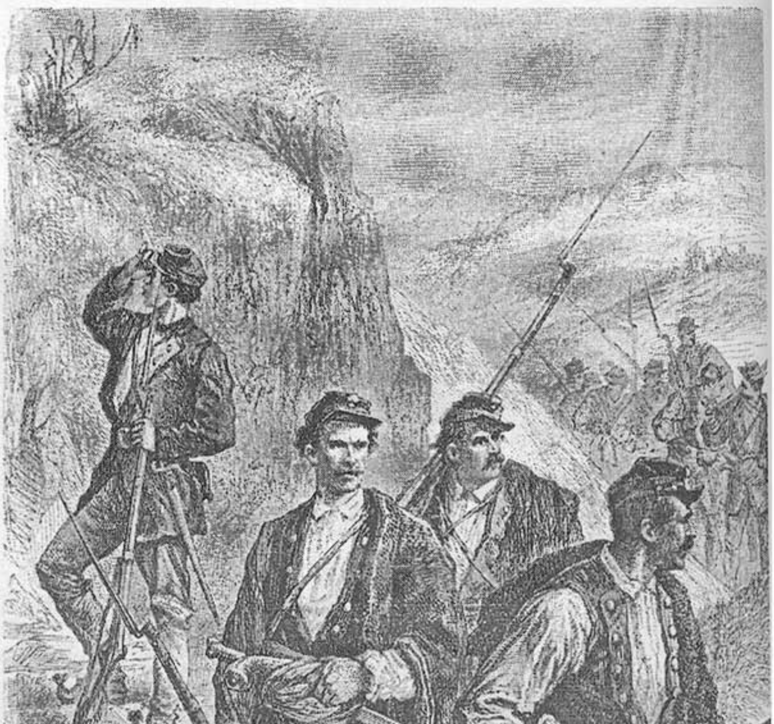

الانكشارية جنود من الترك في الجزائر وغالبا ما كانوا من لكريت
أو الصرب أو الكروات، وبقية الولايات

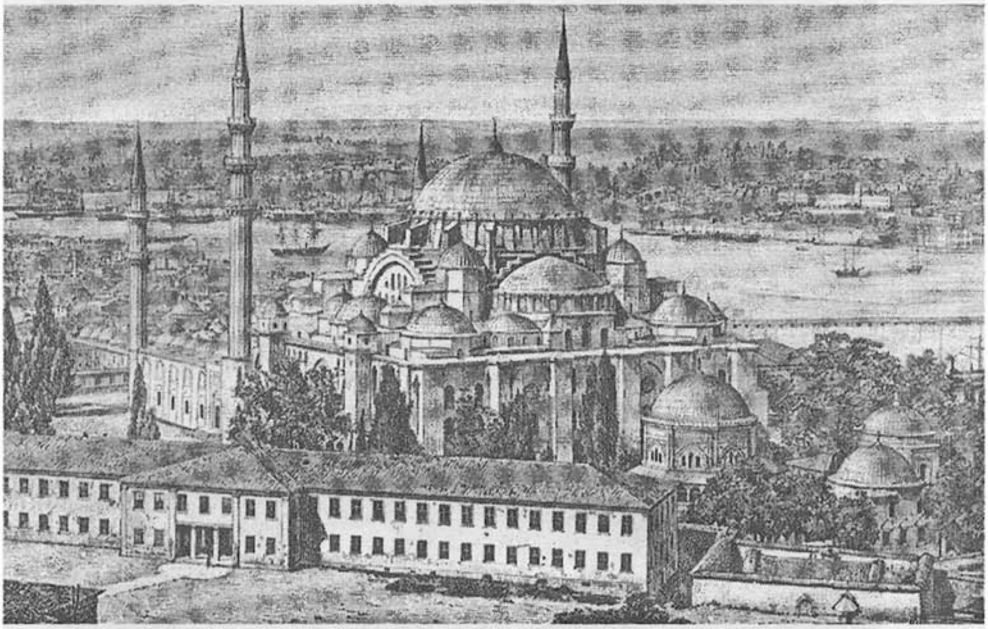

جامع محمد الفاتح بمدينة إسلامبول

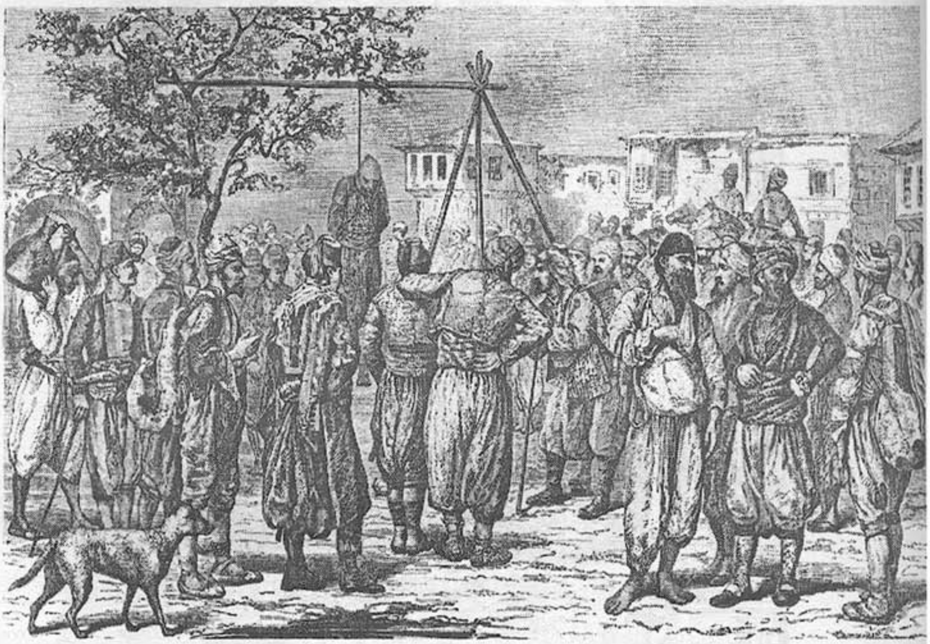

الحكم بإعدام القاتل بغير حق بعد فتح القسطنطينية

القيصر فيردناند الاول (1502-1564)

الشقيق الأصغر للإمبراطور شارل الخامس وقد نشأ باسبانيا في بلاط جده وهو الذي حاصره السلطان سليمان القانوني في مدينة بودا عاصمة المجر يوم 3-9-1529 م ، ففر الى فيانا عاصمة النمسا وبذلك سلمت مدينة بودا وفي سنة 1547م تم الصلح بين فيردناند وسليمان القانوني على ان يدفع هذا الاخير جيزية سنوية للسلطان سليمان قدرها 30.000 دوكة، واستمر في دفعها الى 1606م، ثم دفعت للدولة العثمانية 200000 دوكة، وحصون جران واورلو وكانيشا مقابل ابطال الجزية. وامضى هذه المعاهدة شارلكان ملك المانيا واسبانيا وملك فرنسا ورئيس جمهورية البندقية والبابا وتعد هذه المعاهدة اعترافا من ملوك اوروبا ان السلطان سليمان أعظم ملوك العالم. راجع ابطال الفتح 2 /273.

سليمان القانوني

هو سليمان الأول بن سليم الأول بن با يزيد الثاني بن محمد الثاني الفاتح وهو العاشر من سلاطين العثمان، ولد في أول شعبان سنة 900هـ /27-4-1494م ، وتولى الملك يوم 9 شوال 926هـ/22-9-1520م، وهو الذي احتل المجر وحاصر فردناند ملك النمسا في 3-9-1925. فتح مدينة بلغراد يوم 2 شعبان 927هـ فهنأه قيصر روسيا وغيره، وجزيرة رودس يوم 2 صفر 929هـ، فانتقل رهبانها وعلى رأسهم كبيرهم (فيليه دي ليل آدام). وهو الذي دبر مؤامرة قطع رأس محمد الشيخ السعدي الذي كان قد فعل بأخيه الاعرج ما فعل. وقد اثبت سليمان بفتوحاته ومعاهداته أنه أعظم ملك في العالم في عصره. راجع تاريخ الدولة العلية محمد بك فريد ص79 ط 1912 ، وكذا كتاب ابطال الفتح من الترك ج2 /271 ط 1944م.

ليعتبرون حماة الاسلام، ولا يطعن في ذلك ما ارتكبه حكامهم في الأقليم من قهر وظلم، خصوصا بعد ضعف سلطة السلاطين، بل إن بعضهم مثل سليمان القانوني ارتكب أخطاء بالامتيازات التي منحها للفرنسيين، والمعاهدات بل المساعدات التي قدمها لهم ، والتي جرأتهم فكانت السبب بعد الهجوم على مصر في استعمار الجزائر و القضاء على الرجل المريض ومع ذلك(631)، فإن قصده كان غير ما حصل.

كل هذا إنما أوردناه تمهيدا للظروف التي قامت فيها دولة السعديين والتي هي أسوا ظروف قامت فيها دولة إسلامية في غرب العالم الإسلامي وقتها وهكذا إذا نحن وضعنا في الحساب سقوط القسطنطينية الذي جمع كلمة الدول المسيحية، ثم أدى إلى سقوط الأندلس، وما نتج عنه من تكالب أوربا في حوض الأبيض المتوسط غربا وإسبانيا والبرتغال بالأخص، ثم تفتح أطماعهما نحو المغرب الكبير عموما، والأقصى بالأخص، ندرك الدور الذي قامت به دولة السعديين حالة قيامها، والتي لو لم تقم لكانت الديار غير الديار، والناس غير الناس، وبمراجعة للوصية المنسوبة إلى إيزابيلا الكاثوليكية التي تقول فيها: « إن تحرير إسبانيا لا يتم إلا بفتح إفريقيا، وجهادأبنائها الكافرين في سبيل العقيدة المسيحية»، ومثل هذا الحقد كان قد عم البرتغاليين قبل سقوط الأندلس بثلاثة أرباع القرن تقريبا.

ففي عهد إدوارد الثاني وبالضبط سنة 818هـ/ 1415م، بدأ الأسبان والبرتغال في غزو الشواطئ المغربية، وذلك بغزوهم لسبتة، ثم استولوا على طنجة وأصيلا سنة 842هـ-886هـ / 1438م -1481م، بل وفي هذه الفترة أيضا توجه البرتغاليون للاستكشاف في المحيط الأطلسي حتى انتهوا إلى الرأس الأخضر، وأصبحت مستعمراتهم تقدر في إفريقيا وآسيا بـ 369,285 ميل، وهكذا في آخر عهد سلاطين الوطاسيين، عزلوا الأندلس وذلك في عهد محمد بن أحمد بن محمد الثاني 957هـ/ 1550م، وقتها كانت أقطار المغرب الكبير الأقصى والجزائر وتونس قد آلت إلى ضعف وتفكك بسبب التمزيق والتفريق اللذين عرفتهما منذ زوال دولة الموحدين سنة 660هـ/ 1261م، مثل الذي حل بالمشرق في نفس

(631) راجع المعاهدات والامتيازات المشار إليها في تاريخ الدولة العلية ص 91 - 97 - 99 - 102 104-158 الخ.

المدة بزوال دولة العباسيين سنة 656هـ/ 1258م، وإذا ما تعرض المشرق الإسلامي الى تفكك نتجت عنه دويلات هنا وهناك، مما أدى إلى الضعف والتمزق اللذين لم تجبرهما دولة الفاطميين، ولا آل عثمان رغم الجهود الجادة،(632) فكانت الحروب الصليبية التي جرت ملوك أوربا، ثم وحدت بينهم لمحاربة العدو الأول الذي هو الإسلام في قعر داره، فإن المغرب الإسلامي قلعته الحصينة عبر التاريخ قد تعرض هو الآخر إلى حروب صليبية غير التي شنها لويس التاسع وملوك أوربا على المشرق الإسلامي.

لقد كانت دولة بني مرين بعد الموحدين والتي دامت قوية إلى ما بعد أبي الحسن، ثم دولة بني عبد الواد التي عاشت حياتها في صراع مع أبناء العمومة غربا إلى أن زالت هي الأخرى، ثم دولة الحفصيين التي تكونت بعد الانفصال عن الموحدين، وإن كانت هي الأخرى عرفت الازدهار بامتداد سلطانها إلى المغرب والأندلس في عهدها الزاهر، إعترف بها من الشرق إلى المغرب سرعان ما عرفت هي الأخرى مرحلة من الضعف بسبب تطاحنها الدائم مع جارتيها غربا، ثم مع قبائل الأعراب الذين تبدلت معاملة الحفصيين لهم عندما ظهرت قوة بني مرين بتدخلها في شؤونهم وشؤون بني عبد الواد بشكل فيه حدة، إلى زمن أبي الحسن وأبي عنان بعده.

وهكذا إذا انشغلت الدول المذكورة بعضها ببعض، وانشغلت دولة بني الأحمر في أخريات عهدها بمكايد أولاد أبي العلاء من جهة، وبني مرين من جهة أخرى ثم مناوشات الأسبان من هؤلاء وأولئك دون تركيز، بل بأسلوب مكشوف انتهى أحيانا إلى اتفاق

---

(632) الأولى 490و 493هـ/ 1096-1099م، الثانية عام 542-544هـ و1147-1149م، والثالثة عام 585-588هـ 1212م، وهي التي قاد فيها الأطفال إسطفان الفرنسي البالغ من العمر 12، واجتمع فقط من أبناء الجرمان ما قيل عنه نحو الأربعين ألفا، ومن الفرنسيين ثلاثين ألفا، تواعدوا في مرسيليا، لكنهم لم يجدوا طريقا إلى فلسطين فعادوا إلى ديارهم، ولم يلحقهم ما لحق الجرمانيين الذين مات بعضهم في الطريق قبل أن يصلوا إلى إيطاليا ويقنعهم البابا بالعودة، ومع ذلك فقد وظف بعضهم الدين، وسخر الكتاب المقدس لتركيز هذه الحرب الصليبية التي دعى إليها طفل من فلاحي فرنسا، حيث استخرج بعضهم من الكتاب المقدس هذه العبارة « ولد صغير يقولها» « ومن أفواه الأطفال والرضع هبات نسيجا »، كان البعض على ثقة أن الأمر كله من عمل الشيطان يقول فانيس « التاريخ العام 250 وفيه عن الحروب الصليبية ضد المغاربة في شبه جزيرة إيبيرباص 251، وعنها نشأت دولة البرتغال التي كان نواتها منذ الحرب الصليبية الثانية من الجرمان والانجليز الذين كانوا في طريقهم إلى فلسطين، وتوقفوا لغزو لشبونة وتحريرها من المسلمين.

البعض مع الآسبان بحيث طمع هؤلاء في الذين إندفعوا بحقد إلى استغلالهم ثم الدفع بهم لتوجيه الضربات لإخوانهم مقابل وعود مبيتة كثيرا ما كان المنخدعون ينتهون معها إلى هلاك محقق، حتى حاصروهم جميعا حصار القوى للضعيف المنهوك، حتى أصبحت دول غرب الأبيض المتوسط وليست إسبانيا فقط والبرتغال، تعمل في تكتل وتعاون تزكيه وتباركه البابوية، بل تشارك فيه من أجل غزو أقطار شمال إفريقيا التي كانت بالأمس القريب تحكم صقلية والأندلس، وغيرهما من بلاد أوربا، حتى انتهت إلى جنوب فرنسا، أصبحت اليوم متفرقة وضعيفة بشكل يغري، وبذلك أصبحت قوات الأسبان والبرتغال تهاجم السواحل المغربية المقابلة للساحل الإسباني على طول شمال إفريقيا، خصوصا عندما انقسمت مملكة غرناطة هي الأخرى، وأصبح الغبي محمد الزغل ألعوبة في يد ملك الآسبان فرد يناند، مقابل أن يساعده في القضاء على خصمه صاحب غرناطة محمد بن علي بن الأحمر، لكنه سقط في يد العدو قبل أن يرى خصمه وقد استسلم بعد قتال مشرف(633).

(633) لقد قاوم مقاومة الأبطال بعد صراع طويل، مما يشفع له تاريخيا، عندما أحاطت قوات الأسبان والبرتغال بالمدينة وطال الحصار حتى شيدت إيزابيلا مدينة قرب غرناطة لتشدد الحصار عليها، ولإذلال المستمسكين بها، ورغم الدفاع المستميت فقد سلمت غرناطة للأسبان بشروط وردت في المعاهدة ذات الستين بندا التي وقعت بتاريخ21محرم 897هـ 25-11- 1491م، لكن الأسبان لم يعملوا ولو ببند واحد منها، وتلك أخلاقهم عبر التاريخ، راجع نفح الطيب 615/2 وعند سيديو، ص 203 أن غرناطة سلمت يوم 1491/5/9م، أما تاريخ استسلام أبي عبد الله ابن الأحمر فقد كان يوم 2 ربيع الأول 897هـ/ 1492م ثم راجع د البستاني 487.471/4، وقد أخذ هو بدوره من نفح الطيب.

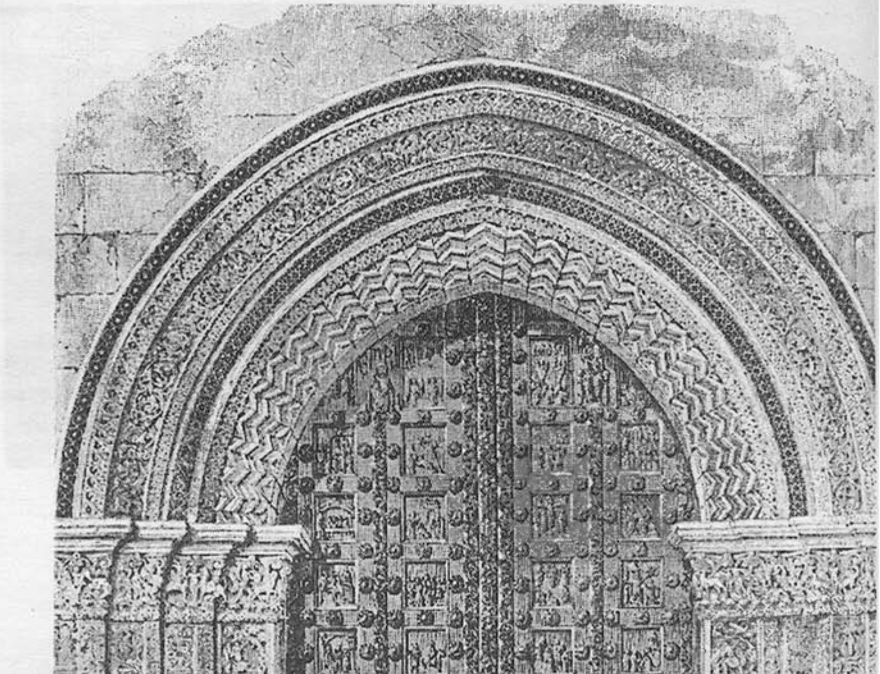

باب جامع قرطبة

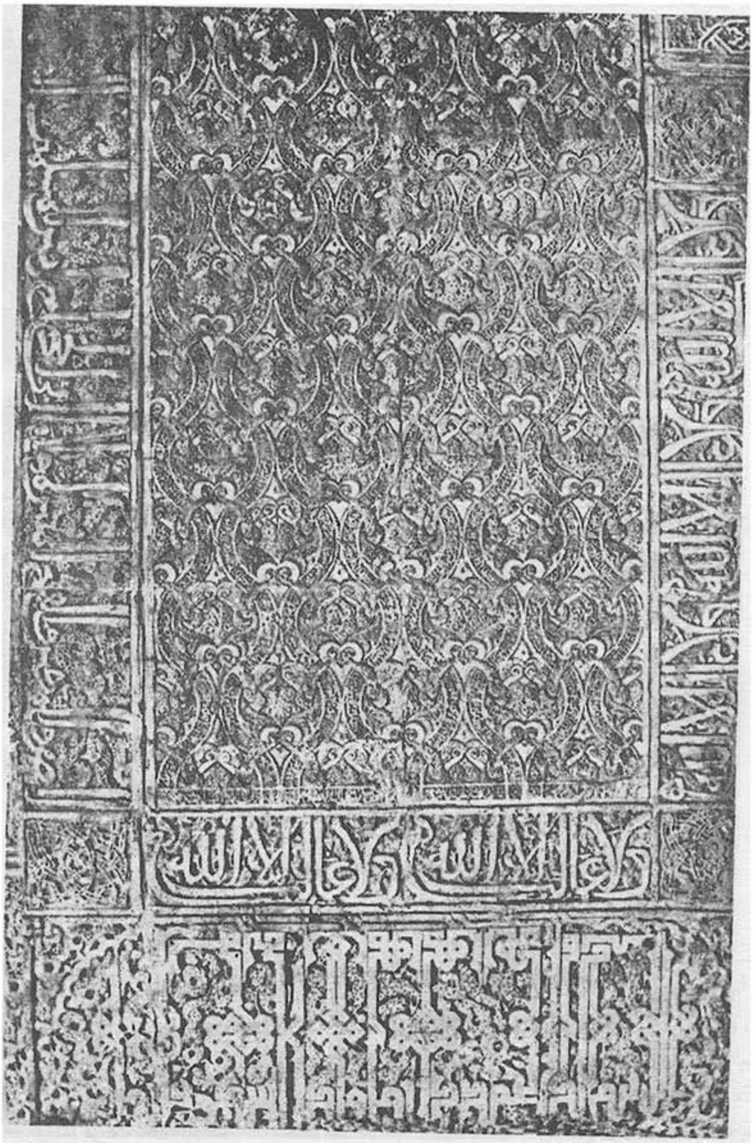

صورة من حائط احدى قاعات الدار الحمراء الجميلة بمدينة غرناطة قاعة "السفراء"
وهذه القاعة هي من أجمل قاعات ذلك القصر

إيزابلا الاولى

فرديناند الخامس

قصر الحمراء في غرناطة

وهذا رثاء الأندلس

لأبي البقاء صالح بن شرف الرندي الأندلسي

لكل شيء إذا مــا تم نقــصــان ... فــلا يغــر بطيب العــيش إنســان
هي الأمــور كــمــا شــاهـدتُهــا دول ... من ســره زمن ســاءته أزمــان
وهذه الدار لا تُبــقِي على أحـــد ... ولا يدوم على حــال لهــا شــان
يمزق الدهر حــتــمــا كل ســابغــة ... إذا نبت مــشــرفــيــات وخُــرصــان

فــجــائع الدهر أنواع منوّعــة ... وللزمـــان مـــســرات وأحــزان
وللحـــوادث سلوان يُســـهـلـهــا ... ومـــا ولما حل بالإســـلام سُلوان
دهي الجــزيرة أمــرٌ لا عــزاءَ له ... هوى له أُحُـــد وانهـــدّ ثَهْـــلان
أصابها العين في الإسلام فارتزأت ... حــتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسيةٍ ... وأين شــاطبــةٌ أم أين جــيــان
وأين قـــرطبـــة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حــمص ومــا تحــويه من نُزه ... ونهــرها العــذب فــيــاض ومــلأن
قــواعــد كن أركــان البــلاد فــمــا ... عــسى البــقــاءُ إذا لم يبق أركــان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كــمــا بكى لفــراق الإلف هيــمــان
على ديار من الإســـلام خـــاليــة ... قــد أقــفــرت ولهــا بالكفــر عــمــران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فـــيـــهن إلا نواقـــيس وصُــلبـــان
حــتى المحــارب تبكي وهي جــامــدة ... حــتى المنابر ترثي وهي عــيــدان
ياغافـــلا وله في الدهر مـــوعظة ... إن كنت في سنة فـــالدهر يقظان
وماشــيــا مــرحــا يُلهــيــه مــوطنُه ... أبعــد حــمص تَغُــرُّ المرءَ أوطان

يامن لذلة قــــوم بعـــــد عـــزّهم ... أحــالَ حــالَهُم كـفــر وطغـيــان
بالأمس كــانوا ملوكـا في منازلهم ... واليـوم هم في بلاد الكفـر عـبـدان
فلو تراهم حـيــارى لا دليل لهم ... عليـــهمُ من ثيــاب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهُم عند بيــعـــهمُ ... لهـالك الأمـر واسـتـهـوتك أحـزان
يارُبّ أُمٍ وطفلٍ حــيل بينهــمـــا ... كـــمـــا تَفَـــرْقُ أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ برزت ... كــأنهــا هـي ياقــوت ومـــرجــان
يقـودها العلج عند السـبي مكرهة ... والعين باكـيـة والقلب حـيـران
لمثل هذا يذوب القلب من كـمــدٍ ... إن كــان في القلب إسـلام وإيمان

الفصل السادس و التسعون

المغرب الكبير بعد سقوط غرناطة

وحتى نتعرف على الجو الذي سقطت فيه غرناطة صريعة بيد أبنائها وخصومها معا، وجب أن نتعرف على ما كانت عليه دولة الأسبان وقتها من قوة وسلطان حتى لا نذهب مع الذين يعللون سقوطها فقط بسبب تطاحن دول شمال إفريقية من جانب، ثم تطاحن بني الأحمر مع المرينيين وفيما بينهم من جانب آخر، حقا لقد كان لهذا التطاحن أثره الأكثر في التمزيق و الضعف منذ عهد بني مرين، وهذا صراع كان لابد من حصوله منذ حصل التقسيم وأصبح الإحتكاك والتفاعل من عوامل استمرار سلطان ونفوذ العناصر المتعددة الأصول المتواجدة في المجتمعين المغربي والأندلسي، التي كان احتكاكها واندفاع بعضها نحو العدو تطلعا للفائدة يشتد ويقوى كلما ضعف جانب من الجوانب المتصارعة على الملك. سواء في الأندلس أو المغرب أو تلمسان أو تونس كما سنرى. كان الأسبان منذ حكم فرديناند وإيزابيلا الأولى ابنة سخيف العقل هنري الرابع التي تعرف بالكاثوليكية(634) والتي دام ملكها أكثر من ثلاثين سنة وقد تزوج منها فرديناند الخامس الكاثوليكي أمير أراغون سنة 874هـ /1469م، فتوحدت بذلك مملكة أراغون وقسطيلية، وقتها استولى الكهنة والأشراف بعد صراع بينهم وبين الملك، كما تعززت رغبة كل الذين عرفوا بحقدهم على الإسلام والمسلمين بالأندلس، فعرفت دولة الأسبان سلطة جائرة ظالمة أكثر مما كانت زمن بيدرو الظالم، وأبوه ألفونس الحادي عشر، وأصبحت إيزابيلا التي قيل أنها لم تغتسل في حياتها سوى مرة واحدة ، يقال باسمها بل يقال لها وتردد كل ما يثير الضغائن ضد المسلمين، حسب توجيهات الكهنة الحاقدين، وبطانة الأشراف الذين كانوا يرون في محاربة دولة الإسلام بالأندلس كل

---

(634) ولدت سنة 855هـ 1451م، وتوجت على قسطيلية سنة 879هـ 1474م، وتوفيت 910هـ 1504م .

التقرب إلى الدهماء الذين سمم عقولهم رجال الدين، ورغم أن قوة الأسبان في عهد إيزابيلا توجهت كلها ضد المسلمين قصد استخلاص ما تبقى من أرضهم، وبالأخص غرناطة فإنه لم يتم إسقاطها بسهولة رغم الحروب الطويلة المدى والشديدة القسوة إلا سنة 897 – 898هـ = 1491 – 1492م وبقضائهم على غرناطة وانتهاء دولة الإسلام في الأندلس، عرفت أقطار المغرب هي الأخرى هجومات عنيفة ومركزة من الأسبان والبرتغال الذين ظهر طموحهم وتطلعهم نحو عالم آخر في إفريقية والهند وأمريكا، وإذا ما عرفنا أن الجالس وقتها على عرش إسبانيا سيء الأخلاق فرد يناندو الملقب بشارل الخامس(635) الذي كان بالإضافة إلى قشتالة، وأراغون، وقسطيلية، ملكاً على صقلية ونابولي، كما ورث هولاندا من جده لأبيه ماكسيمليان، ثم أنتخب إمبراطورا لجرمانيا، وبذلك أصبح بحق الديكتاتور الذي ورث شركا من عقل أمه البلهاء كما يقول ولز.

لقد كان هذا الديكتاتور، العدو الحاقد على المسلمين بالأندلس، يتحسر على ما فاته من سفك أكثر لدماء المسلمين المغلوبين، حتى إن غضبه من ذلك تحول إلى طبع أدى به إلى التشديد على قومه الذين أبدوا تذمرهم من استمرار وتمكن سلطة الكهنة والأشراف الذين زادهم سلطة أكثر بتدخل البابابُولس، وخصوصا بعد ظهور لوثر، كما وجَّه بالقوة

---

(635) راجع الموسوعة العربية ص 278 وغيرها من مصادر التاريخ لتتعرف على ما عرفته أوربا من حروب في عهده، وكيف اقتسمت إسبانيا والبرتغال العالم سنة 1494م، بمقتضى معاهدة « توردیسلاس» وقد قضى شارلكان وقته في محاربة فرنسوا الأول ملك فرنسا، وحاصر مدينة منس سنة 1552م، واستولى على مدينة وهران، كما حارب خير الدين بربروس من أجل الاستيلاء على مدينة الجزائر، فلم يفلح، واضطهد البروتيستانت الذين اضطر أخيرا أن يمنحهم الحرية الدينية بعد أن حاربوه، وانتصروا عليه، وفي سنة 1556م سئم الملك، فتنازل عن العرش الأسباني لإبنه فيليب الثاني، وعن ألمانيا لأخيه فرديناد، واعتزل في أحد الأديرة حتى توفي 1558م، راجع تاريخ الدولة العلية ص 81 ط 1912م، ثم راجع حضارة العرب لجوستاف لوبون ترى فيها ما فعل الاسبان وأغبياؤهم بتلك الحضارة حتى إن أحد قساو ستهم إكريمنيس أحرق ثمانين ألف كتاب من المخطوطات راجع ص 274ط 1956م، بل يخبرنا أحد مؤرخي أوربا وهو «لورانط» أن الأسبان قتلوا من المسلمين نحو الثلاثة ملايين في ظرف139 سنة، كما أحرقوا من مخطوطات الكتب العربية عام 1499م مايقرب من المليون كتاب ، راجع كتاب فرديناند وايزابيلا للمؤرخ الانجليز بريسكوت ص451.

ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا أنه في عهد فرد يناند طرد كل اليهود من بلاده بمرسوم صدر يوم 1492/3/3م 3جمادى الأولى 897هـ فدخلوا المغرب وأدخلوا معهم مرض الزهري يقول ابن الوزان في وصف إفريقيا ج 67/1ط الرباط، حيث قال إنه انتشر في ظرف عشر سنوات حتى لم تعد تسلم منه أسرة في فاس، حيث انتشر الاتصال الجنسي بنساء اليهود، ومثلها تونس حتى كان المصابون به يعزلون مع المصابين بالبرص.

والعنف الأسرى من المسلمين كعبيد لقيادة السفن الثلاث التي توجه بها «كرستوفر كولومبوس» لاكتشاف أمريكا سنة 1492م، كما افتتح فرناركوتر المكسيك، وافتتح پيزارو، والماغز وبيرو، وشيلي، وأصبحت للبرتغال سفائن في جاوة وكلتكا، بعد رحلة فاسكودي جلما بدليل عربي متخصص سنة 1497م.

وإذا ما استشعرت الدولتان بالقوة الهائلة وبالغنى، عليهما أن تبحثا عن الحرب، فكانت مع الإيطاليين بغزو نابلي 1504م، وضد البندقية 1508م، ثم انضم فرناند إلى الحلف المقدس ضد فرنسا 1511و1512 فكانت مع فرانسوا الأول الذي استنجد بآل عثمان، فأغاثه خير الدين بربروس، ومع ذلك عادت فرنسا للتحالف مع الأسبان ضد الأتراك بعد ، كما حارب الأنجليين في جرمانيا، وسكان مسقط رأسه غانت ببلجيكا، وفي هولاندا، بل حارب البابا كليما نضس السابع في إيطاليا، الخ، وليس ذلك فحسب ، بل بعده خلفه فيليب الثالث المتعصب كما تصفه المصادر، والذي نشأوشب في ذلك الجو 1007-1031هـ/1598 - 1623م، والذي كان ملكا أسما، وإنما الذي كان يحكم هو صديقه الكونت ليرما الذي بدد مداخيل الدولة، وأجلى عن البلاد ستمائة ألف من المسلمين 600.000 تحت ضغط آل عثمان(637)ولولا ذلك الضغط لتعرضوا للإبادة(636) ذلك أن سليمان القانوني هدد بقتل كل المسيحيين في الأقطار التي تحت سلطانه، مما أدى إلى توقيف أحكام محاكم التفتيش، وبذلك تفرقوا في أقطار المغرب حتى الإسكندرية كما أخرج معهم كل اليهود تمكينا للوحدة الدينية في إسبانيا في هذا العصر، عصر قوة الأسبان والبرتغال سقطت غرناطة، وبعد سقوطها تعرضت أقطار شمال إفريقيا لغزو عنيف واندفاع أعنف من الدولتين الاستعماريتين وقتها، فعرفت سواحل المغرب الكبير من طرابلس إلى شاطئ سوس، حملات مركزة بقوات لم يكن في ذلك العهد أكبر منها سوى آل عثمان ، فكانت على الموانئ حيث انتشرت سفنهم في الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي،

---

(636) راجع التاريخ العام لفيليب قان نس مير، الأمريكي 279 - 281ط بيروت 1912ود. البستاني 342/3 وسيديو 180- 190.

(637) راجع الترجمان المعرب للزياني ص 320خ ع وسيديو 304 - 305 ط 1309 ترجمة علي باشا مبارك ود. الاسلامية 126/6 - 128) ثم تاريخ تطوان للأستاذ المجاهد محمد داوود التطواني رحمه الله جـ اط 1955.

خصوصا بعدماظهرت أعمال أبي الحسن المنذري(638)، الذي دافع عن غرناطة دفاع الأبطال ثم استأنف عمله ببناء قلعة مكان القلعة التي كان قد بناها يوسف بن يعقوب المريني سنة 685هـ 1286م، ليهاجم منها مدينة سبتة التي كانت تحت حكم ابن الأحمر، فكان المنذري بحق أول مجاهد أرعب الأسبان طيلة خمس سنوات بعد سقوط غرناطة، تمكن فيها من وضع الأساس لمدينة كبيرة هي مدينة تطوان، حيث هاجم الأسبان بقوات المجاهدين الذين التفوا حوله، لكن قوة الأسبان والبرتغال وقتها كانت في أوج قوتها، فاحتل الأسبان والبرتغال طرابلس، وتونس، وجربة، والمهدية، وبجاية، والجزائر، ووهران، وتلمسان، وسبتة، ومليلية، وطنجة ، وأصيلة، والعرائش، والقصر الكبير، والمعمورة، وآنفا، وآزمور، ولبريجة، وآسفي، وشاطئ السوس، حيث فونتى، ثم سانتاكورز.

هذه المراكز كلها عرفت الهجوم والاحتلال الذي بدأه البرتغاليون قبل سقوط الأندلس، بل عرفته مدينة سبتة وتطوان اللتين قنبلهما البرتغاليون سنة 802هـ/1399م، في عهد يوآ ويو حنا الأول، حيث توجه الأسطول البرتغالي نحو سبتة سنة 818هـ/1415م ورغم مواجهته للزوابع العاتية بحرا فإنه دخلها يوم 9/4 من السنة المذكورة، ورغم أنها حوصرت أربعة قرون، فقد بقيت ولاتزال حتى اليوم محتلة، بل ماكاد البرتغاليون يحتلونها حتى أنشأوا فيها مطرانية سنة 825هـ 1421م، كما أقاموا بها حامية بقيادة دون «بيدرودي منيسس»، وكان هذا في الزمان الذي أشرفت فيه دولة بني مرين على الزوال، ليحل محلها الوطاسيون بالغدر ، بل أدي هذا الوضع إلى طمع البرتغاليين في مدينة العرائش التي هاجموها سنة 820هـ/1417م ، وكذا طنجة لولا أنهم صدوا عنها بقوة في أكتوبر سنة 841هـ/1437م ، ولما انهزموا وخضعوا للتفاوض والمعاهدة بإرجاع سبتة تعرضت المعاهدة إلى رفض في مجلسهم التشريعي «الكورطيس» رغم الرهينة التي بقيت للموت والهلاك وهو الطفل الرضيع دون فرد يناند، وكل ذلك من أجل أن تبقى مدينة سبتة بأيديهم، وقد بقيت إلى أن ضمها فيليب الثاني ابن كارلوس ملك الأسبان إلى أملاكه مع

---

(638) ورد عند الأستاذ داود بالظاء، وفي دائرة المعارف الإسلامية بالذال، ولعله أصح لأنه ربما يكون نسبة إلى نذير بطن من بجيلة من كهلان، من القحطانية كما توجد نذير قبيلة من أحسن من صبيعة ابن أسد بن ربيعة بن نزار، من العدنانية ، وكلاهما كانا بالأندلس راجع الاشتقاق لابن دريد 190 - 302.

البرتغال سنة 988هـ/1580م، ثم وهبها البرتغال لأسبانيا بمعاهدة ليسبون 1079هـ/1668م(639) الأمر الذي مكنهم من تركيز قواتهم في الشاطئ الشمالي للمغرب الكبير بشكل أصبح يهدد أكثر.

كريستوفورس كولمبوس

هو الذي تحمس للحروب الصليبية أكثر وفي سنة 1492 هو الذي إتخذ وبأمر من البابا بولس من الأسرى المسلمين كعبيد ما يكفي لتجذيف السفن الثلاثة التي توجه بها كرستوفرس كولومبوس لاكتشاف امريكا بناء على ما سبق من معلومات مصدرها المعارف العربية الاسلامية عن البحار، كما افتتح فرناركوتر المكسيك، وافتتح بيزارو پيرو، وشيلي، واصبحت للبرتغال سفائن في جاوا بعد رحلة فاسكو ديجاما بدليل عربي متخصص سنة 1497 راجع التاريخ العام 296-297 مصدر سابق.

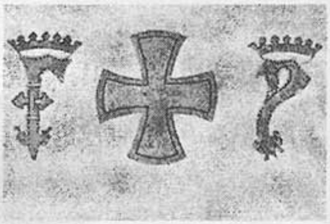

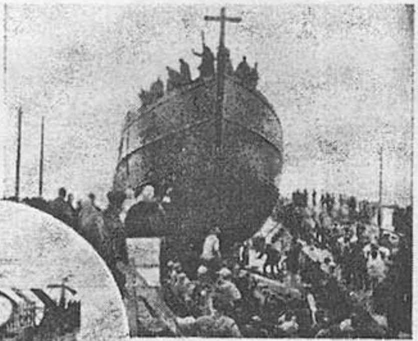

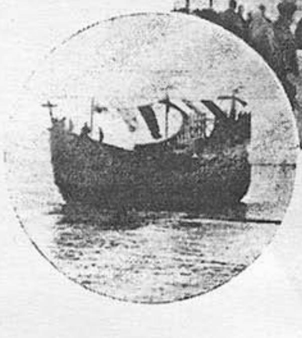

وهذه إحدى السفن
من التي استعملها
كريستوف كولمبوس

(639) راجع مصادر التاريخ المغربي السابق ذكرها، ود البستاني 9/ 444، والإسلامية 11/228 كما أحتلت مليلية سنة 896هـ/ 1490م. ثم التاريخ العام لفيليب فان نس فقرة 725ص 314- 315 ط 1912 مصدر سابق.

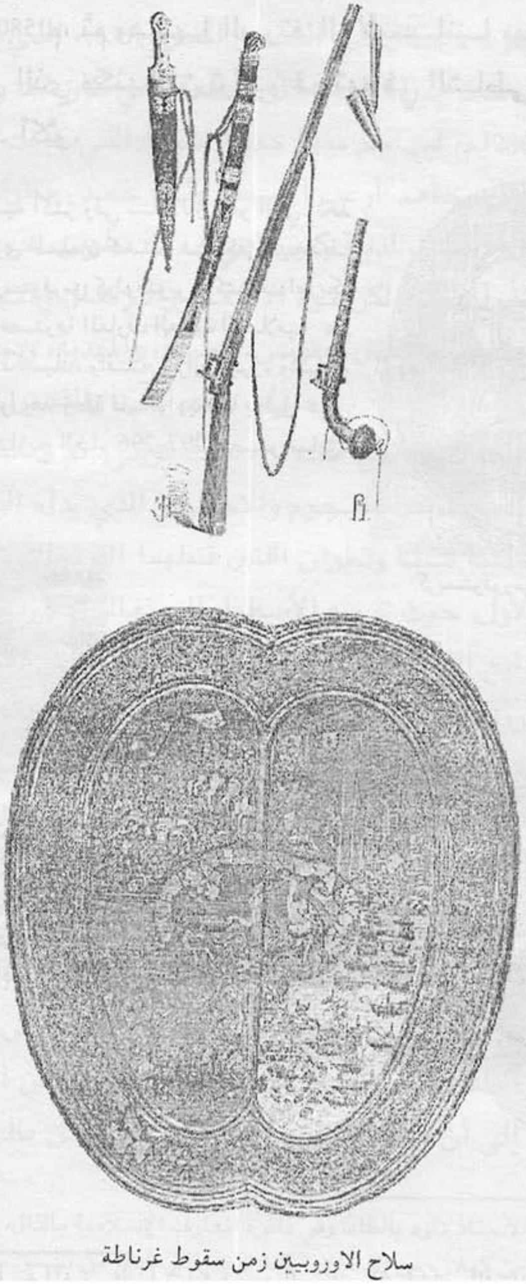

سلاح الاوروبيين زمن سقوط غرناطة

جندي كريتلي من جنود الاتراك

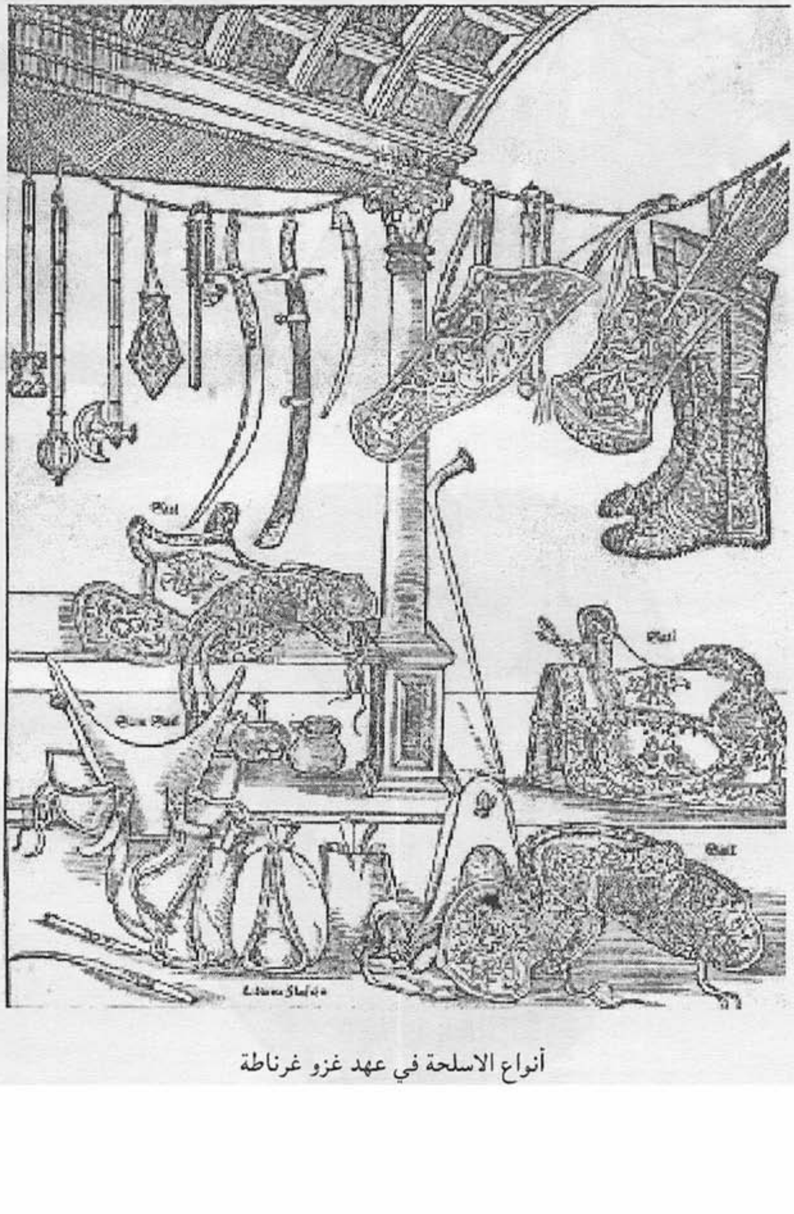

أنواع الاسلحة في عهد غزو غرناطة

جند باسلحتهم المعاصرة لشارل 5

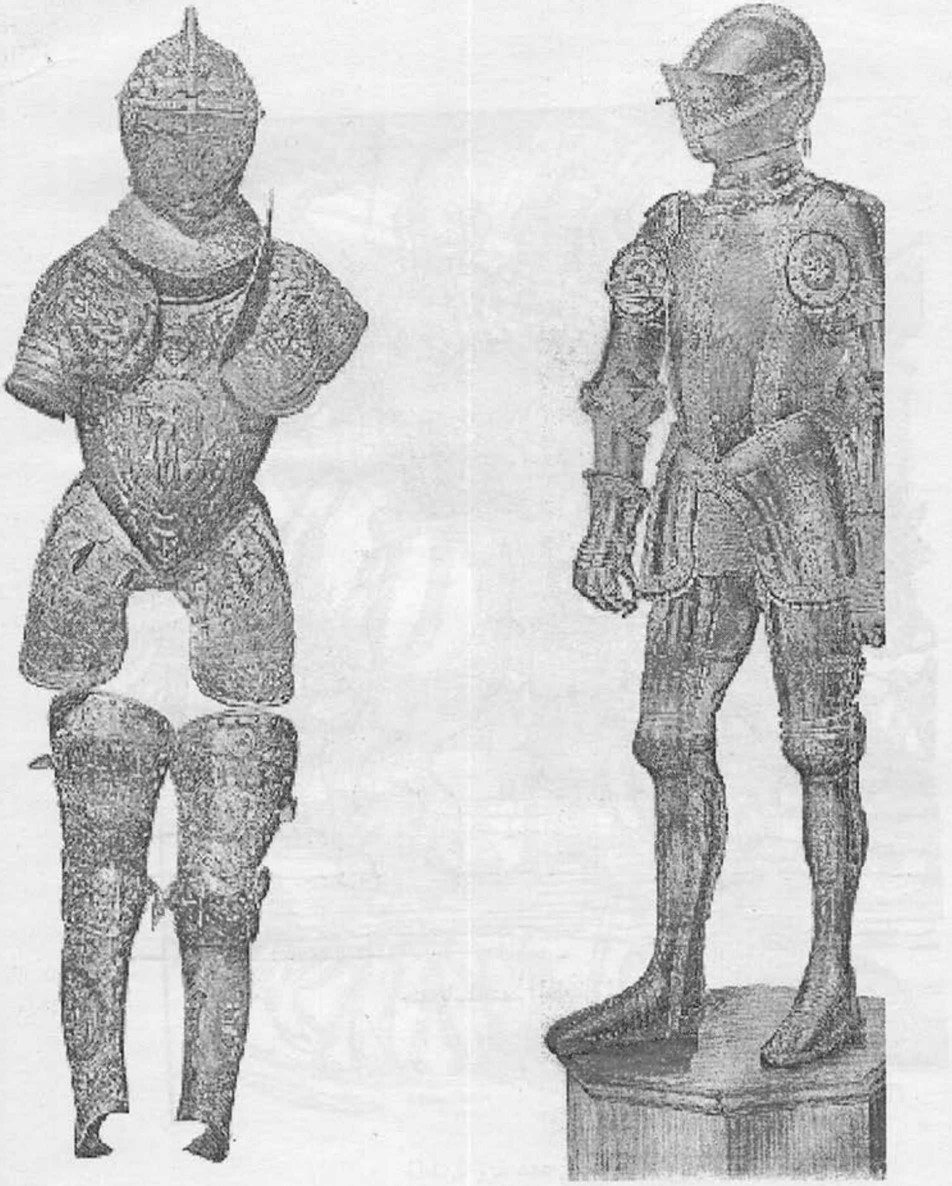

أنواع الاسلحة في عهد سقوط الاندلس

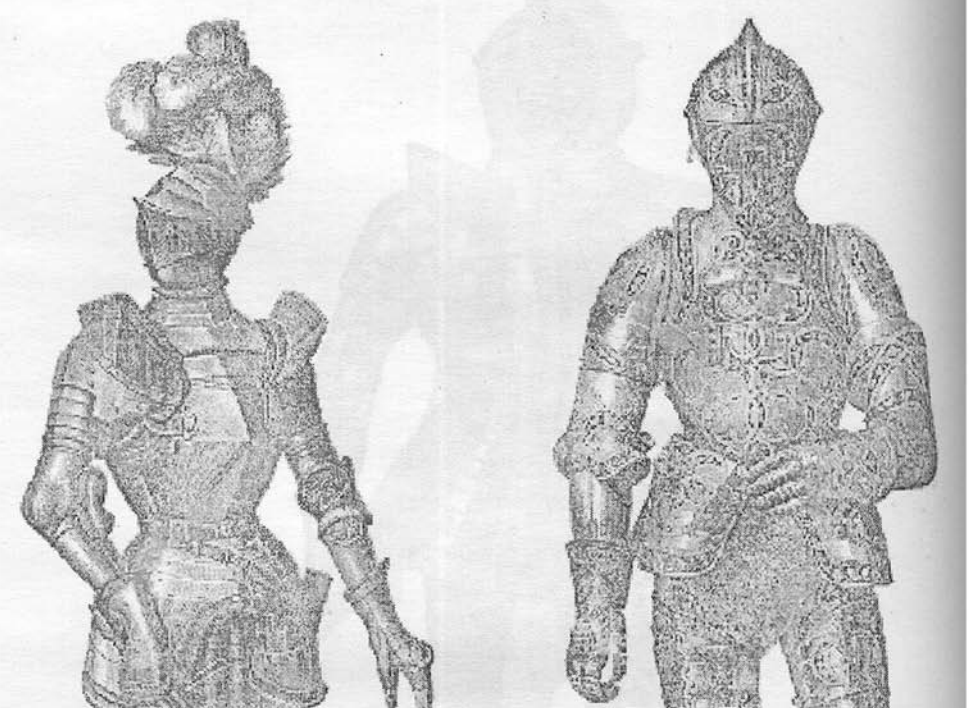

أنواع الاسلحة في عهد سقوط الاندلس

أنواع الاسلحة في عهد سقوط الاندلس

أنواع الاسلحة في عهد سقوط الاندلس

الفصل السابع والتسعون

الشعب الجزائري وحماية المغرب الكبير بقيادة خير الدين بربروس

إنها المرحلة المشرقة من تاريخ المغرب الكبير التي سلبها الاستعمار من ذاكرة المغاربة.

بعد ثلاثين سنة تقريبا من سقوط الأندلس، وبعدما عرف المسلمون أحط درجات الإذلال وأقسى أنواع العذا ب، وبالتحديد في عهد فيليب الثالث الذي وقع تحت ضغط أسقف بلنسية سنة 1019هـ/ 1610م، فأخرج آخر مسلم من أرض الأندلس التي سقطت نهائيا سنة 898هـ/ 1092م، ولولا تهديد آل عثمان لما ترك أي مسلم على قيد الحياة حتى يخرج من الأندلس، بل لولا ظهور أوروج وأخيه خير الدين بربروس(640) خصوصا الأول الذي قام قبل الثاني بدور هام جدا في تاريخ المغرب الكبير، فتبعه خير الدين على نفس النهج، بل تقول مصادر التاريخ الإسلامي إن خير الدين هو الذي انتهت به صناعة البحر التي أذلت أوربا، وأوروج هو الذي قادته مهارته إلى احتلال طرابلس وجزيرة جربة، والمهدية، وتحريرها، من يد الأسبان، ثم اتفق مع أبي حمو الحفصي «الذي أسلما على يديه» على العمل في مياهه الإقليمية مقابل أن يعطيه الخمس من الغنائم، وإذا ما اشتد ساعد أوروج بأخيه خير الدين، فقد استولى الثاني على جيجل، وشرشال، وتنس، وتلمسان، وبجاية، وبونة، « عنابة » وقسنطينة، والجزائر، في تواريخ متفرقة، وكان قد

---

(640) الأول تسميه المصادر العربية عروج، هم إخوة أربعة كان والدهم اليوناني الأصل ضمن عساكر مدللي السباهي في صحراء أجه بالأناضول، وانتقل إلى جزيرة مدللي بعد فتحها للانضمام إلى حاميتها، وبها رزق أربعة أولاد هم: إسحاق، وأوروج ، وإلياس، وخضر، نبغ منهم أوروج وخضر: تاريخ الدولة العلية95، وأبطال الفتح الإسلامي من الترك 279/2، وقد أخذ عن المصدر السابق دون أن يتعرض له ودائرة المعارف الإسلامية جـ 62/6– 63–64–322–329.

غزاها شارلكان كما أشرنا قبل حين وجه ديجو القرطبي للاستيلاء على وهران وبنون والمرسى الكبير، سنة 910هـ/ 504لم، والكاردينال زيمنسي 915هـ/1509م، والذي استولى على تلمسان، وبطرس النفاري 916هـ 1510م، الذي استولى على بجاية، ثم فرض عليها الجزية في عهد المتوكل بن الحسن بن مسعود الحفصي.

وإذا ما توفي أوروج ببني يزناسن من أرض المغرب بعد حصاره لتلمسان(641)، فإنه شهد خير الدين وقد تكفل بأداء نفس الرسالة حين وجدها فرصة، وقد استدعاه سليم بن تومي حاكم الجزائر لمساعدته ضد حملة «هوجودي مونكاد»، والاسبان الذين احتلوا الجزيرة الصغيرة، المقابلة لميناء الجزائر، ثم بنوا لهم بها حصنا، وفعلا قدم خير الدين بقواته البحرية المكونة من 5000 رجل سنة 922هـ/1516م، فطرد الأسبان ثم ألحقهم بقتل سليم بن تومي، واستيلائه على البلاد، وقتها فكر في الاتصال بسلطان آل عثمان سليم، ليقترح عليه قبول ضم الجزائر إلى سلطته حتى يضمن حمايتها، خصوصا وأن سليم استولى على مصر التي انتزعها قهرا من سلطانها قانصوه الغورى(642) البالغ من

(641) توفي أوروج ببني يزناسن سنة 924هـ /518لم، كما توفي خير الدين سنة 953هـ/ 1546م والثاني كان ميلاده سنة 888هـ /1483م.

(642) قتل يوم الأحد 25 رجب 922هـ 24-9-1516م تاريخ الدولة العلية ص 75، لقد كان لبربروس أثر كبير في حفظ الذاتية المغربية والدفاع عن الإسلام في حوض الأبيض المتوسط عموما، والمغرب الكبير بالأخص، بل كان خير الدين الذي حارب قوات الأسبان وغيرهم بثمانية عشر ألف جزائري، وإذا هو لم ينتصر على شارلكان لأنه لم يواجهه في تونس سنة 941هـ، فإنه في كل المعارك التي خاضها هو والذين هم على شاكلته مثل درغوت باشا، وسنان باشا، كانوا صادقين في دفاعهم، بل درغوت الذي نجى ثم تحرر من الجينويين بأعجوبة، هو الذي حرر المهدية وطرابلس وجربة. وبربروس هو الذي طارد قوات العدو الأسبان التي كانت تحت قيادة «أركوده ونكاد» بعدما نزل بقواته عند مصب الحراش بالجزائر، ثم ركزها عند مرتفعات كدية الصابون، ثم أخذ يضرب المدينة بالقنابل إلى أن أجبر على الفرار سنة 926هـ/ 1519م. كما استولى على معقلهم في بنين الذي أسقطه وقتل قائده الأسباني «مارتان درفارگاس يوم»، كما صد الحامية التي حاولت احتلال شرشال بقيادة «أندريا دوريا أنج»، وبالتالي فإن لبربروس خير الدين في تاريخ المغرب الكبير، أثر كبير حاول الفكر الغربي الذي استعمر هذه الديار أن يقلل من شأنه، لكنه لم يفلح ذلك لأنه بقدر ترديد اسم بربروس وملاحمه، بقدر ما تتذكر أوربا تاريخ مآسيها في ظل ملوكها وأمرائها الذين كانوا السبب في تأخر وانحطاط شعوبها زمنا غير قصير، كما أن بربروس المسلم هو عنوان الدولة الجزائرية التي أذلت أوروبا زمنا غير قصير، كما يشهد التاريخ لبحارتها الذين كانوا هم قوة بربروس ومن بعده من الدايات، إلى عهد نابليون الذي توجه بكل قواته لمحاربة الجزائر بعدما فشل في المشرق وأحرقت سفنه في أبوقير كما سنرى بعد حين دفعه محمد على القولي المستبد بمصر لاحتلال الجزائر نقمة على سلطان آل عثمان الذين كان محمد على وقتها قد فصل مصر واستقل بها.

العمر ثمانين سنة ثم دخلت جيوش آل عثمان القاهرة يوم 8محرم 923هـ/1517م رغم مقاومة المصريين خصوصا المماليك، الذين حاربوهم من شارع لآخر، ومن وقتها أصبحت مصر التي غادرها سليم عام 923هـ أول سبتمبر 1517م تابعة لآل عثمان، وفي مصر توصل سليم بما يؤكد ولاء خير الدين بواسطة رسول أرسله خير الدين وأوروج قبل موته ،وكان الرسول هو «كردأوغلي»، ثم في المرة الثانية وبعد قتله لسليم بن تومي، أرسل خير الدين أحد أتباعه ويدعى الحاج حسين، إلى السلطان سليم ليخبره بفتح الجزائر بإسمه، فقابله وعين خير الدين باشا بكلربك على إقليم الجزائر، ومن وقتها أصبح هذا الإقليم هو الآخر ولاية عثمانية، فوجدها خير الدين فرصة دفعته للرحيل إلى السلطان سليم ومعه سفينتين محملتين بالهدايا التي حصلها من غزوه بالمغرب الكبير، فرده السلطان سليم بسفينتين محملتين بالعتاد وألفين من الجنود، الأمر الذي قوى عزم خير الدين على محاربة الإسبان وإجلائهم كلية عن الجزائر بعد احتلالها، وقتله قائد الحامية الاسباني ڤاركاس يوم 27–5–1529م/936هـ، كما أبعد الماركيز منديار عن «بونة» عنابة، واستعمل خير الدين سبعين ألفاً من المهاجرين المسلمين من أهل الأندلس في جيشه، دربهم تدريبا كبيراً بواسطة الألفين من الإنكشارية الذين قدمهم إليه سليم، دربهم على خوض البحر وحراسته، ولم تقف حربه على تحرير شواطئ المغرب الشرقي فقط، بل حارب أمير البحر الجنوي «أندرياد وريا» الذي دفعه شارلكان الخامس(643) «فردناندو ليشن الحرب» على الشواطئ المغربية فتمكن بربروس من إحراق جينوة، وكذا مدن البنادقة واكتساح معاقلها بعد الاستيلاء على تونس سنة 941 هـ 16–9–1534م، وقتها عاد خير الدين بربروس إلى اسطنبول بعدما كان قد نصب ولده حسن أغا خليفة مكانه بالجزائر مؤقتا في شهر ذي القعدة سنة 939هـ /1532م رحل إلى إسطنبول ومعه من الغنائم عشر سفن محملة بالهدايا، وبذلك استحق رتبة أعلى عند السلطان سليمان القانوني الذي كان قد حل محل والده سليم الأول يوم 15 شوال 926هـ/ 1519م فلقبه قبودانا للعمارة البحرية كما سماه خير الدين باشاباربروس(644).

(643) راجع 1018 قبل.

(644) بارب روس = صاحب اللحية الصهباء تاريخ الدولة العلية ص 100.

لقد كان للجزائرايين الذين أصبحوا قوة نظامية في البر والبحر يقودها أوروج وخير الدين – أحسن الأدوار في القضاء على قوة أكبر دولة وقتها تفرغت من حروب الأندلس إلى محاولة احتلال المغرب الكبير، بل قامت قوة الأتراك الإسلامية بأهم دور وأخطره يوم مد سليمان بربروس بسبع وثلاثين سفينة، ثم أمره بالتوجه إلى سواحل إيطاليا وإسبانيا، حيث هاجم جزيرة مينورة واستولى على 7500 أسير عاد بهم إلى القسطنطينية، وإذا مادارت الحرب بين قوات الرئيس على جلبي وجرح، وفيها لجأ «أندريادوريا» إلى جزيرة كورفو، فإن الحرب التي خاضها خير الدين مكنته من الاستيلاء على جزائر تشوقه، ومرتد، وبارة، ونفشة، ونابولي، وكستل،(645) وإذا هو عاد لقضاء فصل الشتاء في إسطنبول سنة 949هـ/ 1538م، فإن القدر ساقه لينقذ أسطول بلاده المكون من 140 باخرة، والذي تجمعت حوله أساطيل أوروبا التالية، قدمت لتهاجمه أمام برة فيزة، وهي كمايلي: 52 سفينة لشارلكان، و70 للبنادقة، وكلها بقيادة الأميرال كابلو، و30 للبابا، و10 لقرصان مالطة، وثمانون إسبانية، إلى جانب سفن أخرى للدول المعادية لآل عثمان، وماكادت قوات هذه السفن البالغ عددها نحو المائتين والخمسين(250)، تعلم خبر قدوم قوات خير الدين بربروس التي لم تزد على مائة وأربعين سفينة حتى فرت جميعها ثم رجعت إلى جزيرة كورنو، لكن خير الدين طاردهم ومزقهم ثم استولى على السفن التي لم يحرقها وأسر الجيوش التي لم يقتلها، ومثل هذا حصل حيث أرسلت كل من إيطاليا واسبانيا أسطوليهما لغزو الجزائر سنة 948 هـ/ 1541م، وكان الاسطول مكونا من مائتي سفينة، فصدهم ابن خير الدين حسن أغا إلى أن قدم والده خير الدين. فكمل على مادمرت الزوابع من الاسطولين اللذين غرق منهما مائة وخمسون سفينة، وفي هذه المرحلة من التاريخ كانت دولة آل عثمان سيدة البحر وصاحبة القوى الكبرى لحفظ التوازن، حتى في أوربا التي كانت قوة شارلكان فيها أكبر قوة تعرضت هي الأخرى لهزات عنيفة من قوة العثمانيين الذين انتصروا لفرنسوا الاول ملك فرنسا، ضد شارلكان، والتي هاجمت قوة العثمانيين شارلكان وهو في حربه مع فرانسوا من جهة البحر والنمسا، حتى تشغله عن جيوش فرنسا من جهة الغرب، فيتمكن ملك فرنسا بذلك

---

(645) ابطال الفتح الاسلامي من الترك 279/2.

شارل 5 في شبابه

شارل 5 في شيخوخته

لك الاسبان الذي التجأ إليه ملك تونس من الحفصيين الحسن بن محمد المتوكل الذي أساء السيرة في تونس حتى فر أخوه الرشيد إلى خير الدين بربروس الذي استجاب لطلب الرشيد مما أدى بالحسن الى طلب نجدة شارل الذي قاد الحملة بنفسه ضد تونس، ثم احتلها سنة 936هـ/1530م. وهو الذي استنجد به أبو حسون الوطاسي آخر ملوك الوطاسيين، بل تبعه عبر تنقلاته في النمسا وألمانيا إلى أن استجاب وأعانه ضد الاتراك الذين سلبوه عرشه. بل وهو الذي لجأ إليه رئيس اساقفة اشبيلية فحكم سنة 960هـ/1552م بمنع مسلمي غرناطة في يوم واحد من عوائدهم القديمة ولباسهم والتكلم بلغتهم ورتب للتحقيق مع المخالفين لذلك الأمر محكمة خاصة، ودفع المسلمون سنة 1001هـ/1592م إلى الملك فليب 800000 دوقية (دينار) ليخفف عنهم ذلك، لكنه وإن فعل رجال حكومتهم فإن الشعب لم يمتثل بل بقي شاهرا السيف باليمين والصليب بالشمال مقتفيا أثر المسلمين حتى في الجبال.

السفن البحرية الانجليزية تستعرض عضلاتها في شواطئ شمال افريقيا وموانئه قصد الارهاب
ردا على أسر مركب لها من طرف قوات الجزائر

اندري دوريا: هو الذي خاض الحرب ضد الرئيس علي جلبي وجرح، وفيها لجأ أندري دوريا إلى جزيرة كور فور. وقد حاول كسر شوكة دول المغرب العربي الكبير خصوصا تونس والجزائر لكنه انهزم وانهزمت معه الاساطيل الاوروبية التي قادها ضد الاسطول العثماني بقيادة بربروسه -الذي أطلق عليه سليمان القانوني اسم خير الدين عام 940هـ/1534م ونصبه قبودان باشا للأسطول -.

راجع القاموس الاسلامي 250/1.

فرانسوا الاول

هو أول من اتصل بالمغرب من الفرنسيين اخر الوطاسيين وبداية السعديين

940هـ/1533م

من الأخذ بثأر واقعة «بافيا» بإيطاليا التي أخذ فيها فرنسوا الأول أسيراً،(646) وكان آل عثمان قد أبرموا معاهدة مع فرنسا في أوائل شهر فبراير سنة 1536م/ 942هـ في عهد سليمان ضمت 16بندا كلها امتيازات لفرنسا التي وقعها عنها سفيرها لدى الأتراك المسيود ولافوري،(647) مما أدى بسلطان الأتراك إلى نجدة ملك فرنسا سنة 950هـ/1543م، حيث التحقت الأربعين سفينة بقيادة بربروس بطولون بعد فتح عدة ثغور بسواحل إسبانيا ثم مدينة نيس، وهناك تتلمذ الأميرال الفرنسي دوق أنجيان على خير الدين بربروس في كيفية صيانة البواخر.

كان خير الدين بربروس قبل، حين مر على جزيرة مالطة وبعض موانئ جنوب إيطاليا، ثم غزا مراكبها، وشوش أهلها دون أن يقصد احتلالها يهدف فتح تونس التي قصدها أيام آخر ملوكها أبو عبد الله محمد الحسن بن محمد الخامس من بني حفص الذي كان عرضه لنقمة الأهالي، فوصلها في أوائل سنة 1535م، حيث آستبشر التونسيون بخير الدين الذي قدم لعزل المغضوب عليه لميله لشارلكان، وتنصيب أخيه حسن الرشيد مكانه، وإذا هو احتل مدينة تونس وثغرها حلق الوادي بجنود جزائريين وباسم السلطان سليمان، فإن شارلكان ماكاد يعلم الخبر حتى قام باتحاد مع قوات القديس حنا الأورشليمي التي نزلت بجزيرة مالطة بعد فتح جزيرة رودس على استرجاع تونس التي كان أهلها قد تعلقوا بما جلبته عليهم المعاهدة التجارية التي أمضاها الحفصيون مع كرلوس دانجوا ملك صقلية، لفائدة التجار الإيطاليين والفرنسيين، والتي جلبت معها الدس والكيد وتمزيق أكبر وهجومات أعنف يشجع عليها ثوار القبائل، والتي ظهرت

---

(646) ولد فرنسوا الاول سنة 1494م، تولى الملك في سن الواحدة والعشرين 1515م، وقد حارب كثيرا من أجل ادعائه الحق على ولاية ميلان بإيطاليا من جهة جدته، وقد فتحها بعد أن استولى على سويسرا في موقعه مارينيان، ولما انتخب شارلكان امبراطورا لألمانيا بعد موت جده لأبيه ماكسمليان سنة 1520م، ابتدأت الحروب بينه وبين فرانسوا بسبب إدعاء كل منهما الحق في ولاية ميلان، فانهزم فرانسوا عدة كرات وأخيرا أسر في بافيا ثم أخذ إلى أسبانيا 1525م، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أمضى معاهدة اعتراف بكل مطالب شارلكان، ولما سرح تراجع عن العهد فعادت الحرب بينهما، ولم تنقطع إلا سنة 1544م حيث تصالحا بمعاهدة كريبن، على أن تكون ولاية ميلان لدوق أورليان ثاني أولاد فرانسوا، وتوفي بعد ذلك بثلاث سنوات 1547م، وهو الذي قتل من البروتستانت أكثر من خمسين ألف، راجع ترجمة لوثر الراهب الألماني صاحب المذهب الذي أراد إصلاح المذهب الكاثوليكي، والذي سوف نتعرض له، وما أفاده من أثر ابن تيمية.

(647) راجع نص المعاهدة في تاريخ الدولة العلية ص 91–94، وفيه غيرها من المعاهدات مع فرنسا.

بشكل أخف منذ نهاية عهد عظيم الحفصيين أبو فارس عبد العزيز الذي وصل المغرب في عهده مستوى رفيعا دمرته أيام أبي عمر عثمان التي جرت الضعف إلى أيام محمد الحسن بن محمد الخامس الذي تمزقت في عهده الصفوف حتى أصبح السلطان عرضة للنقمة ففر إلى بلاد الأسبان بل تعرضت تونس إلى تمزيق في عهده بعد بيعته932هـ/1525م، مما أدى إلى محاربة خير الدين خصوصاً بعد استيلاء الأدفونش على جزيرة قرقنة إلى العهد الذي احتل فيه «بيد رو ناڤارو طرابلس»، وبجاية، كما احتل «هيوزدمنكاد» جربة، إلى أن طرد الحسن من الحكم 941هـ/ 1534م.

وهكذا لما بلغ خبر احتلال تونس من طرف خير الدين الذي انسحب منها(648) لما رآه من قوة العدو وكثرة جنوده إلى شارلكان الذي كان قد اتخذ مع رهبنة القديس يوحنا الأورشليمي التي نزلت بجزيرة مالطة بعد فتح جزيرة رودس على استرجاع تونس وإعادة الحسن إلى حكمها، ومن أجل ذلك وإظهارا لعداوته الشديدة للإسلام جهز جيشا كثير العدد قوي العتاد، قاده بنفسه يحيط به أشراف الاسبان الذين كانوا يدركون نيران تلك الحروب، وانتقل الجميع من ثغر برشلونة يوم 29 ماي 1535م، ووصل إلى حلق الوادي في16 يونيه حيث حاصرها ومدينة تونس مدة شهر تقريبا، وكانت قواته تتوفر على 400 سفينة و28000 جندي، وفي 14 يوليو استولى شارلكان على تونس ومافيها من قوة مدافعة، ويوم 21 منه دخلت جيوش شارلكان المدينة ثم أطلقوا فيها يد النهب، حيث ارتكب فيها جنوده من الفظائع مثل ما ارتكب في غرناطة، نهبوا وفسقوا وهدموا المساجد وأحرقوا الكتب وبقي شارلكان لم يدخلها إلى أول شهر أوت، وقتها أوقف. القتل والتدمير ليفرض شروطه(649) بعد إملائها على الحسن الذي قبلها ذليلا بتاريخ 8/9/1535م/6 صفر 942هـ، وهي كمايلي:

1- إخلاء سبيل الأرقاء المسيحيين والإباحة لجميع المسيحيين بالاستيطان في إقليم تونس وإقامة شعائر دينهم بدون معارضة.

---

(648) بقي فيها من صفر 941هـ إلى المحرم 942هـ/ 1535م، تاريخ الدولة العلية ص 96 ، وزامباور 130/1. ثم راجع مناهج الألباب لرفاعة الطهطاوي 216-217 ط شركة الرغائب 1912 م، وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب 126-127/ط3 تونس 1372هـ.

(649) راجع الشروط التي اشترطها الاسبان وقت سقوط غرناطة في نفح الطيب 615/2.
وشروط شارلكان وقت احتلاله لتونس في تاريخ الدولة العلية العثمانية 96-97 مصدر سابق.

2- أن يتنازل لشارلكان عن مدائن بونة «عنابة» وبني زرت، وحلق الواد.

3- أن يدفع له مبلغ اثنى عشر ألف دوكا مصاريف الحرب(650).

4- أن يقدم له سنويا إثنى عشر حصانا ومثلها من المهارة العربية علامة على امتنانه.

5- وإذا خالف إحدى هذه الشروط يدفع أول مرة خمسين ألف دوكا وفي الثانية مائة ألف وفي الثالثة يسقط حقه في الملك.

6- أن يضع فرقة من جيش الاسبان يخصص لها إثنى عشر ألف محبوب تكاليف إقامتها.

7- أن توضع جميع موانئ تونس تحت تصرف شارلكان الذي قتل من التونسيين في هذه الحرب نحو الستين ألف.

كما أصبح له الحق في إقامة حصن بحلق الوادي، وفي يوم 1535/9/17م غادر شارلكان تونس بعدما خلف وراءه جيشا للاحتلال قوامه ألف جندي من الاسبان وعشرة مراكب حربية لحماية ما حققه بواسطة السلطان الخائن الذي دفع بعد ثمن خيانته، حيث ثارت البلاد ضده وقبض عليه المواطنون وسملوا عينيه، ثم تركوه وقيل إنه مات بالقيروان وقيل بأوربا(651).

وكان من المعارك الفاصلة التي خاضها الأتراك بقوات جزائرية قبل أن يركزوا حكمهم نهائيا ويحرروا تونس، تلك التي اجتمعت فيها قوات أوربا ضد وهران، حيث اجتمعت أساطيل كل من جينوة، وفلورانسة، وصقلية، وإسبانيا، وعدد سفنها مائتا سفينة أو تزيد بقيادة أندرياد وريا سنة 967هـ/1560م، وكان على رأس قوات آل عثمان بيالة باشا المجرى الأصل الذي قاد(652) مائة وعشرين سفينة انتصر بها على أساطيل الدول المتحدة التي قدمت لمحاربة جربة كذلك بقيادة «أندريادوريا» أيضا، وهكذا لم تنته مأساة

---

(650) هذا القدر هو الذي فرضه محمد الفاتح على أهل القسطنطينية وأميري بلاد المورة سنة 857هـ/1453م والدوكة النقود الإسبانية الوحدة منها تساوي عشر فرنكات ذهبية.

(651) قيل إن الذي سمل عينيه ولده أحمد الذي قدمه الثوار، راجع الخلاصة النقية 84-87.

(652) ترقى بعد إلى رتبة الصدر الأعظم، ثم توفي سنة 978هـ 1570م راجع أبطال الفتح 281 وتاريخ الدولة العلية مصد رين سابقين.

تونس وبعد حكم القهر الذي دام أربعين سنة، أذل فيها الاسبان شعب تونس إلا يوم أرسل السلطان سليم الثاني الذي لم يكن في المستوى، وإنما ساعده الحظ بوزيره الطويل محمد باشا صقلي، والذي مهد لتحرير تونس وغيرها من بقية الأماكن التي كان الاسبان يطمعون فيها بالمعاهدة التي أبرمها مع النمسا بتاريخ 976هـ /1568/2/17م، والتي ضمنت للنمسا حفظ أملاكها في البحر مقابل جزية سنوية، كما جدد الهدنة مع بولونيا، ثم شارل التاسع ملك فرنسا(653)م كما عزز الامتيازات الفرنسية وزاد عليها إعفاء كل فرنسي مما كان يدفعه من خراج شخصي وتحرير الأرقاء منهم والسماح للقناصل الفرنسيين في البحث عن ذلك، وأن يرد لهم ما يأخذه القراصنة من البحر، ومعاقبة الآخذ، وأن تكون السفن العثمانية ملزمة بمساعدة ما يرتطم في البحر من سفن فرنسا على شواطئ الدولة، وأن يحفظ ما بها من الرجال والمتاع، وزيادة في التمكين للعلاقة بين العثمانيين وفرنسا، إتفقت الدولتان على ترشيح «هنري دي فالو» أخو ملك فرنسا لعرش بولونيا، ليكون لهم ظهيراً ضد النمسا من جهة، والروس من جهة أخرى، وتم ذلك كما تم لفرنسا أن أصبحت صاحبة السلطان على التجارة في البحر الأبيض المتوسط، وكل البلاد التابعة لآل عثمان، مما أدى إلى إرسال إرساليات دينية إلى مختلف المماليك، وبذلك أمكن لفرنسا بعد أن تتعرف على مكمن الضعف وأين توجه الضربات، فكانت الجزائر كما سنرى عندما تحولت المسألة الشرقية إلى حرب دينية. ولعل ماشغل آل عثمان عن تونس طيلة أربعين سنة هو ماكانت تو اجهه الدولة العثمانية من الحروب شرقا وغربا، في اليمن وفي قبرص(654)، والتي كان يقودها بيالة باشا والتي دامت إلى يوم 10 من شهر ربيع ا 979هـ 1751/9/2م، حيث فتحت قبرص وأصبحت تابعة للباب العالي إلى أن احتلها الانجليز سنة 1878م وليس هذا فقط، بل عرفت البلاد في الداخل

(653) وحتى لايجد معارضة من قواد الإنكشارية أرسل حملة إلى اليمن في نفس التاريخ بقيادة عثمان باشا، لقمع الثورة بها، والتي قادها الشريف مطهر بن شرف الدين يحيى، فانتصر عليها عثمان بمساعدة سنان باشا، والي مصر الذي دخلت جيوشه صنعاء.

(654) قبرص جزيرة صغيرة مهمة في تاريخ البحار، وبالنسبة لمركزها الجغرافي بالقرب من سواحل الشام، ومصر، كان احتلالها ضروريا لمن يريد البقاء في هاتين الولايتين وفي حوزته، ومع ضرورتها لدولة آل عثمان سلموها للأنجليز بمقتضى معاهدة بتاريخ 4 يونيه سنة 1818م، حينما كان الروس محتلين ضواحي الاستانة وتعهدت بالخروج منها، إذا خرج الروس من مدائن فارس وباطوم وأردهان التي فتحوها أثناء الحرب الروسية التركية وامتلكتها بمقتضى معاهدة برلين.

هزات عنيفة حيث ظهر عصيان بايزيد أخو السلطان الذي قتله لا له مصطفى باشا، وفي الوقت الذي كانت الدولة مشغولة بحروبها كذلك في جزيرة كريد وطبنة، وداسنيون، وانتباري(655)، وفي هذا الوقت أيضا ولما رأت البندقية تغلب الأتراك عليها وفتحهم لكثير من بلادها، استعانت باسبانيا والبابا، وتم بينهم الاتفاق على محاربة الأتراك بحرا، خوفا من امتداد سلطانهم على بلاد إيطاليا، فجمعوا مراكبهم على العادة وجعلوا «دون جوان»(656) ابن شارلكان سفاحا من إحدى خليلاته أميراً على الاسطول المكون من 70 سفينة إسبانية و140 من البندقية و12 للبابا و9 لرهبنة مالطة.

تقابل هذا الاسطول مع أسطول آل عثمان المكون من 300 سفينة يوم 17 جمادى الاولى 979هـ/7-10-1571م بالقرب من ليبنته واشتبكا معا في قتال مدة ثلاث ساعات انتصر فيها المسيحيون الذين ساقوا 130 سفينة وأحرقوا 94 وغنموا 300 مدفع و30 ألف أسير، فكان لهذا الفوز أثره الكبير الذي أدى بالبابا إلى أن يخطب خطاب شكر في كنيسة بطرس بروما، ويشكر «دون جوان» على انتصاره على السفن الاسلامية، ولما وصل خبر هذه الحادثة إلى الاستانة هاجم المسلمون على المسيحيين وهموا بقتل المرسلين الكاثوليك لولا تدارك الوزير محمد باشا صقلي الذي أمر بأن يحجز هؤلاء المرسلين تحت الحفظ حتى تعود السكينة، وقد أخرجهم بناء على طلب سفير فرنسا، لكن ماكاد صيف 1572م، يحل حتى كان الوزير قد جهز أسطولا آخر يرد به الضربة على الذين أعلنوها حربا دينية فكون 250 سفينة وكانت المخابرات توصل إليه أحوال البنادقة والاسبان وماكانوا عليه من خلاف حتى إن البندقية سعت في التقرب من الأتراك بعرضها الصلح الذي تم بعد مخابرات يوم 3 ذي القعدة 980 هـ 7-3-1573م على أن تتنازل البندقية للدولة العثمانية على جزيرة قبرص وأن تدفع لها غرامة حربية قدرها 300 ألف دوكا.

---

(655) هما بلدتان بإقليم الجبل الاسود ثانيهما على البحر الأدرياتيكي.

(656) ولد من سفاح لشارلكان بمدينة راتسبون سنة 1540م، وبعد موت أبيه، أراد فيليب الثاني ادخاله ضمن إحدى الرهبنات، ولما لم يقبل عينه قائدا في جيشه، وفي سنة 1570 كلفه بإذلال من بقي من المسلمين بإقليم غرناطة، فأذاقهم أنواع العذاب حتى هاجروا إلى شمال إفريقية، ولم يبق منهم أحد، وفي سنة 1576م كلفه بمحاربة أهالي الفلمنك فقهرهم في سنة 1578م وتوفي بعد ذلك ببضعة أشهر.

وإذا كانت تونس قد بقيت تعاني من مأساتها وتشفي «دون جوان» الذي توجه إليها أواخر 1572م، والذي دخلها بدون مقاومة، ثم أعاد إليها حسن الطريد لكن لم تلبث تونس أن أعيدت إلى أملاك الدولة العثمانية(657)، ذلك أن السلطان سليم، أو إن شئت قل الوزير محمد باشا صقللي، أرسل القوة لإنقاذها بواسطة الوزير «سنان باشا»، و«قليج علي قبودان»، والتي حلت بتونس ثم حررتها يوم 14 ربيع ا 981هـ/1573م، هذه النجدة هي التي استولت على حلق الواد، ثم ألقت القبض على محمد بن الحسن عامل الاسبان وأنصاره منهم، وهدمت حصنهم ثم حمل الحفصي سجيناً بأمر السلطان سليم إلى أن مات، وبه كانت نهاية الحفصيين(658). لتحل محلها دولة آل عثمان التي أصبحت صاحبة السلطان والحول في كل من الجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر، وغيرها، والتي لولاها لكانت أقطار المغرب تاريخاً وبشراً غير ما عرف الناس وسجل التاريخ في صفحات آل عثمان، بل لأصبحت الجزائر وتونس قبل الأندلس بل أكثر حين تتضافر كل القوى الكاثوليكية، وقد رأينا حقد الاسبان كيف تفجر في تونس ومعاقلها الإسلامية.

هذا المدخل الطويل حول ظروف المغرب الكبير وماعرف من تمزيق واستعمار حاقد وحروب دينية كما أرادتها أوربا، كان لابد منه حتى نتعرف على الجو الذي ظهرت فيه دولة السعديين الأدارسة، والتي قدر لها أن تمكن للذاتية المغربية وأن تحافظ على وجود الإسلام في هذه الديار، فقد ظهرت كما رأينا في الوقت الذي عرفت فيه أقطار المغرب الكبير عموما والمغرب الأقصى عدم صلاحية آخر سلاطين بني مرين والوطاسيين الذين حلوا محلهم، وكذا بني عبد الواد الذين انتهوا إلى هاوية سحيقة من التردي والفساد، وكذا الحفصيين الذين بالغ أواخرهم في الإنحطاط، رغم كل المقومات الذاتية والمتمثلة في أصالة الشعب المغربي الإسلامي العربي، لقد كانت ثمة قوة صالحة لتحل محلهم، ثم تحول الهزيمة إلى نصر لولا وجود عملاء، فقد كان في الجزائر إلى جانب أوروج، وخير الدين من الجزائريين أمثال أبي العباس ابن القاضي(659) الذي رفض العون الأجنبي

---

(657) يقول صاحب تاريخ الدولة العلية ص 112، إنها أعيدت بعد ثمانية أشهر بمعرفة سنان باشا في أغسطس 1573م.

(658) راجع التعليق رقم 975 ومابعده إلى 982.

(659) راجع دائرة المعارف الإسلامية 65/9، 14/10، 19، 331- 333.

المشروط، خلافا لأخيه محمد، وعرفت المقراني وغيرهما، وعرفت تونس كذلك رجالات لولا قوة شارلكان لكان لهم دور طلائعي في الاستمرار كبني حمزة، وآل مرزوق، وغيرهم من الرجالات الذين أسهموا في التحرير...

أما في المغرب الأقصى الذي لم تصله قوات الأتراك قط ولم تدافع عن شواطئه التي كان معظمها قد أصبح للبرتغاليين فيها مراكز، كما سبق أن عددناها، بل والذين شجعهم سقوط الأندلس بطريقة فيها كثير من الغيظ، وفي زمن تخاذلت فيه السلطة بالمغرب نفسه، وأصبحت تترقب أسوأ المصير، في هذه المرحلة كذلك اَستطاع الاسبان والبرتغاليون أن يحققوا وجودهم في قواعد على شاطئ المغرب الأقصى، من سبتة إلى السوس، حيث ركزوا أكثر حماية لمادونها، وحتى يستطيعوا الانطلاق من مكان آمن بحثاً عن الطريق الجديد إلى مستعمراتهم بالهند، بعد أن يكونوا قد ركزوا سلطانهم بالمغرب واحتلوه.

وهنالك في أرض سوس أنشـأوا لهم مركزاً بحرياً بقرية «فونتي» وأصبحت لهم قوات عسكرية، وبحرية، يسيرها حاكم عسكري، بل جمعت الكثير من المغاربة المغامرين الذين استهوتهم فكرة الإرتزاق والغزو لتحقيق أغراضهم التي كانت تتفق وماتهدف إليه الدولة المتربصة وقتها، بل والتي كان اهتمامها أكثر ينصب على البحث عن طريق جديد يصل البرتغاليين بالهند، وحتى يتحقق هذا الهدف كان لابد من غزو مركز ومسح للشاطئ الممتد عبر الجنوب الغربي للمغرب خصوصا ناحية أرض سوس المواجه لشواطئهم.

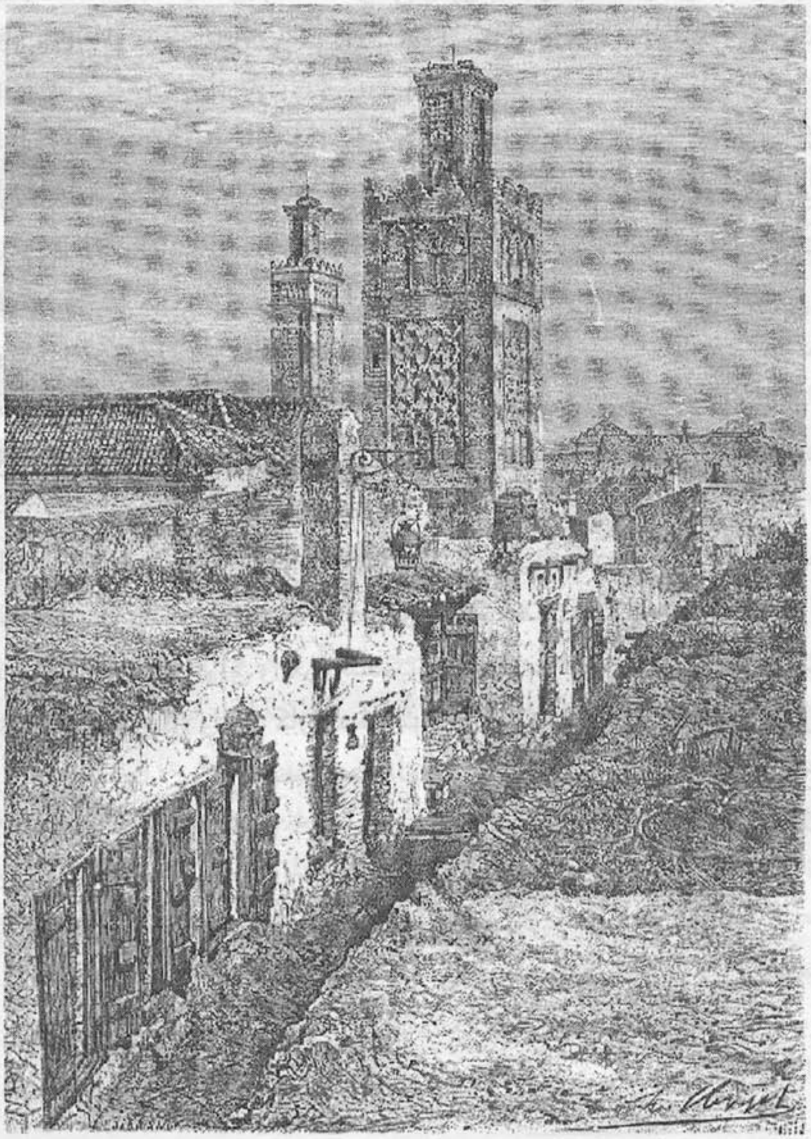

المنصورة شيدها يوسف الناصر الذي بويع في غرة صفر 1284/685 وقتل غدرا يوم 7 قعدة 706هـ/1306. حول تلمسان من أجل حصارها. والبرج شيده أبو الحسن المريني كدليل على عدم رغبته في الإطالة زمن العاق تاشفين.

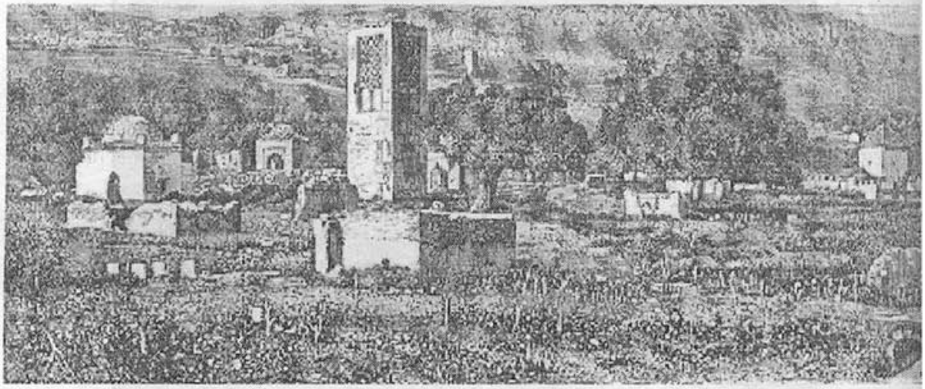

مدفن بومدين بتلمسان

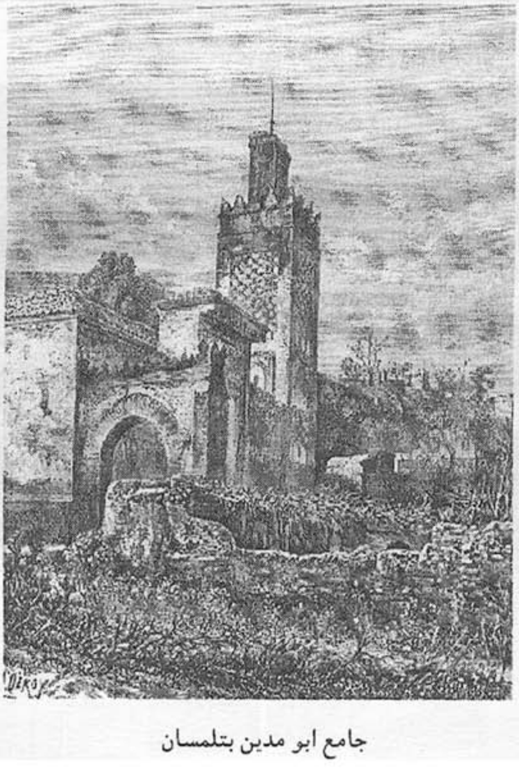

جامع ابو مدين بتلمسان

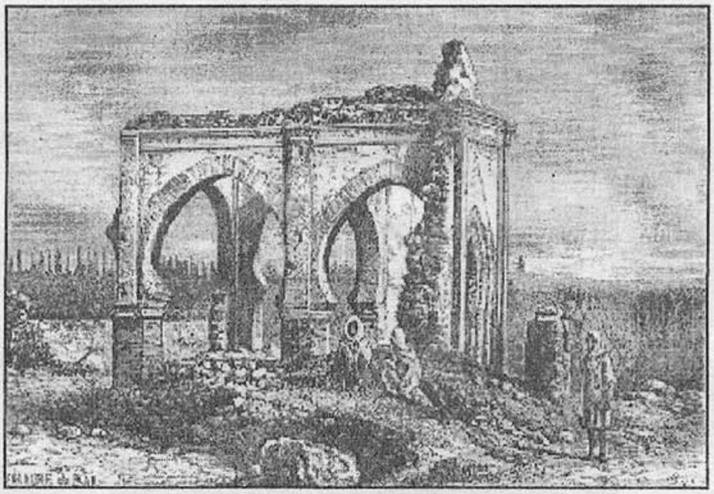

أول عهد المغاربة بالأضرحة على القبور في عهد بن مرين

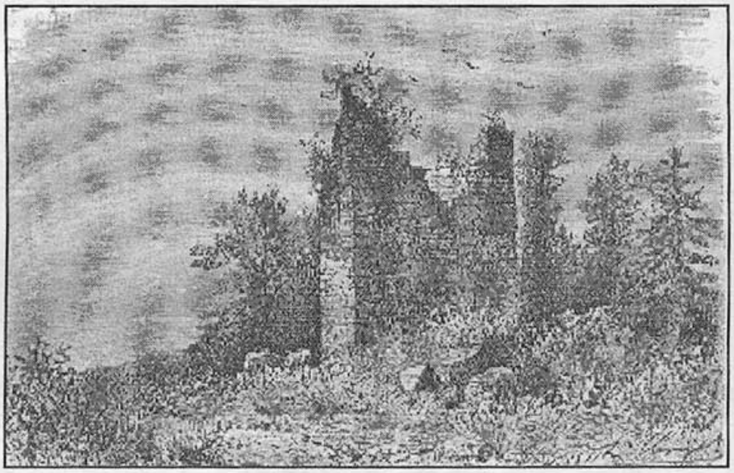

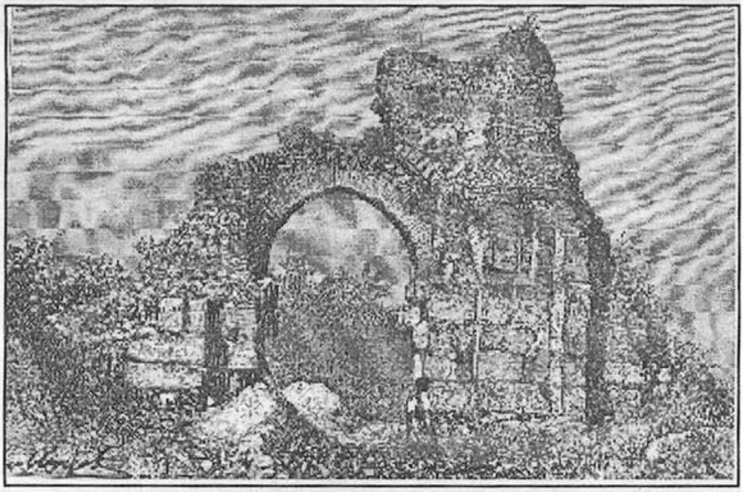

سيدي الداودي

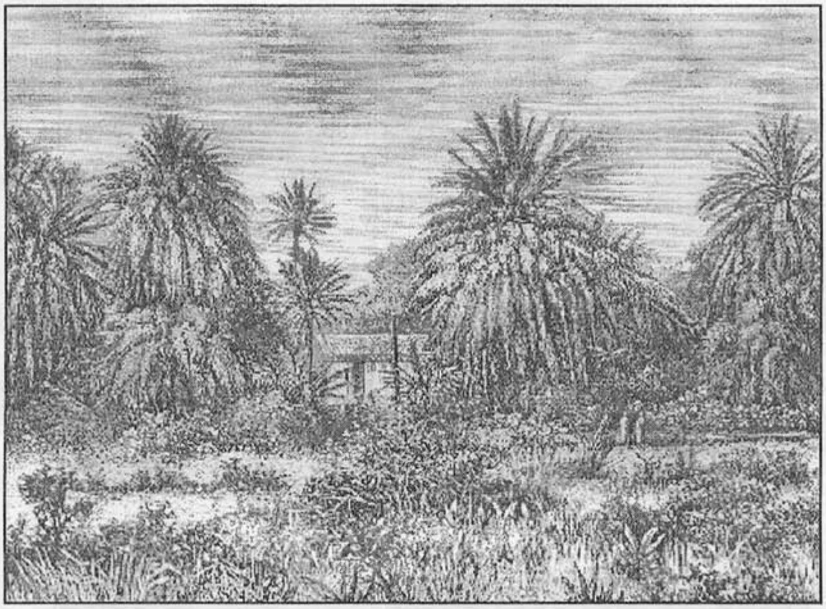

حمام بو حجر

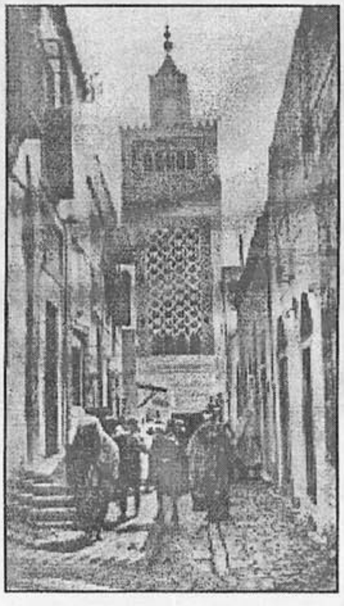

منارة جامع الزيتونة ذات الطراز الغربي

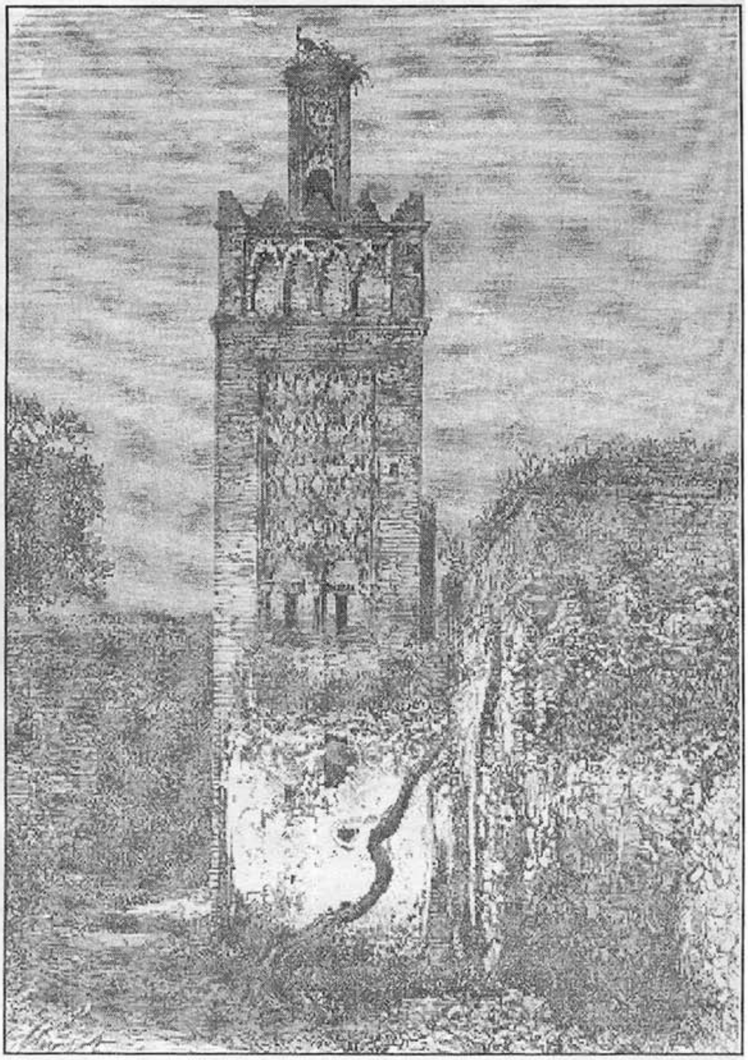

من آثار بني مرين في تلمسان

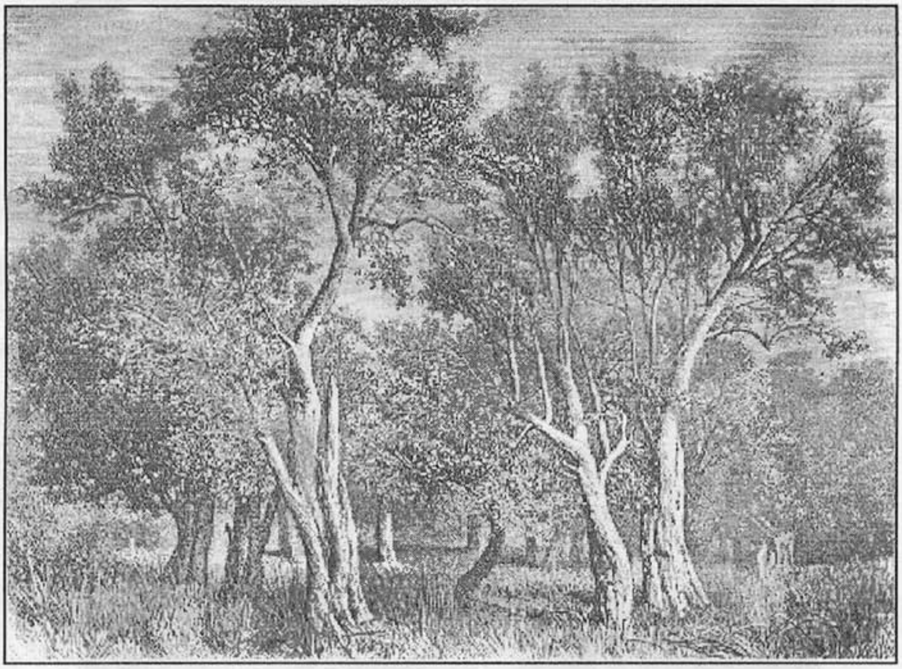

وليلي "زرهون"

يرجع تاريخ زراعة الزيتون الى حوالي3000 سنة مضت

ما استورده المغرب من الاندلس بعد سقوطها

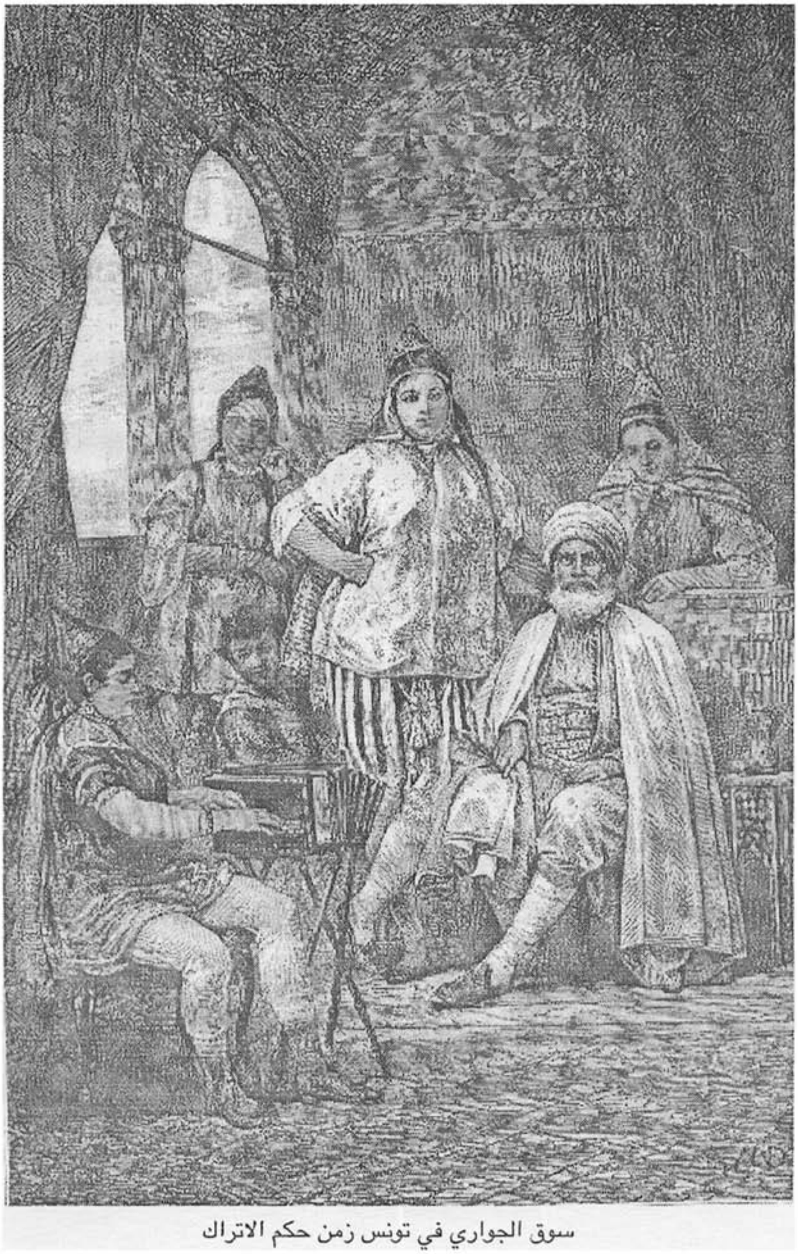

سوق الجواري في تونس زمن حكم الاتراك

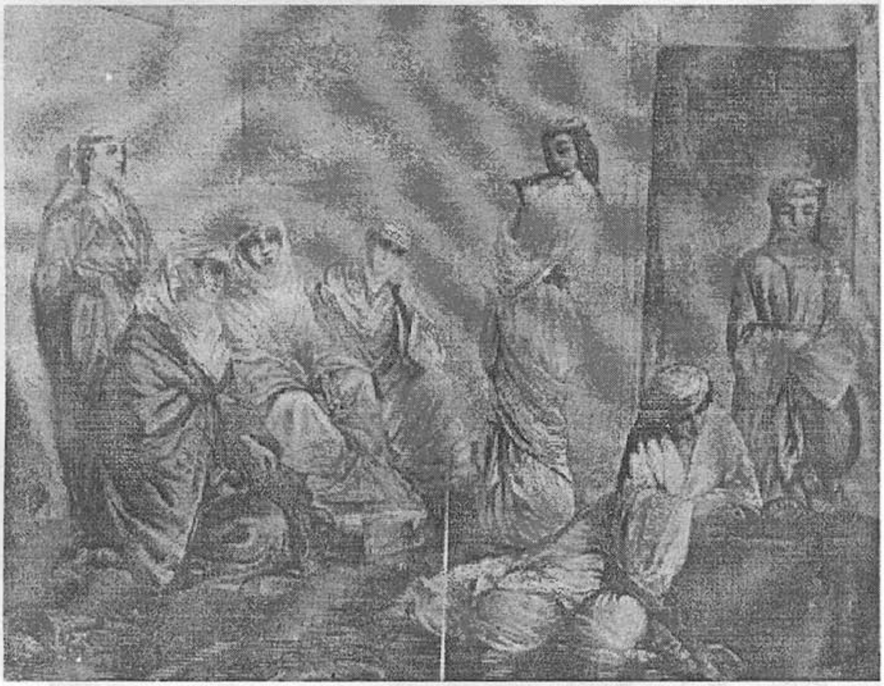

سوق الجواري في الجزائر بعد سقوط الاندلس وهجرة المورسكوس. عن مجلة لويستري
ص 1 رقم 157بتاريخ 16 ماي

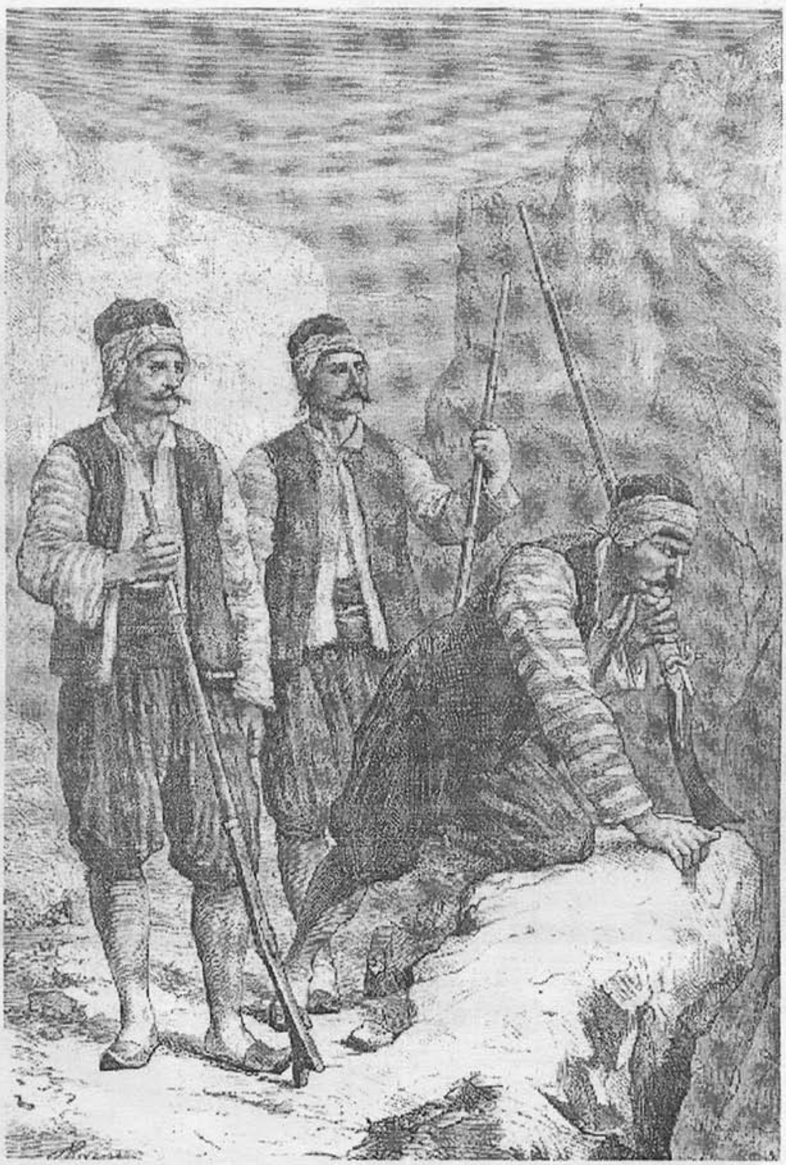

جند الانكشارية من الترك الذين أصبحوا في ولايات المغرب الكبير

ضريح من الاضرحة التي انتشرت في المنطقة

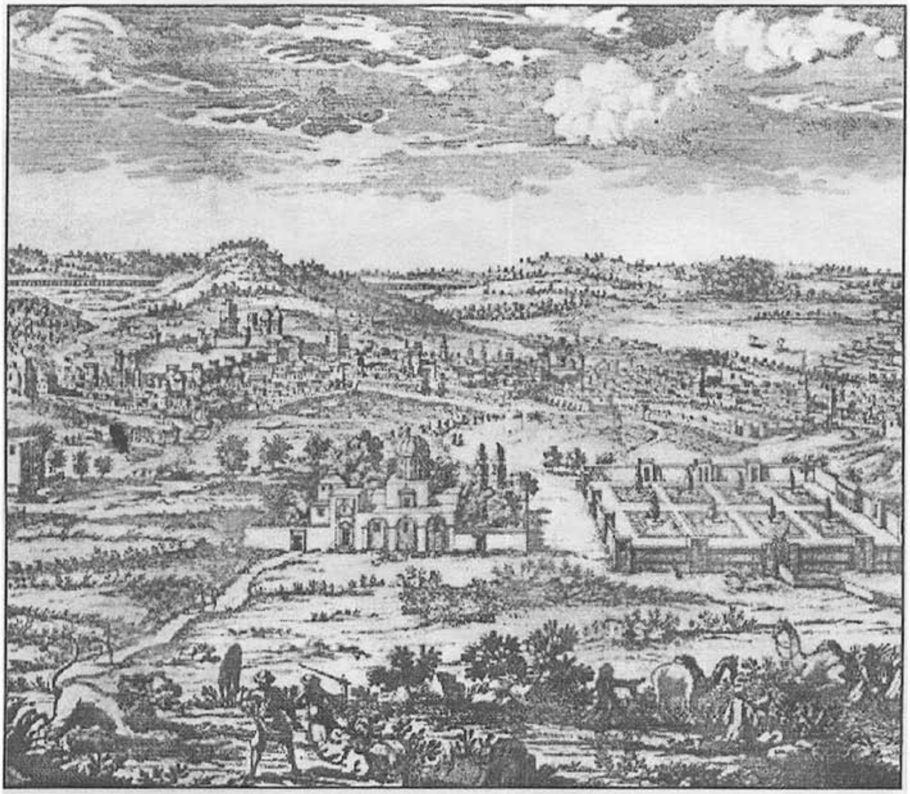

تونس العاصمة في اعقاب القرن السابع عشر

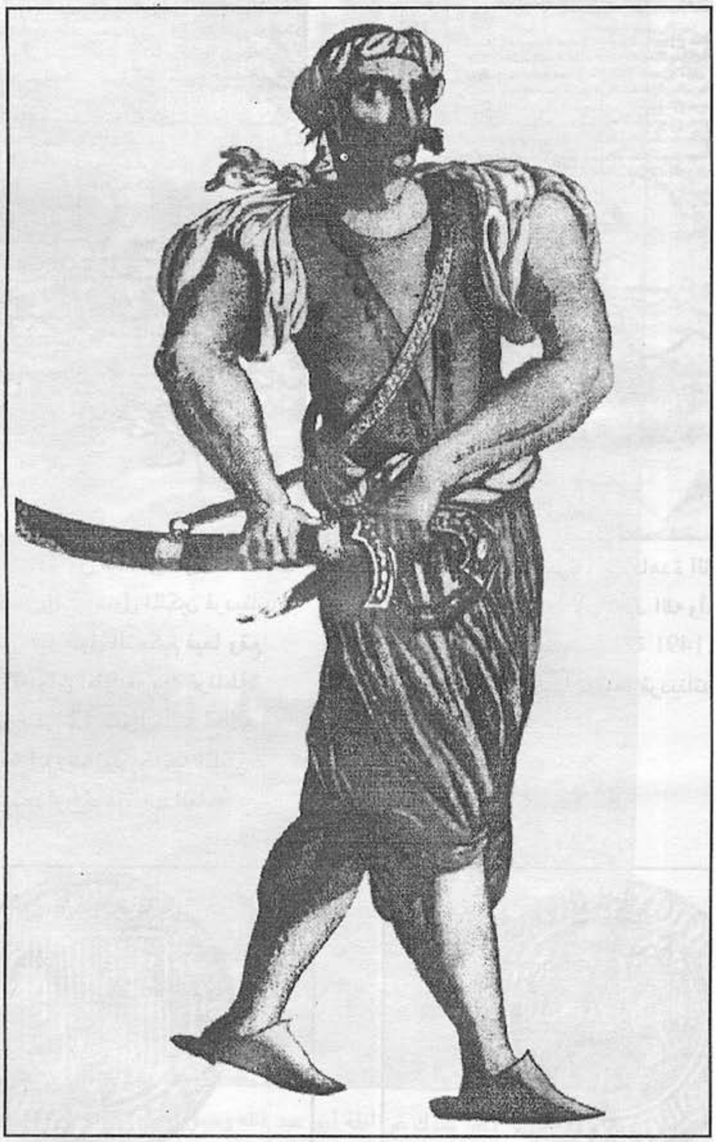

جندي تركي

صورة مرسوم صادر من سلطان غرناطة الغالب بالله أبي الحسن إلى رسول الملكين فرديناند وايزابيلا يقرر فيه قبول التحكيم فيما وقع من أعمال العدوان المتبادلة بين غرناطة وقشتالة مؤرخ في 12 شوال سنة 882هـ 19 يناير 1487م ومختوم بخاتمه الملكي ومحفوظ بدار المحفوظات العامة

الصفحة الأخيرة من معاهدة التسليم التي أصدرها الملكين لأبي عبد الله وأهل غرناطة، مؤرخة في 25 نوفمبر سنة 1491م (21 محرم 897هـ) وعليها توقيعا فرديناند وايزابيلا

نقد من الذهب عليه صورة كل من الملكين الاسبانيين ايزابيلا وفرديناند الخامس

آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله وصورته محفوظة
بمتحف دار الرماية بغرناطة

الفصل الثامن والتسعون

ظهور السعديين ومرحلة تأسيس دولتهم بانتصار أهل سوس

لكن قبل ذلك من هم السعديون؟ وماهي أصولهم التي ضل عنها المؤرخون؟

هنالك في أرض سوس كانت تقيم أسرة شريفة حسنية، وخلافا لما ذاع، وانتشر من تضارب حول نسبها. أرجح أنها تنتمي أصلا إلى ذرية إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وهي سلالة الشريف أمغار المعروف في المنطقة، وحسب قول آخر سنتعرض لمصدره بعد، ربما تكون من الوادغيريين – نسبة إلى شرفاء وادي گيير– الذين استوطنوا الوادي الأخضر، وسجلماسة وفجيج شرقا، ثم انتشروا في مختلف نواحي المغرب شمالاً، وجنوباً، إذ فيهم أي السعديون نجد إسم خلف الله الذي يطلق عليه أهل فجيج مخلوف، وقد انتقل بعضهم إلى أرض سوس بآيت عبد الله حيث يوجدون حتى اليوم كما سبق أن ذكرنا حين كلامنا عن الأدارسة قبل، وفي هؤلاء السعديين نجد اسم أولهم الذي هو أبو عبد الله محمد القائم، كما لقب وقت قيامه للجهاد فهو محمد، بن عبد الرحمن، بن علي، بن مخلوف، ومخلوف هذا ربما يكون قد سمي على الجد الأعلى الذي هو أصل الفرقة الرابعة من شرفاء فجيج كما رأينا قبل،[660] على أن بعضهم ردهم إلى ذرية عثمان بن عفان كما يقول صاحب «شذور الذهب في خير نسب» وهو النسابة التهامي بن رحمون العلمي، وأنهم من ولد رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم، وبذلك يكون شرفهم من جهة الأم «راجع الأعلام لابن العباس ج155/4، والمرجح عندي أنهم من الأدارسة. ولعل هذا الرأي الذي يظهر لأول مرة في تاريخ السعديين يحتاج إلى دراسة وبحث خاص، ولست فيه بعيدا عن الصواب، خصوصا وأنني وقفت على مصدر مخطوط هو المنسوب إلى «السيوطي» وماهو إلا

---

(660) راجع مابعدت 418 في الجزء الأول.

لأحد المؤرخين الادارسة(661) ورد فيه ماذكرت وهو الذي غير رأيي في السعديين الذين قلت قبل بعدم ثبوت نسبهم(662) مادام قد قيل أنهم أبناء عمومة العلويين يرجعون إلى القاسم بن محمد بن القاسم والد جد العلويين بالمغرب وهو الحسن الداخل للمغرب عام664هـ/1265م، والذي نسبهم إلى الأدارسة بلا شك لم يكن قوله مجرد قول ألقي به جزافاً، بل يكون بلا شك اعتمد فيه مصدرا لم نحصل عليه، لكن في استطاعتنا أن نعززه بتحليل ماذهب إليه المؤرخون، وماحدث من جدل حول نسب السعديين، مابين مزك وناكر، وقد أورد اليفراني في كتابه نزهة الحادي كل ذلك نقلا عن درة السلوك لابن القاضي(663)، وفيها أيضا أن جدهم قدم من الينبوع واستقر أوائلهم بدرعة ثم سكنوا بها، ولم يقتصر على ذلك، وإلا لكان الرأي غير مانوضح، بل زاد في صيغة التأكيد له، وذلك في مبدأ المائة الثامنة» ثم يقول قولا يرفضه التاريخ الحق: «وفي هذا العهد قدم جد شرفاء سجلماسة أيضا»، وهو زعم باطل، ويضيف:... «وأن الذي قدم – يعني جد السعديين– هو: زيدان بن أحمد الذي قال عنه بعضهم ابن محمد، ومحمد هذا كما زعموا هو ابن أبي القاسم، وبذلك يتوصلون «إلى أنه ابن عم الحسن الداخل بن القاسم، بل أخوه، وهذا كله مردود جملة وتفصيلا، فالحسن الداخل جد العلويين بتافيلالت قدم بالضبط وبإجماع المؤرخين سنة 664هـ/1265م في ظروف خاصة كانت سجلماسة فيها مضطربة الأحوال، وكما رأينا قبل وسنرى بسبب زوال الموحدين وإقبال بني مرين، واللذين قدما بالحسن الداخل ولأسباب سياسية في نظرنا تعني محاولة خلق إمارة منفصلة عن الحكم السابق واللاحق، هما رئيسا وفد الحجيج وقتها أبو ابراهيم العمري جد آل الشرقاوي العمريين بأبي الجعد، ودفين القصر المسمى باسمه في تافيلالت «أولاد

---

(661) المخطوط الذي يؤكد هذا من مخلفات خزانة الرشيديين أولاد محمد، وهو في حوزة الأخ العربي هلال الوادغيري ص 56 منه، وعليه خطوط كثير من العلماء المشهورين، وإشهادهم بصحة ماورد فيه، ولقد ظهروا لأول مرة، كما يخبرنا ابن الوزان، وصف افريقية 94/1 تحقيق د محمد حجي واحمد التوفيق ط 1980م، راجع فيها ان أكدير كسيمة وتيدسي كانت تسير بنظام جمهوري على رأسه ستة أشخاص يختارون بالقرعة، ويعوضون بآخرين كل ستة عشر شهرا ص 95، تم راجع نشر المثاني ج 368/1. 469 ط الرباط 1977 تحقيق الاستاذين د محمد حجي واحمد التوفيق.

(662) راجع الأنوار الحسنية لاحمد بن عبد العزيز تحقيق عبد الكريم الفيلالي ط 1966م.

(663) النزهة ص 9/ط 1888م.

سيدي أبو ابرهيم»، ومناع المعقلي، دفين ضريح الحسن الداخل جوار قصر گرينفود بتافيلالت، وذلك باتفاق مع الأهالي حيث استقدم لأغراض سياسية ندركها من دراستنا لأحوال سجلماسة وقتها، وليس لسبب عدم إثمار النخيل كما قيل ورد ده الذين كتبوا بعد، وهكذا فالذي نسب السعديين إلى الينبوع وقتها ربما يكون أراد التقية، أما تباعد زمن قدوم الأسرتين كما زعم بعضهم فواضح، وبالتالي فقد عرف نسب السعديين بسبب هذا الخلط جدلاً طويلا ربما هو الآخر ولأسباب سياسية لم يفصح عن إدريسيتهم، بل انتسبوا رأسا إلى محمد النفس الزكية، بل يقول بعضهم: إن نسبهم وجد مكتوبا بخط ابن عرفة التونسي(664) وصاحب القول ابن سودة نقلا عن مجهول من غير أن يكون لقوله مايعززه، وإذا كان قدومهم أوائل المائة الثامنة كما يقول اليفراني، وهو الذي اورد القول المزعوم نقلا عن ابن القاضي، فإن ابن عرفة المتوفى سنة 803هـ، لم يكن اهتمامه وهو التونسي أكثر من المغاربة، بل ما أشد بعده عن الموضوع.

وشيء آخر: إذا كان الذي قدم أوائل المائة الثامنة هو زيدان بن أحمد بن محمد، ومحمد هذا هو «ابن أبي القاسم» ويقولون أنه إبن عم الحسن بن قاسم الداخل، وفي هذا القول عدم رجحان يدركه المرءُ، وإن لم يرد إدراكه صاحب النزهة رغم أنه ردَّدَ قول المقري بالطعن الذي قال عنه اليفراني، إلا أن من الناس من يطعن في هذا»، ونقل ذلك عن الإمام الحافظ الحجة أبي العباس أحمد المقري(665) وعند المقريْ(666) أنهم من بني سعد بن بكر من هوازن(697)، والواقع أن بين الحسن بن قاسم الداخل سنة 664هـ ، وبين

---

(664) ولد ابن عرفة التونسي عام 716هـ، وتوفي في جمادى الأولى عام 803هـ.

(665) أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى المقريْ التلمساني، ولد سنة 992هـ /1584م، وتوفي سنة 1041هـ/1631م، له بخزانتنا مجموع خطب منبرية لم تعرف قبل وهي بخط شرقي راجع ترجمته في خلاصة الاثر، وتراجم إسلامية وغيرهما، وهو صاحب نفح الطيب، وأزهار الرياض، ولجده كتاب في الفقه يوجد ضمن مخطوطات خزانتنا الألف.

(666) نزهة، ص2، ونفس الشك عند القادري في نشر المثاني 155/1 حيث قال إن الولالي الذي حصل له خطأ، فسماه عبد السلام بن يعقوب الولالي بيد أنه أحمد بن يعقوب صاحب مباحث الانوار، كما علق المصحح، وهو الصواب، لأن المعروف هو أحمد بن يعقوب الولالي وولال فرع من آيت عطا الذين قال عنهم هو نفسه إنهم من أخلص قريش، أحمد بن يعقوب الولالي هذا قال للقادري إن بعضهم أخبره أنه رأى كتاب ابن عرفة في أنساب الشرفاء وطالعه. يقول القادري: «وياليتنا ظفرنا به» وما أظن هذا القول من الذي نقل عنه القادري صحيح.

(667) بل قيل إنما سموا بالسعديين، لان الناس سعدوا بهم نزهة ص7، ثم قال وهذا لا معنى له» وقد رد محمد الشيخ السعدي على هذه التهمة التي سيصرح بها محمد بن الشريف مؤسس ملك العلويين، راجع =

عبد الله الكامل تسعة عشر أبا ، فهو الحسن بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم، بن محمد، بن الحسن، بن عبد الله، بن أبي محمد، بن عرفة، بن علي بن الحسن، بن الحسين، بن أبي بكر، بن حسن، بن أحمد، بن اسماعيل، بن قاسم، بن محمد النفس الزكية، وقد أورد الزياني غير ماهو عند صاحب النزهة فيما يرجع لنسب العلويين من حيث العدد، وهو الأصح.

أما زيدان الذي يقولون إنه دخل المغرب في مبدأ المائة الثامنة فهو يتضارب مع قول السلطان، محمد بن عبد الله الذي روى عنه الزياني قوله الذي ينصحه فيه، وقد نفى عنهم النسب المذكور «لاتعد إلى هذا فإنهم أبناء عمومتنا ونحن وإياهم من قرية بني إبراهيم بالينبوع» بل قال محمد بن عبد الله إن جدهم قدم قبل الحسن الداخل بثلاثين سنة، وهو كلام مرفوض مادام لاسند له(668) وما أورده الزياني إلا مجاملة، خصوصا

= نزهة 7، الترجمان، والبستان، حيث أورد الرسالتين وفيهما يقول محمد الشيخ الأصغر بعد نفيه للسعدية، وأنهم من بني نزار بن معد» ونسي أن بني سعد بن بكر بن هوازن أنفسهم من نزار بن معد، فالذي كتب رسالة محمد الشيخ الأصغر إلى محمد بن الشريف أيام صراعهما لم يعرف ذلك، وأن بني سعد الذين منهم حليمة ظئر النبي صلى الله عليه وسلم يرجعون، إلى سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن غيلان، بن مضر، بن نزار، بن معد بن عدنان، وأن فرع إلياس بن مضر المقابل لغيلان، هو الذي منه مدركة، ومنه خزيمة ومن خزيمة كنانة، ثم النضر، ثم فهر قريش، الجد العاشر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا كان محمد الشيخ يقصد العدنانية فإن محمد بن الشريف لم يقصدها، بل قصد بني سعد الذين منهم حليمة، وقد أشار إلى ذلك وصرح به.

أما ما ورد في جذوة الإقتباس كتعليق رقم 287 ص212ط 1974م مما يعتبر لغواً فلا حاجة بنا للخوض في الرد على صاحبه المزعوم الذي فاته إدراك أن الربط بين الحسن بن قاسم الداخل وزيدان الذي قالوا عنه بن أحمد بن محمد بواسطة أبي القاسم تمنعه وتحول دونه مآت السنين الفاصلة بين الرجلين، ولقد وقع صديقنا السيد خير الدين الزركلي في خطأ زمني حين أرخ قدوم جدهم بسنة 664هـ، وهو تاريخ قدوم الحسن الداخل جد الاشراف العلويين بسجلماسة. راجع ترجمة أحمد المنصور السعدي في الاعلام ج 224/1، أو لعله اعتمد على رواية الزياني عن السلطان محمد بن عبد الله الواردة في البستان ص 4–5، مخطوط خ ن ا ع، المشار إليها، لكنه لم يورده من بين مصادره، كما أورد الزياني كلاما لاحد السوديين نقلا عن المقرى أنه رأى نسبهم بخط الإمام ابن عرفة، وعن أحد الفاسيين نقلا عن اجداده؟ أنهم من العباس بن عبد المطلب إلى غير ذلك من اقوال السوديين والفاسيين الغير المقبولة لانها لامسند لها، وكتاب الفكر السامي لمحمد بن الحسن الحجوي، وماقرره في حق التاودي، وإن كان الحجوي نفسه لم يسبر الغور، ولم يكتشف مزاعم ومفتريات التاودي، ومنها تلك التي استهوت رغبة السلطان محمد بن عبد الله بالزعم الذي استنكره العلماء حول الجيش والزكاة لان مفترياتهم كثيرة سواء في الفقه، والتاريخ، والانساب وحتى العبادات، راجع كتابنا «التاريخ المفترى عليه في المغرب» ط 1969 م بل وماكتبه بعضهم حول آبائهم من مفتريات واضحة الافتعال.

(668) راجع الترجمان المعرب للزياني م خ ع ص 343، والبستان ص 4–5 م خ نا.

وقد قدم الزياني رأيه مسنداً بحجج دافع عن صحتها في عدم صحة نسبهم، ولو أنه وقف على المخطوط المشار إليه والذي نسبهم إلى ادريس لقال بذلك.

وإذا نحن رجعنا بعمود نسبهم الموضوع إلى قاعدة ابن خلدون التي قرر فيها أن لكل مائة سنة ثلاثة من الأجيال نجد القول بدخول جد السعديين أوائل المائة الثامنة لايتفق مع ذلك، فهم يقولون عنهم أبناء زيدان «الداخل»(669) بن أحمد بن محمد النفس الزكية؟ وعلى فرض أن زيدان هذا حسب أقوالهم، بل وقول المولى محمد بن عبد الله السلطان الذي أورده الزياني وأنه دخل سنة 634هـ، فإن محمد النفس الزكية المولود سنة94هـ 712م والمتوفي 145هـ 762م، بينه وبين زيدان الداخل 489 سنة، أو كأن زيدان لم يعرف حين دخوله من المشرق كما عرف الحسن بن قاسم الخ، ومهما يكن فقد ورد في كتاب «التحقيق في النسب الوثيق» المنسوب للعشماوي، والمعروف كذلك ب «السلسة الوافية، والياقوتة الصافية مخطوط ص 56 مايلي:

الملوك السعديون أصلهم من فجيج، هم من قرية يقال لها الشلالة الحمراء يعني بنيانها فوق كاف أحمر، والعين التي تحت القصر تسيل بالماء إلى ناحية الجوف، فأما جدهم محمد بن الشيخ القائم عام 915هـ الذي انسل منه شرفاؤهم فهو: محمد، بن الشيخ، بن محمد، بن عبد الله، بن عبد الرحمن، بن يعلي، بن عبد العلا، بن أحمد، بن محمد، بن عمر، بن عيسى، بن سليمان، بن الحاج يوسف، بن محمد، بن أحمد، بن ادريس، بن ادريس، الخ، وهذا نفسه يتناقض مع ماهو ثابت ومحقق من أصول الادارسة أهل فجيج، كما سبق» راجع أعلاه.

ولقد أورد ابن القاضي في «المنتقي المقصور على مآثر الخليفة المنصور» نسب المنصور الذي ارتفع به الى الحسن السبط، حيث بلغ عدد آبائه بدءا من والده محمد المهدي إلى الحسن السبط خمسة وعشرون، وهو عدد تظهر فيه الصنعة، ذلك أننانجد إبن القاضي رغم ما عرف من جدل حول السعديين يأتي بهذه السلسة التي لم تعرف قبل ، والتي رغم ما قيل حولها من خلل ، أشار إليه اليفراني في النزهة، (ص4) وأنه لم يكن للنفس الزكية ولد اسمه القاسم الخ ، كما أن ابن القاضي يخبرنا أن الذي أطلعه على

---

(669) قولهم الداخل يؤكد اعتقاد المؤرخين أنه أول من دخل المغرب؟؟؟ في نظرهم.

النسب الذي أورده للمنصور، إنما هو أحمد الهوزالي قائد قواد ولي العهد محمد المامون، بداره عام ثلاثة وتسعين وتسعمائة، وهو مصدر هش لأنه زمن قوة المنصور وفي عهد سلطته، وكم لهذا من شبيه في تملق المفترين لذوي السلطان قديما وحديثا، بل وشيء آخر نلاحظه، وربما لم يكترث به المؤرخون هو أن هذه الأسره ذابت ولم يعرف لها اليوم من خلف في الوقت الذي نحن اليوم نميز بين أبناء إدريس أصولا وفروعا، ومع ذلك ومهما يكن فإننا نميل إلى القول بإدريسيتهم كما قال صاحب «التحقيق في النسب الوثيق» وكذا المنسوب للسيوطي، فالذي يجب أن يتحقق منه المؤرخ هو البحث متى وكيف انتقلوا إلى تاگما دارت» بوادي درعة، ولاشك سيجد الحقيقة التي ضاعت ثم تركت المؤرخين يضلون ويختلفون، على أننا لانعدم ذلك لو وجد من يتخذ هذا الموضوع للدراسة والخروج بإطروحة مركزة، وبعد هذا وذاك فالتحقيق في النسب إنما يرجع للاهتمام بالأصالة التي يعتبر أصح منها قوله صلى الله عليه وسلم « كلكم من آدم وآدم من تراب»، وعظمة السعديين لا تحتاج إلى تأكيد بل تتوجها عظمتهم من محمد إلى المنصور الذي أعاد للمغرب عزته وللاسلام صولته في هذه الديار(670) رغم بعض المآخذ على أحمد المنصور.

نسب السعديين

(خ ع 1574 ك ص 151) كما زعموا، وقد نقله القادري عن ابن القاضي في درة الحجال، وقد قال القادري: ولم يزل الطعن فيه من شرفاء تافيلالت، وغيرهم ، وينفون اتصالهم في النسبة كما يقتضيه العمود المذكور: ويضيف القادري : «وسمعت من شيخنا ابن سودة عن شيخه أبي العباس المقري أنه قال: «وجد بخط الإمام بن عرفة ثبوت نسبهم المذكور». وفيه نظر من كون الذي وجده بخط ابن عرفة غير معروف، ومن كون ابن عرفة تصدى بذلك، وهو ليس بأعرف بهم من أهل بلدهم ، ومن كونهم لم يكونوا في وقته ظاهرين مشهورين. ولعل نسبة ذلك لابن عرفة من المنتفعين فيهم من أهل زمانهم ألهم

(670) أذكر أني وقعت قبل 25 سنة في نفس الخطأ الذي لايزال يقع فيه كل من يكتب حول السعديين منذ عهد المقرى، راجع الزياني، والاستقصا، والنزهة، وغيرها من المصادر ثم راجع كتابي المغرب ملك وشعبا ط القاهرة1957م وتقديمي لكتاب الأنوار الحسنية لأحمد بن عبد العزيز بن لحسن ط 1966.

إليه ذكر ابن عرفة في عمود النسب، وهو غير الإمام الفقيه الشهير ، والذي ثبت عندي من الثقة عن عمنا أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر أبي العباس بن الشيخ أبي المحاسن أنه كان يثبت كونهم من بني العباس بن عبد المطلب، ويرجح نسبتهم إليه، فهذا ما بلغ إلينا، وليس عندنا من اليقين، والله سبحانه أعلم. وهذا نسبهم كما زعموا والذي نقله القادري عن ابن القاضي في درة الحجال:

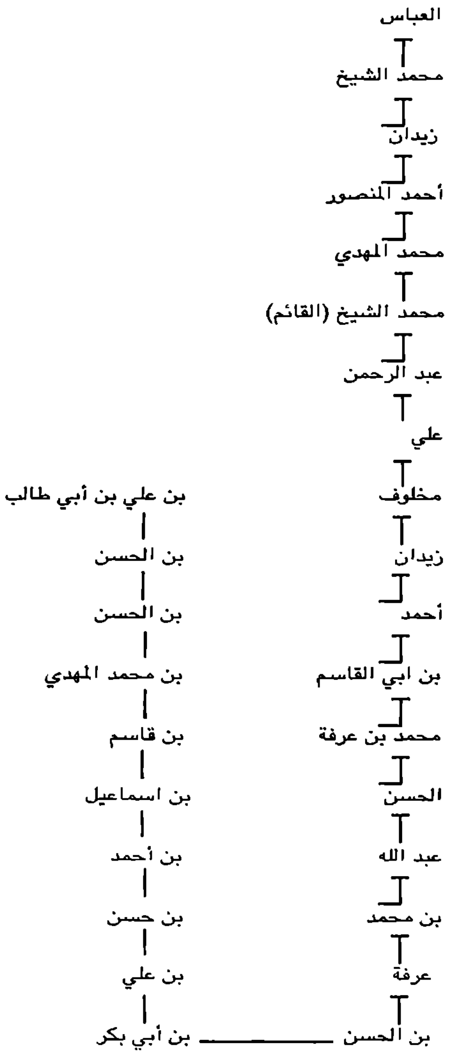

نسب العلويين

الحسن
↑
علي الشريف
↑
يوسف
↑
علي
↑
محمد
↑
علي
↑
الشريف

محمد — الرشيد — اسماعيل

محمد
↓
الحسن الداخل
↓
بن قاسم
↓
بن محمد
↓
بن أبي القاسم
↓
بن محمد
↓
بن الحسن
↓
بن عبد الله
↓
بن أبي محمد
↓
بن عرفة
↓
بن الحسن
↓
بن أبي بكر
↓
بن علي
↓
بن حسن
↓
بن أحمد
↓
بن اسماعيل
↓
بن قاسم(671)
↓
بن محمد النفس الزكية ← بن عبد الله

بن عبد الله
↑
الحسن المثنى
↑
بن الحسن
↑
بن علي وفاطمة رضي الله عنهم

وقد تفرعت شجرتهم من المولى علي الشريف وولديه محمد ويوسف.

(671) وعند أبي عبد الله المسناوي، يقول ابن الحاج ص 56 م نا: إن القاسم الموصول لمحمد النفس الزكية ليس هو بابنه المباشر ، وإنما هو حفيد حفيده، وأنه القاسم بن الحسن الأعور بن محمد الكابلي بن عبد الله الأشتر بن محمد النفس الزكية.

ومهما يكن فإن المغرب الكبير عرف الإنقاد من المسيحية التي عملت على هدم الإسلام في الأندلس، كما عرف التحرر من الاستعمار على أيدي السعديين عندما قام البرتغاليون بإحتلال شواطئه إلى سوس، ما بين 875 – 904هـ 1470–1497م، ويقول المراكشي التعارجي السوسي صاحب الإعلام 155/4 أنه مضي عليهم بفونتي 72سنة؟ والواقع أنهم لم يستقروا بها غير ثلاثين سنة حسب التاريخ الأوربي « راجع: د:المعارف الإسلامية» ذلك أنهم أنشأوها عام 1500م، واستولى عليها السعديون 1530م ، فقد كونوا –أي البرتغاليون – لهم مدينة فونتي التي أنشأوا بها معسكرا لهم ركزوا فيه حاميتهم التي كان على رأسها حاكم عسكري هو « دوم كوتيريه ده مونرا » الذي أخذ يجرب قواته في التوسع بحملات أثارت حمية المواطنين هناك، وإذا ماآلت دولة الوطاسيين إلى الضعف والتفكك وعدم القدرة على حماية البلاد، فإن جموع أهل سوس الذين لم يجدوا قيادة تنظمهم وتقود جموعهم إلى الجهاد ورد العدوان – شأن المغاربة وقتها عموما– غير رجال الزوايا الذين كان هذا دورهم وقتها، ومنهم الحسنيون بوادي درعة.

وكان محمد القائم بن عبد الرحمن، قد تعلم في مدرسة والده التي أنشأهابقرية (تدسي) بسوس بعد قدومهم من «تاگمادارت» بدرعة، وكان قد تكون معه آخرون أصبحوا علي جانب مهم من العلم والإدراك لأصول الدين الذي قال رسول الله عليه وسلم: « من لم يهتم بشؤون المسلمين فليس منهم» ، وإذا كان محمد الشيخ بن عبد الرحمن في مقدمة من يدرك ذلك وينبه إليه، مما جعله يحظى بينهم بالزعامة و التقدير وكبير الإعتبار، وإذا هو تمكن من معرفة كل رجالات سوس وذوي الشفوف بينهم، وإذا كان والده بحكم عمله الذي هو التعليم قد مكن لمركز الولد، فإن أبا عبد الله محمد أصبح بحكم فراغ السلطة محل ثقة يصلح بين المتخاصمين، ويوفق بين المتخالفين بالود، والخلق، وحسن المعاملة، حيث نالهم من كرمه وحسن توجيهه ما جعله في نظهرهم القائد الرائد، والملجأ المقصود في ظروف عز فيها الرواد وافتقد القواد، وإذا العدو أكثر من اعتداءاته على الأرض وساكنيها بعد احتلاله قرية «فونتي»، فإن على أبي عبد الله، وقد أصبح له ولدين قادرين على حمل السلاح والجهاد دفاعا عن الحرمات أن يبدأ المقاومة ضد العدو بهما، وفعلا جرب مرة وثانية وثالثة، كان التوفيق فيها جميعا حليفه وولديه أحمد ومحمد،

وأصبحت غاراتهم حديث الآخرين رجالا ونساء، في طول البلاد وعرضها، فكان جهاد أبي عبد الله ضد الكفار والغزاة عملا بطوليا دفع لإثارة الحماس، فأخذ الناس يتواردون قصد الإنضمام إلى صفه والجهاد معه، وكثرت جموعه بشكل أصبح معه في حاجة إلى تمويل وسلاح ورديف رجال ، وهو ما يحتاج إلى الاتصال بمختلف مدن وقرى ومداشر أهل سوس، ولا يمكن إلا في الموسم السنوي الذي اعتاده أهل البلاد بمناسبة المولد النبوي الذي أصبح عادة قد ابتدعه في المغرب آل العزفي المشار إليهم قبل.

وفعلا كان ذلك سنة 915هـ /1509م، وهي السنة التي طرد فيها «فيليب الثاني » نهائيا آخر ما تبقى من المسلمين بالأندلس تحت ضغط وتهديد آل عثمان بقتل جميع المسيحيين في بلاد الترك، بل السنة التي خرج فيها الوزير الإسباني «زيمنيس» لمحاربة الزيانيين بتلمسان(672)، فكانت الفرصة مواتية لأبي عبد الله كي يثير نقمة وحماس من حوله من أشراف وعرب سوس الذين بيدهم القيادة و التوجيه، وفي الجمع العام قام خطيبا فيهم باللهجة البربرية لهجة المصامدة التي طوعت أكثر من غيرها من لهجات البربر للشرح والتوضيح في مجال الدين والسياسة منذ عهد ابن تومرت، وفي خطابه عدد كل ما قامَ به خصوم الدين والوطن من فظائع ضد المسلمين شيوخا ونساءً وأطفالا، وما أشرفت عليه محاكم التفتيش بالأندلس من قتل وتمزيق وإحراق للذين لم يريدوا الخروج من الإسلام واعتناق المسيحية، وأخيرا طردتهم حفاة عراة بعدما جردتهم مما يملكون حيث كان لخطابه من الأثر في النفوس ما حقق الهدف الذي قصد، فقام تحت وطأة الحماس وقتها بتأليف شبه حكومة من خير رجالات سوس وأعيان قبائله، وأصبحت مهمتها رد المظالم ، ونشر العدل، وجباية الأعشار، لتمويل المجاهدين، ولما تمكنت الحكومة وأصبحت قادرة على إبداء الرأي ومقابلته من المواطنين بالقبول، إقترحت على رئيسها محمد القائم بالدعوة إلى الجهاد أن يكون العمل فيما يستقبل من الأيام تعميم التجمعات والدعوة إلى بيعته في مثل التاريخ واليوم من السنة المقبلة، وحتى يختبر هل ثمة مزاحم، وفعلا كان هناك رجل يمكن أن يزاحم القائم، إنه المجاهد المعروف الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي(673)، لكن روح المثالية دفعته إلي ضم جهوده لجهود محمد

(672) راجع سيديو 189.

(673) نسبة إلى آقا، بتشديد القاف جهة معروفة بسوس الأقصى وقد توفي رحمه الله سنة 924هـ /1518م.

القائم، وتقديمه بصفته حسني، وحتى تهيء الحكومة الموقتة الجو قامت ببناء دار خاصة عبارة عن قلعة توحي بروح الاستعداد للجهاد، أتخذت كمركز لتجمع المجاهدين وجمع الضروري مما يحتاج إليه استعداداً، واختارت لها مكانا ممتازاً بأرض مزگيته قرب المكان الذي عرف بعد ب «أجدير» سماها القائم قبل «تلطني».

وفعلا تمت البيعة في أحسن الظروف ووقتها كان لابد من مساعد إلى جانب أبي عبد الله، وحتى يحول بين أعيان القبائل والتنافس الذي ربما يتطور إلى نزاع، وتنافر، يتسببان في الفشل، إختار ولده الكبير أحمد، رغم أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره،(674) وهو الذي عرف بعد بالأعرج، اختاره بالانتخاب كما جعل بجانبه ولده الثاني محمد كمساعد، وقتها أرسلهما إلى بقية قبائل سوس ودرعة كمبشرين ومستنفرين،(675) يدعوان الناس إلى الجهاد باسم والدهما المبايع، وإذا نحن عرفنا مدى تعلق أهل سوس بالدين، وحب آل البيت الأدارسة الذين يوجدون بينهم بكثرة، أدركنا مفعول الدعوة فيهم، وقد أثمرت بظهور القواد الراغبين في الدفاع ضد العدو، وإذا كانت الجولة الأولى موفقة، فإن الذي فاز فيها بالحظوة والاعتبار، هو محمد الذي لم يغيره ولم يبدل من خلقه وبساطته ما أصبح لوالده من سلطان على النفوس وقدرة على التنفيذ بالانتصار الذي حققه بقيادته لأهل سوس في المعارك الأولى.

كان محمد بن القائم المولود عام 894هـ/1488م، رغم أنه أصغر من أخيه أحمد أكثر معرفة وعلما وخلقا، مما جعله أحق في أعين الناس بالتقدير وكبير الاحترام، بل بسلوكه استطاع أن يجلب حبهم بروح التودد التي كانت فيه طبيعة ودون تكلف، وذلك في الوقت الذي لم يكن أحمد يستطيع ذلك، وربما بسبب غروره بالسلطة، وما أسند إليه والده من نفوذ في وقت مبكر لم يتجاوز فيه سن المراهقة، فكان كما يظهر استنتاجا مما حدث يظهر من الحدة والتكبر خلاف ماعرف من أخيه من لين وتواضع حتى لقب بالشيخ، لأنه إلى جانب حفظه للقرآن العظيم، تقول الرواية أنه كان يحفظ البخاري، والموطأ،

---

(674) ولد سنة 891هـ 1484م، وبويع بولاية العهد سنة 918هـ/ 1512م، وتولى الملك سنة 923هـ /1517م وقتل في السجن هو وأولاده كما سنرى.

(675) ولد سنة 894هـ 1488م.

وديوان المتنبي(676) حتى إن الفقهاء كانوا يجدون حرجا فيما يطلب إليهم من فتاوى بعد، وتقول الرواية والواقع أن لينه انقلب بعد إلى قسوة قاسية وعنف عنيف.

في الوقت الذي كان ولدا القائم يقومان برسالة التبليغ، كان هو يقوم بحملات متوالية ضد مراكز العدو، وإذا نحن علمنا أن جهود البرتغاليين كانت موزعة على المراكز المحتلة من سبتة إلى سانتاكروز،(677)، مما أدى بالقائم إلى إضعافها وزحزحتها من موقعها، وبعث الإضطراب في صفوفها، بل ماكادت السلطة تتركز في يده، ويعرف تعلق رجال القبائل بشخصه حتى فكر في خطوة أخرى إلى الأمام، وهي أخذ البيعة لولده الأكبر حتى لايحدث فراغ إن هو أستشهد، وكان الموقف منه فرصة حتى يقف على الحقيقة والواقع الذي سيقدم عليه هو وأسرته بعد، خصوصا وأن مدينة أزمور تعرضت لغزو واحتلال في تلك السنة، ولابد من الدفاع عنها وعن غيرها، وفعلا تمت بيعة أبي العباس أحمد الأعرج في حياة والده، بل قدمت وفود القبائل المجاورة لمراكش وآسفي تبايع الأب وتبارك الإبن، ولربما كان أهل سوس يتمنون أو لو كانت لمحمد الشيخ، لكنها إرادة الوالد القائم وقد قادهم من نصر إلى نصر، ولذلك يفعل مايريد مادامت الغاية هي الدفاع عن حوزة البلاد ورفع الظلم، وفعلا بعد تحرير شاطئ سوس انتقل الجهاد إلى آسفي.

بويع أحمد بمحضر الجموع كالعادة سنة 918 هـ/ 1512م، وإذا ما استمرت قيادة القائم بعد ولمدة خمس سنوات وجه فيها حملاته المتتالية ضد العدو فإنه توفي رحمه الله بعد سنة 923هـ/ 1517م، لكنه لم يغادر هذه الدنيا إلا بعد أن كان سلطانه، وسلطان بنيه قد تركز وتمكن من قلوب أهل سوس وما حولهم من بربر المصامدة وعرب المعقل، وأصبحت الجموع في مراكش وغيرها من الجهات التي انحل فيها سلطان الوطاسيين تتمنى اللحاق بهم حتى يطمئن الناس على دينهم ودنياهم، وذلك مافعله بعد أمير هنتاتة وغيره، ولم يغادر القائم الحياة الدنيا إلا بعد أن وضع للدولة نظاماً يضمن استمرارها

(676) راجع الأعلام للعباس بن ابراهيم 152/4، لايعتبر هذا مبالغة، فقد ألفنا في المغرب أن نتعرف على الذين يحفظون القرآن في سن العاشرة، كما رأينا حديثا(1970م) في مبارات لوزارة الاوقاف من يستظهر البخاري، ومن يقرأ بالروايات، وكفى بأبي شعيب الدكالي دلالة على ذلك قبل في عهد المولى الحسن، وفي هذا العصر يوجد أطفال في البادية كذلك لهم نفس الحافظة.

(677) راجع الفصل 97 أعلاه.

حين أسند ولاية العـهد ونص على استمرارها للأكبر سناً من الإخوة أو الأبناء، وذلك اقتداء بنظام آل عثمان الذين كانت تسند ولاية العهد فيهم للأكبر من الإخوة أو الأبناء.

كان على أبي العباس أحمد الأعرج كي يثبت أنه أهل للسلطة وخلافة القائم في الجهاد، أن يتقدم خطوة إلى الأمام بمهاجمة البرتغاليين في الحصن الذي أطلقوا عليه «سانتاكروز داجويه»، ومحاصرة حاكمه «دوم كوتيرده مونروا» وإذا هو فعل فإن الحصار دام زمنا غير قصير، وكان البطل الذي اشتهر في هذا الحصار هو أخوه محمد الشيخ الذي كان أكثر صبراً وصموداً، وأقدر على الاحتمال من أخيه أحمد، خصوصاً بعد مقتل صهر الحاكم المذكور وهو «دوم إيان ده كورفال» وأسر زوجته «دونا مانشاده مونروا»... بهذا الموقف وغيره استطاع السعديان أحمد الأعرج، ومحمد الشيخ أن يجلبا ما حولهما من القبائل التي تقاطرت عليهما مؤيدة ومناصرة من كل حدب وصوب، خصوصاً وأن الوطاسيين لم يعد في استطاعتهم التحرك من فاس، وقتها أصبح لزاماً على أبي العباس الأعرج أن يستنفر القبائل وينظم الجيوش ثم يزحف على مراكش، وقد خرج إليها من تارودانت عندما بلغه أن الذي سيقصدها هو محمد بن أحمد الثاني، وليس أبو العباس الوطاسي، ليقضي على ماقيل له أنها حركة تمرد يمكنه القضاء عليها، لكنه ماكاد يرى ويتحقق ماظهر وتمكن من قوة أبي العباس الأعرج حتى فر راجعا إلى فاس 930هـ 1523م، ولم يغادرها إلى أن توفي سنة 932هـ/ 1525، فتملك الأعرج مدينة مراكش التي نقل إليها جثة والده دفين حاحة، ومنها أخذ يوجه جيوشه لقتال العدو بآسفي التي كان البرتغاليون قد تمكنوا منها ثم جعلوا عليها عميلاً لهم هو «يحيى بن تعففت» الذي اندحر أمام جيوش الأعرج ثم لقي حتفه في ظروف دفعت البرتغاليين إلى اعتبار ماجد في المغرب، وأنهم لم يعد في استطاعتهم تحقيق الأهداف التي خططوا لها، والتي هي الإستيلاء على الساحل الذي سيمكنهم من تخوم إفريقيا وذهبها وعبيدها.

كان الأعرج بانتصاراته وماكون حوله من حاشية مناقضة لأهل سوس الذين عرف عنهم الميل لأخلاق أخيه محمد قد زينوا له الكثير من التصرفات التي لم ترق لمحمد الشيخ ولسدنة أبيه محمد القائم، والذين ألفوا منه التكريم والإكبار وجميل الخلق، وكان الأعرج بمقامه في مراكش قد انقطع للذين استهووه ثم ترك الشيخ المرابط من أجل

القتال بلا قوة فعالة من حيث الجيش والسلاح، مما دفع البرتغاليين إلى التفكير ثانية في التركيز على أجادير، وكاد أهل سوس يثيروها فتنة ضد الأعرج، لكن حكمة الشيخ حالت دون ذلك، وقدم الوفاق والوئام حتى ينتهي الحساب مع البرتغاليين الذين خرجوا قبل من السويرة 1519/926م، وليس هذا فحسب، بل الوطاسيون أنفسهم تحركوا في شكل مغاير بعد بيعة أبي حسون علي أخو محمد، ولما تمضِ سنة حتى قام عليه أحمد بن محمد الشيخ الوطاسي، ثم سجنه إلى أن أشهد عليه بعجزه ثم خلعه وسرحه، وإذا مابويع محمد الشيخ بفاس سنة 943هـ/ 1536م، ثم تحرك بعد البيعة في تجاه مراكش، حيث لقيه أبو العباس الأعرج بأبي عقبة، وهذه المرة على ضفة وادي أم الربيع مما يُستدل به على تقدم قوات السعديين إلى الأمام، فإن الوطاسي انهزم واستولى الأعرج على معسكره كما إستولى على قصبة تادلة.

لعل هذا الإنتصار الذي حققه الجانب المراكشي إلى جانب الأعرج، وفي غيبة محمد الشيخ، دفع الأعرج وحاشيته إلى سوء التصرف إزاء أخيه محمد الشيخ وكذا إزاء أهل سوس، مما أثار ضغينة أبي عبد الله على الأعرج حفاظاً على كرامته وانتصاراً لسدنة أبيه ومناصريه الذين لهم فضل السبق والتأييد حتى أصبح للسعديين دولة، وإذا هو لم يجد وسيلة يثير بها الأعرج غير فكرة ولاية العهد التي أبدى حولها ملاحظته، والتي كان الأعرج يرشح لها ولده زيدان، أبدى الشيخ في شأنها رأيه ثم ألح على احترام ماكان والدهما قد وضعه من أساس، وأنها للأكبر فالأكبر، وإذا هولم يجد قبولاً من الأعرج، بل وجد تدخلا سافراً ممن حوله، عليه وقد اتفق رأيه مع أهل سوس أن يصمم العزم على خوض المعركة ضد أخيه وضد هنتاته وحاحة وغيرهم من الذين لم تكن لهم أسبقية في الجهاد ثم أصبحوا أكثر نفوذا في الدولة.

وفعلا شب لهيب المعركة الفاصلة بين الأخوين أي بين سلامة الخلق والجموح والغرور، وكانت في المكان المعروف بالكارة(678) سنة 945 هـ /1538م، خرجت منها قوات أبي عبد الله منتصرة، لكن العدو عندما بلغه خبر الحرب بين الأخوين أراد أن يستغل

---

(678) راجع الترجمان المعرب للزياني 344-345.. وهو خلاف ماورد عند الناصري ج 17/5-18 وكذا نشر المثاني للقادري.

الفرصة ويتحرك من جديد، الأمر الذي دفع أبا عبد الله في هذه المرة أن يلجأ إلى الصلح، ثم انتقلت قوة الطرفين إلى أجادير حين ركزا عليها وأخرجا منها البرتغاليين(679) نهائيا سنة 944هـ/ 1541م، ثم جعلاها مركزا عسكريا(680) ومقراً للمواطنين الذين عمروها، وكان دهاء أبي عبد الله وتدبير رجالاته من أهل سوس، هو الذي رجع بالأعرج وبطانته إلى أجادير باسم تحريرها نهائيا، وقطع دابر الغارات التي كانت تظهر من حين لآخر بالسويرة وهما قاعدتان أساسيتان.

وفعلا ظهرت كل من السويرة وأجادير وكذا آسفي وآزمور التي أسُر بها الشيخان عبد الله الكوشي(681) وعبد الله بن ساسي، إلى أن آفتكا بألف ومائتي ريال.

وهنالك في أرض سوس وقد استطاع أبو عبد الله أن يروض الصالحين من أهل هنتاتة، وأن يكيفهم حسب خلقه وسيرة قومه لمدة ثلاث سنوات، بل وأن يوقفهم على الحقيقة والواقع الذي ينتظر الجميع إن استمرت الأمور كما يتصرف أبو العباس الأعرج وولده زيدان وبطانتهما، خصوصاً وأن بقية الوطاسيين بفاس وماحولها إلى جانب بعض القبائل في تخوم شمال المغرب لم يصلها نفوذ السعديين، بل ولم يتعرفوا على حقيقة الدولة الجديدة بما يكفي رغم ما سلخت من السنين، واستطاع أبو عبد الله الشيخ السعدي أن يقنع الذين يهمه آقتناعهم أنه لا مناص من زوال أحدهما من طريق الآخر، إما أبو العباس أو هو، وكان أبو العباس يعلم بتحركات أبي عبد الله لكنه أمام قوة أهل سوس لم يستطع فعل شيء، خصوصا وأنه في أرضهم، وفي يوم من أيام شهر من شهور سنة 946هـ/ 1539م، صمم أبو عبد الله على الإنقلاب وتنفيذ خطته التي رسمها منذ زمان بعيد، لاتحقيقا لرغبته في السلطة المطلقة، وإنما إنقاذا للبلاد من مآل يجرها إليه أبو العباس الأعرج وولده زيدان، وبسهولة وبدون إراقة دماء، عزل أبو العباس ثم

---

(679) هذا ماذهل عنه صاحب الاستقصا، وغيره من الذين وقعوا في خلط هل بويع الشيخ قبل أو بعد راجع المصادر المذكورة.

(680) في هذا التاريخ سلم أبو عبد الله الزياني مدينة تلمسان إلى الاسبان إلى أن خلصها حسن بن خير الدين بربوس سنة 952هـ/ 1545م بعد ثلاث سنوات حيث فر عنها أحمد بن عبد الله الزياني، ووزيره بن بوغازي وما انضاف إليهما، ولحقا بدبدو، حيث تعرضوا لغدر محمد بن يحيى لمريني.

(681) تقول الرواية إن الكوشي وقت سراحه من الأسر مكنته إمرأة من مجموعة كتب ضمنها «تنبيه الانام» نكان ذلك أول ظهوره بالمغرب.

طوح به وولده زيدان، واكتشف محمد الشيخ الذي أصبح وقتها يلقب بالمهدي، بعد مروره على مراكش وبيعته بها سنة 951هـ 1544م، مؤامرة أخيه وتأكد منها وهو يحاصر مدينة فاس سنة 955هـ 1548م، والتي قصدها بعدما مهد غرب البلاد وسواحلها الجنوبية التي لم يبق فيها أي أثر يخيف من طرف البرتغاليين، وقتها أرسل الوطاسيون إلى أبي العباس بسجلماسة كي يرسل ولده زيدان لمحاربة بعض القبائل القريبة من فاس حتى يضطر الشيخ إلى فك الحصار عنها ثم تركها لمطاردة زيدان، ووقتها يمكن للوطاسيين بعد انتصارهم أن يساعدوا الأعرج، لكن الشيخ فوت عليهم الفرصة ودخل مدينة فاس العليا بتدبير ماهر وخطة أبرمت مع المشرفين عليها، وبعدها دشن انتصاره بتشريد أخيه وابنه زيدان من سجلماسة إلى أرض توات.

لما كان أبو عبد الله محاصرا لمدينة فاس أرسل ولده عبد الله الغالب لحرب القبائل المجاورة، ومعه عرب سوس والحوز، فاعترضهم عرب الغرب من الخلط وسفيان وبني مالك، فنهبوهم، وقتلوا، وسبوا، وساءوا، فيهم الأحدوثة كما يقول الزياني(682)، وإذا ما رجع الشيخ السعدي إلى مراكش فإن الوطاسي أحمد قد شجع ما حصل للغالب ومن معه ثم حاول التحرك لناحية تادلة سنة 952 هـ/ 1545م(683) لكنه تعرض لمهاجمة ابي عبد الله الشيخ، وحين اللقاء كبا به فرسه، فأخذ الوطاسي الجريح أسيرا، وقتها بايع أهل فاس محمد بن أحمد المدعو القصير،(6844) الذي واجه محمد الشيخ السعدي مواجهة ردته إلى مراكش ومعه والد أحمد الوطاسي في الأسر، لكنه عاد سنة 953 هـ/ 1546م، لمحاصرة مكناس فاستولى عليها، ومنها إلى فاس العليا فاستولى عليها بسهولة كذلك، ثم وضع عليها خليفة له ورجع لمراكش إلى سنة 956هـ/ 1549م، حيث عاد لحصار فاس المدينة وقد أعد لحصارها من القوة والعتاد مايتفق وخبرة التجارب السابقة، وقتها فر أبو حسون ليأتي بالمدد من القبائل التي واجهت قبل عبد الله الغالب ولد الشيخ السعدي ومن معه، لكنها لم تستجب لطلبه، فتوجه إلى ملك الاسبان الذي لم ينجده، بل دافعه بمال ثم وجهه إلى الجزائر حيث الآتراك الذين كانت أهدافهم ترمي إلى بسط سيطرتهم على المغرب الذي لم يبق لهم غيره.

---

(682) الترجمان 345.

(683) المصدر السابق.

(684) نفس المصدر.

الفصل التاسع والتسعون

السعديون ونهاية الوطاسيين

أثناء حصار الشيخ السعدي لمدينة فاس، وفرار أبي حسون الباديسي الوطاسي منها، وجه محمد الشيخ إلى مشيخة فاس وعلمائها يطلب بيعتهم وفيهم الشيخ عبد الواحد الونشريسي(685) والشيخ عبد الوهاب الزقاق حفيد الشارح الناظم علي بن قاسم التجيبي، والشيخ اللطرون الأموي وأخوه أحمد، هؤلاء جميعا لم يستجيبوا لدعوة أبي عبد الله محمد الشيخ السعدي، بل أخذوا يدفعون أهل مدينة فاس ويحضونهم على التمسك ببيعة الوطاسي وولده، ولما بلغ محمد الشيخ موقفهم أرسل إليهم بيعة الوطاسي الأسير الجريح وتنازله وأنه خلع نفسه، فلما رأو ذلك انقادوا إلى محمد الشيخ وأعلنوا بيعتهم له، ودخل محمد الشيخ السعدي مدينة فاس سنة 956هـ/ 1549م واستقر بها، ولم يكن قد علم ماذهب إليه أبو حسون، فوجه ما كان معه من الجند إلى القبائل التي لم تقدم وفودها لبيعته، ولم يترك معه غير قليل من أهل سوس والمؤلفة قلوبهم من المستجدين، الخلط، وسفيان، و بني مالك الذين كتبهم وقتها بديوانه بعدما كتب لهم من العطاء ما كان لهم زمن الوطاسيين، وإذا هو تمكن من فاس وأهلها فإنه عاد لحساب الذين عارضوه قبل من العلماء، أولئك الذين اعتبرهم السبب في عدم فتحه للمدينة قبل، بل وأنهم السبب في مالقي من المقاومة التي كلفته وقومه الكثير، ولم يقتصر على علماء فاس المذكورين، بل أضاف إليهم على حرزوز الشهير بمدينة مكناس، ثم أصدر في حقهم حكمه القاسي فقتلوا بعد، وقتل الونشريسي يوم 27 دي الحجة سنة 956هـ1549م، أما على حرزوز المكناسي وعبد الوهاب الزقاق وأخوه أحمد، فقد قتلوا بعد في شهر ذي القعدة من سنة 961هـ/ 1553م، وبذلك فتح محمد الشيخ السعدي على نفسه باباً من الشر

---

(685) هو غير الونشريسي أحمد بن يحيى صاحب المعيار والمتوفي يوم 20 صفر 914هـ 1508م.

استغله الجمهور حين عاد أبو حسون ومعه نجدة الأتراك بقيادة صالح باشا الذي قدم ومعه مجموعة من الكتائب، وماكادت تقترب ويصل الخبر إلى الشيخ حتى وجد نفسه مضطراً - وقد تجرد من جيشه الذي بعث به إلى القبائل - إلى الفرار متوجهاً إلى مراكش، وقبل أن يخرج حصلت معركة بينه وبين أبي حسون والأتراك في كدية المخالي(686) بأحواز فاس، ورغم أن الشيخ انتصر في المعركة فإنه تعرض لغدر من أهل الغرب الذين دفعهم الناقمون بسبب ما حصل للعلماء، فانقلبوا عليه ثم فروا إلى جانب أبي حسون، وبسبب ذلك توجه إلى مراكش ليدخل أبو حسون مدينة فاس دخول الفاتح بجيش غريب ومستعار ستكون نهايته الغدر والفساد، بل سيكون أول من يغدر به هو أبو حسون، وتقول رواية الزياني إن الشيخ لم يقم بفاس وإنما خلف عليها قائده تيرس، وفيها ألقي القبض على أحمد الوطاسي وحاشيته ثم نقلهم أسرى إلى مراكش حيث أجزل عطاءهم بعد.(687) ولما قدم أبو حسونووجد خليفة الشيخ بفاس قتله ومن معه، ودخل في مهرجان كبير وعظيم على باب الفتح، ودخل معه جنود الأتراك الذين ماكادوا يستقرون حتى تنكروا لأبي حسون وقبضوا عليه، ثم وجهوا رسلهم إلى باشا الجزائر يخبرون بما فعلوا ويؤكدون عليه أن يوجه لهم المدد ويقولون: إن هذه المدينة أحسن من الجزائر، وأن أهلها أقرب الناس للطاعة، ولاطاقة لهم في الدفاع وهم من جملة النسوان، وقد دخلناها دون حرب فالعجل العجل في القدوم بنفسك مع المدد، فقد حزنا قلعتهم بما فيها من المدافع والسلاح.(688)

وهكذا لما أصبح لم ينزل أحد من أهل فاس العليا إلى السفلى التي بقيت أبوابها مغلقة عندما شاع الخبر بالقبض على أبي حسون وخيانة الترك له.

فخرج عامة أهل فاس بالسلاح وأحاطوا بفاس العليا من كل جانب، فلما رأى الأتراك

---

(686) قال الناصري وادي اللبن وهي معركة أخرى 28/5 راجع الترجمان المصدر السابق.

(687) اختلط على الناصري في الاستقصا، ونسب ذلك إلى ما حصل للاعرج وولده زيدان، بيد أن الشيخ وولده في هذه المرحلة كانا قد وجها إلى أرض توات، راجع الزياني المصدر السابق. واليفرني ص 31، والاستقصا المصدر السابق، وتقول رواية دوحة الناشر ص 52 ط 1974 إن أحمد الوطاسي هذا كان ديمقراطي النزعة تظهر من قصة الونشريسي يوم تأخر أحمد عن صلاة العيد التي حولها الشيخ إلى صلاة الظهر، راجعها وكذا قصة المنجور وفيها عن قتل الونشريسي وعلى الزقاق ص 51-55 من الدوحة.

(688) الترجمان للزياني 346.

ذلك سقط في أيديهم وأدركوا أنهم هالكون لامحالة، فطلبوا الأمان، لكنه لم يقبل إلا بعد إخراجهم أبا حسون الذي أمنهم ثلاثة أيام اشتروا فيها زادهم، ثم خرجوا على باب السمارين، ولم يدفع لهم المال الذي شارطهم عليه وتخلف منهم نحو الأربع مائة تفرقوا شبه مشردين على الحانات والفنادق لأنهم اختاروا البقاء في المغرب ولو بدون عمل، لكن ما سيحصل منهم من غدر للشيخ هو نتيجة ماقدمه من بغي واستهتار بأرواح العلماء الذين منهم الونشريسي والشيخ عبد الوهاب الزقاق وبقية المشار إليهم قبل ت(689).

وهكذا لما بلغ الشيخ ما حصل خرج من مراكش متوجها إلى فاس حيث نزل عليها برأس الماء فخرج إليه أبو حسون فيمن معه من أهل الغرب وأهل فاس، بيد أن الشيخ عرف كيف يتخلص منه بكمين دسه له قبل أن يصل بمن معه إلى محلة الشيخ حيث خرجوا عليه من الخلف، وبذلك كان أول قتيل هو أبو حسون فسقط في أيدي أهل الغرب وأهل فاس معهم، أما أهل فاس فقد عفى عنهم الشيخ وأمنهم، وأما أهل الغرب وقد تكرر غدرهم فقد جردهم من السلاح ووضع الأغلال في أعناق كبرائهم ثم أخذهم أسرى إلى مراكش، وبذلك لم يبق لمحمد الشيخ غير الخلاص من أخيه أحمد الأعرج.

فوكل ذلك إلى عرب المعقل المجاورين لتوات، والذين تربصوا به وبولده زيدان واستعملوا معهما كل الحيل حتى وقعا في أيديهم باسم مناصرتهما ضد الشيخ فأتوا بهما إليه حيث أخذهما لمراكش التي سيلقيان فيها حتفهما بعد، وفي نفس السنة التي سيقتل فيها الشيخ غدراً بيد الاتراك.

---

(689) راجع الترجمان 346.

الفصل المائة

السعديون وكيد الاتراك مع أبي عبد الله الشيخ

أما الأتراك الذين ناصروا أبا حسون فقد أجاب الشيخ فعلهم بأن جهز جيشا وضع على رأس قيادته ولده الحران، ثم وجهه غازيا لتلمسان سنة 957هـ/ 1557م وكان الذي يحكمها بإسم الترك هو صالح رئيس باشا الجزائر(690).

وفي انتظار نتائج الفتح مدة إقامته بفاس أمر بإصلاح جامع القرويين وجامع الأندلس في نفس السنة، وإذا ما فتحت تلمسان مؤقتاً وكانت حياة ولده الحران ثمنا لها، فإن الاسبان قد خرجوا من أصيلا في نفس السنة وبدون قتال، فدخلها قائد الشيخ عبد الواحد لعروسي، وبهذه المناسبة جمع محمد الشيخ الأربع مائة من الأتراك الذين دخلوا قبل في نجدة أبي حسون ولم يعودوا ظنا منه أنهم خصوم لدولتهم، ثم ضمهم إلى دائرته بعدما أغدق عليهم وكلفهم بقببه وحراسته، ولما بلغ مراكش أنزلهم بجوار قصره وفوض إليهم حراسة بابه وبالغ في الإحسان إليهم حتى أصبحوا خاصته وحجابه(691)، ولم يكن يتصور أن كرغليي الأتراك هم الذين سيقطعون رأسه الذي سيعلق على أبواب الآستانة، وذلك ما سيدبره صالح الكاهية قائد فرقة الإتكشارية كما أطلق عليها الشيخ.

في هذه الفترة أرسل إليه السلطان سليمان خان(692) سفيرا يهنىء الشيخ بما فتح له ومعه رسالة صيغت بروح من الإستعلاء الذي تعوده آل عثمان مع الذين هم تحت سلطانهم، مما نفر أبا عبد الله محمد الشيخ الذي ترجمت له ;يها من توجيه سليمان

(690) راجع د الاسلامية 456/5.

(691) الترجمان 347.

(692) ولد في غرة شعبان سنة 900هـ 27-4-1494، وتولى في 26 شوال 926هـ 30-9-1520م وتوفي يوم 29 صفر 974هـ/ 15-9-1566 تاريخ الدولة العلية ص 79 - 107 ط 1912. مصدر سابق.

مايوحي أنه يريد منه التبعية المعنوية حيث قال فيها:

إنه يجب على الشيخ أن يسلك طريق من سبقوه من بني مرين الذين كانوا يذكرون آل عثمان على منابرهم، ومنهم من كان يكتب اسمهم على مسكوكات نقوده(693) وإذا كان السفير قد نزل بتارودانت في ضيافة أبي عبد الله وعند قائد الحرس من جند الترك صالح أغا، فإنه بعد مدة طلب الإذن في العودة ويرجو الجواب فكان الجواب بدافع الغرور القاتل عبارة عن ثورة غاضبة من الشيخ عبر عنها بقوله للسفير: «بلغ سلطان الحواتة أن الجواب سيكون في مصر» أي إن الشيخ سيفتح مصر، ولعل من الجواب يمكن لمن يغالي في الاستنتاج أن يقول إن طموح الشيخ كان يهدف إلى توحيد المغرب الكبير، ثم احتلال مصر وتخليصها من يد الاتراك الذين دخلوها يوم 8 محرم 923هـ/ 1517م، وهو ما لم يكن في إمكان الشيخ ولا خلفه، وإنما هي ثورة غضب عبر عنها للسفير: الذي خرج مرعوبا، ولما عاد وبلغ بالحرف ماسمع إلى السلطان سليمان ثارت ثائرته وأراد أن يعلنها حربا على الشيخ السعدي، لكن حكومته التي كان يتولى صدراتها سمير باشا(694) وهو يعلم ما بسلطانه من مرض مثير للغضب، يتمثل في داء النقرس هونت عليه حكومته الامر واختارت أن يكون الجواب بالكيد الذي يحضر رأس الشيخ مخضبة بدمائه أحسن من الحرب، خصوصا وأن جيوش آل عثمان ومراكبهم في حروب متفرقة، وقتها ولم تصل قط، شواطئ المغرب.

وفعلا اختير إثنى عشر رجلا من أمهر رجالات الدولة وجهوا إلى المغرب في صفة أنهم من كبار الدولة في الجزائر وأنهم فضلوا اللجوء إلى مملكة أبي عبد الله الشيخ بالمغرب، ضد سلطانهم خصوصا وأنهم علموا ما يتمتع به إخوانهم الذين أصبحوا هم حاشية أبي عبد الله المقربين إليه، وبهذا قدمهم صالح أغا الذي حملوا له توصية بالمساعدة على أداء المهمة، وهي قطع رأس أبي عبد الله الشيخ الذي يحمل اللسان الذي تجرأ على سلطان آل عثمان ثم وصفه بسلطان الحواتة، وحمله إلى الآستانة، وفعلا وصل

---

(693) الترجمان المصدر السابق.

(694) تاريخ الدولة العلية 107، ولقد كان سليمان سريع التحول ويقتل لأتفه الأسباب، حتى إنه قتل أكبر أولاده وهو مصطفى الذي دبر قتله الوزير رستم باشا، راجع نفس المصدر ص 104-105.

الرجال في صفة تبعث على تصديقهم. ثم أصبحوا بفضل ما وصله الاتراك عند أبي عبد الله الشيخ بتارودانت محل اعتبار وتقدير، لأنهم اختاروا حكم الشيخ السعدي، الذي أدخلوا في روعه أنهم اتفقوا مع رجال الجند بالجزائر على الانضمام إلى دولته ولايحتاجون إلا إلى الفرصة المواتية ليصبح أبو عبد الله صاحب السلطان غير المنازع على المغربين الأقصى والأوسط(695)، وإذا ما قر هذا في ذهن الشيخ وزكاه صالح أغا، فإنه أغدق عليهم فوق ماكانوا ينتظرون، وأصبحوا مقربين منه كل القرب، بل وعلى اتصال فوق العادة به صباح مساء، وفي هذه الاثناء كان صالح أغا وباسم المهمة يدربهم على مسالك المغرب خصوصا مابين درعة وسجلماسة كلما توجهت كوكبة للقيام بمهمة في ذلك الاتجاه وإلا وأرسل أحدهم يحمل توصية من السلطان أبي عبد الله للمشايخ ورؤساء القبائل، بيد أنه كان يزكي المؤامرة التي تدبر له دون أن يدرك، ولنحتفظ بهذه المواقف إلى عهد الرشيد العلوي، وما ستجيب به المرأة المسنة من بقايا السعديين عن سؤاله لها: ما سبب زوال دولتكم؟

كان أبو عبد الله قد استقر أمره، ولم يعد في مملكته ما يزعجه غير أخيه أبي العباس الأعرج السجين بمراكش وولده زيدان(696)، فأرسل إلى عامله بها أبي الحسن بن أبي بكر أزناك، كي يشدد عليهما، وإذا ما تمكن الأتراك من النهاية على مخطط المؤامرة، فإنهم وباتفاق مع قائد الحرس صالح أغا إختاروا يوم الأربعاء 29 ذي الحجة 964هـ/1556م. ولما يمض على قتله للعلماء المشار إليهم سوى ثلاث سنوات ليجد نفسه أمام ماقدم، والمرء مقتول بما قتل به كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث دخلوا عليه بالموضع المعروف «أكلكال» بظاهر تارودانت(697)، ثم أجهزوا عليه بسيوفهم وفعلوا برأسه مثل مافعل برأس عبد الوهاب الزقاق الذي قطعت رأسه بشاقور، كذلك قطع رأس

---

(695) الترجمان، المصدر السابق 348.

(696) يذكر في هذه المرحلة أن الأعرج وولده كانا بسجلماسة، والواقع أنهما كانا في أرض توات، ومنها نقلا إلى مراكش.

(697) لقد استطاع الزياني دون غيره أن يكمل الحلقات المفقودة في تاريخ المغرب السعدي، وعلاقته بالاتراك حين قام برحلاته التي وصف فيها اتصاله بالمصادر والعلماء والمؤرخين بالقسطنطينية.

أبي عبد الله بسيوف الأتراك ثم حملت في مخلاة ملئت بالملح والنخالة(698)، وأخذ الفاعلون طريقهم عن درعة وسجلماسة ثم تلمسان ومنها إلى الجزائر حيث ركبوا البحر إلى القسنطينية فالآستانة، فلما دخلوا على الصدر يقول الزياني فرح لنجاح الخطة ثم قام ورفع الخبر إلى السلطان الذي أمره بأن يوضع الرأس في شبكة من نحاس وتعلق على باب القلعة، ولسوف تبقى إلى أن تنزل بطلب من مسعودة الوزكيتية زوجته، حين تلجأ وولديها عبد الملك وصنوه أحمد المنصور طالبين نجدة آل عثمان كما سنرى بعد.

أما صالح أغا ومن معه من جند الترك فإنهم استولوا على السلاح ودخلوا مدينة تارودانت ثم أغلقوا عليهم وأخذوا يقتلون كل من ظهر منه عداء، وفي هذه الأثناء كان عبد الله الغالب ولي العهد(699) خليفة لوالده بفاس وما أن بلغه الخبر حتى أجمع الناس على بيعته في المحرم 965 هـ/ 1557م، فجهز جيشا وقصد رودانة التي طال حصاره لها والأتراك في داخلها يجيبون على كل هجوم يشنه جيش الغالب لأنهم أعدوا لهذا الموقف من قبل، ولما طال الحصار واشتد ضيق الناس، أتى يهودي وأبدي للغالب رأيه في إنقاذ الموقف، ذلك أنه اقترح على الغالب أن يكتب اليهودي رسالة بلهجته إلى صالح أغا يخبره فيها أن السلطان خرج عليه ثائر وأنه سيرحل لردعه، ولما سمع هذا الخبر أراد أن يبلغه لصديقه صالح أغا بواسطة رسول دخل المدينة تحت نفق الواد، ويؤكد اليهودي على صالح أغا في إعطاء حامل الرسالة أجرته وينتظر الإشارة من مكان معين يضع عليه حارسا ينتظره عندما يرحل السلطان يبلغه الخبر بالإشارة.

وفعلا ذلك ما حصل وخرج الأتراك من رودانة حيلة، ثم أخذوا طريق ذرعة فرجع إليهم جيش الغالب ثم أفناهم عن آخرهم، وتقول الرواية إنه لم يتحقق للغالب ذلك إلا بعد فقده لألفين ومائتين من رجاله، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل قام أتراك الجزائر وأرسلوا سفنهم إلى سبتة، وطنجة، ظنا منهم أنه في استطاعتهم – ربما – إنقاذ صالح

---

(698) تقول رواية ممتع الأسماع التي أوردها بعض المؤرخين ومنهم الزياني بتشكك: إن الاتراك لما قدموا على الشيخ كان في طريقه من مراكش إلى رودانة، وفي الطريق أدخلهم عليه صالح أغا بعد استئذان فقتلوه، وقتلوا معه ابو الحسن على بن أبي بكر السكتاني مفتي مراكش والكاتب أبو عمران الوجاني راجع الترجمان 348.

(699) هو من مواليد رمضان 933هـ /1526م.

أغا ومن معه، لكنهم رجعوا حين لم يجدوا مواجهة ولا خبرا من أحد(700)، بل إن حسن أغا ابن خير الدين بربروس وهو حاكم الجزائر وقتها وللمرة الثانية(701) وفي رمضان 965هـ/ 1557م إنتقل بجيشه لمحاربة عبد الله الغالب، ودخلت جيوشه إلى وادي اللبن على مرحلة من فاس، ولما وقع بينهما القتال إنتصر الغالب بالله.

وكان هذا الانتصار دافعاً لتمكين سلطته ونفوذه، كماكان عاملا من عوامل دفعه للخلاص من فتن إخوته وأعمامه حيث قتل من قتل، وأبعد أعمامه عبد الملك وأحمد - المنصور.بعد - والمامون في نفس السنة إلى سجلماسة.. 969هـ/1561م.كما تفرغ الغالب بالله لتحرير ما تبقى من المراسي مثل لبريجة التي جهز لها جيشا بقيادة ولده محمد، ثم قسم المغرب على أولاده محمد المتوكل على فاس ورديفه أبو النصر على مكناسة، وعقد للناصر على تادلة.

---

(700) يقول اليفراني نقلا عن صاحب المرآة العربي الفاسي المتوفي 1052 هـ، الذي تعود على نشر الكذب والشرك والضلال: إن الذي ردهم هو أحمد بن موسى الجزولي المتوفي يوم 7 ذي الحجة 971هـ بدعوته، وقد تكرر نقل هذه الافتراءات المشركة على الدين والتاريخ في كثير من المصادر نقلها صاحب ممتع الاسماع المهدي الفاسي (ت109 اهـ)، ونقلها صاحب الاستقصا، وعنه نقل صاحب سوس العالمة... الخ وقد حاولنا أن نضع لها حداً بكتابنا التاريخ المفترى عليه في المغرب ط 1969م- راجع ترجمة أحمد بن موسى الحسني في المعسول 5/12.

(701) راجع زامباور في الأسر الحاكمة 127/1، والترجمان

الفصل الواحد بعد المائة

عبد الله الغالب بين جيش النار من الأندلسيين ووزرائه السكارى

في سنة 970هـ/ 1562م أمر الغالب بجمع مهاجرة الأندلس الذين كانوا قد خرجوا منها ضمن الستمائة ألف الذين توزعوا في مختلف أقطار المغرب الكبير إلى الإسكندرية بمصر، ومالطة، جمع من التجأ منهم إلى المغرب على يد شيطان كان يسير جماعة منهم يرجعون إلى قرية واحدة بجبل غرناطة إسمه سعيد بن فرج الدغالي، وأخوه أحمد فرج اللذين كانا بتطوان(702) يعملان في صناعة البحر، حيث نزلا على كبير دولة الغالب بالله محمد بن أبي بكر الذي زين للغالب جمع أهل الأندلس بواسطة الدغالي، فرسم له بذلك أمراً سلطانيا مكنه من التجوال في مختلف جهات المغرب، وجمعهم طوعاً وكرهاً إلى أن كتب منهم في ديوان جند عبد الله الغالب، خمسة عشر ألف جندي نقلهم إلى مدينة مراكش، حيث أقطعهم الجانب الغربي المعروف بـ «روض الزيتون» الذي سكنوه واغترسوا حوله من المزارع ما كانت ميدانا لمهارتهم التي زودت المغرب من وقتها بمختلف أنواع الزراعات التي لم تكن قبل معروفة عند المغاربة.

---

(702) راجع المصدر السابق الترجمان 350، د. الاسلامية 7/477. لقد أورد اليفراني الكثير من الأقوال عن سيرة الغالب دون أن يتدبر ما كان يقوم به من أعمال ظالمة ومغالية، بل الذي يصح في حق الغالب هو ما قاله أحمد بن موسى السملالي حين ازدحم الناس عليه وأخذ أبو عمران موسى بن مخلوف الكنسوسي والي شرطة الغالب يقول للناس رحمكم الله من زار خرج، فصحح السملالي قوله بقوله قل: من جار خرج أي خرج من رحمة الله، ولقد كانت أيام الغالب وبطانته جلها جور واقتدى به ولده الذي قيل في حقه رغم ثقافته: أنه كان متكبرا تياها غير مبال بأحد، ولامتوقفاً في الدماء عسوفا على الرعية، ولقد عبر عن أخلاقه بقوله في الخمر التي لايعرف محتسيها خلق ولاشجاعة ذاتية، بل شجاعة الأوامر الباغية فقط، بل يقول المتوكل الذي هو نتيجة أم ولد بالأحرى المسلوخ كما عرف.

فقم بنا نصطبح صهباء صافيه ... في وجهها عسجد في وجهه نقط
وانهض إليها على رغم العدا قلقا ... فإن تأخير أوقات الصبا غلط

أطلق على جيش هؤلاء الأندلسيين إسم «جيش النار»، وإذا هو وضع تحت قيادة الدغالي الذي لم يكن أصلاً ولانسبا أعرق من كثير من الذين أصبحوا خاضعين قهراً إلى سلطته، وفي عروقهم مايحرك شعورهم من الدماء النقية والأصالة الاجتماعية السياسية مالا يتوفر عليه الدغالي، مما جلب له حقد وكراهية أبناء البيوتات الذين أرغمهم باسم السلطان على الدخول في الجندية إلى جانب مسلمة اليهود وأعلاج النصارى سواء بسواء.

وإذا ما أصبح للغالب جيش منظم وضمنه الرمات من جيش النار المكون من الحاقدين كل الحقد على الاسبان والبرتغال الذين حرموهم وآباءهم من ديارهم وممتلكاتهم، فإن الغالب آستطاع أن يحقق ما خطط من برامج لتحرير ما لم يتحرر له بعد، حيث استولى على شفشاون ليلة الجمعة 2 صفر 975هـ/1567م من يد متوليها الشريف الحسني محمد بن علي بن موسى بن راشد الذي فر إلى المدينة الجديدة، حررها الغالب بقيادة وزيره ابن أخيه محمد بن عبد القادر المخنوق، ولما عاد قتله عمه عبد الله الغالب كما أمر بسجن الفقيه المنجور لصحبته معه، كما عزل عن تطوان القائد الحسن بن أبي بكر، وبعدها وجه جيشا قويا إلى لبريجة وهي مدينة «الجديدة» حاليا بقيادة الشاعر الأديب عبد الرحمن بن تودة العلمي(703) ومعه ولد الغالب محمد ولما يتجاوز العشرين من العمر، وهو الذي عرف بعد بالمسلوخ بعد معركة وادي المخازن، لكن الغالب عاد فأرجع جيشه بعد الحصار الطويل والانتصار الذي كان على الأبواب ، ولم يكتف بالانسحاب عن محاصرة الجديدة، بل ترك حجرة بادس ليستولي عليها الأسبان، كل هذا بدافع التخوف من قوات الأتراك البحرية التي كانت تحوم حول شاطئ سبتة وطنجة ظنا منه أنها تريد اجتياز المضيق إلى المحيط الأطلسي، وهي لو فعلت لكانت

(703) ورد في الاستقصا ج 43/5-44 نقلا عن مؤرخ اسمه «الوزير مارن» أن الحرب كانت يوم 562/3/4ام وغيره 969هـ/ 560ام، بل قال عن الجيش «وصل عدد الجيش في هذه المعركة نحو الثلاثين ألف، ومن الرماة ضعف ذلك، وكان فيهم عسكر الترك؟ المعروف بالبلا روس؟ وأنهم رحلوا عنها بعد شهرين أي في شهر ماي دون «إنتصار»، كما أورد قصة خيالية ثم أخذ يحللها ونسي أن الجند إنما هو «جند النار» من الأندلسيين الذين جمعهم الدغالي وأخوه راجع الترجمان 349، وأن المعركة كانت 975هـ 1567م.

نهايتها غير مشرفة بعد أن كانت هي القوة القاهرة للبحار، ذلك لأن شواطئ المغرب لم يكن في استطاعة أية قوة أن تلجأ إليها وتأمن:(704).

ومهما يكن فإن السنوات الأخيرة من حياة عبد الله الغالب بن محمد الشيخ أظهرت أنه لم يكن مثل أبيه ولاقريبا مما كان عليه والده المؤسس الثاني لدولة السعديين، وذلك أن الغالب اعتمد على مجموعة من الرجال الذين سجل التاريخ فسقهم وعدم قدرتهم وفساد أخلاقهم، وهم إبن شگرا، وعبد الكريم بن الشيخ، وقاسم الزرهوني، وعبد الصادق بن ملوك، هؤلاء الذين عرفوا برذالة خلقهم، وفساد عقولهم التي جرت الضعف والفساد لحوزة عبد الله الغالب الذي نكل بقومه وأهله بعدما أعياه التنكيل بغيرهم، كان رئيس نادي بطانته التي اشتهرت بعقر الخمور، هو عبد الكريم بن موسى لعلج، بل مشورة هؤلاء هي التي جعلت الغالب يتصرف مع إخوته عبد الملك وأحمد «المنصور بعد» وعبد المومن، ذلك التصرف الذي أدى بهم إلى أن يفروا جميعا من سجلماسة إلى تلمسان عندما أقبل عبد الله الغالب على اضطهاد ابن أخيه ووزيره الأديب محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ، الذي انتهى به الأمر إلى قتله، وفي تلمسان لم يطمئنوا، بل توغلوا إلى الجزائر فراراً من ابن أخيهم أيضا محمد المتوكل بن الغالب الذي ورث نفس المعاملة من أبيه ثم أخذ يطبقها يوم أسند إليه الملك بلا مشروعية، مع وجود أعمامه الذين يقدمهم القانون الذي وضعه المؤسس لدولة السعديين من أول وهلة، والذي نص فيه على الأكبر سنا من الإخوة أو الأبناء، وهو ماكان ساريا عند آل عثمان الذين اقتبس منهم محمد القائم بن عبد الرحمن، ثم بعده محمد الشيخ الذي آختلت القاعدة إثر موته الفجائي بسبب تصرف عبد الله الغالب الذي خلفه هو الآخر ولده المتوكل محمد ضارباً عرض الحائط بحقوق أعمامه، وفي مقدمتهم عبد الملك بن محمد الشيخ، على أن الواقع لايقر شهادة عبد الرحمن التلمساني التي كتب بها إلى السكتاني حسب رواية اليفراني.

(704) وهكذا نسي الغالب وقد تعلق عقله بالخرافات التي دفعت أمثال العربي الفاسي في المرآة أن يفتري علينا كما افترى عليه أنه رجع إلى أحمد بن موسى أو أبو عمر القسطلي حتى يرجع الاسبان عن حجرة بادس، بدل أن يفعلوا فيها وبأهلها من المسلمين الآمنيين مافعلوا، كما أرجعهم أحمد بن موسى والاتراك بعدهم عن طنجة، ومن أجل ذلك صحبه الغالب من سوس على حد قول العربي الفاسي، راجع المرآة ط حجرية جمادى الثاني، 1324 والاستقصا 47/5.

الفصل الثاني بعد المائة

التجاء الاخوين عبد الملك وأحمد إلى حماية الاتراك

توفي عبد الله الغالب يوم الجمعة 28 رمضان سنة 981هـ 1573م، وقد كان من المنتظر بعد موته أن تحل العقدة التي عقدها الغالب بآستبداده بالملك، فيتولى عبد الملك، لكن شيئا من ذلك لم يحصل، وتولى الملك بعد الغالب ولده محمد الذي لقب بالمتوكل، وذلك حسب رغبة بطانة السوء التي عددنا أفرادها، خصوصا وأن المتوكل كان خليفة لوالده بفاس، وكان بعد سنة قد خرج في جولة انتهت به إلى مراكش، وأثناءها وصل إلى المغرب خبر موت السلطان سليم الثاني(704) سلطان آل عثمان ليتولى مكانه ولده مراد الثالث(705)، فوجدها عبد الملك وأخويه أحمد وعبد المومن فرصة وكانوا بتلمسان فرحلوا

(704) ولد سليم الثاني يوم 6 رجب سنة 930هـ 10-5-1533م وتولى سنة 44 يوم وفاة والده سليمان في 20 صفر 974 هـ 5-9-1566م، وتوفي يوم 27 شعبان سنة 982 هـ 12-12-1574م عن اثنين وخمسين سنة ودام في الحكم ثمان سنين و5 أشهر.

(705) ولد مراد الثالث يوم 5 ج ل 953 هـ 4-8-1546 وتولى وعمره 29 سنة يوم وفاة والده، وهو الذي قتل خمسة من إخوته ليأمن على الملك ولقد أخطأ محمد فريد في كتابه عن تاريخ الدولة العلية العثمانية حين خلط في الموضوع بطريقة تدل على أنه أخذ ترجمة مشوهة إن لم تكن من الفرنسية ربما تكون من التركية راجع الكتاب المذكور 113-114- ط 1912 بل صاحب الاستقصا نفسه وقع في خطأ نسبة إتصال عبد الملك بسليم، والواقع أنه مراد راجع ج 59/5، ونفس الخطأ وقع فيه الزركلي نقلا عن الاستقصا ج 88/4 ط2.

ولعل الذي أوقع صاحب الاستقصا في الخطأ هو ذكر سليم يوم فر عبد الملك وأخويه ومسعودة معهما، من سجلماسة إلى تلمسان، حقا ذلك كان في عهد سليم، ويوم بيعة المتوكل حسب التاريخ أعلاه، لكنهم بقوا بالجزائر إلى أن توفي سليم وتولى مراد الثالث في 27 من شهر شعبان سنة 982هـ بل شارك عبد الملك في تحرير تونس التي كان الاسبان قد احتلوها قبل سنة 975 هـ1567، ثم وضعوا فيها حامية من الجند بحلق الوادي، وفي خريف عام 987هـ 1573م إحتل «دون جوان» النمساوي بطل ليبتو، مدينة تونس التي كانت بيد الاتراك فأعاد سلطان الحفصيين لآخر مرة بتأثير محمد بن الحسن وإقامة سربلوني مسيرا له، وقتها حررها الأتراك نهائيا من حكم الحفصيين بواسطة حملة المائة والخمسين سفينة التي قادها سنان باشا، تلك الحملة التي استنفرلها كل قوات القطرين الجزائر وطرابلس، وتحت وطأة حماس الشعب تقدم عبد الملك كمتطوع حيث كان في الجزائر، وبالقرب من أمكنة الاستنفار، لنصرة الاسلام، وفعلا شارك على رأس جماعة وضعتها تحت إمرته قيادة الجزائر، وكان ينتظر من وراء هذه المشاركة=

منها إلى بلاد الترك، وكانت مناسبة ابتعدوا بها من قسوة المتوكل الذي ظهر أنه أكثر عجرفة وظلما من والده الذي طالما وقع في نزاع مع عبد الملك الذي كان ينكر عليه سياسة التحالف مع الأوربيين، بل إن المتوكل وقع تحت تأثير برتغالية حاقدة استهوته حتى أصبح لايفعل إلا ماتريد، تلك هي «بياتريس» التي جرته من أذنه لعمالة سباستيان نقمة على زوجها رضوان الذي تخلى عنها بعدما أسلم والتجأ إلى خدمة عبد الملك ثم أخيه أحمد «المنصور».

غادر عبد الملك وأخوه أحمد وأُمه مسعودة الوزكيتية – وليست سحابة الرحمانية – كما قال: غير الزياني، والتي كانت بلا شك تتوفر على قلب كريم وتفكير سليم، بل والتي استمدت من سلوك زوجها الكثير، ولقد أقاموا في الجزائر مدة غير قصير لم يحصل فيها عبد الملك على ماكان يقصد مادامت سلطة صاحبها خاضعة لأوامر السلطان مراد الثالث الذي شدت الرحال إليه حيث أقامت في إسطنبول سنوات، وإذا ما أسندت ولاية الجزائر من جديد إلى قائد رمضان الذي تولى في شهر رمضان من سنة 982 هـ 1574م، فإنه كذلك لم يكن في استطاعته تلبية مطالب عبد الملك، وقائد رمضان هذا كان أصله مسيحيا بندقيا من سرديس ثم أسلم، وقد عين في المنصب الجديد بمناسبة بيعة السلطان مراد، ولقد وجد في مقدمة من قدم إليه من أصدقاء، عبد الملك وأخيه أحمد في الجزائر وقضيتهما، وفعلا اهتم بموضوعهما كل الإهتمام وأخيرا وجد نفسه وحسب ظروف الإدارة لم يستطع فعل شيء غير تزويدهما، برسائل لرجالات الدولة بالقسطنطينية التي رحلا إليها ومعهما أم أحمد مسعودة الوزكيتية، مخلفين عبد المؤمن بتلمسان التي توفي بها بعد، ونشير إلى أنه في هذه السنة كان عبد الملك قد بلغ الثالثة والأربعين.

= عمل شيء، لكن الظروف لم تساعده، وإذا تمت الحملة التي دامت 43 يوما بأنتصار سنان باشا في شهر رجب سنة 981هـ، وتحولت تونس إلى ولاية تركية تابعة للجزائر التي كان على رأسها عرب أحمد الذي كان خليفة أولوج على «بيرباي» فإن عرب أحمد قد عزل بعد وفاة سليم وتولية مراد الثالث، في شهر رمضان سنة 982هـ 1574م، ليحل محله قائد رمضان الذي لقي منه عبد الملك كل العطف والتفهم، خصوصاً وقد أصبح عبد الملك معروفا بمشاركته في تحرير تونس، راجع تاريخ الدولة العلية المذكور، ودائرة المعارف الإسلامية 6/63–64، وقد وقع صاحب الاستقصا رحمه الله أيضا في خلط، فرفع قطع الأسطول الذي قاده سنان باشا إلى أربع مائة وخمسين، و من تاريخ الوقائع عنده ج 5/60 تبين أنه استقى من الترجمان للزياني، وهذا الاخير ومحمد فريد في تاريخ الدولة العلية ص 96 ط 1912 أخذا من مصدر سابق لاشك أنه تركي لم يذكره أي منهما راجع كتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية لإبراهيم بك حليم ط مصر 1905.

كان للرسائل التي زودهما بها قائد رمضان مفعولها الكبير مادام عبد الملك وأخوه وأمه قد استطاعوا الوصول إلى الوقوف بين يدي السلطان مراد، والتقدم له باسم أمهما ليقبل شفاعتها في رأس زوجها المعلق بالقلعة فسلم إليها(706) كما طلب عبد الملك مؤيدا بأخيه أحمد مساعدة السلطان مراد على استرجاع ملك أبيه الذي اغتصبه منه أخوه ثم ترك لولده الذي بالغ في الظلم وشدد عليهما، وهما يريدان بعد الانتصار أن يكون عبد الملك ممن ينهجون النهج الذي عرفه سلاطين آل عثمان من سلاطين بني مرين، بحيث يدعى لمراد الثالث على منابر المغرب، ويكتب اسمه على عملته، وتقول مصادر أجنبية «أ» و «بوفيل»، أنه اشترط شروطا منها 50.000 أوقيه من الذهب، وهو مبلغ زهيد والمشاركة مع الاتراك في حربهم ضد الاسبان، والترخيص للأتراك باستعمال ميناء العرائش، إلى غير ذلك من الشروط التي لم يصادق عبد الملك على شيء منها غير أجرة الجنود الذين قدموا معه كما سنرى، دفعها كاملة وزيادة، ورغم مابذله أصدقاء قائد رمضان فإن السلطان مراد لم ينعم بشيء(707) أكثر من إدخال مسعودة الوزكيتية إلى قصره ضمن أسرته وإذا ماطال مقام عبد الملك وأحمد بالاستانة فإنهما أفادا من دراسة أوضاع الدولة العثمانية وتنظيماتها التي كانا يرقبانها عن كثب باتصالهما المباشر مع الصدر محمد باشا صقللي، ومع الوزراء ومختلف رجالات الجيش والعلماء، بل وإذا علمنا أن والدة أحمد مسعودة أدخلت إلى قصر السلطان مما يجعل عبد الملك وأحمد قريبان منه، بل وإذا كان أحمد من مواليد 956هـ1549م، فإن عبد الملك صاحب الحق في الملك قبل عبد الله الغالب وولده محمد المتوكل، أي أن عبد الملك كان هو الذي يلي الحران الذي قتل في حرب تلمسان أيام أبيه سنة 867هـ1557م، ومعناه يكون وقت زمن وجوده بباب السلطان مراد قد تجاوز الأربعين على أقل تقدير الأمر الذي يؤهله كما أهل أخاه إلى الاستفادة

(706) للأسف لم يخبرنا التاريخ هل عادت به مسعودة إلى المغرب أم لا، ولعل للخيال الادبي ما يكتب حول هذا الموضوع الذي يمكن أن تصاغ منه قصص مشوقة.

(707) يقول تاريخ الدولة العلية ص 114 ط 1912، إن الصدر محمد باشا صقللي أوعز إلى صاحب طرابلس بإنجاد صاحب المغرب الشرعي، الذي هو عبد الملك فأسرع لمساعدته، لكنه مما يستدل به على عدم، تثبته أنه ذهب رأسا إلى معركة وادي المخازن التي قال عنها إن الترك شاركوا فيها، وأن المغرب أصبح تابعا للأتراك وهو مالم يحصل كما سنرى.

كل الاستفادة من إقامتهما بالقرب من مراد وحاشيته ونظم دولته.(708) لم ينعم السلطان مراد على عبد الملك بما يريد، ولذلك لم يعد لمقامه مبرر، وعليه أن يرجع إلى الجزائر حتى يكون بالقرب من الميدان، ومن تدبير عبد الملك في هذه المرحلة يستدل على ماكان عليه من كفاءة واقتدار، فلما رجع إلى الجزائر بدأ خطة لم يعتمد فيها على مساعدة أحد، ففي الجزائر اتصل برجل داهية ماكر، من أهل الأندلس، اسمه أبو الفضل الغُرّي وهو(709) وهو أصلا من وادي آش. إستطاع هذا الداهية أن يحقق لعبد الملك ما كان في حاجة إليه من أخبار المغرب وأحواله، وكذا أسرار حاشية المتوكل، ذلك أن عبد الملك لما إطمأن إلى الغري الذي وجد فيه الخبير بالمغربين الأوسط والأقصى، اخترع له مهنة تاجر في الجواهر وغيرها من الوسائل الرفيعة والثمينة، التي تمكنه من الإتصال برجالات الدولة في المغرب الأقصى، ثم وجهه إلى مدينة فاس حيث أصبح على اتصال بكل العناصر المعارضة والمتذمرة من الوضع الذي تردى تحت حكم المتوكل، وإذا ما استطاع أبو الفضل الغري ربط الخيوط بين عبد الملك وكل الذين يمكن الاعتماد عليهم في المغرب، فإن عبد الملك نفسه كان قد ربط اتصاله برجالات الدولة التركية على مختلف مراتبهم، تارة بواسطة المراسلة مع مسعودة الوزكيتية أم أخيه أحمد، التي كانت هي الأخرى تقوم بدورها المطلوب في قصر السلطان مراد وبين أهله، وتارة مع رجال الحاشية وفي مقدمتهم محمد الصدر باشا صقلي وغيره من الذين أصبحت قضية عبد الملك عندهم

---

(708) سنرى نتيجة ذلك في التنظيمات التي سيدخلها أحمد المنصور على جميع مرافق الدولة بل في العادات والتقاليد التي ستظهر في عهده، بل والتي سوف ينوه بها السلطان محمد بن عبد الله العلوي الذي سيقتبس بعضها كما سنرى، بل والذي سوف يقلد احمد المنصور في الكثير من أعماله.

(709) قلبت الغين قافا وأصبح خلفه يعرفون في فاس بإسم القرى ولا علاقة بينه وبين صاحب القرآت، كما أن الدغالي الذي أورده الزياني بالدال المعرقة بالخط المبسوط ص 350 من الترجمان أورده صاحب الاستقصا ج 64/5 بالراء حيث أشكل على الناسخ التفريق بين الدال والراء المتقاربي الشكل في خط المبسوط الفاسي. وبالتالي فإن أسماء العائلات في مدينة فاس عرفت الكثير من الخلط والتغيير بسبب الظروف السياسية والتقلبات التي عاشتها مدينة فاس، وماعرفه البلديون فيها من إذلال بسبب سلوكهم المفضوح حتى أصبحت بعض العائلات المعروفة بأصلها اليهودي لاتكتفي بالاسلام الذي يجب ماقبله، بل تدعى دعاوي عريضة بلا خجل ولاوجل، متجاهلة أن التاريخ لها بالمرصاد، وهو الذي لم يترك صغيرة ولاكبيرة إلا سجلها، فويل للخونة المارقين الذين تطاولوا بما كسبت أيديهم بالظلم والبغي والعدوان من حرام مفضوح، وسلطان مغتصب.

محل اهتمام آخرها ما كانت عليه أحوال آل عثمان وقتها من حروب في بلاد متفرقة.

كان عبد الملك بدهاء قد استطاع أن يحرك النفوس في المغرب بأنواع الدعاية التي تجند لها الكثير من المواطنين ضد المتوكل والاسبان الذين عادوا مع البرتغاليين إلى سابق نشاطهم في الشواطئ، ونشطت حركة عبد الملك بشكل أزعج المتوكل وخوف ماحوله من رجال دولته، شأن كل حركة تتفق وما يختلج في الصدور من نقمة على الحاكم الظالم المستبد، وإذا ما تردد صدى استجابة الشعب لعبد الملك ونفوره من المتوكل، فإن تحركات الاسبان مقابل ذلك هي الأخرى تردد صداها فوصل إلى الجزائر حيث يقيم عبد الملك، والتي تعزز مركزه السياسي فيها بسبب ذلك أكثر، خصوصاً وأن عداء الغزاة الاسبان ومن يركن إليهم أصبح من واجبات المواطن المسلم المتمسك في ربوع المغرب الكبير عموماً، وأن الحرب ضد المتوكل معناه القضاء على اثر التدخل الأجنبي، وإذا ما نظم قائد رمضان ولاية تونس، ثم ركز فيها أربعة آلاف جندي بإشراف الداي، ومعه لجباية المال أمير يسمى الباي، وللقيادة العسكرية العليا أغا، كما أصبحت الخطبة وضرب العملة باسم سلطان آل عثمان في المغربين الأدنى والأوسط، وإذا ما حملت التقارير معلومات عن المغرب وأن حظ عبد الملك من الإنتصار على المتوكل أحسن، حتى تردد ذلك في جنبات القصر، حيث تقيم مسعودة التي كان النظر إليها من مراد يثير في نفسه أكثر مما يسمع عن عبد الملك، ولهذا أصبح من الواجب على مراد وقد طال غياب المرأة عن موطنها وانتظارها بقصر السلطان، مما يستدل به على طول حبل الرجاء، أن يستجيب ولو برسالة توصية إلى قائد رمضان، وإذا لم تكن المساعدة بجيش من السلطان، فلتكن بما يستطيعه رمضان الذي وقف على شجاعة عبد الملك في حرب تونس ضد الاسبان كما بيَّنا قبل والتي نشير هنا إلى أنه عاد إلى الجزائر بعد الحرب.

وفعلا توصل عبد الملك بالرسالة التي وصلت إلى قائد رمضان، لكنها لم تنص على غير المساعدة بالرجال فقط، ومعناه إذا كان الشعب المغربي مع عبد الملك فعليه أن يدبر له السلاح والمؤنة، وإذا كانت عاطفة قائد رمضان الصادقة مع عبد الملك، فإنه عرف كيف يحور لفظ المساعدة بالرجال ويضيف إليهم السلاح أي أن الرجال لايمكنهم القتال بدون سلاح، لكن إدارة رمضان التي كانت تلتزم بالحرفية في المراسلات السلطانية، حالت دون

رغبة قائد رمضان ودخلت مع عبد الملك في المفاوضة التي انتهت بإعطاء الرجال، أما السلاح والراتب فيتحملها عبد الملك الذي كان في المستوى حين قيل له ذلك وأشهدوا عليه به، وأنه يتحمل نفقة الجيش من يوم خروجه إلى يوم عودته، وإذا ما استغرقت مدة محاولات عبد الملك في الجزائر وبلاد الترك أكثر من سنتين، فإنه آنتهى إلى تحقيق الهدف حين عاد إلى المغرب الذي كانت المعارضة فيه تنتظر تحركاته، ومعه من الجيش الذي ستنضم إليه قوات أخرى ما يكفي لاحتلال أقرب مدينة وهي مدينة فاس التي توجه إليها في شهر ذي الحجة من سنة 983هـ 1575م(710).

في اليوم السابع من الشهر المذكور، كان عبد الملك قد احتل مدينة فاس بعد معركة «الركن»، وهو مكان يقرب من مدينة فاس التي كان المتوكل قد هب لحمايتها عندما علم بقدوم عبد الملك من الجزائر، لكن المتوكل وهو الخائن الجبان فر مذعوراً أثناء المعركة، متوجها إلى مراكش عندما علم أن جيش النار الذي نظمه والده بمساعدة الدغالي سعيد بن فرج الذي انقلب على المتوكل في أول معركة بينه وبين عبد الملك والذي بلا شك خدمه لفائدة عبد الملك أبو الفضل الغرى الذي يلتقي مع الدغالي في الإنتساب إلى الاندلس.

(710) في هذا التاريخ كان قد مضى على موت سليم، مايقرب من سنة ونصف، فكيف يقال إن الذي ساعده هو سليم كما ورد قبل في جل المصادر التي انساقت خلف رواية الاستقصا المغلوطة.

الفصل الثالث بعد المائة

إنتصار عبد الملك واندحار المتوكل

كان المتوكل بعيدا عن الشجاعة كل البعد لأنه لم يخض في الحرب غير حرب لم تذكر، عرفت بموقعة الرمله بأبي غاص، من فحص طنجة قرب قنطرة عصماء(91) والتي لم يشارك فيها المتوكل مشاركة فعلية، وإنما من بعيد، فقد دفع به جيشه قبل إلى الالتجاء إلى عامل الجديدة من قبل البرتغال «أنطونيو داكوني» الذي رفضه، والذي عمل بكل الوسائل لاقناع سباستيان أن لاطائل من وراء محمد المتوكل، لكن سباستيان الذي حسبها فرصة حسب تقدير رجال الكنيسة والحاشية المتأثرين بهم، ولذلك لم يقبل رأي عامله على الجديدة، وأمر صاحب سبتة «الماركيز دي ڤيلا ريال، أن يستقبل المتوكل المجرور بسلسلة في عنقه تمسكها بياتريس المشار إليها، ولذلك عليه أن يبالغ في تكريمه...، بل لقد زاده إقبالا عليه ما أفضى به إليه «أنطونيو داكوني» الذي هو من نبلاء البرتغاليين، وقد كان سجينا عند محمد المتوكل، ثم سرحه ليقوم له بمهمة طلب النجدة من سباستيان، بل كانت معاملة المتوكل لمن حوله لاتختلف عن معاملة بطانته(92). الأمر الذي عرضه للهزيمة القاسية عندما انفض من حوله كل الذين كانوا يعيشون الذل معه من رجالات الجيش، فأقبل الكل على عبد الملك، كما أقبل عليه رجالات الدولة بلا تحفظ، الأمر الذي ظهر معه لجنود الترك أن عبد الملك أصبح المتوج والقوي بما حوله، فقرروا العودة للجزائر طالبين منه أداء الراتب المتفق عليه، والمشهود عليه بتوقيعه وتوقيع أخيه أحمد، وإذا لم يكن عنده ما يسدد به الدين للجنود الذين لم تخبرنا المصادر العربية عن عددهم، فإن عددهم يستنتج من عدد المال الذي صرفه لهم، وأنه أعطى لكل واحد

---

(91) وقعت بتاريخ 15 حمادى الاولى 982هـ 1574م.

(92) راجع تعليق 731 قبل.

أربعمائة أوقية، وإذا هو التجأ لإخراج مافي بيت مال القصر بفاس، ثم باع مافيه ولم يتجمع له من ذلك غير مبلغ 920.000 أوقية، وهو عدد لم يكن كافيا، فإنه التجأ كذلك إلى طلب قرض من تجار أهل فاس الذين أقرضوه مانقص على القدر المطلوب وهو: 315000 أوقية فيكون المجموع 1.235.000 أوقية وإذا ماقسمت على أربعمائة للنفر حسب الشرط يكون عدد الجنود قد جاوز الثلاثة آلاف، في حين تقول رواية أخرى كانوا نحو الخمسة آلاف قضوا مدة اثنين وأربعين يوما، كما حملهم هدية ثمينة لحكومة قائد رمضان، كان ضمنها عشرة مدافع من بينها مدفع له عشر أفواه أو أحد عشر، شاهده أبو القاسم الزياني(93) ثم أرسل معهم رسولا ليحضر تعهده من الجزائر وقد حمله كذلك هدية خاصة لقائد رمضان واليها العام. بقي لنا أن نسأل هل هذه الثروات كانت متوفرة في بيت المال أم أنها جمعت من الشعب بطريقة أوبأخرى.

وحتى يعطى عبد الملك لأهل فاس صورة على أنه كان على علم بكل الاتجاهات خصوصا التي كانت ضده، وأنه سيجزي كلا بما يستحق، ألقى القبض على قاض المتوكل بفاس عبد الواحد بن أحمد الحميدي، وهو الذي سوف نتعرف على تقلباته وعدم ثباته بعد المشاركة في حفل تدشين قصر البديع، ومايلاحظ على المنصور من اهتمام بالمغنين، عبد الواحد هذا أرسله عبد الملك إلى السجن بتهمة ما كان يقوم به من توجيه ضد عبد الملك الذي وجدت دعايته رواجاً بين العامة قبل، وكان من خصومه بلا تحفظ القاضي المذكور الذي لم تجد فيه شفاعة الشيخ أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي(94)، ولكن عبد الملك عاد فأطلق سراحه بلا شفاعة، ولعله بذلك قد جعل حدا للتخوف الذي ينتاب الجماهير عند أول كل آنقلاب، خصوصا وأن: عبد الملك بعد لم يقض على المتوكل الذي ذهب إلى مراكش، وفيها استنفر من القوة ما استطاع

---

(93) الترجمان المعرب 353. وتقول المصادر الانجليزية «I. و. بوفيل» أن عدد جنود الاتراك الذين قدموا مع عبد الملك كان ستة آلاف جندي، وألف فارس وأنهم كانوا برئاسة رمضان باشا نفسه؟؟ وهذا غير مقبول، لأن قائد رمضان كان واليا على الإقليم.

(94) عاش مابين 912هـ 991هـ/ 1505-1583م، راجع صفوة من انتشر، واليواقيت الثمينة 151/1 وتاج العروس 78/10، كما ورد في الاعلام للزركلي 52/3.

ليوقف تقدم عمه، لكن عبد الملك اعترضه قبل أن يصل وادي الشراط بين آنفا والرباط، ثم طارده إلى وادي الريحان بتامسنا، فبدد جموعه التي التحق جلها بجيش عبد الملك، مما دفع بالمتوكل إلى العودة فاراً في اتجاه مراكش يطارده عمه الثاني أحمد، ولما علم به المتوكل وهو يعرف مدى حقده عليه بسبب ماقدم من فظائع ضد المغاربة عموما وأسرته بالأخص، لم يدخل مدينة مراكش التي لم تعد هي الأخرى تقبله، خصوصاً وقد عاد إليها مهزوما وللمرة الثانية، فدخلها أحمد حيث استقبله أهلها الذين وجد جموعهم مهيأة لبيعة عبد الملك الذي لقب من وقتها بالمعتصم بالله، وازداد حماس أهل مراكش وإقبالهم على عبد الملك عندما علموا أن جند الأندلس «جيش النار» الذين هم سكان روض الزيتون قد إنضموا جميعا إليه.

وتمت البيعة لعبد الملك بمراكش يوم الإثنين 19 ربيع الثاني سنة 984هـ 1576م، ولما يتجاوز سنه الثالثة والأربعين، ووقتها عاد أحمد إلى مدينة فاس التي عينه أخوه عبد الملك خليفة له عليها، وبذلك ستكون له المدرسة الثانية بعد المرحلة التي قضاها بين آل عثمان، وأكرم بها من مدرسة مؤسسها ادريس بن ادريس بن عبد الله الكامل رضي الله عنه، أما المتوكل، فإنه لجأ إلى سوس التي جمع منها قوة عاد بها إلى مراكش، لكنها كانت هزيلة رغم كثرة عددها، إلى درجة أن استخف بها عبد الملك، فكان استخفافه عاملا من عوامل احتلالها لمراكش، وهو احتلال وجد المدينة خالية إلا من بعض قوات عبد الملك البالغ عددها ثلاثة آلاف من الرماة وجدت صعوبة في المقاومة، وفي النهاية طردها المحتلون رغم البسالة التي أبدتها مريم أخت عبد الملك على رأس الحامية، لكن الفصل كان بيد أحمد الذي استقدم من فاس، ذلك أنه ما كاد يصل حتى فر منها المتوكل ومن معه في اتجاه سوس ناحية تيزنيت، فطارده أحمد مطاردة دفعته إلى أن يتوجه إلى طنجة ثم جزيرة بادس، ومنها آلتجأ إلى سباستيان ملك البرتغال الذي كان متلهفا على غزو المغرب بعدما انتهى إلى غزو نفس المتوكل المنحل المريض بواسطة الزوجة المتفسخة بياتريس البرتغالية.

لكن عبد الملك وهو سيد الموقف كان في المستوى ولسوف يعرف كيف يذل الملك الطفل سباستيان وبطانته، وذلك بواسطة الشعب الذي أجمع على الجهاد من أجل الدين والوطن بل إن عبد الملك سوف يوجه أشد الصفعات إلى الاسبانيين والبرتغاليين الكاثوليكيين باتصاله مع الانجليز الأرثودوكس.

الفصل الرابع بعد المائة

عبد الملك والعلاقة مع الانجليز

كان المغرب في هذه المرحلة بالنسبة للتجارة مع الأنجليز قد عرفت خطوات واسعة منذ بدأت قبل ربع قرن مضى سنة 959هـ/1551م، وكان قائدأول رحلة هو «الكابتن توماس ويندام »، تلك الرحلة التي مونها تجار لندن ثم خرجت في أوائل ماي 1552م متجهة إلى آسفي وبضاعتها الأقمشة والمرجان والكهرمان، وتطورت هذه العلاقة إلى درجة أنها أصبحت في السنوات الثلاث ما قبل بيعة عبد الملك بمراكش 980هـ/ 1573م قد بلغت أرقاما عالية في مجال التبادل، حتى إن الملكة إليزابيت وحدها استوردت من سكر المغرب مالا يقل عن ستين صندوقا زنة كل منها ما لايقل عن 300 رطل(711)، وقد بلغت مداخيل الرسوم الجمركية وقتها 1431 جنيه عن بضاعة مصدرة في المغرب قيمتها 28,638 جنية استرليني، الأمر الذي دفع البرتغاليين وهم المتطلعون لغزو واحتلال شواطيء المغرب، إلى أن يتقدموا باحتجاج(712) عنيف ضد الأنجليز أثر في سفراء هذه الدولة الذين اقترحوا على ملكتهم تخفيف وتحديد هذه التجارة، لكنها رفضت بناء على آراء تجار لندن يتقدمهم «اللوردماير» الذي أقنعها» أن التجارة الأنجليزية مع المغرب غاية في الأهمية، خاصة بالنسبة لصادرات الأقمشة الأنجليزية، وأنه إذا ماكان مطلوبا فرض حظر، فمن الأفضل أن يفرض حظر على تجارة الأنجليز مع البرتغالي، ونتصور العلاقة بين الانجليز والبرتغال من خلال ما كان يقوم به الانجليز في مدينة أجادير من بيع للبرتغاليين كعبيد، الأمر الذي دفع المغاربة إلى اعتبار الأنجليز الأرثودوكس غير البرتغاليين الكاثوليك

---

(711) راجع تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية ص 40 تاليف ج روجرز ترجمة يونان لبيب رزق ط البيضاء 1981 وايليغ قديما وحديثا ص 197 - 208ط 1966.

(712) لقد نجحت أعمال السفير الانجليزي التاجر إدموند هوجان بقدر ما فشلت أعمال وتجسس السفير الأسباني مندوزة.

«الحاقدين»، اقتداء بملكهم ورهبانهم ، خصوصا وأن عبد الملك السلطان الجديد أبدى استعدادا طيبا ومشجعا نحو التجار الأنجليز ونحو إليزابيت، الأمر الذي دفع إلى الثقة في مستقبل العلاقات، خصوصا عندما تبين عدم اعتبار عبد الملك لاحتجاج وتحرشات البرتغاليين، بل زاد الإقبال على الأنجليز أكثر، حين فتح لهم كل الأبواب حتى استيراد نترات البوتاسيوم التي كانت ممنوعة التصدير، كرد فعل على التزام الأنجليز بعدم تصدير الأسلحة والذخيرة لبلاد المسلمين، فقد أذن لهم في تصديرها وهو أمر لم يقبل به سلفه، قبل به عبد الملك مقابل الحصول على الأسلحة والدخيرة، وهذا ما حصل مع «إدموند هوجان» أحد كبار تجار الأنجليز، ووكيله « جون وليامز» الذي كان الواسطة بين عبد الملك واليزابيت، بل قبل «صاحب ادموند هوجان»، هذا هو الذي حمل رسالة الشكر من الملكة والتزامها، بل تعهدها لعبد الملك مقابل جميل صنعه مع التجار الأنجليز، بأنها مستعدة لتزويده بما يحتاج له من الأسلحة رغم التزامها بعدم ذلك للدول المسيحية، وكان هذا هو مضمون الرسالة التي حملها « إدموند هوجان » في أبريل 1577م 985هـ والذي لما حل بمراكش كتب إلى ملكته منها بتاريخ 11 يونيه من نفس السنة ، حيث وصف ما لاقاه من تكريم عبد الملك له ، وتعهده أكثر برعاية وامتياز كل من يرد من تجار الأنجليز ، ثم أصدر مرسوما بذلك وأمر بوضع حد للأسعار التي كانت دائما في تصاعد مستمر، بالنسبة لأصناف السكر التي كانت مزارعه تدار بواسطة اليهود، ثم قال السفير إدموند هوجان عن عبد الملك « .. وإني أراه إنسانا يعيش في مخافة الله، وعلى دراية بالكتاب المقدس، سواء العهد القديم أو الجديد، كما سجل أن عبد الملك الذي كان يتقن الإسبانية أخبره أن ملك الأسبان «فيليب الثاني» طلب إليه التصريح له بإرسال سفير إلى العاصمة مراكش، كما طلب إليه رفض استقبال أي مبعوث إنجليزي، وأنه صرح له بأفضلية الأنجليز على غيرهم، خصوصا وأن فيليب واقع تحت سلطة البابا ومحاكم التفتيش، ولذلك كان يحتقره، بل إن عبد الملك كتب إلى اليزابيت بتاريخ 10 يوليوز 1577/م 985هـ، وذلك جوابا على الرسالة التي حملها هوجان، وفيها كتب يعد الملكة أنه سيرسل سفيرا لعقد معاهدة تحالف معها، وإذا هي استقبلت ذلك بترحاب فإنها طلبت كذلك أن يكون ذلك سرا، ولربما بسبب العداوة التي كانت لفيليب الثاني الذي تود أن لا يعلم بالحلف حتى يتم.

بهذه السياسة المرنة التي سلكها عبد الملك في أول عهده بالملك استطاع أن يضع كلا من بريطانيا وفرنسا في صراع من أجل تحقيق مصالحهما المادية. كما استطاع كذلك أن يمكن لسلطانه في الداخل وأن يتزود بما يكفي من الأسلحة والذخيرة من الأنجليز بالأخص مما مكنه من مواجهة المواقف في الداخل، والاستعداد ضد العدو الذي هو البرتغال، والذين سيخوض معهم ومع دول أوروبا الحرب الصليبية الفاصلة بالقصر الكبير، وفي الموقعة التي عرفت بعد بموقعة الملوك الثلاثة، بوادي المخازن، والتي ماحصلت إلا والمغرب بفضل سياسة عبد الملك المتفتحة كان قد حصل بواسطة تجارة السكر مع الأنجليز والتي أقبلت عليها إليزابيت أيما إقبال ، حصل على مختلف أنواع الأسلحة من رماح وألبسة حربية وخوذات، وعلى المعادن المستعملة في القذائف المدفعية، والخشب لبناء السفن، والحبال والقلاع وغير ذلك، وكان هذا من إليزابيت مروقا وخروجا عن التعليمات التي كان «الإكسندر السادس» قد نشرها بصفته البابا المطاع، والذي قسم العالم إلى مناطق نفوذ بين الأسبان والبرتغال، وأنه لاحق لغيرهما في التجارة مع إفريقيا، ولم يكن الأنجليز وحدهم هم الذين تخطوا أوامر رجال الكنيسة، بل الفرنسيون كذلك، فمن أجل رواج تجارتهم صدروا للمغرب من الأسلحة ما أفاد منه عبد الملك أيضا، وإن كنا سنرى أن جل دول أوربا تحت ضغط الصليبية ستشارك في المعركة التي أقدم عليها سباستيان باسم الفتح لبلاد الإسلام التي هي في اعتبارهم دار حرب.

ومهما يكن فقد كان للأنجليزيين في عهد الملكة إليزابيت، زمن عبد الملك وما بعده، علاقة مع المغرب جد كبيرة في مجال الاقتصاد، فقد كانوا يترددون على المغرب حيث ترسو سفنهم على الشواطئ الغربية من أجل التبادل التجاري، وحيث كانوا يأتون بأنواع الثياب التي كانت قد أخذت تعرف وقتها رواجًا في مدن الشواطئ ثم كانوا يبتاعون من الأهالي التبر، والعاج، والرماح، وريش النعام، والصوف، والجلود، وأنياب الفيل، والصمغ، والعنبر، والبخور، والعبيد، كما كانوا يتاجرون في البرتغاليين كعبيد، يبيعونهم للمغاربة في الوقت الذي كان البرتغاليون قد سبقوهم إلى شواطئ المحيط الأطلسي فعرفوا المدن التي تشرف عليه من أصيلة والعرائش إلى مدينة أغادير، مرورا بأزمور والجديدة ثم الصويرة وآسفي وغيرها، إلا أن سياسة عبد الملك، وهي التي سوف يتمسك

بها صنوه أحمد فوتت على الاسبانيين والبرتغاليين ماكانوا يطمحون إليه من الاستفادة التي أفادها الانجليزيون، بل وحتى الفرنسيون، لكن بحذر، بل إن سياسة الرهبان الكاثوليك التي عمل بها الاسبان مكنت للعداوة من نفوس المغاربة كرد فعل، فكانت النتيجة ماعرفوه بعد في معركة وادي المخازن.

كان البحارة الأنجليز ورؤساؤهم يقتربون من الشواطئ في النهار، ويبتعدون عنها بالليل، خوفا من الخطر الذي كان الأجانب يتعرضون له من المغاربة كلما طالت خطاهم في البر الذي لم يكن المغاربة يرحمون من يحاول مشاركتهم فيه، لكن النهج السياسي الذي سلكه كل من عبد الملك وإليزابيت بدل الموازين وخلق للأنجليزيين جوا جعلهم يتهافتون على شواطئ المغرب ومدنه، حتى أخذوا يصدرون للمغرب كلما كانوا قد حققوه من سبق في ميدان الأسلحة، الأمر الذي دفع سباستيان إلى محاربة المغرب باسم الصليبية الكاثوليكية، وحتى يتراجع عن الأرثوذوكس.

وفي الوقت الذي بدأ البرتغاليون يستعدون لغزو المغرب أخذت السفن الأنجليزية تتجه نحو الشاطئ المغربي وكأنها في سباق مع الآخرين، محملة بالرجال من أجل الاستكشاف الحربي، كما حصل من البحارة الانجليزي المعروف «السيرفرنسيس دراك»، الذي اتجه ناحية السويرة علي متن خمس سفن بها مائة وخمسون بحارا، وكان هدفه اكتشاف واحتلال المناطق التي لم تكن بعد قد عرفت الاحتلال، ومن أجل ذلك لقي من عناية الملكة اليزابيت التي ودعته شخصيا كل العناية، وفعلا نزل بالجزيرة المقابلة لمدينة السويرة يوم 1577/12/25م، وهي السنة التي عين فيها «غيوم بيرارد» أول قنصل لفرنسا في المغرب، بل وبعد سبعة أشهر أي في شهر يوليوز عام 1578م، استولى سباستيان على مدينة أصيلة وذلك حتى يبرهن للجيوش الصليبية التي استنجد بها- ثم تهاطلت من إسبانيا وإيطاليا وألمانيا فرسانا وراجلين، حيث تجمع له ما قدره اليفراني بـ 25 ألف - أن النصر محقق لامحالة ، بحيث كان احتلاله لمدينة أصيلة له مغزى مادامت تلك الجيوش تستعد وهي على وشك التوجه للمعركة الفاصلة التي ستكون على ضفة وادي المخازن بتاريخ يوم الإثنين 30 جمادى الأولى 986هـ = 1878/8/4م. والتي كان يقربها من بعض حماس الرهبان وإثارتهم لوصية إيزابيلا الكاثوليكية وقت سقوط غرناطة.

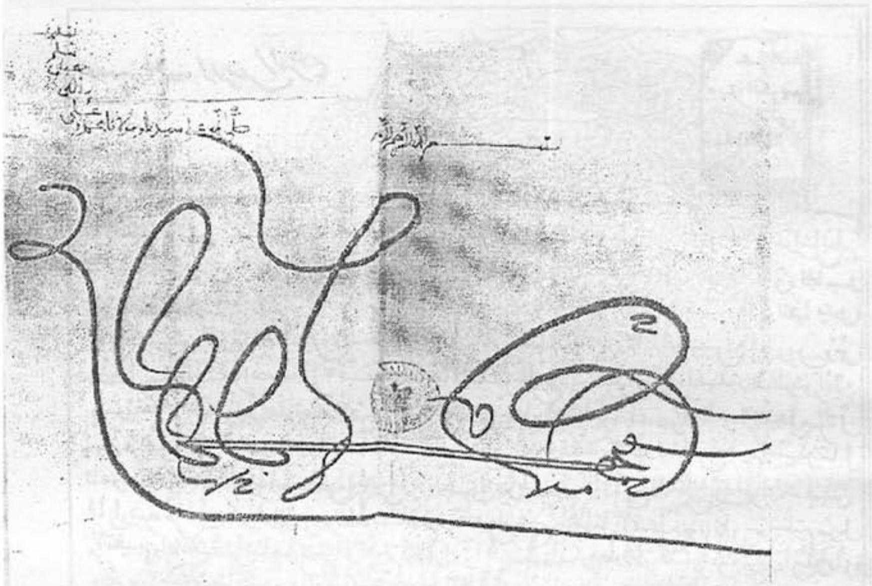

توقيع محمد الشيخ السعدي

بسم الله الرحمن الرحيم

شروط

خزانة عبد الكريم الفيلالي
A. EL FILALI

شروط الصلح التي عقدها ابو عبد الله محمد أحمد العياشي مع دول اوروبا بريطانيا وفرنسا بتاريخ 18 حجة 1046هـ-1637/5/5م

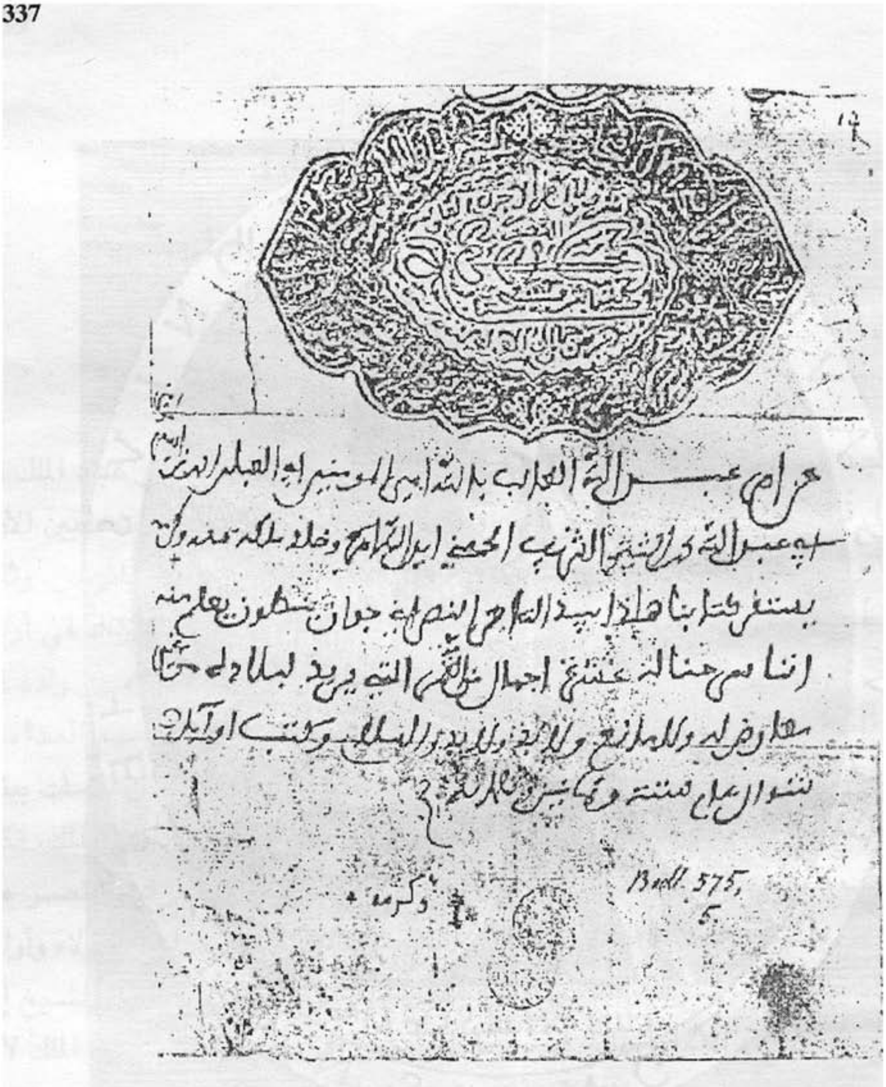
عن امر عبد الله الغالب بالله امير المومنين ابو العباس ابن
ابي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسني ايد الله امره وخلد ملكه [illegible]
يستقر كتابنا هذا بيد التاجر النصراني جوان [illegible] يعلم منه
انا من [illegible] اجمال من التمر التي يريد لبلاده [illegible]
[illegible] وكتب اواخر
شوال عام [illegible]

Bodl. 575, 5.

تصريح من محمد الشيخ السعدي لأحد التجار الانجليز بتصدير التمور

سفير بريطانيا في المغرب في الفترة ما بين 1014-1015هـ/1605-1606م

الفصل الخامس بعد المائة

المغرب وفضيحة أوروبا في معركة الملوك الثلاثة بوادي المخازن

لم يجد للمتوكل ملاذا ولا مساعدا غير أهل سوس الذين حاربو عبد الملك لمدة سنتين، قتل فيها أكثر من ستة عشر ألف، ولعل أهل سوس وهم سدنة السعديين الأول، إلا أنهم كانوا يجهلون واقع المتوكل وسلوكه الساقط الذي تجسمه زوجته بياتريس، وثانيا فعل السوسيون ذلك لسببين: الأول وفاؤهم لمحمد الشيخ الذي غدره الأتراك في أرض سوس علقت رأسه وفي أرض الترك نحو الثمان عشر سنة، وهم اليوم يساعدون ولده عبد الملك الذي التجأ لبلادهم في الوقت الذي كان في نظرهم أحق أن يناصبهم العداء بلا هوادة، السبب الثاني هو ما ظهر من سبق خصومهم أهل مراكش الذين نشأت بينهم العداوة منذ نهاية القائم وتنافس محمد السيخ وأخيه أحمد الأعرج على الملك، فكان النصر حليف صاحبهم الذي هو محمد الشيخ، والد عبد الملك الذي لم يقتصر على خصوم أهل سوس، بل زاد عليهم جيش النار من الأندلسيين، وليس هؤلاء وأولئك فحسب، بل جيش الغرب وغيرهم من الذين فتكوا بهم يوم أرسلهم محمد الشيخ إلى الشمال، ورغم كل هذه العوامل التي دفعت بأهل سوس إلى عدم الإنقياد لعبد الملك لأول وهلة، فإنهم تأخروا أخيرا عن المتوكل عندما عرفوا خيانته السافرة، والتجاءه للعدو المتربص بالدين والوطن وقتها تخلوا عنه وأسلموه إلى ما أراد، ففر متجها نحو الشمال في طريقه إلى ملك البرتغال سباستيان يستغيث به ضد المغرب والمغاربة لا ضد عميه فقط.

ركب المتوكل البحر من سبتة إلى لشبونة، وليس من طنجة كما تقول بعض المصادر، لكن فات المتوكل أن عبد الملك المثقف الذي يتقن الاسبانية كما تقول مصادر

الانجلين، بل والذي صنع النصر من لاشيء، كان في المستوى الذي أهله لذلك الانتصار، وأن عبد الملك اليوم وبعد رحلته واغترابه يختلف عن بقية ما عرف من السعديين منذ عهد القائم، وأنه أفاد من اتصالاته بالمشرق تركيا والجزائر، واطلاعه على أساليب السياسة لدى آل عثمان الذين كانوا وقتها يمثلون قمتها في المشرق والمغرب، ولقد برهن عبد الملك عن تطوره الكبير، بعمله السياسي الذي لم يكن مألوفا من الملوك في عصره، وفي الظرف الذي قام فيه، إذ ما كاد يتم له الانتصار على ابن أخيه المنهزم الذي غادر المغرب إلى أحضان عدو المغرب، حتى بادر عبد الملك للاتصال بملوك دول أوروبا، حيث اتصل بملك فرنسا هنري الثالث، وملكة بريطانيا اليزابيت وملك اسبانيا فيليب الثاني، ولعل عبد الملك فعل ذلك ليقطع الطريق على طمع الأتراك الذين عرف عن كثب مايقصدون ومايهدفون إليه بالنسبة للمغرب الذي لابد أن يسقط في أيديهم إن هو استمر على ماهو عليه من فرقة بين الإخوة ونزاع مع الدولة العظمى المجاورة، وأن المغاربة المسلمين يفضلون القرب من الأتراك المسلمين كإخوانهم الجزائرين والتونسيين، بدل أن يصبحوا تحت وصاية البرتغال، بواسطة من تنتصر له دولة البرتغال التي سوف لايقدر عبد الملك على الوقوف أمام قواتها.

لم يكن الإتراك ينتظرون من عبد الملك ماحصل من تمسكه بعزة المغرب وحفاظه على الذاتية المغربية، ثم رده الجنود الاتراك بتلك السرعة التي ساعدوه عليها بطلبهم، ولربما كانوا يحسبون أنه بمجرد رجوعهم يدخل المغرب في فوضى فيعودون إليه غير ملتزمين بالعمل حسب إرادة أحد، ولما لم يصدق حسابهم ذاك، أخذوا يعملون لكل مايبعد التفاهم بين المتجاورين من المغاربة والجزائريين، بل وعلى التوتر الذي كان ولاة الأقاليم المجاورة يذكونه ويزيدون عليه مايحدث التصادم مع الاسبان والبرتغال من جهة أخرى، بل حتى ملك البرتغال سباستيان الذي فر عنده المتوكل حاول عبد الملك الاتصال به قبل إبحار المتوكل وقبل إبحار سباستيان إلى المغرب أيام كان المتوكل ينتظر نجدته كما يخبرنا الفشتالي.(713)

---

(713) المناهل 114، كما توجد كثير من الوثائق تؤكد ذلك في مجموعة الكونت هنري دوكاستر خصوصا المجلد 3 طبعة 1935.

لقد أفاد عبد الملك المعتصم من مبادرة الاتصال بأوربا فائدة كبيرة، ذلك أنه إذا لم يكن قد حقق عدم انسياق الدول الكاثوليكية المتعصبة مثل إيطاليا وآلبابا، فإنه على الأقل أعطى صورة لكل من فرنسا وبريطانيا أنه لايقصد عداء أحد خصوصاً الذين لم يتدخلوا في شؤون المغرب الداخلية، لكن ذلك كله كان في نظر سباستيان(714) ورجال دولته. غير كاف لجعله يلتزم الحياد ولايتدخل في شؤون المغرب، البلد المجاور الذي يثير اهتمامه، ورغم أنه كان لدولة الاسبان المجاورة من مشاكلها مع أوربا ما يشغلها عن المغرب والتدخل في شؤونه كما صرح بذلك فيليب الثاني، في مراسلته لسباستيان، خصوصا صراعه مع فرنسا الذي لم يتوقف إلا بالصلح الذي تم سنة وفاته 1589م 1007، وقد أكد فيليب في مراسلته لسباستيان أنه لايريد الانسياق خلف وعود المتوكل وإقدامه على حرب ربما تكون نهايتها الإنهزام، مادام ميدانها المغرب، خصوصا وأن المغاربة ملتفون حول فكرة الجهاد، ومجمعون على عبد الملك، وكان ذلك هو الواقع ماعدا الشاطئ الشمالي الذي كان تحت نفوذ صهر المتوكل عبد الكريم بن تودة، وذلك ما اغتر به سباستيان عندما وعده المتوكل بالتنازل عليه مقابل الإنتصار له، بيد أن هذه المنطقة ومافيها من مدن العرائش، وأصيلة والقصر الكبير، أصبحت هي كذلك بعد إنتشار فتوى العلماء ضد المتوكل، تغلي كالمرجل ضده وضد الذين آلتجأ إليهم.

كان ملك البرتغال سباستيان منذ أخذ العهد على المتوكل قد انتهى إلى الإيمان بوجوب عمل ما يحقق به الفكرة التي كانت تداعب قومه، وهي فكرة نشر المسيحية فيما وراء البحار، وقد وجدها فرصة لتحقيق حلم طالما داعب خيال المؤمنين بوصية إيزابيلا التي كانت تحت سيطرة الكهنة كما هو سباستيان، والذين لايزالون لهم كل الأثر في حياة الناس، بل سباستيان الذي لم يتجاوز سن الرابعة والعشرين كان يعاني نفس الموقف من سيطرة وضغط الكهنة ورهبان الكنيسة، إلى جانب الغرور الناشئ عن آتساع ممتلكات البرتغال، ولم يكن يدور بخلد سباستيان ولا من حوله بل ولا أحد قط، أن

(714) كان سباستيان المولود سنة 1554م، قد نصب على البرتغال بعد موت جده يوحنا الثالث سنة1557م، وكان قد هاجم مدينة طنجة وسنه 21 ثم انتصر، فكان ذلك من عوامل غروره إلى جانب مايثيره الرهبان والكهنة من وسائل الإثارة وبعث الحماس الذي أذكاه الإيطاليون والبابا.

مايدبر ضد المغرب سيكون السبب في نهاية مملكة البرتغال، وأنها بانهيارها بعد سنتين ستنضم محقرة في صغار إلى مملكة الاسبان، بعد أن يكون سباستيان قد لاقي حتفه في معركة وادي المخازن.

كانت فكرة آحتلال العرائش تداعب خيال ملوك البرتغال، بل والاسبان منذ عهد بعيد أي منذ إحتلال سبتة سنة 818هـ 1415م لأن العرائش في نظرهم تساوي كل الشاطئ المغربي وقد كانت كذلك منذ عهد الفنيقين، وإذا ما أصبحت الفرصة مواتية وقد وعد المتوكل بالتخلي عنها وعن غيرها عبر الشاطئ، فإن واجب سباستيان أن يحقق ذلك كما حقق سلفه الإنتصار في تونس بواسطة الحفصي، الذليل الحقير المنحط عميل شارلكان الخامس وهو الحسن الأعور بن محمد، قبل أكثر من أربعين سنة، وذلك ما كان يداعب خيال سباستيان الذي سيقدم إلى المعركة وهو مرتديا الثياب التي كان يرتديها شارلكان الخامس، ملك الاسبان عندما غزا تونس سنة 941هـ 1535م، ثم نصب عليها الزنيم المذكور كعامل له بشروط، وإذا ماكانت بريطانيا في شخص الملكة أليزابيت ووزيرها «بُورغلي» قد استمرا في سياسة التعامل مع المغرب تجاريا بْجرية، فإن احتجاجات سفير البرتغال «فرنسيسكو گاريما لدى» تكاثرت إلى درجة الإزعاج، الأمر الذي دعى الملكة إلى اعتبار ما يمكن أن يحصل إذا لم ينظر إلى العلاقة مع ملك الاسبان فيليب الثاني الذي كان هو الآخر يضمر العداء لإيزابيت، خصوصاً وأنه معني بما سيعني عرش البرتغال كما سنرى بعد، بل إن الاسبان ساعدوا الإرلنديين على التمرد، وقدموا إليهم الأموال الأمر الذي دفع إليزابيت إلى إصدار أمرها في شهر ماي من عام1574م بمنع الأنجليزيين من التجارة بالسواحل الإفريقية الواقعة جنوب الرأس الأبيض «غينية» وكذلك أوقفت السلاح الذي كان الأنجليز يتاجرون فيه مع المغاربة.

استقر رأي سباستيان البالغ من العمر أربعا وعشرين سنة -كما أشرنا- ومن حوله على غزو المغرب وإرجاع المتوكل إليه بشروط ربما كانت أشد قسوة من التي قبلها الأعور المشؤوم الحسن بن محمد الحفصي، وحتى يكون الفتح صليبيا هذه المرة، لم يقتصر على جيوش البرتغال(715)، بل وقع الإستنفار بإسم المذهب الكاثوليكي، فشارك

---

(715) تقول رواية اليفراني في نزهة الحادي ص 72-174 ط 1888م ان عددهم بلغ ستون الف؟

الذين لم يتخلصوا من تأثير البابا ورهبانه، حتى قيل إن عدد الجيوش التي قادها سباستيان، بلغ زهاء مائة ألف وخمسة وعشرين ألف مقاتل، وفي رواية مانويل(716) لم يتجاوز عدد الجند أكثر من تسعة وثلاثين ألف وثلاثمائة(717) جمعت كما يلي:

من الاسبان الذين هيجهم القساوة والرهبان، ولم يستطع فيليب الثاني أن يمنعهم عن القتال في سبيل نشر المسيحية، والذين اختاروا حرب المغرب رغم حروب فليب مع الفرنسيين وتكاليفهما، كان عددهم عشرون ألف 20.000 ومن البرتغال 12000 إثني عشر ألف، ومن الإيطاليين 3000 ثلاثة آلاف، ومن جيش البابا غريغوس الثالث عشر،4000 أربعة آلاف، ومن رجال المتوكل ثلاثمائة 300 يكون الجميع 300 39 تسعة وثلاثون ألف وثلاثمائة،(718). وتقول مصادر تاريخ المعركة أن قوات الاسبان نزلت بالشاطئ المغربي في ربيع الثاني، والمعركة كانت بتاريخ يوم الاثنين 30 جمادى الثاني عام 986هـ وأن قوات سباستيان كانت مسلحة بما قيل عنه 200 مدفع، وأن جيشهم الكاثوليكي بدأ معاركه ضد الأهالي بمجرد نزوله من البحر وإذا كانت الغاية أولا هي إزاحة عبد الملك وتنصيب المتوكل، فإن على جند سباستيان أن ينتظر مايكون عليه رأي عبد الملك: هل يبقى بمراكش، أم يواجه المعركة حيث جند سباستيان، لكن ما كاد الخبر يصل إلى عبد الملك حتى فكر في كتابة رسالة تهد كيان سباستيان وتحطم معنوياته، ثم تكدر صفوه وتنغص عليه، ذلك أنه كتب إليه رسالة خاطبه فيها: إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك البحر إلى العدوة فإن ثبتت إلى أن نقدم عليك، فأنت نصراني حقيقي شجاع،

---

(716) حرب 300 سنة بين الجزائر وإسبانيا ص 405. ثم راجع للمؤلف التاريخ المفترى عليه في المغرب ص 161-193 ط الرباط 1969م.

(717) الثلاثمائة هو العدد الذي كان مع الخائن الحقير المتوكل مما يستدل به على ما أصبح له من اعتبار بين المغاربة.

(718) حصل خطأ مطبعي في جمع العدد بكتابنا التايخ المفترى عليه في المغرب ص 179 ط 1969م. لأننا اعتمدنا زيادة ثلاثة آلاف من الالمان كما ذكر صاحب الاستقصا 83/5 ط 1955م نقلا عن مانويل؟ الذي نسخ به أقوال المؤرخين المغاربة ومبالغتهم في رفع عدد جنود سباستيان إلى (125000) بل إن ابن القاضي أوقع غيره في أخطاء كثيرة بسبب جموح عاطفته نحو المنصور، وتقول رواية «هنري دوكاستر» في موسوعته 297/2 نقلا عن البرتغال: إن القوات التي توجه سباستيان بها إلى المعركة كانت كما يلي ستة آلاف (6000) من المشاة، وأربعة آلاف(4000) من الفرسان، وعشرة آلاف (10.000) من الاسبان، والألمان والطليان، وعشرة آلاف من المرتزقة، فيكون المجموع ثلاثون ألفاً (30.000).

وإلا فانت يهودي ابن يهودي»(719)، و،رغم ذلك فقد تقدم جيش سباستيان لاحتلال تطوان والعرائش والقصر(720) وذلك بمشورة المتوكل الذي ظن أن الاستيلاء على الذخيرة والسلاح بالمدن المذكورة يفت في عضد عبد الملك المعتصم، لكنه بعدما حقق رأي عبد الملك الذي دفع إلى القذف بجيش سباستيان في حروب جانبية مع المواطنين، إنتهى رأي المسيرين الذين كانوا يشيرون على الملك الشاب إلى الاستقرار بالمكان المعروف «تاهدارت» وذلك في انتظار صاحب الرسالة التي نغصت على سباستيان تلك التي كتبها عبد الملك المعتصم، وحتى نتعرف على تاريخ وظروف وقيادة المعركة، وجب أن نحيط بأحوال معسكر سباستيان وماكان عليه في هذه المرحلة الدقيقة، مرحلة الانتظار من جانب، ثم على ماقام به عبد الملك المعتصم من استعداد وتنظيم لمواجهة المعركة.

أما سباستيان فهو في سن الرابعة والعشرين يحيط به جنوده التسعة والثلاثون ألف، وحوله من المستشارين ورجال الدين ذوي السلطان القوي عليه وعلى غيره والذين لامعارض لهم، يزينون له ما أقدم عليه ويباركوه، ناهيك وأنه يرتدي الدرع والثياب التي كان يرتديها شارلكان، ومن علامات «الفوز» استيلاؤه على مدن الشاطئ وحيازة مافيها من سلاح ومؤونة، بل إن مما يعزز الرأي ويزكي الطموح ويقوي العزم، ويبعث على الاطمئنان إلى تحقيق النصر هو ماكانت عليه البرتغال وقتها من قوة وعظمة فهي التي انتشر استعمارها لأقطار متعددة وقتها في افريقيا وآسيا من الرأس الأخضر وبيساو وزامبيا» وأنغولا، وموزامبيق، وغرب إفريقيا، ومن جوا إلى ماكاو بالصين، وآسيا، وبلغ مجموع الأراضي التي كانت خاضعة لسلطانها ملايين الكلومترات يسكنها الملايين من البشر(721).

أما عبد الملك المعتصم الذي عرفنا كيف حقق له الشعب النصر على المتوكل فإنه ماكاد يحكم البلاد حتى واجهته هذه الحرب التي جرها على المغرب ابن أخيه الغبي محمد

---

(719) وعند اليفراني في النزهة ص 74 ط 1888 فانت كلب بن كلب وعند الزياني في الترجمان ص 354 «فانت يهودي ابن يهودي» ونحن نرجح قول الزياني لأن اللفظ الأول لايتفق وخلق عبد الملك ولا من حوله.

(720) الزياني المصدر السابق.

(721) راجع مختلف مصادر تاريخ أوربا، ثم تاريخ الدهور ليوحنا أبكاريوس، ص 430، ط 1873- بيروت، والتاريخ العام لفليب فان نيس مير الامريكي - فقرات 580-581-686-949.

المتوكل لا على الله بل على سباستيان، لكنها كانت أكبر عامل في جمع كلمة المغاربة، كما قدر فيليب الثاني في مراسلته لسباستيان، كان عبد الملك في مدة الثلاث سنوات أو تزيد من حكمه للمغرب بعدما مهده تمهيداً مكن له وأخوه أحمد، قد بدأ يطبق خبراته التي أفادها من غربته في كل من الجزائر وتركيا وقد بدأ بتنظيم الجيش حسبما يتفق وطبيعة المجتمع المغربي حيث نظمه فرقا كما يلي:

1- فرقة الأعلاج وصعاليك الأتراك الذين استقدمهم مع الجيش الذي استأجره من الجزائر، والذين اختاروا البقاء في المغرب كمرتزقة، ومن هؤلاء عسكر الموالي كما سماهم الزياني،(722)، وقد كان منهم أهل خدمته في قصره وبستانه، وأبوابه،(723) وحاشية حجابه، وخدمة طعامه وشرابه، والقائمون بجميع أموره.

2- فرقة عسكر الأندلس بفاس ومراكش، وهؤلاء بسبب خيانتهم المتكررة لم يشاركوا في معركة وادي المخازن لأنهم كانوا محل ريبة من موقفهم المصلحي ازاء المتوكل.

3- فرقة جند العجم وهم من البربر ومن عرب زرارة، ومن ترارة و ولهاصة، ومديونة، وبني سنوس، وبني يزناسن، وكبدانة، وقليعة، وأهل الريف، وعددهم خمسة آلاف مقاتل (5000).

4- فرق جند العرب وهم شراقة، والحشم، وبني عامر، والشجع، وبني مالك، والخلط وعددهم خمسة آلاف مقاتل(5000).

5- فرق أهل الغرب وعددهم كذلك خمسة آلاف مقاتل(5000).

6- فرق جند الحوز وهم أهل الدولة الذين كانوا في خدمة والده، منهم من عرب زرارة، والشبانات، وأولاد جرار، وأولاد امطاع، وعددهم خمسة آلاف(5000).

كان عبد الملك بمراكش عندما نزل سباستيان بأرض المغرب شمالاً، وكان صنوه أحمد يقاتل الخارجين بأرض سوس، فأمره أن يلتحق به ومعه جنوده لما هو أهم، كما أمره أن يترك ولده محمد الشيخ مع أهل الأندلس بسوس، وهي فكرة وافقت المنصور

---

(722) الترجمان 313.

(723) ولعله دمجهم مع الأتراك حتى يقتبسوا مايريد جلبه من حضارة آل عثمان.

الذي كان لايثق في جند الاندلس، وقد عرف غدرهم بالغالب والمتوكل، وأنهم ما انقادوا لعبد الملك إلا تحت ضغط الظروف التي صنعها المتوكل لصالح عبد الملك الذي التف حوله الشعب، وبعدما تحققوا من انتصاره الذي تعزز في معركة «الركن» بانضمام قبائل العرب والبربر إلى صفوفه، كما كانت استخبارات المنصور بسوس قد تحققت من نوايا جند الأندلس منذ أصبحوا يحاربون تحت إمرته، وإذا ما أصبح اليوم مقبل على معركة جهاد تقتضي العزم والانضباط ضد عدو يجره المتوكل، فإن عليه وقد أمره عبد الملك أن يتركهم بأرض سوس وأن يحيطهم ببعض جيش الموالي المكون من الصعاليك الذين هم مرتزقة الأعلاج والأتراك وأن يضع الكل تحت امرأة خاله أمير درعة، محمد بن آحمد الكبير، والحاجب عبد الكريم بن يحيى، الى جانب محمد الشيخ ولد عبد الملك كما اوصى الحاجب ان يكون عينا على الدغالي، وابن اخيه محمد، والكاهية محمد زركون وأبو الفضل الغري(724).

وقبل عودة أحمد إلى مراكش نظم مسيرته تنظيماً تقتضيه الظروف، بحيث أحاط جند الأندلس بفرق من جند الشراقة بني عامر وبني سنوس، وسقونة، والأحلاف، وذلك حتى لايميلوا إلى شيعة المتوكل الخارجين، ويفسدوا خطة الجهاد، ووقتها عاد أحمد إلى مراكش ليجد عبد الملك متأهبا بعدما وجه الرسل إلى مختلف الجهات قصد آستنفار القبائل شرقاً وغرباً، والتي استجابت اقتداء برجالات الدين وكبار العلماء الذين تطوعوا من جهات مختلفة لنداء الجهاد الذي لم يترك جامعاً ولا مسجداً. ولاسوقا إلا ونودي فيه على الجهاد بقرآة الرسائل التي وجهها عبد الملك ضمن فتوى العلماء بالتخلي عن بيعة المتوكل الذي التجأ إلى الكفر يستعين به على المسلمين،(725). وكان أكثر المتطوعين من القبائل المجاورة لمراكش، وكذا أهل سوس الذين تأثروا بالدعوة إلى الجهاد ثم وجدها بعضهم فرصة للتقرب من عبد الملك وأخيه أحمد اللذين تبين لذوي النوايا الحسنة مدى

---

(724) راجع الترجمان المصدر السابق 354م.

(725) ولسنا هنا بصدد إبطال مزاعم الذين افتروا على التاريخ في هذه المعركة مثل الفاسيين الذين نسبوا لجدهم يوسف ما أوضحنا زعمه وكشفناه في كتابنا التاريخ المفتري عليه في المغرب ص 161– 193 ط 1969. على أن المتمعن في جل ما كتبه آل الفاسي قديما وبدون استثناء لايجد فيه غير الزندقة والضلال. راجع فصل «الاسلام ومعتقد آل الفاسي» من كتاب التاريخ المفترى عليه في المغرب، ومافيه من أسماء كتبهم التي ساهمت في نشر الشرك والزندقة والضلال.

صدقهما وصلاح طويتهما، عكس ماظهر من الزنديق المتوكل وصهره الزنيم عبد الكريم بن تودة وبطانته، ولقد كان شهر جمادى الأولى كله مراسلات واتصالات بين رجالات المغرب وقبائله في مختلف الجهات، بل كانت أيامه كلها استنفار وتشحيذ للهمم بالخطب على المنابر والتوجيه من العلماء ورجالات الدين، فأخذ الناس يتواعدون ناحية القصر قبل أن تصل جيوش عبد الملك إلى المنطقة حيث تقاطرت الجموع على منطقة القصر بشكل دفع دعاة الشرك والضلال باسم التصوف إلى اختلاق مازين لهم الهوى من الإفك والشرك والبهتان مثل ماحصل. من العربي بن يوسف القصري «الفاسي»(726) وعبد الرحمن(727) بن عبد القادر القصري اللذين انكشف ما افترياه بشكل لم يجاريهما فيه أحد حتى أشركوا الموتى في المعركة، مثل أبو العباس السبتي، مما شوه تاريخ هذه المعركة وجلالها في تاريخنا المعاصر، وفي أذهان كل الذين قدر لهم أن يطلعوا على شيء مما كتبه آل القصري الفاسي حول الموضوع متغافلين وغيرهم عن جهود الشعب وتعلقه بوطنه من أجل أن ينصبوا من موتاهم أصناما للشرك والكفر والضلال، ولقد كان الذي جر كل الذين بعده إلى هذه الأخطاء الفاحشة التي تضلل الناس في عقيدتهم هو أحمد بن القاضي في كتابه (المنتقى المقصور على مآثر «الخليفة» المنصور، فهو الذي قال حول معركة وادي المخازن: إن المغاربة كانوا حين يقبل الفرد منهم على الجندي الأوربي ليقتله يجده مقتولا، وكان ذلك بزعمه من بعض عباد الله تعالى» مما أدى إلى استغراب الناس.. إلخ، بل هو كذلك الذي رفع رقم الجيوش الأوروبية إلى 125.000 (مائة وخمسة وعشرون الفا)، وبه اقتدى كل الذين جاؤوا بعده. ومثل هذه الخرافات والمبالغات تفقد الموقف روعته وجلاله. وتجعله أقرب إلى الخرافة، بل تلك المزاعم هي التي أغرت آل الفاسي بما زعموا حتى يكون لهم نصيب من الاعتبار، ولايدخلهم الناس في زمرة البلديين، وهم مسلمة اليهود وأعلاج النصارى الذين عرفوا وقتها من أنواع النّكال ما سلطها عليهم الشعب المدفوع بتقاليد الجاهلية وعقلية المغرضين.

---

(726) راجع مرآة المحاسن ط حجرية المذكور قبل.

(727) إبتهاج القلوب م. خ.ع. 1912 د، و 320 ك و1301 ك و د1386ك، ثم راجع مناهل الصفا للفشتالي، والممدود والمقصور، ونزهة الحادي، وجذوة الاقتباس في التراجم المعروفة بمشا كتها والترجمان المعرب للزياني الخ.

هانري 3

هو الذي ارسل إليه عبد الملك السعدي سفارة يطلب مساعدته في شهر نوفمبر1576بواسطة الفرنسي كابريت الذي كان يعمل في بلاط عبد الملك مختصا بالشؤون السرية التي تعني اسبانيا

الفصل السادس بعد المائة
عبد الملك وظروف المعركة

في الوقت الذي كانت الجموع القريبة من مراكش تتقاطر عليها كخلايا النحل دون أن يعلم الناس أن عبد الملك مصاب بمرض ألزمه الفراش وهو لايريد أن يعلم الناس بذلك، وحتى يكون له ماأراد صمم على قيادة المعركة بنفسه ولم يقبل التخلف عن الجهاد رغم إجماع من حوله على أن نيابة أخيه أحمد كافية وتجزئ، وسرعان ما علم الناس بحال عبد الملك وإقدامه الذي لم يستطع أحد إقناعه بالعدول عنه، الأمر الذي ملأ قلوب المواطنين غيرة وشجاعة فازداد إقبالهم وحماسهم أكثر، لكن قبل ماهي أسباب مرض عبد الملك؟.

تقول بعض الروايات أن عبد الملك سمِّم، ونحن لانقول مع الذين قالوا بتسميمه بواسطة الكعك الذي قدم إليه من الأتراك، وبأمر مد سوس من رضوان العلج قائدهم الذي فارقه منذ ثلاث سنوات، وهي رواية لانقول بصحتها، ويشكك فيها الواقع والظروف، وإنما هي رواية إستقاها اليفراني من ابن القاضي(728) الذي لم يقل لنا عن مصدرها.

قبل أن يخرج عبد الملك من مدينة مراكش عرضت عليه لائحة بأسماء القبائل التي جندت رجالها ثم سلحتهم والتزمت بمؤونتهم، وإذا هو لم يلح ولأسباب صحية على معرفة العدد بالضبط فإنه عرف أنه سيكون أضعاف ماكان له من الجند النظامي البالغ عدد المتجه منه إلى المعركة عشرون ألف 20 000 مقاتل، ركب عبد الملك المعتصم وهو مريض المحفة(729) التي أعدت له ثم أمر بالرحيل بعدما خرج قبل أخوه وولي عهده أحمد خليفته من فاس، وقد التحق به أغلب الجيش تاركا بعضه ليحيط بعبد الملك المعتصم الذي شاء

---

(728) راجع النزهة ص 77 ط 1888م، والجذوة 2/142-143 ط 1974م ثم راجع دوكاستر السلسة الأنجليزية 2/297-312 ومن زوايا تاريخ المغرب لمحمد بن تاويت وعبد اللطيف الخطيب مجلة تطوان عدد 69/10.

(729) المحفة هودج لاقبة له: تجمع على محاف.

له القدر أن يصاب في تلك الفترة وأن يقطع ست عشر مرحلة في اتجاه القصر الكبير وهو مريض منهك، إنها روح القائد الملتزم الذي صنع النصر بإيمانه والتزامه وخير له أن يموت ودوي المدافع يطرب سمعه في المعركة، من أن يتخلف وتتمزق أحشاؤه مادام بعيدا ومريضا ثم هو لايعلم شيئا عن مصير المغرب ومصير الإسلام، وربما كانت الغصة تقتله قبل بدء المعركة، لكن رحم الله المتنبي إذ يقول:

وإذا كانت النفوس كبارا　　　تعبت في مرادها الاجسام

لم يكن عبد الملك حسب المعطيات يقصد غير الاستشهاد لا محالة، وإلا كيف يعلل المرء إقدامه على قطع تلك المسافة وهو على ماكان عليه، وتلك لعمري قوة خارقة تتميز بها النفس الأبية النبيلة، والتي لايتوفر عليها غير أولى العزم أمثال عبد الملك المعتصم، وعبد المومن بن علي الذي يشبههم في نفس الموقف وكما رأينا قبل في يوسف بن تاشفين.

كانت آخر المراحل هي النزول بالقصر الكبير لوضع خطة المواجهة، وإذا ماعلم سباستيان وقومه بوصول عبد الملك الذي أخفى مرضه، فعليه أن يأمر جيوشه بالرحيل من تاهدارت إلى وادي المخازن، ومقابل ذلك ارتحلت جيوش عبد الملك المعتصم إلى المكان الذي أشار به ولي العهد أخوه أحمد وهو واد «واروروا »(730) قريبا من وادي المخازن بحيث يترآأون.

كانت قوات البرتغال قد نزلت كلها إلى البر حتى يكتب لجميع أفرادها شرف المشاركة في المعركة الفاصلة التي هاجمت الإسلام في عقر داره بالمغرب، بعدما أزاحته من الأندلس، وإذا كانت هذه المعركة من الجانب البرتغالي يقودها ملك شاب في الرابعة والعشرين من عمره، وقد سبق له أن فاز بالنصر في طنجة، فإن شرف المشاركة يدفع كل الجنود الكاثوليك إلى الإقدام في تنافس بزهم فيه جند البابا غريغوس الثالث عشر، والذين تجلى حقدهم الذي أظهروه في معاملتهم لسكان المدن التي استعرض عليها سباستيان عضلاته في تطوان وأصيلا والعرائش، بل كلما ارتجت أعصاب جند سباستيان كان جنود البابا يدفعوهم بحماس إلى ارتكاب الجرائم بالقتل والتنكيل، كما شهدت بذلك مصادر تاريخهم، بل مبالغة في التفاؤل الذي عززته القوة الهائلة والأسلحة

---

(730) المناهل للفشتالي، والترجمان للزياني، ونزهة الحادي لليفراني.

المتنوعة والاستعداد الكبير، لم يقف سباستيان وجنده، خلف النهر بل ومبالغة أيضا في الثقة تخطوه على قنطرة لم يكن على النهر سواها(731) لكنه فات الملك الشاب المتهور سباستيان، أنه بعمله ذاك إنما أتاح للقيادة المغربية فرصة مكنتها من التحكم في أرض المعركة التي كان محدداً لها حسب اختيار عبد الملك الذي دفع سباستيان إلى التقدم بحيلة، مكانا معينا وزمانا معينا كذلك، فالمكان حافة وادي المخازن غربا وجنوبا، والزمان هو يوم الإثنين منسلخ جمادى الأولى من سنة 986هـ/ 4 غشت عام 1578م وليلة اليوم المذكور هي مساء يوم الأحد، وبلا شك كانت جموع المسيحيين المتواجدين يقومون فيها بطقوس العبادة التي يفرضها وجود قوات البابا غريغوس الثالث عشر، والتي بلا شك تعقبها كؤوس الأفراح أملا بنشوة الإنتصار المرتقب، وليلتها سيقوم أحمد صنو عبد الملك، وولي عهده على رأس كوكبة من الفرسان بتنفيذ أهم خطة ستغير مجرى التاريخ، تلك هي خطة هدم القنطرة الوحيدة التي مر عليها جند سباستيان دون أن يتخلف منهم أحد، مما يدل على انعدام التخطيط المحكم وعدم رشد القيادة البرتغالية.

في الوقت الذي بعث عبد الملك بالرسالة المثيرة إلى سباستيان كي يتقدم نصف مرحلة، كان أحمد صنو عبد الملك ورجال دولة عبد الملك يوزعون الخطة بعدما ركزوا الجيش، ثم قسموه إلى مقدمة، ومؤخرة، ثم ميسرة، وميمنة، حسب خريطة المكان الذي وقع الاختيار عليه، وقد عين القائد الأعلى للجيش أحمد صنو الملك والموجه للعمليات كذلك مادام عبد الملك طريح الفراش، ولا أحد يعلم حقيقة أمره، كما وزعت الأركان.

بين محمد بن سليمان الدرعي قائد جيش المتطوعين، وهو الذي هيأ الخطة بإحكام بحيث وضع للقواد التابعين لإمرته خطة الهجوم تحميهم قوات جيش النار من غير الأندلسيين، والذين كان يشير عليهم إبراهيم السفياني، وأحمد الزواوي وعبد العزيز

---

(731) بل تقول الرواية المغربية إن سباستيان تقدم بدافع الكبرياء مقابل الرسالة التي بعث بها إليه عبد الملك المعتصم ينكر عليه فيها انتظاره دون أن يتقدم ولو مرحلة في الوقت الذي قطع فيه ست عشرة مرحلة. وإذا ماثبتت هذه المراسلة تكون الخطة قد درست بين الأخوين، ولربما مع أركان حرب المعركة بإحكام حيث نفذها أحمد بهدم القنطرة بعد ابتعادهم عنها الامر الذي يستبعد معه أن تكون الفكرة من ابتكار أحمد من غير أن يشاركه الرأي آخرون.

يخلف وعبد الله التلمساني(732) والاسرتان آل السفياني وآل الزواوي هما اللتان يوجد خلفهما بمدينة سلا.

كان جند عبد الملك المعتصم وقت المعركة يتكون من نحو عشرين ألف جندي نظامي هم: جند العجم، والعرب، وفرق أهل الغرب، والحوز، ومن المتطوعين الذين لم تذكر المصادر أعداد هم، والذين بلا شك كانوا أضعاف الجند النظامي مادام عبد الملك يعززه العلماء والوجهاء، وقد اتفقوا على إعلان فكرة الجهاد والنداء به في مختلف أنحاء المغرب مدنه وقراه.

وتحت ظلام الليل قام أحمد ولي العهد والقائد العام بالنيابة بهدم القنطرة التي وقف بعيداً عنها ينظر إلى جنوده وقد أتوا على نهايتها، ولو كان الذي فعل ذلك هو سباستيان ليدفع بجنوده إلى تحقيق النصر متمثلا بقائد الفرس هرمز ثم طارق اللذين أحرقا سفن المواصلات لكان لتاريخ المعركة شكل غير الذي حصل، لكنها خدعة القيادة العامة للجيش المغربي ضد العدو، وقد كانت بحق خدعة حرب ناجحة بتوفيق من الله وقد نسي دعاة الشرك والضلال من آل الفاسي المعاصرين ان يقولوا لنا إن بركة جدهم

---

(732) تقول رواية تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ص 114 ط 1912م، ان السلطان مراد الذي تولى ملك آل عثمان يوم وفاة والده سليم في 27 رمضان 982هـ 1574/12/12م والذي قتل إخوته الخمسة خوف المزاحمة أوعز إلى محمد باشا صقلي فأمر والي طرابلس بنجدة عبد الملك، وأن جيش الآتراك شارك في المعركة وهو زعم باطل، إذ وقتها لم يكن لطرابلس والي مستقل عن تونس، بل لو كان ذلك لأمر والى الجزائر وقتها حسن فنزيانو باشا الذي حل محل قائد رمضان 985-988هـ، أما طرابلس فإنها لم تعرف عهد الباشوات المستقلين إلا في سنة 1123هـ/ 1711م، وكان أولهم «أحمد الأول قره مانلي قولوغلو»، بل إن صاحب تاريخ الدولة العلية زاد فقال «إن مملكة مراكش دخلت ضمن دائرة نفوذ الأتراك» وهو زعم باطل لم يحصل قط، ومن سياق الحديث يفهم أنه أختلط عليه تاريخ معركة وادي المخازن بتاريخ نجدة عبد الملك التي آستأجر فيها الجنود قبل هذا التاريخ بثلاث سنوات أي سنة 983هـ/1575م هذا بالاضافة إلى ان الاتراك في هذه السنة كانوا في حرب قاسية مع الفرس بعد موت الشاه، طهما سب الثاني سنة 984هـ /1576م، وتولية ولده محمد خدابند الذي قتل بعد ساعات قبل دفن أبيه، ثم تولي بعده سلطان أمير حصن سنة 985هـ وكانت البلاد منقسمة عليه. «فأرسل مراد جيوشه لمحاربته وفتح ما أمكن من بلاده، ثم جعل لاله مصطفى باشا قائدا لها فتوجه إلى إقليم الكرج جنوب جبال القوقاز حيث احتل العاصمة مدينة تفليس، بعد حرب هزم فيها جنود الشاه وقائدهم دقماق بالقرب من حصن «جلدر» في 1578/8/8م، ثم انتقل إلى حرب جيوش العجم يوم 1578/9/8م. ومعركة وادي المخازن كانت يوم 4 غشت 1578م فكيف يمكن لجيش الأتراك وهو في حرب ضروس بالمشرق أن يسهم في معركة وادي المخازن بالمغرب إنه لا أساس لما أورده صاحب تاريخ الدولة العلية محمد فريد رحمه الله.

صاحب عبد الرحمن المجذوب هي التي حطمتها في صبيحة يوم الإثنين حسب التاريخ المشار إليه قبل، إلتفت بعض جنود البرتغال فوجدوا أنفسهم وأمام سباستيان قد إنعزلوا عن البر الرابط بينهم وبين سفنهم الراسية في سبتة، وطنجة بالنهر الذي هم على حافة ضفته اليسرى وهو وادي المخازن دون أن يترك لهم متسع للمراوغة، مما فت في عضد الجند، ودخلهم الاضطراب والرعب بعدما تفشى الخبر وازدادوا رعبا عندما ارتفعت الأصوات عالية كالرعد بالتكبير وبالهيللة، وتمزقت صفوفهم عندما رأوا السيل المتمثل في اندفاع جموع المجاهدين في صفوف متراصة تحت غطاء طلقات المدافع التي أكثر منها جند النار من كل الجهات، حيث صنعت الكماشة حول سباستيان وجنوده، ثم دفعت بهم إلى النهر في أعداد متتابعة، وكأن الملك الشاب المتهور سباستيان لم تقدمه قيادة جنده اعتزازا وتفاخرا وحتى يكون أهلا لمثل ماقام به شارلكان في تونس، والذي كان يومه يرتدي أليق ثيابه ويتباهى بدرعه – وماقدم – حسب جهل قيادته إلا ليكون الضحية الأولى عندما يضرب في رأسه ثم يسقط ويختفي بين القتلى دون أن يقدر على الإهتمام بجثته أحد من الجند، خصوصا وأن قواد الجيش الذين تجمعوا حوله في شكل يدل على عدم تكوينهم العسكري قد سقطوا كلهم صرعي وما تبقى من الجند بلا قيادة فر في اتجاه الوادي فلم يكن أمامهم غير الغرق والهلاك.(733)

كان عبد الملك المعتصم داخل مركز القيادة، وإلى جانبه سرادق صنوه أحمد الذي خرج مسرعاً من السرادق إلى حيث يرى ويسمع سير المعركة من قرب، وإذا مابقي محمد بن سليمان الدرعي بجانب عبد الملك المعتصم الذي حين اشتد به المرض، قد يتردد على سرادق ولي العهد أحمد القائد الأعلى بالنيابة، فإنه كذلك يبلغ أخبار الانتصار أولا بأول إلى عبد الملك المعتصم وهو طريح الفراش، وقد أحاطت بساردقه كوكبة الحراسة، وكان الدرعي يخرج المرة بعد المرة ليأمر المنادي وأصحاب الطبول بعمل كل مايثير الحماس ويدفع إلى تحقيق النصر، وفي المرة الأخيرة التي عاد فيها الدرعي إلى السرادق قبل الزوال، حاملا خبر سقوط سباستيان وقيادته وارتباك جنوده الذين رماهم الذعر في الوادي، وقتها وجد عبد الملك المعتصم قد صعدت روحه وهو واضع سبابته اليمنى على

(733) راجع التاريخ المفترى في المغرب ص 161-193 ط 1969. للمؤلف.

شفتيه وكأنه يقول للدرعي محمد بن سليمان: أكتم السر إياك أن يعرفه أحد غير أحمد؟ ووقتها دفع بجل كوكبة الحراسة إلى المشاركة في الجهاد حتى لايعلموا شيئا مما حصل ثم أرسل إلى ولي العهد أحمد كي يقدم إلى سرادق عبد الملك المعتصم(740).

لاشك كانت الصدمة عنيفة والمعركة شديدة الهول عندما علم أحمد بموت أخيه عبد الملك، لكن الذي خففها هو أن عبد الملك لم يمت إلا بعدما سمع أخبار النصر الكبير، ورغم ذلك فإن أحمد استمر في قيادتها بحنكة وشجاعة دون أن يظهر على محياه شيء من الارتباك لأن ما أصيب به عبد الملك منذ خروجه من مدينة مراكش كان ينذر بذلك، وهو ما كان يدركه أحمد، وإذا هو لم يفعل أكثر من أمر الدرعي بالبقاء في سرادق عبد الملك دون أن يصدر منه شيء بطريقة لاتثير الشكوك حتى لايحصل تراجع قبل الإتيان على كل جنود العدو الذين كانت مقدمتهم قد انقلبت في طريق اللحاق بالمؤخرة التي ارتمى كل جنودها في النهر، تاركين خلفهم جثث قتلاهم وقد تناثرت في كل اتجاه كأنها أوراق الشجر في فصل الخريف.

وبعد الزوال بقليل انجلى الموقف بانتصار المغاربة إنتصاراً ساحقاً على البرتغاليين والاسبان والإيطاليين وحنود البابا غريغوس الثالث عشر، مات الملك الدون سباستيان، وغرق عميله المتوكل الحقير بوادي لكوس، واستشهد عبد الملك المعتصم يرحمه الله، وكما أراد له القدر أن يكتب اسمه في الخالدين، وانتهت آخر المعارك الصليبية في المغرب، وقد عرفت بمعركة الملوك الثلاثة، وتلك هي معركة وادي المخازن التي استغلها المرجفون ثم أدخلوا عليها من الخرافات ما يحسب في حقهم كمشركين وكفار يوم نسبوا النصر لمشاركة الموتى الذين مضى على موتهم عشرات ومآت السنين، مساهمة منهم في إفساء عقيدة الدهماء وتشويه روح الاسلام في نظر الآخرين ومساعدة لخصومه الذين ينسبون له ماهو منه براء، فيرحم الله عبد الملك المعتصم وجميع شهداء الإسلام في تلك المعركة،

---

(740) لقد ابتعد اليفراني عن الصواب حين قال إن الذي وقف على موت عبدالملك هو رضوان العلج ص 78 الذي قال عنه قبل إنه الذي دس له السم في الكعك حسب رواية ابن القاضي، ونفس القول نقله صاحب الاستقصا 80/5 ط1955 بلا تدبر وكأن القوم حرموا من الحاسة التي يتميز بها المؤرخ والتي تمكنه من التحليل والاستنتاج. فالاعلاج عموما من المتهمين عند عبد الملك وقد أبعدهم عن الموقع القريب منه وانهم بسبب خيانتهم المتكررة ولأنهم كانوا محل ريبة لم يشاركوا في معركة وادي المخازن وكما سبق أن أشرنا تركهم احمد في سوس.

أولئك الذين لولا ماحققوه في تلك المعركة الخالدة لكان التاريخ غير التاريخ والناس غير الناس في هذه الديار التي لاعزة لأهلها ولا اعتبار إلا بالاسلام وروح الإسلام وخلق الاسلام.

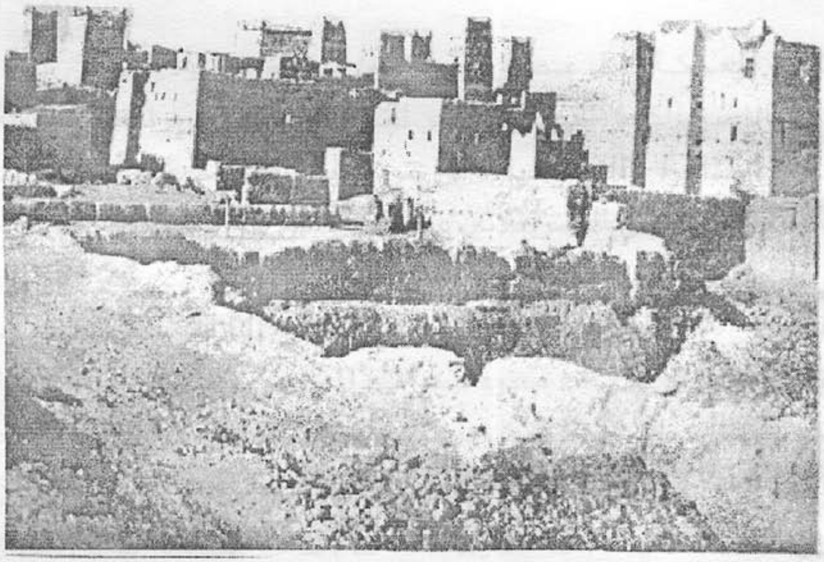

مراكب الدول الأوروبية التي شاركت بنقل جنودها الى المغرب للمشاركة في معركة وادي المخازن 986هـ/1578م

الفصل السابع بعد المائة

المغرب والإسبان وأوربا بعد معركة وادي المخازن

إنتهت المعركة قبل عصر يوم الإثنين منسلخ جمادى الأولى سنة 986 هـ 4 غشت1578م بالنصر الكبير الذي يبقى عبر التاريخ، وحتى اليوم تتغنى به دولة الإسلام في المغرب، وكانت أفراح النصر عبارة عن تتويج ولي العهد أحمد بن محمد الشيخ الذي لقب بالمنصور، البالغ من العمر ثلاثين سنة،إذ هو من مواليد عام 956هـ بفاس ونشأ وتربى في سجلماسة موطن الدين والأخلاق وحسن السلوك الذي يكون الرجال مبكرا، وقيل تملقا وافتراء هو الذي قاد المعركة وسنه لم يتجاوز الثلاثين بطريقة دلت على كفاءته وجدارته بالملك الذي رشحه إليه صنوه عبد الملك المعتصم يوم أسند إليه ولاية العهد قبل سنتين وقت انتصاره على جند المتوكل بمراكش، ويوم أعلنت مراكش بيعتها للمعتصم في 19 ربيع الثاني سنة 984 هـ/ 1576م.

بويع أحمد الذي لقب وقتها بالمنصور إثر معركة وادي المخازن جمادى الأولى986هـ، ثم تمت له البيعة العامة بفاس، وقبل أن يتفرغ لتصفية ما نجم عن المعركة أمر بحمل جثة أخيه الراحل إلى مدينة فاس كما وضعت جثة سباستيان بمكان موقر حتى يرجع إليه(741)، أما المتوكل رأس الحربة الذي مثل الخيانة بكل معانيها، فقد انتشلت جثته من النهر ثم سلخ جلده وحشي تبنا، ثم أرسل إلى مدينة مراكش قصد العرض والتشهير حتى يكون عبرة لكل من يعتبر. وقليل هم الذين لعنهم التاريخ مثله في تاريخ المغرب الكبير باستثناء الحسن بن محمد الحفصي الأعور.

ولما انتهى المنصور من حل كل المشاكل التي ظهرت أثناء المعركة وبعدها واستراح

---

(741) حملت جثة سباستيان إلى لشبونة بواسطة سفارة من الأسبان والبرتغال قدمت على المنصور وهو بفاس، كما اقتيد الأسرى الى مراكش التي كم عرفت من تلك الأسراب التي بيعت فيها بسوق العبيد ومنهم من أصبح اليوم وفي مدن متعدد ينعت باسمي قبائل العرب ولم يكتف بشرف الإسلام.

الناس إلى نتاج تصرفه انتقل إلى مسقط رأسه مدينة فاس، حيث أشرف على نقل جثة أخيه إلى مراكش، ثم وجه الرسل بخبر الإنتصار إلى مختلف جهات المملكة، ثم إلى الخارج، وفي المقدمة طبعا مراد خان الثالث، سلطان آل عثمان الذي كان قبل قد بلغه خبر الإنتصار بواسطة داي الجزائر حسن باشا فنزيانو الذي كان يحتفظ بالأمير إسماعيل بن المعتصم، ومع ذلك أرسل أحمد المنصور سفارة في المستوى برآسة أحمد بن يحيى إلى السطان مراد الثالث 953- 1003م/ 1546-1596م وعند الزياني(742) بواسطة القائد أحمد ودة والكاتب الهوزالي اللذين تعرضا للمحاولة التي أراد بها قائد الأسطول بالجزائر ردهما، لكنه أخيرا سمح للكاتب الهوزالي أن يذهب مع مركب المنصور وهديته إلى مراد، وكان قائد الأسطول بعمله يقصد تحقيق وشاية الوزير علوج باشا، الذي أثار مراد ضد المنصور الذي تنكر في نظره لجميل آل عثمان، وإذا ما عاد اعتذار الهوزالي بالأثر المحمود، وأمر مراد قائد أسطوله بعدم تنفيذ الخطة، فإن تلك المهادنة التي فرضتها نتيجة معركة وادي المخازن، سرعان ما تبدلت إلى ما كانت تهدف له بطانة مراد كما سنرى، وهكذا عادت المعركة على المغرب بنفع كبير وهيبة أكبر، في كل جهات المشرق والمغرب، بحيث أصبح أحمد المنصور السعدي مقصد سفارات الإكبار والتقدير من كل من الأتراك، والأسبان، والفرنسيين، والأنجليز الذين كانوا في حرب مع الأسبان، كما حملت إليه الهدايا العظيمة من البرتغال والأسبان والأتراك وغيرهم(743) ولعل الشي الذي لا يشرف تاريخ السعديين في هذه المرحلة هو السكوت على الرجال العظام الذين كان لهم الفضل كل الفضل في التخطيط والتنفيذ مع علمنا أن أحمد لم يتجاوز الثلاثين سنة مضت من عمره.

أشرنا إلى أنه عندما بويع المنصور كان في سن الثلاثين من عمره، وقبل أن يشارك في معركة وادي المخازن كان قد تمرس بالقتال وتمرن على المواقف الصعبة ثم ذللها، مما قربه أكثر إلى قلب عبد الملك الذي كان لا يتمنى أن يؤل الملك من بعده إلى أحد غير أحمد الذي عبر له عن ذلك في مراسلته «ورغبتي في انتقال الأمر من بعدي إلا

(742) البستان الظريف ص 16م خ نا.

(743) راجع المناهل للقشتالي، والترجمان للزياني، ونزهة الحادي لليفراني، والجذوة لابن القاضي 114/1-115ط 1974 والمنتقى المقصور ط الرباط 1986.

إليك لا لغيرك»(744)، بل الذي زاد في معنويات أحمد المنصور يقول بعضهم هو ما أصبح في اعتقاد الذين عاصروا والده محمد الشيخ المهدي الذي قيل إنه كان يقول، إن واسطة عقدهم هو أحمد، فكان يستمد من ذلك ثقة في النفس التي أهلته للقيام بالدور الذي لم يقم به غيره من السعديين قبله وبعده، ولعل هذا القول من صنع الفشتالي الذي لو بقي عبد الملك على قيد الحياة بعد معركة وادي المخازن لقيل في حقه هذا القول وأكثر.

لكن ماذا حصل بعد بيعة المنصور الذي كان عليه وقد انتصر المغرب في معركة وادي المخازن أن يحرر المدن التي كانت تحت الاحتلال الأجنبي وهي : سبتة، وطنجة، وأصيلا، والجديدة. لقد كانت نشوة الإنتصار تدفع لتحريرها، لكن المنصور فوجئ بثورة مضادة بسوس قام بها ابن أخيه داود بن عبد المومن سنة 987هـ/ 1579م وطعمها جيش الأندلسيين الذين خلفهم بسوس، فتوجه إليه المنصور بنفسه حيث قضى عليه وعلى أنصاره من المخلفين الموتورين، ولم تكن تلك هي الثورة الوحيدة بل عرف أحمد المنصور في أول أمره ثورات، منها ما كان مصدره ظروف وأحوال السعديين قبل معركة وادي المخازن وما عرفوه من تمزيق وتفريق أديا إلى تمزيق وتفريق المغاربة حول الأمراء، ومنها ما كان من أبناء السعديين بمساعدة الأتراك الذين كانوا يتخوفون من المغرب على ولايتهم في كل من الجزائر وتونس ثم طرابلس، والتي كانت قبل تابعة لسلطان المغرب الذي ربما يقوى طموحه بما حققه بعد معركة وادي المخازن، وإذا علم الأطراف أن في استطاعتهم التشويش على أحمد المنصور وخصوصا بعد الانتصار، نجد اتفاق الهدنة مع الاسبان(745) سنة 989هـ/1581م، ولو بالإتصال مراسلة مع داود والناصر وشيعتهما(746)، لكنهم لم ينجحوا مما دفع بهم لنفس المحاولة شرقا عندما حصلت الحرب

---

(744) نزهة 78، لقد اخترنا أن نقسم حياة أحمد المنصور قسمين قسم هو هذا الذي يظهر لنا مشرقا وجميلا، والقسم الآخر هو الذي عبرنا عنه بالوجه الثاني للمنصور كما سنرى، وهو وجه فيه ما لم يعرف به المنصور لأن المؤرخين لم يستطيعوا كشفه، ولو فعلوا لما فقدت الحلقات التي توصل الباحث إلى أسباب تدهور وانحطاط المغرب بتلك السرعة بعده الانتصارات العظيمة التي حققها المغاربة بمعركة وادي المخازن.

(745) راجع مناهل الصفا للفشتالي 55-56-57، ونزهة الحادي الذي نقل عنه بلا شك 81-82 لما رحل المتوكل إلى ملك البرتغال كان معه أخوه الأمير الناصر، وكذا الشيخ ولد المتوكل. وقد أصبحا تحت سلطة فيليب الثاني بعد ضمه مملكة البرتغال مما دفع المنصور إلى تساهل ظاهر في بعض المواقف، مثل سراح الأسرى والدخول في مفاوضات ضد آل عثمان.

(746) المناهل 65 والاستقصا 145/5 -- 151.

بين الفيلاليين وأهل توات، فتوغلت قوات الترك في التراب المغربي بأرض توات التي حل بها بعض قوادهم مصحوبين ببعض العلماء الذين ناظروا علماء توات في شأن البيعة لآل عثمان الذين كانت أطماعهم بادية في الحملة التي عين لها علوج باشا، ولم تتم بالناحية الشرقية للمغرب، لكنهم صدوا على أعقابهم بواسطة القوات التي أرسلها المنصور بقيادة حمو بن بركة، وأحمد حداد، وكذا استعداده للمواجهة أكثر مما أدى بالشيخ عمر بن عبد الرحمان بن محمد صاحب النفوذ على توات وقتها إلى إعلان البيعة لأحمد المنصور، الأمر الذي أدى بالأتراك ثانية إلى مخاطبة وده، فتبادل معهم السفارات والود بعدما كاد يقدم على التحالف مع الاسبان والتنازل لهم على العرائش ضد الأتراك عندما بدأ المفاوضات مع (ضون بيدرو) و(الراهب دييغو مرين) القس بمراكش وسفير فيليب الثاني بتانسيفت وفاس، فلم تسفر تلك المفاوضات على غير تسريح بعض كبار الأسرى لأن الود والصفاء عادا بين المغرب وآل عثمان، حين راسله مراد خان ثم رد على مراسلته بوفد برآسة القاضي أبو القاسم الشاطبي وعضوية عبد الرحمن بن منصور الشياظمي، فألقى القاضي كلمة مؤثرة أمام مراد خان نالت تقديره، فأجاب المنصور برسالة خطية، وبذلك أصبح في مأمن من ناحية الأتراك مما دعاه إلى ترك جانب الأسبان بل والتحصن ضدهم في الشمال المغربي، حيث ركز قوات كبيرة لحماية العرائش وبلاد الريف، ثم الهبط، وغمارة، كما يقول الفشتالي، وإذا هو أدرك أن ثورة الناصر إبن أخيه قد إنتهت بالفشل الذريع للأسبان، فإنهم أصبحوا في نظره أقرب لأن يغزوهم، لكنه تخلى عن الفكرة لأسباب خاصة، ولعل المنصور في هذه المرحلة كان يشعر أن على المغرب أن يخرج من العزلة التي فرضت عليه زمنا غير قصير، وإذا هو أراد ذلك عليه أن يتصل بخصوم الأسبان الذين هم الهولانديون الذين فتحت لهم أبواب التجارة مع المغرب، ومثلهم الفرنسيون، والأنجليز، فكان اتصاله بمراسلة الملكة إليزابيت اقتداء بسلفه، وهي آخر ملكة في العائلة "التيودرية"(746) التي تملكت بلاد الأنجليز من سنة 1485 إلى 1603م، والتي أرسلها المنصور ضد الأسبان، وقصد أن يتزود بالسلاح، كما فعل صنوه عبد الملك قبل، حيث ورد على المغرب بعدها السفير الأنجليزي "هو جان" موفدا من قبل الملكة

---

(747) تاريخ الدهور ص 501 ط 1873م.

فيليب الثاني

فيليب هذا هو الذي أهدى الى عبد الله الغالب 30 جنديا اسبانيا ادخلوا على البلاط بعض العادات الاسبانية، وهو الذي عاصر أحمد المنصور السعدي، وحصل بينهما صراع ادى إلى انتصار فيليب هذا لثورة الناصر بن عبد الله الغالب ضد المنصور، والتي كان مركزها جبال الريف 1003هـ/1595م، وما ذلك الا نقمة منه على ما انتهى اليه المغرب من استقرار وتطور علاقته مع الانجليز .

وهو الذي استنجد به محمد الشيخ السعدي ضد أخيه زيدان بعدما التجأ اليه هو وابنه سنة 1017-1608 فاشترط عليه التنازل له عن العرائش، وإذا ما قام الشعب ضد محمد الشيخ السعدي، فإنه احتال عليه بدعوى انه وقع في اسر الاسبان ، واشترطوا عليه التنازل عن العرائش، ومن أجل ذلك استفتى العلماء: هل يجوز لأمير المؤمنين ان يفعل ما فعل تحت ضغط الظروف المزعومة، فأفتى بعضهم بالجواز خصوصا وأنه من أهل البيت، وفعلا تعرض لمقت الشعب الذي قتله سنة 1022هـ1613 م.

وفيليب هذا هو الذي انشأ محاكم التفتيش لتعذيب المسلمين لكنه مات قتيل هوام القمل، فقد قيل ان هاته الهوام افترست جسده (راجع الموسوعة ص 1353).

أمير البرتغال كريستوف بن دون أنطونيو المطالب
بالعرش وهو الذي جلبه أحمد المنصور الى مراكش
كما فعل فليب2 بالناصر والشيخ والذي أرادت الملكة
إليزابيت أن يساوم به المنصور ضد فليب 2 الذي كان
يهيء لثورة الناصر بن عبد الله الغالب ضد المنصور

المذكورة، ومعه هدايا ضمنها الأسلحة التي أصبحت البضاعة الأولى في الاتجار بين المغرب والأنجليز، خصوصا وأن الأنجليز، أقبلوا على المغرب بروح فيها نكاية للأسبان الذين كانت حروبهم للانجليز لا تعرف هوادة، فأصبح سكر سوس ، والنحاس، والبارود، مواد يصدرها المغرب ليستورد بدلها الأسلحة التي عرف المنصور قبل بحق كيف يطورها لولا أنه تعرض لضغط شديد تعرضت له كذلك إليزابيت من فليليب الثاني الذي كثرت مناوراته ضد العاهل المغربي، حتى انتهى به الأمر إلى تنصير الشيخ ابن المسلوخ الذي اتخذه مع الناصر شقيق المنصور رأس حربة يهدد بهما المنصور، لكن هذه الخرافة قد انتهت بالتنصير الذي تم بالترغيب والترهيب معا من فيليب الذي تولى التعميد بنفسه يوم1593/11/3م 1002هـ والذي به تمم ما كان للأسبان من هزيمة في موقعة الأرمادا قبل خمس سنوات أي 1588م حيث راسلت إليزابيت إثرها أحمد المنصور الذي كان قد اعتاد على رؤية البضائع الانجليزية في عاصمة ملكه، التي أصبح بها مندوب شركة بلاد البربر" هنري روبتس" منذ شهر سبتمبر 1585م، والذي أقام بحي اليهود لمدة ثلاث سنوات، عرفت العلاقة فيها بين الملكة إليزابيت والمنصور مراسلات متعددة حول أشياء كثيرة لم تنطلق إلا بعد الهزيمة المشار إليها، والتي ارتفع فيها قدر الأنجليز بقدر ما انحط الأسبان، وقتها عرفت العلاقات الأنجليزية المغربية تبادل سفارات ومراسلات، حيث أرسل المنصور إلى الملكة إليزابيت الرايس مرزوق الذي حل بلندن في شهر نوفمبر 1588م 997هـ، وكانت مهمته الربط بين الدولتين اللتين جمع بينهما بغض فيليب الثاني، ثم كراهية الأسبان، بل والعمل على خلق المتاعب لفيليب الذي استعمل الناصر والشيخ في مآربه ضد المنصور، فبالمثل وجد هذا الأخير وبعدما تطاول فيليب على البرتغال ثم ضمها إلى سلطانه بدعوى انقراض بيت «أفيز» بعد موت سيباستيان في معركة وادي المخازن، وقتها ظهر أنطونيو مطالب بعرش البرتغال، وكان أنطونيو هذا ابن أخ غير شرعي للملك المتوفى، وكان قد فر بعد هزيمة من فيليب إلى أرض الأنجليز، حيث وجد العون من أليزابيت التي رأت في ضم فيليب للبرتغال خطرا عليها، كما وجد المنصور في ذلك رد فعل ضد فيليب، ومن أجل ذلك أرسل سفيره المشار إليه، بل إن العلاقة بين المنصور وإليزابيت دامت ولمدة سنوات لا شيء فيها أكثر ترديدا من أغنية دون أنطونيو الذي مات بحسرته ولم يحقق له

اليزابيت ملكة انجلترا ابنة هنري الثامن واخت مريم الملكة التي تزوجها فيليب الثاني ملك الاسبان، توجت سنة1558وهي صاحبة الاتهام ضد اختها، وقد كانت سياستها رشيدة وهي التي حمت البروتستانت الألمان والفرنسيين والهولنديين ، وازدهرت علاقة المغرب بانجلترا في عهدها الذي هو عهد احمد المنصور الذهبي، فقد رغبت اليزابيت أن تستغل كراهية المغاربة ضد الاسبان كي تتحالف معهم ضد فيليب الثاني الذي ضم اليه ما كان عند البرتغاليين من أرض المغرب، ولذلك طلبت من عبد الملك واخيه المنصور السعدي ان يساعد الأمير البرتغالي انطونيو المطالب بعرش البرتغال، لكن ظروفه مع الاتراك حالت دون ما وعد به اليزابيت وجعلته يتودد لفيليب الثاني الذي كان يخاف من مناصرته للخارج من السعديين الذي كان لديه ضده، كما كان فيليب الثاني يخشى اتفاق المغرب مع الاتراك فتكون لهم قواعد بحرية تهدد سفنه التي كانت تتجه نحو الهند مما ادى بفيليب الى التخلي عن اصيلة وترامي على جزيرة بادس والشاطئ الصحراوي قصد جلب ذهب السودان دفع المنصور الى التقرب من انجلترا حيث كاد التحالف يؤدي الى نتائج جد هامة لولا ان اليزابيت توفيت سنة 1603م .

شيء من إدعائه سنة 1595م 1004هـ مخلفا ولدا هو "دون كريستوف" الذي جلبه المنصور إلى مراكش كما فعل فيليب بالناصر والشيخ. أما العلاقة المغربية الأنجليزية فقد عرفت مجالا وروابط تمكنت بالعلاقة التي عرف المنصور، كما عرفت إليزابيت وسفرائهما هوجان، برين، والرايس مرزوق، وعبد الواحد أعنون(748) 1009هـ/1600م كيف يزيدونها قوة سياسية على قوة المصالح الاقتصادية(749)، وهي العلاقة التي تطورت إلى درجة أن ذهبت فرقة من البهلوانيين المغاربة من أهل سوس إلى بلاط إليزابيت، حيث قام بعضهم بألعاب تحتفظ بوصفها الوثائق الرسمية لبلاط الملكة الأنجليزية وقتها، وإن كانوا قد أطلقوا عليهم إسم الأتراك حسب لغة ذلك العصر، إذ كان الشرقيون عموما أفارقة وغيرهم، يعرفون عند الأنجليز وقتها بالأتراك، ومهما يكن فإن العلاقة بين المغرب والأنجليز تمكنت إلى درجة أصبح الأسبان يحسبون لها حسابا خصوصا وأنهم أصبحوا في ضيق من حرب الولايات العشر الكاثوليكية، التي بدأت منذ 1579م، والتي واجهت الجيوش الأسبانية بقيادة "الدون يوحنا أستريا"، وهو بطل "ليبنتو" الظافر، ثم قادهم بعد إسكندر أمير بارما، وكان من القواد الممتازين أعظم امتياز، لكنه فشل، مثل السابق بسبب اشتداد الحرب، رغم رجحان كفة الأسبان الذي كان يثير أهل البلاد الواطئة، فكانت النتيجة أن انقسمت الولايات الشمالية والولايات الجنوبية، أما الولايات السبع البروتستانية في الشمال التي أهمها هولانده أوزيلاندا، فقد اتحدت اتحادا دائما وهو اتحاد أترخت المعروف بإتحاد الولايات السبع الواطئة، وجعلوا أمير أرانج رئيسا، فكان هذا الإتحاد أساس جمهورية هولاندا.

تلك مشاغل فيليب التي أبعدت الصراع نوعا على المنصور، والتي اشتدت ضد وليم أرانج رئيس الإتحاد المذكور، إلى درجة أن فيليب قرر إباحة دم هذا القائد الوطني الذي لم يغلب ولم يحوله شيء عن حب بلاده، حتى إن فيليب أخيرا نشر ضده المناشر التي

(748) لا تزال أسرة اعنون معروفة بهذا الإسم حتى اليوم في حي المولى عبد الله بفاس الجديد

(749) راجع المصدر السابق ت العلاقات 37-53، ويقول روجرز في كتابه هذا ص 28: إن بوزارة الخارجية الانجليزية من الوثائق حول الفترة بين 1876-1891 حوالي 109 مجلدا. ثم بين 1792-1900 حوالي 93 مجلد. ولولا مساخن حمامات القصور الملكية التي التهمت الاطنان من وثائق عهود المرينيين والسعديين والعلويين والتي أنقذت منها براءة الطفولة أكثر من مائة ألف وثيقة ترقد اليوم بالخزانة الملكية ومديرية الوثائق وعليها طابع خزانة عبد الكريم الفيلالي بل لولا مساخن الحمامات لكان للمغرب مائة المجلدات بل الالاف من وثائق الماضي البعيد والقريب لكن صدق من قال: يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعل العدو بعدوه.

وهو وليم الصامت أو وليم الأول أمير أرانج 1532–84 الزعيم الاكبر للهولانديين من أجل استقلالهم. ولد في المانيا ينحدر من أسرة ناساو الملكية عمل في البلاط الاسباني الذي عينه حاكما 1555م ولكن حفزته اعتداءات فيليب 2 على حريات الهولانديين وادخال محاكم التفتيش في هولاندا الى الانقلاب على فيليب وتأييد سرا حزب (جيه) الذي ألفه الأشراف وكبار التجار 1566م شهر السلاح ضد اسبانيا وانتهى الى تحرير بلاده سنة 1581م.

تنص على ردته، ثم جعل لمن يقتله أو يأتي به حيا 6250 ليرة أنجليزية أو ما يساويها أرضا، فرد أمير أرانج على ذلك بصحيفة مشهورةب" اعتذار أمير أرانج"(750) وهي أشد ما كتب مطلقا في شكوى الظلم، فانتشرت آثاره في أوربا، وكان لها أثرا عميقا أدى إلى استقلال الولايات التي نبذت التاج الأسباني، وخلعوا فيليب وكسروا ختمه، هذا بالإضافة إلى وجود الأمير "دون كريستوف" بالمغرب، وهو إبن دون أنطونيو المطالب بالعرش، والذي استغل المغرب مسألته،وإذا ما احتل الأنجليز مدينة قادس، بعد في شهر يوليوز سنة1596م، فإن إسبانيا قد تضعضعت وأصبحت في حاجة إلى مسالمة، مما خفف على المنصور، ثم مكنه من بعض النهوض ببلاده اقتصاديا، بعدما تحققت أهدافه السياسية بعد معركة وادي المخازن، وهكذا أعاد المنصور للمغرب سمعته وعزز استقلاله، ثم حوله قوة يحسب لها حسابها في مختلف جهات الأرض، بل أمكن للمنصور أن يرد إلى الأسبان ما قدموا ضد المغرب حيث ساعد الأنجليز، وهم يحاصرون مدينة قادس، وذلك بمقتضى الحلف المبرم بين الدولتين، والذي تم بين سفير المنصور عبد الواحد النوري، والملكة اليزابيت ووزيرها "روبيرت سيسل" في شهر سبتمر 1600م 1009هـ، بل والتي تممت بما راج بين المنصور ومفوض الملكة "هنري برانل" المقيم بمدينة مراكش، فأخذ ملوك أوربا يعقدون معه روابط الود، ويطلبون محالفته حتى إن إبريطانيا عرضت عليه حلفا ضد الأسبان، بل اقترحت عليه غزو مستعمرات إسبانيا في الهند مع المشاركة في تحمل مصاريف الغزو، لكن المنصور لم يجهل أنها كانت مكيدة ماكر أريد بها إبعاد الحصانة عن المغرب، بل إسبانيا أخيرا طالبت محالفة المنصور ضد دون كريستوف المطالب بعرش البرتغال، الذي عرض عليه المنصور مساعدته، وأعادت إسبانيا إلى المغرب مدينة أصيلة مقابل تخلي المنصور عن مساعدة هؤلاء الطامعين في الملك.

وهكذا بفضل الاستقرار الذي تمتع به المغرب، وبفضل تنظيم جيشه وإدارته، بل وما أكثر من الجيوش التي نظمت على غرار الإنكشارية عند آل عثمان، وما وقف عليه المنصور أيام هجرته لبلاد الأتراك وإقامته بالقسطنطينية زمنا، مكنه من معرفة كل

---

(750) التاريخ العام لفيليب فان نس ط I/المطبعة الأمريكية بيروت بدون تاريخ ص 332-333، وفي الصفحة الأخيرة بعض الاعتذار الذي كتبه وليم ويستدل به على ما كانت عليه بعض أقطار أوربا تحت حكم الأسبان من ظلم وفساد دفعا بها إلى التحرر بحد السيف.

التنظيمات التي كانت تمتاز بها إدارة الأتراك وقتها بالنسبة للعالم عموما، والإسلامي بنوع خاص، استطاع أن يتطلع إلى فتح السودان سنة 999هـ/ 1590م، فوصلت جنوده إلى نهر النيجر بغرب إفريقيا، ولم يكن فتحه لتلك البلاد كما زعم البعض بداية لنشر الإسلام، بل إن ابن بطوطة يحدثنا في رحلته عن منسا سليمان شقيق منسا موسى وعن حضارته الإسلامية، واحتفاله بالعيد، وغير ذلك عام 753هـ/ 1353م. حقا لقد استمرحكم المغرب بها إلي سنة 1164هـ /1750م، فكانت ترد عليه منها أطنان الذهب(751) من التبر الذي كان يجبي من الخراج ومن التجارة، حتى أصبح المنصور يعرف بالذهبي، بل دفعه الغنى والثروة الطائلة والإستقرار والفراغ إلى بناء قصر البديع الذي لم يعرف له شبيه ولا نظير، روعة وجمالا في كل ما شيد بالمغرب إطلاقا، والذي جلب له المرمر الذي كان يستبدل بسكر المغرب من إيطاليا وزنابوزن، كما تفتح المغرب في عهده على معظم بلاد أوربا في معاملات تجارية ومراسلات ودية، منها ما ورد عليه يطلب قرضا أو مساعدة من العالم المسيحي الذي أعجب بالمنصور وقتها كل الاعجاب، بل عرف المنصور وحاشيته رقيا عظيما في كل شيء ماديا وأدبيا، يخبرنا عن ذلك تاريخ قصر البديع وما كان يتردد عليه من العظماء، والعلماء، والأدباء، والأطباء، والبارعين، مثل أبي عبد الله محمد الذي أشرف على تطبيب المنصور لما مرض في شهر جمادى الأولى سنة 987هـ/1579م، ولما مثل للشفاء أغدق عليه كما وصف اليفراني(752). كما ألقيت قصائد في الموضوع بأسلوب نستبين منه ما عرف المنصور من عز ومجد غير حقيقين في نظرنا "حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب؟ إلا النضار الصافي والدينار الوافي"، وكان ببابه كل يوم أربع عشر مائة مطرقة لضرب الدينار الوافي دون ما هو معد لذلك من صوغ الأقراط والحلي؟»(753)

---

(751) في تمبكتو ركز المنصور جيشا قوامه عشرون ألف جندي يقول عمر أقيت في تاريخ تمبكتو، كما فتح مملكة صاحب كاغو«مخطوط خاص» كما أخذت قوات المغرب تهاجم الشواطئ وتتربص للأسبان بسبتة التي كان آل النفيس بعد بتطوان قد وجهوا كل إهتمامهم ضد المحتلين بها كمجاهدين دون اتصال أو سند من الدولة، راجع المصادر السابقة.

(752) النزهة 82.

(753) الاستقصا 125/5 .

ولقد عرف المغرب في هذا العهد ازدهارا اقتصاديا ليس لنا أن نتوسع في الكلام حوله ما دام موضوعنا التاريخ السياسي، لكن لا بد من الإلمام ولو جزئيا باحوال المغرب اقتصاديا في هذه المرحلة، وما هي أسباب =

دون أن يفكر في التخفيف على الشعب الذي أثقلته ضريبة "النايبة" التي شرعها والده.

كان المنصور من خلال علاقته الجديدة. بدول أوربا قد تعرف على علاقة كل منها بالأخرى، كما عرف التطاحن والحروب القائمة بينهما ابريطانيا أو الانجليز وقتها مع الأسبان، وإسبانيا مع الأراضي المنخفضة ثم مزاحمة فرنسا، كما سبقت الإشارة إلى ذلك زمن خير الدين بربروس، وبذلك عرف المنصور كيف يستغل اتصالاته بها جميعا، وإذا كان الانجليزيون وقت حربه مع الصليبيين بوادي المخازن أعلنوا حيادهم بين المغرب والبرتغال، وإذا هم أصبحوا دولة بحرية من الدرجة الأولى فإن المنصور اختار أن يستمر في معاملتهم تجاريا بامتياز حيث أنشئت شركة مغربية أنجليزية للتجارة والتبادل

= وعوامل ازدهاره؟ لقد علمنا أن البرتغاليين ما قصدوا الشواطئ المغربية إلا من أجل الاحتكار، ثم الاستيلاء على خيرات البلاد وما عرفت به من إنتاج في مختلف أنواع المعادن إلى جانب ما كان يرد عليها من أرض السودان، وأنه صلة الربط بإفريقيا، كما عرف المغرب عموما بإنتاجه الفلاحي كالحبوب بمختلف أنواعها، والفواكه بجميع اشكالها، وإنتاج جميع الحيوانات كالخيل، والبغال، والحمير، والبقر، والأغنام، والمعز، إلى جانب مشتقات الفلاحة، وصناعاتها كما عرفت تجارة المغاربة مع مختلف جهات الأرض مجالات متنوعة، خصوصا في مجال المعادن التي كانت متوفرة من ذهب، ونحاس، وفضة، وملح، ورصاص إلى جانب ما كان يستورد من تبر السودان بمآت وآلاف القناطر المغربية، حيث كانت القوافل لا ينقطع سيرها بين المغرب والسودان، الأمر الذي دفع البرتغاليين لاحتلال الشواطئ قصد الحصار والابتزاز، فكان لدولة السعديين التي قامت في الوقت المناسب أثرها في القضاء عليهم، ثم انطلقت أكثر بعد موقعه وادي المخازن التي جلبت لها العز والثروة أكثر، وللبرتغاليين السقوط والفقر أكثر كذلك. ثم للأسبان قوة ساهمت في تمزيقها وضعفها.

ومن جهة أخرى فقد عرف المنصور كيف يستفيد من رحلته إلى المشرق ويبعث التطور الاقتصادي بشكل لم تعرفه دولة من الدول المعاصرة وقتها، حتى أصبح المغرب بمعامله لإنتاج السكر وثرواته الهائلة التي اكتملت بعد فتح السودان في أعلى.

أما علاقة المنصور بالشرق فقد تركنا لمن أراد الاطلاع عليها أن يرجع إلى روضه الآس للمقري ط 1964م أو إلى رسائل سعدية تحقيق الأستاذ عبد الله كنون ط تطوان 1954م، وكذا الزياني في الترجمان، وغيرها، على أننا سوف نتعرض لجانب آخر من حياة المنصور حين كلامنا عن مرحلة ما بعد انهيار المغرب ودخوله في دوامة الاستعمار الفرنسي، وذلك حين كلامنا عن الماضي القريب =للمغرب وحضارته في غرب إفريقيا وشرقها، هذا مع العلم أن بعضهم يريد أن يلتمس للمنصور عذرا بسبب ما كانت عليه علاقة المغرب مع الأتراك والأسبان الذين سدوا عليه المنافذ فلم يجد متنفسا إلا في غرب إفريقيا، ثم محاولة ضم تلك البلاد إلى المغرب أو بالأحرى الاتحاد مع أهلها المسلمين لم يكن بالشيء الذي ينكر على المنصور، لو كان قصد لذلك، بل الذي ينكر عليه هو تدميره حتى لمعالم الحضارة الإسلامية التي تجذرت هناك، والتي كانت تتمثل في العلماء ورجال المعرفة كما سنرى بعد ذلك، خصوصا تاريخ "الأمير أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر" الذي كان شعبه يحبه كثيرا والذي أساء إليه الحكم السعدي بغير جرم هو وأولاده الذين عرفوا المنافي والتشرد ومصادرة الممتلكات إلخ، وأكثر من ذلك ما فعله أحمد المنصور مع العالم الجليل أحمد بابا.

بالأقمشة والتي عرفت ب"شركة بلاد البربر" شارك فيها أقرباء الملكة إليزابيت كما أشرنا(754) كما تعامل مع الهولانديين والفرنسيين والإيطاليين وحتى مع الإسبان في مجال السياسة والتجارة، فأصبح بلاط أحمد المنصور الذهبي بما يرد عليه من السفراء المحملين بالهدايا يضاهي بلاط آل عثمان الذين استمد منهم الكثير من مظاهر الحضارة المعاصرة في الترف والبذخ كما استوردت والدته الكثير من تقاليد قصورهم، بل حتى بعض الهوايات مثل التنجيم الذي عرف به كثير من سلاطين آل عثمان أصبح من هوايات المنصور إلي جانب معارفه الأخرى التي وصفها ابن القاضي «مشارك في الحساب والآداب والنحو... وله معرفة بأيام الملوك الماضية وسياساتها، وقد ألف في ذلك»"؟؟"(755) وبالتالي فإن أحمد المنصور أفاد من تلك الرحلة الإضطرارية إلى بلاد الأتراك مع أخيه عبد الملك وأمهما، أفاد منها ما عرفته البلاد على عهدهما من أساليب التجديد سواء في الجيش، أو الإدارة، ومظاهر الحكم كما أفاد بما جدد من أساليب الزراعة التي أنتجت معامل السكر وغيرها، مع العلم أن كل ذلك كان فقط لفائدة شخص أحمد المنصور، وإشباع شهواته الذاتية خصوصا وأن الأداة التي اعتمدها في جميع أنواع التطور كانت تتمثل في الجماعات التي طردت من الأندلس، والتي كان لها أكبر الأثر في تطوير الزراعة والتجارة والعمران، وكل ذلك لم يستفد منه الشعب الذي عرف الكثير من ألوان القهر والكبت والحرمان في عهد أحمد المنصور، بل إنه تأثر بما عاش ورأى من تصرفات سلاطين آل عثمان وولاتهم في الأقاليم التي مر منها، كما تأثر كذلك بما كان يعيش ويرى قريبا منه،وفي الضفة المقابلة من طغيان واستبداد فيليب الثاني ملك الاسبان الذي سجل في حقه إرهاق شعبه بالحروب جريا وراء المجد الذي كان يغريه به القساوسة والرهبان ليس ضد الإسلام فقط، بل وضد البروتستانت.

---

(754) راجع الموسوعة المغربية للأعلام البشرية عبد العزيز بنعبد الله 3/151-153 ، ط 1396 هـ 1976م، حين كان تبادل الرسائل بين المنصور "واليصابات1) بتاريخ 1588/4/28م، - 2) 1589/2/12م - 3) 1590/6/123م، ومنها إلى المنصور بتاريخ 1590/9/20م، ثم راجع موسوعة الكونت دوكاستر المصدر السابق، وجذوة الاقتباس 1/114-115، ومجلة الثقافة المغربية لوزارة الثقافة عدد 6 ص 36/23 سنة 1972، ونخب تاريخية ليفي بروفانسال /ط باريز 1923.

(755) المصدر السابق.

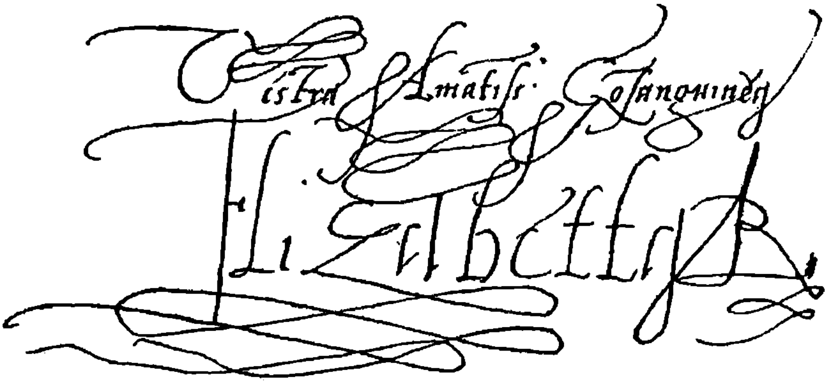

توقيع اليزابيت على عهد السعديين
من الذي اقتبس من الاخر ؟ هل المنصور ام اليزابيت؟

توقيع لوثرمارتن

وإذا كان أحمد المنصور الذهبي قد أفاد بإقامته بين الأتراك إلى درجة أنه أصبح يتقن الخط الشرقي كما يظهر من كتاباته، فإنه كذلك اقتبس منهم الشدة، والقسوة، وحب المال، وما يحققه من ملذات واستغراق في تحقيق رغبات النفس التي رأت مظاهر آل عثمان وإسرافهم على أنفسهم مما لم يعرفه التاريخ لملك من ملوك الدول منذ عهد الإسكندر إلى عهد نيرون إلا ما كان من الفرس الأول(756) وذلك ما لم يتناوله المؤرخون وهو الوجه الثاني للمنصور السعدي، إنه وجه الإرهاق وحرمان الشعب.

سك النقود من مظاهر حضارة السعديين

(قطع ذهبية في عهد المنصور)

(756) راجع تراجم سلاطين آل عثمان الذين قاموا بعد دولة المماليك الجراكسة، وأولهم الغازي عثمان خان الأول في مختلف مصادر التاريخ الإسلامي، وتاريخ الدولة العلية لمحمد فريد

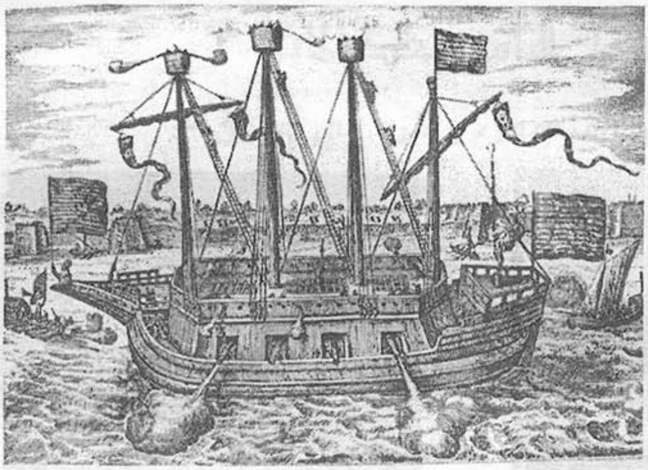

تطور سلاح الحرب في
العهد السعدي

المدفع من أنواع السلاح التي استعملت
في عهد السعديين
مرسوم عليه التاج وتوقيع
أحمد المنصور

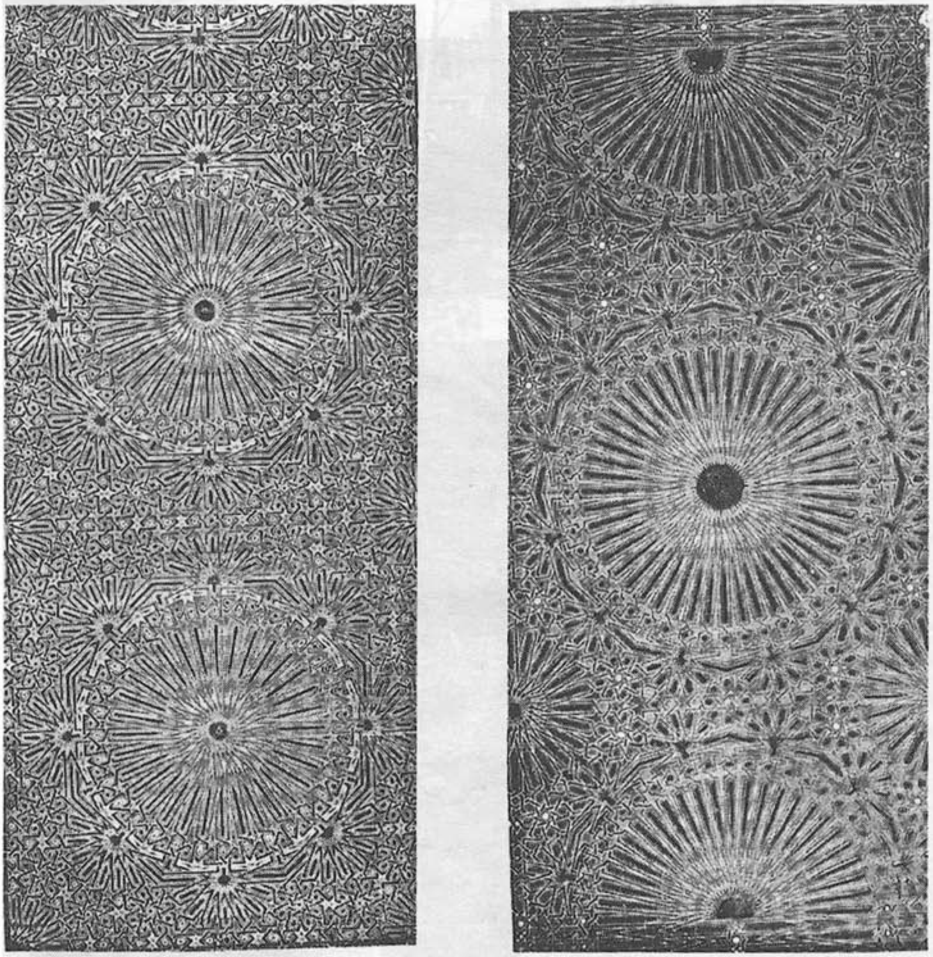

تطور العمران من مظاهر الحضارة في عهد السعديين
والتي وردت مع المهاجرين من الاندلس

الفصل الثامن بعد المائة

طغيان المنصور، وأثره في تمزيق وانهيار دولة السعديين

لقد تولى أحمد المنصور ملك المغرب في عهد سلطانين اثنين من الأتراك : مراد خان الثالث عشر من سلاطين آل عثمان الذي تولى سنة 982هـ 1574م، وتوفي في جمادى الأولى 1003 هـ/ 1594م وعمره خمسون سنة(757)، ورغم أنه كان صالحا موفقا في سياسته الخارجية حيث استطاع أن يربط الصلة مع كل من فرنسا ذات الإمتياز الأكبر عند آل عثمان، ثم مع الأنجليز الذين كان امتيازهم بالمغرب أكبر، فإنه لم يتوفق في الداخل.

وأما الثاني فهو محمد خان الثالث الذي تولى سنة 1003-1012هـ/ 1594-1603م، وإذا كانت صداقة المنصور قد تمكنت مع الأول الذي هو مراد، فلم يعد له طمع في المغرب، فإن الثاني الذي هو محمد خان الثالث(758) الذي إنشغل عن تلك الأطماع التي كانت تزين لسلفه من قبل رجالات الدولة بالحروب التي لم يجد بدا من قيادتها بنفسه بعدما أسند التسيير إلى وزرائه في أول أمره فجروا عليه الهزيمة، الأمر الذي شغله عن المغرب رغم محاولات الفرنسيين ضد الأنجليز واستعمالهم الأتراك في سبيل ذلك خصوصا في عهد سنان باشا وحفالة زادة، بل مما شغله عن المغرب أيضا ما عرفته بلاده من ثورة جنود السباهي، وهم الخيالة الذين ثاروا من أجل ما كان يخصص لهم من الاقطاع المعروف "تمارا"(759) ببلاد آسيا، ثم انشغل أكثر بما ارتكب في حق إخوته

---

(757) راجع تاريخ الدولة العلية 113 -117.

(758) هو الذي أمر بخنق إخوته السبعة عشر قبل دفن أبيه، راجع نفس المصدر السابق ص 117-119.

(759) راجع المصدر السابق ص 119، وفي المغرب عرف بهذا الإسم مكان بعيد من الرباط ب 12 كم غربا، ولعله من إطلاق المولى محمد بن عبد الله الذي كان مغرما بالمنصور السعدي، وذلك لأن المولى محمد بن عبد الله هو الذي استقدم أغلب القبائل المحيطة بالرباط مثل الوداية وعرب الصباح، ولم يكن هذا الإطلاق قد وجد منذ عهد السعديين. وعن السباهي التي معناها "جيش" راجع د. المعارف الإسلامية11/114-215.

السبعة عشر الذين أمر بشنقهم بلا رحمة ولا شفقة.

وهكذا إذا كانت صداقة المنصور السعدي قد تمكنت مع الأول الذي هو مراد حتى إنه تأثر بكثير من مظاهر الحياة في عصره، فإن مراد بسبب ذلك لم يعد له ما كان لسلفه من أطماع في المغرب الذي أصبح هو الآخر قويا بسياسة ملكه وقوة جنده وحسن إدارته، هذا مع أننا لا نهمل أن الشعب لم يفد من كل ما كان لذلك العصر من تطور وتقدم حضاري، وتلك كانت رغبة المنصور كما سنرى، وهكذا فإن مدة حكم المنصور التي طالت بين الخلافة والملك ما يقرب من الثلاثة عقود، كانت عامرة بالأعمال العظيمة التي ركزت سلطان الدولة في الداخل والخارج، بحيث استغل حرب الأسبان مع الأنجليز فربط صلاته بمختلف الدول. وقد أفاد من ذلك تحرير الشواطئ التي كانت بيد الأسبان، خصوصا بعد كارثة الأسطول الأسباني سنة 997هـ/ 1588م، حيث نجح المنصور رغم التضامن المسيحي الذي كان يظهر أحيانا بين القوات الثلاث الأنجليز، وهولاندا، وفرنسا، كرد فعل ضد التضامن الإسلامي، الذي كان يتزعمه آل عثمان، ومع ذلك كان الطابع الذي طبع علائق المنصور مع كثير من بلاد أوربا هو طابع الود، فكانت بيزا، ومرسيليا، وجمهورية جينوه، ومقاطعة بروفانس، تعقد مع المغرب صفقات تجارية، كما كانت ميورقة، وبرشلونة، تعرف نفس العلاقة، وكلها من المنصور وباسمه ولفائدته.

كانت تلك هي سياسة عهد المنصور التي أفاد منها هو نفسه في تركيز نظام ملكه مدة حياته، كما أفادت منها حاشيته وحكومته، أما الشعب المغربي فإنه على العكس لم يعرف من المنصور غير الإرهاق وكثرة التكاليف التي سيعترف بها بعد زيدان نفسه في جوابه لأبي زكريا الحاحي، والتي لم يغنه عنها ما كان يرد عليه من مئات القناطير من ذهب السودان، وإذا ما تذمر الناس سلط عليهم القهر والجبروت، كما حصل لقبائل الخلط، بل إن ثورة شقيقه الناصر التي لم يقمعها المنصور إلا بعد جهد كبير وإعداد أكبر، لم يعتمد فيها على غير إرهاق الشعب، بل الأفراح التي أقيمت بعد الانتصار والتي قصد منها استنزاف أرزاق الناس، تدل بكل وضوح على أن المنصور كان يقصد من تصرفاته المرفوضة من الشعب جنوبا وشمالا، الإذلال وإكراه الناس على ما لا يريدون، وبسبب ذلك ظهر الشعور بالكراهية المتبادل بينه وبين الشعب المغربي، حيث إنه عبر عن

حقيقة ذلك الشعور، وما كان يضمره للشعب بقوله للقاضي عبد الواحد الحميدي حين نبهه القاضي المتصنع المزيف إلى فظاعة ما رأى من حال امرأة ترسف في الأغلال ضمن نسوة قيدن مع رجال أسرى، ولما أدركها المخاض لم تترك، فغضب المنصور من تنبيه القاضي ولم يكلمه مدة أيام رغم سفره من فاس إلى مراكش بمناسبة العيد، الأمر الذي دفع القاضي المنهزم ترضية للمنصور، إلى الندم ومحاولة جبر خاطره؟! ولما استجاب قال : «لولا مارأيت ما أمكنك أن تجيء مع أصحابك مسيرة عشرة أيام في أمن ودعة، فإن أهل المغرب مجانين مارستانهم هي السلاسل والأغلال»(760) فما كان من القاضي الحميدي إلا أن إندفع هو الآخر خلف الإرتشاء قصد التمول، وقد سجل التاريخ في حقه الخزي والعار، ولعل الذي كان يدفع بالمنصور إلى التشبه بآل عثمان في قسوته على الشعب، هو إسرافه في الملاهي، حتى إن القاضي الحميدي نفسه يقص أنه في مناسبة أخرى وقف على بعض الموسيقيين والمغنيين يتبادلون الافتخار بما أحرزه كل منهم من مال كثير، وحلي وذهب، فقال القاضي لرفاقه "«لئن رجعت إلى فاس لأردن أولادي إلى صنعة الموسيقى،فإن صنعة العلم كاسدة، ولولا أن الموسيقى هي العلم العزيز مارجعنا مخفقين، ورجع المغني بشبابة الإبريز»(761) أو ليس هذا هو الوجه الحقيقي

---

(760) راجع نزهة الحادي ص 158 ط 88، والاستقصا 189/5 ط 1955.

(761) النزهة 158-159، والاستقصا 190/5، بل تعرض الحميدي للسرقة المفضوحة من اليهودي إبراهام الذي بلغ من السحر درجة أصبح معها يدخل الدور، ويفتح الأبواب، بدون مفتاح، إلى أن قتل على يد القائد يحيى سنة1001 هـ 1593م، راجع النزهة 161 ، ولعل من الأسباب التي انتهت بدواليب الدولة إلى هذا المصير هو أنها تعرضت إلى مكايد اليهود الذين كان من بينهم مستشار المنصور إبراهيم بن راشي مما أدى بالتالي إلى إشراف اليهود على تسيير أملاك الأمراء وأشراف الدولة، بالإضافة إلى تسييرهم لمعامل السكر، راجع الفشتالي ص 210، خصوصا وأن المنصور بالإضافة إلي انسياقه في هذا المجال، انغمس في بناء قصر البديع في شوال 986هـ/1578م، وهي السنة التي تولى فيها الملك، بل كانت تصرفات اليهود زمن المنصور مما أثار حولهم كتابات وانتقادات عادت إلى ما عرف زمن الوطاسيين من فتاوي تعنيه وآراء وتطورت إلى حروب محلية دونها التاريخ من سمات عهدهم، كما دون ما عرف عن الفقهاء المصلحين أمثال المغيلي 910هـ وعبد الله بن علي بن طاهر(960هـ - 1044) وأبو القاسم خجو الريفي، وميارة، وغيرهم، وكان يدفعه في كل ما حقق مما وصف به قصر البديع قول القائل بلاترو.

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها — فبالسن الشعراء والبنيان

وكلاهما من التصنع والغرور دليل ظلم وقهر وطغيان، ودليل ذلك آثار الفراعنة والرومان، ورحم الله المتنبي حيث قال ما أورده صاحب صهاريج اللؤلؤ ص : 88

أين الذي الهرمان من بنيانه — ما قومه ما يومه ما المصرع

تتخلف الآثار عن سكانها — حينا ويدركها الفناء فتتبع =

للمنصور والقضاء في عهد المنصور؟!

بل إن القاضي الحميدي انتهى إلى فساد ذمة وخراب ضمير اندفع إليهما كما يندفع المرؤس المنحل في طريق الرئيس الموبوء في كل زمان ومكان، حسب واقع الحياة المفروضة بقهر السلطان وظلم الطاغية المستبد، بل إن الفساد الذي انتهى إليه القاضي الحميدي لم يصله إلا بعد ما عم المجتمع الذي هو دون مستوى القاضي، الذي بلا شك كان قد تعرف على أسرار حياة المنصور التي تعفنت من أجل إشباع رغبات نفسه وشهواتها الجامحة، فالقاضي سلك نفس النهج من أجل جمع المال الذي توفر للمغنين، في الوقت الذي باء هو من المنصور بخفي حنين، بل إن القاضي كتب ما قرأه اليفراني(762) من خطه، وإن كان قد شطب عليه ابن القاضي «بالأحمر» : عبد الواحد بن أحمد الحميدي، الفقيه القاضي بمدينة فاس، كان حافظا لمذهب مالك إلا أنه نبذ الشريعة المحمدية وراء ظهره، وكان يحكم بموافقة شهوته مع علمه بالفقه ولا يبالي بما فعل فيها، حتى اكتسب هو وأولاده أموالا جليلة لا حصر لها، ولما توفي قال فيه صاحبنا الوزير عبد الرحمن بن إبراهيم المشترائي.

تولى الحميدي وأحزابه وأيام دولته الغاوية
ومات وخفت موازينه وصار إلى أمه الهاوية

وكان المنصور يعلم هذا عن الحميدي وأمثاله، خصوصاوأنه قدم منافسه المنجور للصلاة، وأراد الحميدي منعه فقال المنصور" دعه فقد قدمه علمه" ممايدل على تضعضع مكانة الحميدي في حياة المنصور(763) الذي كان القدوة للحميدي وغيره رغم ما قاله ابن القاضي والفشتالي، مما يعتبر من أخلاق المؤرخين المأجورين، بل إن عهد المنصور وما انتهى إليه من فساد يستدل عليه بما بلغته بطانته وما كان فيها من اليهود، ومن إسرافه في الملذات وإطلاق العنان للتنوع في الشهوات، وهو ما كان يرضي كبرياءه، وما بلغه هو نفسه الذي شيد قصر البديع وما أسرف عليه من قناطير الذهب، بل وغير ذلك مما

= وفعلا فقد تحول قصر البديع إلى خراب ما كان يصدق في عهد ما بعد المنصور لو قيل انه سينتهي إلى ما صيره عليه المولى إسماعيل عام 1119هـ/ 1707م، ومثله آثار مدينة شالة إلخ.

(762) النزهة ص 172 ط 188°م.

(763) توفي الحميدي سنة 1003هـ /1594م.

وصف المؤرخون من محتوياته، وذلك في الوقت الذي شيد فيه للشعب السجون القاسية التي لا تزال شاهدة(764) على قسوته وجبروته، إلى غير ذلك مما ذكر المؤرخون(765) وما عددوا من قصور وأضرحة وقناطر كانت كلها لا من أجل ازدهار العمران في المغرب، بقدر ما كانت إنهاكا لقوة الشعب، كما كانت وسيلة لإثارة قرائح الشعراء الذين كانوا يدفعون دفعا لإنشاد ما يتفق والمناسبة التي يوجدها المنصور الذي أصبح مريضا بحب نفسه بشكل لم يجد معه قواده وكتابه مناصا من الإطناب في ذكره وإنشاد الشعر الكثير المفتعل حول شخصه متكلفين كل نعوت الفخار في حقه، بل كانوا يدفعون لذلك دفعا كما يخبر المقري دون قصد كما صدر عن القائد إبراهيم بن محمد الآيسي "اليوسي" حين أشار على فقهاء فاس باختراع قطع في مدح "مولانا" نصره الله(766) بل كان يريد أن يذكر بالقرب من آل عثمان حتى قيل إنه كتب فيه بعض رجالات القسطنطينية كتابا(767) ويعلم الله كم كلف ذلك الكتاب الذي لم نتعرف عليه. بل من مراسلات المنصور الإدارية والسياسية يتعرف المرء علي نفسيته ومدى احتقاره لشعبه خصوصا مراسلته مع ولده زيدان التي بعث بها من فاس التي قصدها للقضاء على فتنة فاسد الأخلاق ولده المامون العابث بالصبيان والمرتكب لأحط أنواع الفسق بمدينة فاس، وما عرفت به من مسلمة اليهود وأعلاج النصارى الذين زرعوا فيها تلك الموبقات، فمن تلك المراسلة تظهر نفسية المنصور وانشغالاته، كما يعبر عن بعضها ما ورد في الموشحتين غير الموزونتين(768).

(764) سجن فاس يعرف برج النور النزهة 159.

(765) راجع النزهة، والجذوة، وروضة الآس.

(766) روضة الآس ص 23 ط 1964م.

(767) نفس المصدر ص 18، ونفح الطيب 3-10، ونشر المثاني 1/140 -140 ،وأما كتابة ابن القاضي التي حسبناها على الوجه الأول للمنصور، ففي الوجه الثاني تفسر من قبيل مالقي منه من جميل بعد أسره من قراصنة النصارى يوم 14 شعبان 994هـ/ 1585م. ثم افتكاكه من قبل المنصور بعد أحد عشر شهرا من أسره، وهو في طريق الدراسة" بالقاهرة، وفي شعره الذي أنشده في مدح المنصور يوم عودته 8 شعبان 995 هـ 14-7-1587 دلالة على افتعاله العاطفي راجع الجذوة 114-116، ومؤرخو الشرفاء 80- 88، وقد كان ذلك أكثر وضوحا في كتاب المنتقى المقصور على مآثر "الخليفة" المنصورالذي ألفه عرفانا" لما ذكر.

(768) روضة الآس ص 56- 57، والجذوة 115، والنزهة 164- 173.

لقد كانت عظمة عهد المنصور السعدي نتيجة جهود ما كان حوله، وفي عصره من الرجال والعلماء الذين تضافرت جهودهم ضد العدو الذي ترامى على شواطئ المغرب، أولئك الذين تدل أعمالهم وما خلفوه لنا من من تراث على مكانتهم من العلم والرأي ومذاهب الإصلاح التي عرفت الاستمرار والتطور رغم زوال دولة السعديين لتحل محلها دويلات أخرى، فعهد المنصور السعدي الذي صادف انتقال مآت وآلاف الأسر العريقة من الأندلس إلى المغرب وضمنها الكثير من العلماء المبعدين الذين أعطوا للفكر المغربي عطاء لم يعرفه قبل بالطريقة التي عرفها في عهد المنصور الذي عرف الناس فيه الكبت والانقطاع حيث عرف نشاطا أكثر سواء في مجال الدراسات الفقهية أو الأدبية بل والإجتماعية من خلالهما، وذلك بفضل الاستقرار والوضع الذي ركزعلى التمكين له أحمد المنصور السعدي في مجال السياسة بطريقة القهر التي اعترف بها القاضي الحميدي، وكم له من نظير ضربنا عنهم صفحا، والتي عنها عادة يظهر الاستقرار السياسي المصطنع، وفي مثل هذه الظروف ينقطع رجال المعرفة إلى الانتاج فرارا من السياسة التي تجلب الدمار، كما ظهر في عهد المنصور الذي سينكشف إثرموته مباشرة فيظهر ما كان خفيا تحت ستار القهر والظلم والطغيان، رغم "صناعة التاريخ" التي احترفها في عهد المنصور كل من المقري والفشتالي(769) وابن القاضي واليفراني، وغيرهم من الذين سلطوا الأضواء بكثير من التصنع رغبا ورهبا على شخص المنصور دون غيره، والذين رغم ذلك عرفنا بعضهم على انعكاس أخلاق المنصور المستبد، ومجتمعه الخاص، بل على أولاده خصوصا منهم أعزهم عنده الذي هو سيء الأخلاق محمد الشيخ المامون، الذي أخذ له البيعة في حياته، والذي كان يدخر له صناديق الأموال حسب قوله، فهو الذي كان السبب في تعجيل أجله والقضاء على حياته.

---

(769) المنصور دون غيره من ملوك المغرب السابقين، هو الذي نصب له مؤرخا خاصا هو الفشتالي الذي لم يسجل في حق المنصور إلا المحاسن، وذلك اقتداء بآل عثمان، راجع النزهة ص 164، والفشتالي من مواليد 956 هـ/ 1549م، ت 1031 هـ/ 1621م، وفي حقه قال المنصور انه يفتخر به على ملوك الأرض المصدر السابق 165، وإذا صح ما عبر به القاضي أبو القاسم الشاطبي يكون قول المنصور لغو وفيه غرض دافع، راجع النزهة ص 170- 171، بل في سكوت المنجور في فهرسته عن الاحداث التاريخية في حياة المنصور، دليل صارخ على أن المنجور لم يرد التورط في ما تورط فيه غيره راجع الفهرسة ط 1976 تحقيق الدكتور محمد حجي ثم راجع مؤرخو الشرفاء ط 1977 ص80-88.

الفصل التاسع بعد المائة

المنصور وروح الاستغلال

إن استبداد وظلم المنصور لم يقتصر على الشعب المغربي فقط، بل شمل بلاد الإسلام في أرض السودان الذي يخبرنا التاريخ عن تصرفاته إزاء المسلمين من أهله في سبيل أن يحصل منهم على الذهب الذي لم يقف حبه له عند حد، حتى أنه فصل قائده العلج الأسباني الذي وجهه لفتح الديار وشعبها المسلم لأنه قبل الصلح مع السلطان "أسكيا إسحاق" على قدر معين من الخراج، تعهد بدفعه للمنصو، ثم بد له بآخر إسباني الأصل كذلك هو القائد محمود بن زركون، الذي زوده بأقسى الأوامر حتى كان جنوده يقتلون الرجل وهو ينادي لا إله إلا الله محمد رسول الله، والغاية والقصد من كل ذلك هو جمع التبر، وتزويد خزائن المنصور بالذهب الذي قالت المصادر أنه كان ببابه ألف وأربعمائة مطرقة تعمل يوميا لصك النقود، التي أفادت منها أوربا أكثر مما أفاد منها الشعب المغربي في حياة المنصور وبعد مماته، بل ما أفاده الشعب هو إراقة الدماء وكثرة الحروب، ومهما يكن فإن تاريخ أحمد المنصور الذهبي وما قيل عن فتوحاته في السودان وما اتسمت به من فظائع يجب أن لا يحاول المؤرخ الثبت أن ينكرها أو يصفها بغير ما يجب أن توصف به، لكن الذي يجب كذلك أن يعيه كل مدرك لرسالة المغرب الإسلامية وما كان لها من جميل الأثر في غرب إفريقيا، هو أن لا تطغى هذه الصفحة السوداء الصغيرة التي لا تحسب على الشعب المغربي، وإنما على غرور وأطماع رجل مريض بالعظمة التي ضاعت معه يوم ضاع، وانتهت معه يوم انتهى، وتلك عقبى الظالمين المستبدين، فأعمال المنصور الظالمة في بلاد الإسلام من أرض السودان هي التي رانت بسوادها على عظمة ما كان للسابقين منذ عهد ما قبل المرابطين إلى عهد المرابطين، والموحدين، وبني مرين، والرسالة الحضارية التي أداها المغاربة في تلك الديار باسم الإسلام، كما سنرى بعد الفصل الذي تطرقنا فيه لذلك.

إن بعض المؤرخين الأفارقة تناولوا بمرارة فتح المنصور السعدي للسودان على أنه بداية انهيار قوة تلك الدولة – دولة مالي – بعد دولة غانا– والواقع أنهم محقون فيما ذهبوا إليه، لكن الذي لم يدركوه وربما حال بينهم وبين إدراكه هو أنهم تعرفوا على تلك المرحلة من خلال ما ترجمه الأجانب وليس من المصادر المغربية التي لم ينشر معظمها، ناهيك وأن تاريخ المغرب لا يقتصر على ما دونه المؤرخون ، بل يوجد في فتاوي الفقهاء، وتراجم العلماء، ورجال التصوف، وما يزخر به التاريخ من نوازل هنا وهناك، على طول المغرب العربي الكبير، فمن خلال تلك المصادر نستطيع الحكم على ما كان للمغرب والمغاربة من علاقة قبل مع تلك الديار التي توجه إليها ابن بطوطة وهي علاقة ارتكزت بالأساس على رسالة الإسلام وأخوة الإسلام وحضارة الإسلام، فعن طريق المغاربة وبلا قوة ولا إكراه أسلم الملوك السودانيون الذين مكنوا للإسلام بين شعوبهم وعن طريق المغاربة تكون علماء الإسلام الذين يعتز المسلمون بانتاجهم، وما تصرفات الحكام قديما وحديثا بالشيء الذي يؤثر في ما هو ثابث وقوي في النفوس المؤمنة برسالة الإسلام هنا وهناك، فالجانب السلبي والمكروه من حياة أحمد المنصور الذهبي جر النهاية السيئة على خلفه وعلى المغاربة جميعا، ولذلك مهما حاول المؤرخون أن يلتمسوا له عذرا فإن الواقع لا يقبله، وإلا يكون الملهوف على الشهوات المستبد، مثله كمثل المخلص الورع الأمين العادل سواء بسواء، وهذا غير مقبول في شريعة الإسلام، والعرف وأخلاق الرجال.

وبالتالي وقبل هذا وذاك لا يعزب عن بالنا أن المنصور تولى الملك واقتطف ما غرس غيره ورعاه، وهو في سن الثلاثين إذ هو من مواليد 956هـ/ 1549م، وصاحب هذا السن لا نحتاج إلى سرد ما يندفع أو يدفع نحوه من غلو وغرور، خصوصا إذا هو طغى على من حوله من بطانة ضعيفة ومريضة.

حقا إذا نحن استوعبنا شخص المنصور جملة نجده خليطا قليل من الفضيلة وكثير من الرذيلة، وإذا نحن تنقلنا في مجتمعه الخاص نجد الرذيلة أكثر، بسبب ما عرف عن ذلك المجتمع الخاص من ذيوع الخمر بين أفراد حاشية المنصور، وكذا تصرفاته القيصرية، وما كان عليه من بذخ على حساب شعب بائس ومريض إلى جانب تصرفات قواد جنده الذي بلغ الدرجة القصوى في الظلم والتسلط اقتداء برجال حاشيته وذويه،

الأمر الذي زاد في محنة المغرب والمغاربة بالقضاء على أكثر رجاله في حروب الشمال والجنوب، إلى جانب الأوبئة القاتلة التي عرفها المغرب ما يقرب من التسع سنوات، خمس منها في حياة المنصور حتى كان هو وأسرته والمهرة الحمراء قد اعتادوا شرب الترياق قصد المناعة، أما الشعب فكان يموت بالآلاف دون أن يكترث به المنصور، ولو اكتراثه بالمهرة التي ورد التنبيه على العناية بها في ما كتب لولده زيدان كما سجل الناصري، وأما عن المظالم التي ارتكبت وقت بنائه لقصر البديع، حتى إن بعضهم استقدم وهو يحمل صاعا من جير وظف عليه من تنبكتو بأرض السوان إلى مدينة مراكش، ولئن كان المنصور قد بنى قصر البديع كما قال الفشتالي من أجل تخليد ذكره الذي تبارى المنافقون من الشعراء في وصفه ووصف صاحبه بشتى أنواع المبالغات، فإن ذلك القصر لم يدم دوام ما شيده الموحدون، والأوائل من بني مرين قبله بمآت السنين إذ تم بناؤه سنة 1002 هـ/ 1592م، وممات المنصور 1012هـ/ 1603م وهدمه السلطان إسماعيل سنة 1119هـ/1707م، هذا في الوقت الذي نجد آثار الأدارسة والمرابطين والموحدين وبعض بني مرين، وما قاموا به من أعمال، وأسسوه من مؤسسات ثقافية وعمرانية باقية تزخر بها مدن فاس ومراكش وتونس وبجاية والجزائر وتلمسان، بل وفي الأندلس قرطبة واشبيلية وبطليوس، وجبل الفتح، بل ويكفي فقط ترديد أسماء العلماء والأدباء الذين أظهرهم عهد المرابطين والموحدين وبني مرين من عياض مرورا بابن طفيل وابن رشد وابن ماجه إلى عهد ابن الخطيب والمقري الجد، وغيرهم بل إن الشريعة الإسلامية التي يمثلها القضاة في عهد أحمد المنصور كالحميدي المشار إليه قبل، والعدول نراها انحطت في عهده انحطاطا عبر عنه أحد كتابه محمد بن عيسى الذي يقول شعرا :(770)

إن العدول التي جاء الزمان بهم   عن العدالة والتوفيق قد عدلوا
أحداث سن وألباب كسنهم   تالله لو شهدوا في الكلب ما قبلوا

---

(770) راجع ما ورد في نزهة الحادي من مساجلات شعرية بين الكتاب والقضاء، مما يستدل به على أحوالهم وأخلاق بعضهم 164- 173، ولمحمد بن عيسى كتاب في تاريخ حياة المنصور عرف "بالممدود والمقصور" لم يعرف، على أن نزهة الحادي لليفراني الذي تعرفنا من خلاله على بعض جوانب الوجه الثاني للمنصور، ما كان له أن يفعل لولا أنه كتبه في أخريات عمره الذي امتد إلى ما بعد عهد السلطان، إسماعيل ثالث ملوك الدولة العلوية، واليفراني نفسه لم =

ولعل هذا الواقع الذي أثبتناه من خلال حياة المنصور السعدي وما سجله التاريخ مما عبرنا عنه بالوجه الثاني، وهو الوجه الحقيقي للمنصور المستبد يؤكده لنا انهيار البنيان بعده وما حصل بين أبنائه من بعده والذي زاده اشتعالا تصرف رجالات دولته كل إلى الجانب الذي يشبع رغباته ونزواته، وبذلك يبرهن التاريخ أن الحاكم كلما استبد وابتعد عن الشعب، لا يترك خلفه إلا الدمار، وكلما تصنع الإصلاح وافترى على الشعب، لا يترك خلفه سوى حقائق سرعان ما تنكشف ويتعرف عليها الناس بواسطة البحث والتنقيب المنهجي الذي لا يخلو منه كل زمان ومكان، ومهما حاول المرجفون وبدل المغرضون والانتفاعيون الذين يتصنعون الأساليب ويصنعون المواقف ولا يذكرون من حياة المؤرخ له غير ما يرضيه، مثلهم كمثل الذي يبنى على الرمال، وهذا ما أصبح المعاصرون يحملون به على كتابات عبد العزيز الفشتالي "المناهل" خلافا لما كتبه محمد بن عيسى "الممدود والمقصور". ولو من خلال ما ينقل عنه رغم أنه لم يعرفه، والذي فقط قيل إنه مات في سجن أحمد المنصور عام 990هـ/ 1582م، ومثل الأول ما أورده ابن القاضي "في المنتقى المقصور، على مآثر "الخليفة" المنصور"، ولعل اليفراني الذي ولد بعد موت المنصور بما يقرب من السبعين سنة 1080هـ/ 1670م، استطاع أن يتحرر بعض الشيء، وربما كان ذلك من وحي عصره الذي هو عهد الدولة العلوية التي استمد أوائلها كراهيتهم للسعديين من نفس المؤسس محمد بن الشريف، كما نجد ذلك بعد في المراسلة المتبادلة بينه وبين زيدان الذي نسبه محمد بن الشريف إلى حليمة السعدية، والذي بلا شك كان كاتب الرسالة، وهو الحفيد ابن الشريف صنو محمد قد اطلع على كتاب تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، وهو الكتاب الذي تعرض ولاول مرة لأشياء لم يتعرض لها غيره، ولقد طبع هذا

= يقصد مما أورده عن تاريخ السعديين من ص 1 إلى ص 287 ط 1888م إلا الإشادة وذكر المحاسن، لكن من خلال استطراداته يدرك الباحث الكثير مما أشرنا إليه، ثم راجع الاستقصا جـ 144/5، والنفحة المسكية في السفارة التركية" للتامجروتي" ولو أن كاتب سر المنصور علي بن سليمان خلف لنا بعض انتاجه لامكننا التعرف على الكثير من جوانب حياة المنصور الخاصة كما تعرفنا على بعضها من خلال ما ذكر للزرهوني قاسم، الذي قيل إنه الذي حضر دولة السعديين في بدايتها، وكذا المرأة العريفة بنت خجو التي علمت السلطان كيف بتعامل مع النساء وبالعكس؟؟؟. إلخ بل إن تاريخ تمبكتو لعمر أقيت مخطوط خاص فيه ما يستدل به على فظائع عهد المنصور بتلك المدينة، ومثله تاريخ السودان للشيخ السعدي عبد الرحمن، وتاريخ الدولة الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية 144-170 ط القاهرة 1961، مشروع الألف كتاب رقم 1384 تأليف الدكتور عبد الرحمان زكي.

الكتاب في الرباط عام 1974م. إن عظمة المغرب في صلب التاريخ شيء يستوجب الاعتزاز، لكنها تحولت إلى انقباض في نفوس المغاربة، بل ضاعت بسبب ما عرف الشعب بعد من أهوال الاستبداد التي حولت الاتصال إلى انفصال ، وما كان بين المغاربة وغيرهم من حب وتوادد وتراحم إلى قطيعة وانفصال وتنافر أحيانا مع الآخرين تحقيقا لرغبة المتسلطين والدخلاء المتخوفين من ماضيهم المشين، فتحول مغرب الاشعاع إلى مغرب الاستبداد،، والانقطاع للخمور والفجور.

وقبل أن نختم هذا الفصل الذي كان من آثاراه ما عرفه المغرب بعد من تمزيق، نقوم بجولة في الزمن الذي يؤرخ له هذا الفصل لنعرف من نحن وكيف كنا.

إن للمغرب من عظمة تاريخ شعبه المسلم العربي العريق، ما يعتز به في العالمين، سواء من ذلك ما يرجع إلى قوة إيمانه، وصلابة عوده، ومتين بنيانه، وحس عقيدته الإسلامية الراسخة، أو ما يرجع إلى فروسيته وشهامته وتعلقه بقيمه وحريته ومقومات حياتية، أو ما يتصل بحضارته الإسلامية التي كانت ولا تزال وستبقى المشعل الذي يهتدي به ويضيء طريقه كلما كان الحكم فيه نظيفا وسليما، وزالت العوائق المصطنعة من طريقه.

لقد كان للمغرب الإسلامي العربي أثره الفعال في غرب القارة الإفريقية خصوصا، بل وشرقها كذلك، منذ ما بعد الفتح العربي وقيام الدولة الفاطمية التي كان قوامها من المغاربة : كتامة وزناتة، وصنهاجة، وكذا دولة المرابطين التي توغل نفوذها أكثر في غرب إفريقيا حيث لا تزال آثاره حتى اليوم ما ثله في كثير من مظاهر حياة الذين كان لهم بالمغرب وحضارته اتصال، بل والتي لم يكن أحد قط يتصور أو يتوقع لها ما آلت إليه في نظر القوم بسبب التفسخ والانحلال الذي دب في جسم المغرب المريض، بعدما تحرر من ربقة الاستعمار البغيض فآثار المغاربة لولا طغيان الشر وتطاول السفهاء وبقايا الاستعمار على السليم من أخلاق المغاربة وأصالتهم والروح النضالية التي لم تفارق حياتهم، لما كان لغير تلك الحضارة التي كانت ولا تزال وستبقى صلة بين المغاربة وما حولهم من شعوب القارة السمراء، لأن ما بأرضنا من تراث الإسلام وحضارته، وما بتلك الديار مما لا يختلف عنه في شيء يكفي للدلالة على ما كان للمغاربة كشعب لا كحكام،

وما يتمتعون به في قلوب تلك الشعوب أيام سلامة الطوية وحسن المقاصد، وذلك هو ما مكن للمغرب والمغاربة في أرضهم وخارج حدودها، سواء في أوروبا عن طريق الأندلس التي زادوا في عمر حضارتها والتمكين لروح الإسلام بها، نحو الخمسة قرون، أو إفريقيا التي نشروا الإسلام في غربها، ومكنوا لرسالته بين مختلف شعوبها، من السينغال والنيجر والسودان الغربي وما وراء الصحراء الكبرى، حتى أعالي القارة الإفريقية وشرقها إلى السودان الذي كان للمغاربة وإلى عهد قريب جدا فيه جولات حيث لا تزال بصماتهم متمثلة لا في الطرق الصوفية المجاهدة كالمهدوية الثائرة ربيبة الدرقاوية، والمتصلة بها في الماضي القريب عن طريق محمد بن علي السنوسي(771) الخطابي، تلميذ عبد الوهاب التازي فحسب، وإنما في الآثار الإسلامية التي منها مذهب مالك الذي كان للمغاربة فضل في نشره والتمكين له في مختلف البلاد الإفريقية.

من الذي ينازع في أن المغاربة هم أول من أدخل الإسلام الحق داخل غرب القارة الإفريقية، أيام كانت البلاد لا تعرف غير طبقتين اثنتين، طبقة الأحرار، وطبقة العبيد، وهذه لاحق لها في الحياة ما لم تردها لها الطبقة الأولى إلى أن وصلهم نور الإسلام عن طريق الفاتحين من التجار المغاربة الذين علمهم الدين الحنيف أن لا فرق بين الأسود والأبيض، وأن لا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح، وبذلك امتد وتمكن من قلوب الأفارقة وعقولهم، فربط بين الأقارب والأباعد، وبين الأقوياء مالا وجاها والضعفاء، ثم مزج بين دمائهم بالألفة والمصاهرة، فتمهدت السبل أمام أبناء المغاربة وأحفاد العرب الفاتحين من الرواد الأول، الذين كانوا إلى الجنوب أميل في سكناهم ومواطن نجوعهم، من قيسية ويمنية وهلال معقل، أولئك الذين تواجدوا ما بين واحة سيوه

---

(771) ولد بمستغانم وتعلم بفاس، وتوفي بالجغبوب من أرض ليبيا، راجع الزركلى 192/7 وما فيه من مصادر، ومراسلاته مع قاضي مدينة فاس عبد الهادي بن عبد الله العلوي زمن المولى عبد الرحمان بن هشام، وهي ضمن وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية بالرباط وإنه لفي استطاعة كل من أراد التوسع في علاقة وأثر المغرب في غرب إفريقيا أن يراجع ما كتبه المؤرخون، شرقيون، وغربيون في هذا المجال خصوصا منهم المغاربة، زهرة الآس للجزنائي، والأنيس المطرب : لابن أبي زرع، ونزهة المشتاق للادريسي، وتحفة النظار التي هي رحلة ابن بطوطة، والعبر لابن خلدون، خصوصا عهدي المرابطين وبني مرين، والبيان المغرب في أخبار المغرب، لابن عذاري ووصف إفريقيا للحسن بن الوزان، والخطط للمقريزي المصري، والكتب المشار إليها بعد مثل كتب أحمد بابا وفتاوى آل أقيت، وتاريخ السودان للسعيدي، وغيرها كالمعجب للمراكشي.

وسجلماسة، وكذا غيرهم من قبائل صنهاجة، ولمتونة، ومسوفة، وكدالة، غربا ولواته، وكتامة وزناتة شرقا.

منذ العهود الأولى والإنسان في غرب إفريقيا يرى البخس والظلم أكثر من غيره، وفي بلاد التكرور وما حول تنبكت مثلا : وحيث كان الحكم بيد ملوك سغي من عهد زا الأيمن، إلى عهد" زاكنكن" وعددهم أربعة عشر ملكا عاشوا وشعوبهم لم تعرف بلادهم غير الظلم والعنف والظلمات، ولم تعرف معنى الحق والخير والعدل وجميل الحياة إلا في عهد الملك "زاكسي" الذي يقال له في لغتهم "ميسلم دم" بكسر الميم والسين واللام، ومعناه الذي أسلم طوعا بلا إكراه، وذلك سنة400هـ / 1009م أي زمن المرابطين يقول السعيدي(772) في تاريخه المخطوط عن تنبكت(773) والذي منه تستمد أكثر علاقة تلك الديار بالمغرب منذ العهود الضاربة في القدم، إلى عهد السعديين الذين امتد حكمهم المباشر بتنصيب الولاة من المغاربة من عام 797 إلى 1161هـ وهو زمن فتن حروب الوراثة بين أبناء المولى إسماعيل بعد موته، تلك الحروب التي دامت أكثر من ثلاثين سنة، عرف المغرب أثناءها كل الخسران والدمار، في هذا التاريخ كان حكام تمبكتو وأرض السودان باسم المغرب قد بلغ عددهم 154، حيث كان آخرهم هو بابا علي بن منصور التزركيني.

منذ تلك العهود الأولى عرف غرب إفريقيا قوافل التجارة التي كانت لا تخلو من فقهاء ومعلمين، وطلبة، ومتطوعين، للتبشير، ومصلحين، والتي كانت دائمة الرحيل بلا انقطاع، من سجلماسة إلى واحة سيوة، وأرض جغبوب، تخرج من حيث شاءت وتتجه أنى شاءت، وهي بفضل ما جد في ربوع الأفارقة من دعوة الإسلام، آمنة مطمئنة رغم ما تحمل على ظهرها من مغريات البضائع، وما كان يقدر بمآت الآلاف من الدنانير الذهبية،

---

(772) هو أبو عبد الله بن عمر بن عامر بن محمد أقيت بن علي بن يحيى بن كدالة الصنهاجي، كما في كتاب الذيل لأحمد بابا المتوفي يوم شعبان 1036 هـ، يقول في تاريخ تنبكت وهو ابن قاضي تنبكت عام 993 هـ المتوفي بسجن المنصور بمراكش 1003 هـ 1594م، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور.

(773) تنبكت مدينة بنيت في مكان كان يعرف قبل باسم "زبر" ثم حولت إلى مكانها الحالي يقول أقيت م خ نا 493 وفيه أنها كانت محاطة بسبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قرية متقاربة بعضها إلى بعض وأن حدودها ممتدة ما بين كيكي، وهي قرية قرب "دي" يمينا إلى "يو" بلدة قرب أرض "ورن كي" ومن "تيني" وهي بلدة تقع في حدود أرض سلطان كابر إلى وراء جبال تنبلا وهي قبيلة من قبائل المجوس. راجع تكرور، في الروض المعطار للحميري، خ نا وترنكة وتادمكة وأهلها بربر مسلمون، وهي تبعد عن غانة بخمسين مرحلة.

والتي زادت ونمت عندما تحولت جموع كثير منهم إلى ممالك إسلامية كمملكة غانة القديمة التي كان سلطانها يسود ما بين نهري النيجر والسينغال ومنها كانت القوافل المغربية تستورد التبر الذي بواسطته تحولت أكثر مدن المغرب العربي الكبير جنوبا خصوصا سجلماسة المغرب الأقصى إلى عواصم ومراكز تجارية، بل يخبرنا التاريخ وكما أثبتنا قبل كيف تحولت سلطة دولة غانا إلى أيدي الأشراف بني صالح من آل موسى الجون، وبذلك أصبحت عاصمتها تعج بالتجار المغاربة الذين كانوا يجلبون الذهب منها إلى سجلماسة التي كانت تنطلق منها القوافل الى فاس وقرطبة، وتلسمان، وتاهرت، والقيروان، وطرابلس، والأسكندرية، ثم القاهرة، ودمشق، وبغداد، بل في ذلك التاريخ المبكر توغلت جموع من المغاربة في قلب القارة الإفريقية، لكن أغلبهم لم يكن له ذكر في التاريخ، لأنهم انتهوا إلى اندماج كلي، ولم يعودوا هم ولا خلفهم إلى الوطن الأصل، ونجد هذه الحقائق تعترضنا في تراجم مشاهير العلماء والفقهاء من أهل سجلماسة، وفجيج، وسوس، وشنقيط وتمبكتو.

قيل إن عدد المساجد في مدينة غانة بلغت اثني عشر مسجدا جامعا كانت كلها عامرة بالطلبة والعلماء الذين انطلقوا إليها من مدن الجنوب، خصوصا سجلماسة، وفجيج اللتين نجد فيهما حتى اليوم من آثر خطوط المراسلات المتبادلة وقتها، ما يستدل به على ذلك، بل نجد من الآثار ما يدلنا على أن الدماء تمازجت بين العرب المغاربة والأشراف الأدارسة مع الأفارقة ومع أهل تنبكت بالأخص المدينة القديمة التي تم تأسيسها الأول بمشاركة بعض التجار المغاربة عام 483 هـ 1087م والتي بنظرة فاحصة إلى تاريخ تنبكت للعلامة عمر أقيت "خ" نعرف تلك الحقائق وما كان للمغاربة من أثر بسبب جموع المغاربة الذين ركزوا فيها حياتهم المادية والأدبية بعدما توافدوا عليها أفرادا وجماعات، من سجلماسة، ومراكش، وسوس وفاس، وفجيج، وتاهرت، والقيروان، وغدامس، وطرابلس، حتى إنهم كونوا فيها وفي غربها، أحياء عربية مغربية، وليس تنبكت فحسب، بل في أغلب مدن غرب إيفريقيا التي كانت تتردد عليها القوافل التجارية من غانة إلى مصر القاهرة، وحتى مدينة القدس ومكة المشرفة والمدينة المنورة عرفت أحياء للمغاربة كما يخبرنا التاريخ، وربما لا يزال بعضها معروفا بهم حتى اليوم.

لقد كان من إشعاع المغاربة بالإضافة إلى تنبكت واسلام زاكسي، كذلك إسلام

السلطان "كونبورو" صاحب عاصمة غرب إفريقيا وهي مدينة جني التي أسست هي الأخرى عام 435هـ /1043م، والذي حين أسلم هدم قصره ثم بنى فيه المسجد الجامع على غرار المسجد النبوي وبسبب إسلامه وحسن سلوكه دخلت كل رعيته في الإسلام، كما حصل الإقبال من العلماء ورجال المعرفة على بلاده التي تكونت فيها جموع غفيرة، عرفت الهجرة قصد الدراسات العلمية إلى سجلماسة، وفاس والقيروان وتونس، والأزهر، كما حصل الالتحام بينهم وبين المستوطنين في تنبكت، بشكل أعطى أحسن الثمار يقول مختلف المؤرخين ومنهم أقيت عمر، بل إن مدينة جني أصبحت تتوفر على أربعة آلاف عالم تضلعوا في مختلف الدراسات الإسلامية وقتها من تفسير وحديث، وفقه، وتوحيد، ولغة، وتاريخ، مما دفع بجموعهم أيضا كمبشرين بالإسلام إلى داخل القارة الإفريقية وحيث الفولان والهوسة فكانوا من عوامل نشره، والتمكين له إلى جانب جلب الإزدهار الاقتصادي بسبب التلاحم،وما أصبح بين مختلف المدن والقبائل من صلات تزعمته قبائل التكرور الذين هم على ضفاف نهر السينغال وأعالي نهر النيجر الشمالية حيث إقليم "سوكوتو"، وبحيرة تشاد، بل إن التكرور هم الذين مكنوا للإسلام في القارة الإفريقية، ولذلك أيضا ركز عليهم الاستعمار حتى يركزوا له فيها، ويكونون عونا له في غيرها بتجنيد أبنائهم، بل وهم الذين ركزت عليهم الضلالات المندسة في الإسلام باسم "التصوف" مثل التيجانية وغيرها وعن طريقهم تم لها الغزو الذي كان يرغب فيه الاستعمار الفرنسي ويشجعه، حسب الطريقة التي اقترحها نابليون على رجال الكنيسة والتي استبدلها الاستعمار الفرنسي بالطريقة التيجانية في منتصف القرن 19.

ومهما يكن فإن المغاربة توغلوا في تلك الديار منذ منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وأصبح وجودهم عاديا في مختلف المدن والقرى وبين مساجد أهل البادية منهم، وإذا نحن علمنا أن قبائل الفولان الصنهاجية الأصل يحفظ تاريخها وتاريخ التكرور أسماء كبار العلماء المغاربة كأعلام من أعلامهم ندرك مدى الامتزاج الذي عرفه غرب إفريقيا أكثر مع المغرب الأقصى، خصوصا والمغرب العربي الكبير عموما، بفضل الإسلام حتى إن أغلب المتصوفة من العلماء من مدينة تنبكت أخذوا مختلف علومهم في هذا المجال وغيره، كما يخبرنا أقيت في تاريخه عن المغاربة، ومنهم العالم الجليل يحيى التدلسي، وتدلس مدينة كبيرة بين بجاية والجزائر، وتقع على البحر كما يخبرنا الحميري

في الروض المعطار. خ نا، ويحيى هذا ثعلبي يرجع نسبه عند أقيت إلى محمد بن الحسن، بن علي، بن أبي طالب: فهو عنده يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الثعلبي، بن يحيى البكائي، بن أبي الحسن علي، بن عبد الله، بن عبد الجبار، بن تميم، بن هرمز، بن حاتم بن قصي، بن يوسف بن يوشع، بن ورد، بن بطال، بن أحمد، بن محمد، بن عيسى، بن محمد، بن الحسن، بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنهم ورحمهم الله أجمعين " «تاريخ تنبكت لاقيت خ نا493.

ومثله كان عبد الرحمن التميمي الذي استقدمه منسى موسى من أرض الحجاز ولما حل بتنبكت ورآها عامرة بالعلماء انتقل إلى سنكرى، بعدها درس بمدينة فاس ثم رجع إلى سنكري ثانية وبها قضى حياته، فكان من نسله القاضي حبيب يقول أقيت.

ويخبرنا تاريخ غانة ومالي وسغي، وبرنو، وكانم(774)، وكانو، وكاشنة، أن الكثير مما عرفته هذه المدن وشعوب تلك البلاد وأقاليمها من العادات والتقاليد غير الأصلية منها أغلبها مغربية، بل حتى العمران الذي طبعه المرابطون خصوصا الديني الذي طعمه المرينيون منذ زمن أبي الحسن وأبي عنان، حيث وجهت القوافل من المهندسين وأصحاب الحرف يرافقهم بعض الفقهاء، ومنها قافلة الطويجن أبو إسحاق عام 742هـ 1341م، ثم قافلة المهندس المغربي المعروف إبراهيم الساحلي الذي ربما لا تزال بصمات فنه في جامع تنبكت، وجامع كاو، والمسجد الجامع بالعاصمة "نياني"، ومثلهما قافلة المهندس إدريس المراكشي الذي صمم المسجد الجامع بمدينة "جني" وأشرف على بنائه، كما وجه أبو عنان بعثات أخرى لجهات متعددة قصد التمكين لما كان للمغرب بها من علاقة.

بل وقوافل الحجيج التي كانت ترحل بإشراف مغربي منذ القرن الخامس، حيث كانت الجموع منهم تحل بالمغرب قبل الرحيل بشهر أو شهور، في انضمامها للركب، خصوصا في سجلماسة، وتاهرت، وغدامس، ثم تلك القوافل التي كانت تأخذ طريق

---

(774) يطلق كذلك كانم على جنس من السودان هم بنو عم التكرور، ومن القرى العامرة بالمغاربة من مسوفة صنهاجة قرية تكدة، وفي الكلام عن أودغست يقول الحميري : وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة ولا اليابسة إلا ما يجلب لها من سجلماسة وغيرها وهي أزكى -أنبارة- أنكلاس- ترنكة- قلنبو إلخ. جـ 2 مخطوط خزانة المؤلف.

تنبكت، كاوغات اغدامس، طرابلس، برقة، الاسكندرية، وهي الطريق الذي كان مفضلا عندهم حبا فيما كان للركب المغربي من طقوس أيام ظعنه وإقامته، وما كان يضم من علماء معلمين للمناسك، ومحدثين، ومربين، وما قصة حج الملك العظيم منسى موسى سنة 725هـ/ 1324م في عهد أبي الحسن المريني، ومعه ما قيل عنه عشرة آلاف حاج، وبسبب مالاقاه هذا الملك من تقدير في المغرب، وتلمسان، وبجاية، ومصر أيام المرينيين وبني عبد الواد، والحفصيين والناصر محمد بن قلاوون 689 – 740 هـ وأمراء المماليك، وما قدمه موسى منسى من عطاء وصدقات في الحجاز، وأثناء ترحاله، الشيء الذي دفع إلى إقبال الجموع الغفيرة والمتنوعة على مملكة منسى موسى التي كثرت بها الجاليات العربية، التي هاجرت من المغرب الأقصى أكثر، ثم من الجنوب التونسي وغدامس ، كما انتقل أبناء تلك المملكة إلى كل من جامعة القرويين وسجلماسة، والزيتونة، والقيروان، والحاج موسى هذا هو الذي بنى الجامع الكبير بتنبكت وصومعتها علي خمسة صفوف، والقبور الملاسقة بها من خارجها جهتي اليمين والمغرب، وذلك بعدما رجع من الحج، ولما جدده القاضي العاقب بن القاضي محمود عام 975هـ أزال القبور وصير الجميع أو زاد فيه زيادة كبيرة كان السبب فيها "اسكياداود"، لما عاد من حربه عام 978هـ، حيث دفع للقاضي من المال ما لم يعرف قدره ثم 4000 خشبة كنكو، وأول من تولى إمامته من الفقهاء السودانيين وكانوا أئمة فيه في دولة أهل ملي "مالي"، وفي مدة من دولة التوارق وآخر الأئمة منهم فيها، الفقيه بن الفقيه القاضي كاتب موسى، مكث في الإمامة يقول أقيت، أربعين سنة، لم يستتنب ولو في صلاة واحدة، وقد أورد المؤرخ سبب دوام تلك العافية على الإمام المذكور الذي قال إنه أيضا من العلماء الذين رحلوا بأمر من السلطان إلى مدينة فاس، قصد طلب العلم، وكان الذي خلف هذا الإمام هو جد جدة المؤلف، أم والده، وهو الفقيه عبد الله البلبالي في آخر دولة التوارق وأوائل دولة السفاك "شن علي"(775)، لأنه كان قد قدم إلي تنبكت صحبة الإمام السابق كاتب موسى لما رجع من

---

(775) ورد في مخطوطتنا حول تاريخ تنبكت ما يلي : أما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر "شن علي" برفع الشين المعجمة وكسر النون المشددة، كذا وجدته للعلامة أحمد بابا مضبوطا في ذيل الديباج... فإنه كان ذا قوة عظيمة ومتانة جسمية، ظالما، فاسقا، متعديا، متسلطا سفاكا للدماء، قتل من الخلق مالا يحصيه إلا الله تعالى وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل، والإهانة، والإذلال إلخ، وقد تعرض لذلك الحافظ العلقمي في شرح الجامع الصغير للسيوطي عند ذكر حوادث ق9هـ.

فاس، والذي حل مكان البلبالى في إمامة جامع تنبكت هو أبو القاسم التواتي الذي كان إلى جانب الإمامة يقريء الأطفال، وتوفي 935 هـ، ثم خلفه منصور الفزاني، ثم العالم المجود إبراهيم الزلفي، وهو أستاذ والد المؤلف أقيت، وفي عهده حبس أسكيا الحاج محمد ستون جزءا من المصحف في ذلك الجامع، ثم بعد اتفق أهل الجامع الكبير على إمامة الفقيه أحمد والدنا ناسرك، وبعد وفاته تولى السيد علي الجزولي، ولقد أنتج هذا الجامع بما عرف من حلقات الدروس، الكثير من العلماء الذين تكاثروا. والذين تكاثروا أكثر زمن أسكيا الحاج محمد بن أسكيا محمد بنكن، بن بلمع، بن محمد الصادق، بن أسكيا داوود، وفي عهد هذه الأسرة عرفت تنبكت وغرب افرقيا حكم المغرب الشامل العام المباشر، الذي تركز في عهد أحمد المنصور السعدي وقائده جودر وصنوه محمود، وجماعة من القواد نذكر منهم مصطفى التركي، ومصطفى بن عسكر، وأحمد العروسي الأندلسي، وأحمد الحداد العمري، وأحمد بن عطية، والقائد عمار، وأحمد بن يوسف لعلج، وعلي بن مصطفى لعلج، "وجودر باش"ا الذي اختاره أحمد المنصور لتلك المهمة أصله اسباني من لاس سو يفاس من أعمال غرناطة وقع في أسر المغاربة وهو صغير، وربي في قصور السعديين، ولم تكن له دراية سابقة على قيادة الجيوش وكل ما عرف عنه أنه امتاز بجباية الخراج، يقول ذ.ازكي في تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص 1520 نقلا عن السعدي في تاريخ السودان. ولقد دام تسلط الولاة من 999 إلي 1065هـ وقبل هذا الحكم الجائر الذي باشره أحمد المنصور، والذي في الحقيقة رغم دوام دولة السعديين نحو القرن والنصف قبله و بعده، فإن فترة حكم أحمد المنصور لتلك البلاد التي كانت الغاية منها مادية صرفة تعتبر غير مشرفة كما رأينا، ذلك أن قبائل التكرور وغيرها من قبائل الفولان، والهوسة، كانت مجتمعاتها قبل المنصور تتوفر على مجموعة كبيرة من رجالات العلم الذين عمرت بهم مساجدها وبإنتاجهم ومؤلفاتهم مكتباتها، وتكفي الإشارة إلى أسرة آل أقيت التي كانت وقت ظهور سلطان السعديين في تنبكت قد عرف التاريخ أنه مضى لها ولظهورها القوي في مجال المعرفة أكثر من قرنين، كان آل أقيت فيها منهم العلماء العاملون والقضاء الصالحون، والذين لم يعرفوا الإساءة من أحد قط إلى أن نكبهم أحمد المنصور لمجرد تضايقه من مكانتهم العلمية تلك، مما يدل على حقيقة أن أحمد المنصور لا كما صوره ابن القاضي وخصوصا الفشتالي الذي جمل صورته

القائد جوذر لعلج الاسباني الاصل اذ هو من لاس سويفاس من أعمال غرناطة وقع في اسر المغاربة وهو صغير، وربي في قصور السعديين. ومن أجل الذهب سلطه أحمد المنصور السعدي على المسلمين في السودان كما سلط غيره من القواد الذين شدد عليهم حتى يجلبوا له من الذهب ما يشبع نهمه ولو بقتل المسلمين بلا رحمة. فكان منهم مصطفى التركي. ومصطفى بن عسكر، وأحمد العروسي الاندلسي، وأحمد بن عطية والقائد عمار، وأحمد بن يوسف لعلج، ومصطفى لعلج راجع ص141 أعلاه.

وعصره بكل ما أوتي من علم وبراعة، المفترين هو والمدغريين من كتابه، وما قصة جلبه للفيلة واهتمامه بها أكثر من البشر بمجهولة، إلى جانب قسوته القاسية.

منذ عهد بني مرين وما دونه محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة 703- 779هـ /1304- 1377م وذلك في رحلته "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" التي كانت آخر مراحلها تلك الديار، التي زار فيها تنبكت، ومالي، وواحتي غات، وتوات، ثم عاد يملي ما شاهد وعاش، على محمد بن محمد بن جزي الإبن في مدينة فاس عام 755 هـ /1355م، من وقتها والمغرب له مكانته الخاصة بين قبائل غرب إفريقيا، إلى أن أساء إليها أحمد المنصور بعد موت أسكيا داود الذي لما كان قد طلب منه التنازل له سنة واحدة على خراج معدن تغازي أرسل إليه مقابل ذلك عشرة آلاف دينار ذهبا مما أغرى المنصور، فاندفع للغزو، ومع ذلك لم تتحول تلك الشعوب لا عن المغرب ولا عن غيره من أقطار شعوب المغرب العربي الكبير، لأن علماء ومفكري تلك الأقطار وشعوبها كانوا يدركون أن الدافع بالمنصور السعدي الذي كان بباب قصره في مراكش ألف وأربعمائة مطرقة لضرب النقود الذهبية زيادة على صناع الحلي كما تقول المصادر التاريخية هو الذهب وتعلقه به كمظهر من مظاهر "عظمته"، وأنه الذي أوصل نفوذه غير المركز إلى حدود صعيد مصر"؟" على حد قول صاحب الاستقصا نقلا عن الفشتالي، بل من أجل الذهب وحبا فيه استبدل جو در بأخيه البرتغالي محمود الخصي لأنه قبل الصلح مع السلطان أسكيا إسحاق، فكان جنود محمود يقتلون المسلمين وهم يصيحون وينادون نحن مسلمون إخوانكم(776) ففي سبيل الذهب ومن أجله قسم المنصور حكم البلاد بعد خضوعها واستسلام أهلها بين رجلين من قساة رجاله هما "لعلج جودر" الذي سيقتل بعد غدرا بيد أحد أولاد المنصور، وهو عبد الله، والثاني هو عبد الرحمن بن منصور، الأول نصبه على المدنيين، وزوده بتعليمات خاصة كلها قسوة وعنف وتشديد، والثاني كلفه بالجيش الذي زوده بأوامر صارمة كذلك حتى يضيق من أجل الحصول على التبر، حتى إن كل من اتجه بعدهما نحو تلك الديار لم يكن له

---

(776) خرج جودر باشا من مدينة مراكش في حملة إلى السودان يوم الأربعاء ثاني محرم 999هـ وفي جمادى الأولى "وصل السودان" وفعل ما فعل والعياذ بالله يقول صاحب تاريخ تمبكت، راجع ج 5/121-25-29-34- ثم تاريخ بناء قصر البديع في المناهل، ونزهة الحادي، والمهدي الحجوي.

من هم غير جمع المال، وقناطير التبر التي أصبح يجبى منها المآت سنويا، حتى أصبحت خزائن قصر البديع مشهورة في العالم وقتها بثرائها الذي لم يعرفه بلد آخر في العالم، وكأني به وقتها يمثل في ذلك العهد بحملته ما يمثله الدولار الأمريكي في عصرنا الذي نحياه، حتى إنه حاول عن طريق قرضه لملكة الأنجليز أن يسهم في استعمار الهند مقابل ما يخصص له من مكاسب، بل ومن أجل الذهب نكب كبير علماء غرب إفريقيا المرحوم أحمد بابا التنبكتي الذي جر عليه ما لم يعرف لغيره من ظلم بلا سبب إلا أن عائلة أقيت كانت تتمتع بجاه عريض ومكانة عالية، مصدرهما العلم والعلم فقط، حتى إذا ما نقل العالم وأسرته مصفدين من تنبكت إلى مدينة مراكش التي قضوا أكثر من سنة في سجنها سرحهم المنصور بعد ما حدد إقامتهم بمدينة مراكش، ولعل كذلك فيما حصل بين المنصور وأحمد بابا(777) من حوار عندما استقبله ثم خاطبه من وراء حجاب تشبها بما عرف عن الأتراك الذين استمدوا من غلاة العباسيين. خاطبه العالم الجليل، تقول المصادر إنك تتشبه برب العزة القائل «وما كان لرسول أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب» إن كان لك بنا حاجة إنزل إلينا أو أتركنا إلى حال سبيلنا.. إلخ، الأمر الذي حط من قدر أحمد المنصور، ثم أزرى به في التاريخ، وفي نظر الموثقين من العلماء الذين عرفوا مكانة أحمد بابا، وفضله في مجال العلم والمعرفة رحمه الله وإذا ما فك قيده وسرح من سجنه فإنه أجبر على الإقامة بمدينة مراكش التي عرفت إشعاعه العلمي حيث درس عليه الكثير من العلماء، وقد طالت إقامته بها إلى أن سرحه زيدان فعاد عام 1014 إلى موطنه حيث توفي بتنبكت رحمه الله، يوم الخميس ضحى بتاريخ 6 شعبان عام 1036هـ /1626م، أما تاريخ مولده كما وجده هو نفسه بخط والده، فقد كان ليلة الأحد 21ذو الحجة متم 963 هـ "مخطوط خاص".

ومهما يكن فإن موقف أحمد المنصور السعدي هذا الذي يجب أن يحسب عليه، ليس من أخلاق الإسلام ولا عرف به المغاربة الكرام. بل يجب أن يحاسب عليه كذلك،

---

(777) راجع ترجمته في الصفوة ص 25، وروضة الآس 303، ونشر المثاني 151/1، وفهرس الفهارس 76/1، وآداب اللغة 321/3، ودائرة المعارف الإسلامية 457/1، والاعلام للمراكشي 99/2 وله مؤلفات كثيرة ذكرت في المصادر المشار إليها وقال عنها هو إنها تزيد على الأربعين.

وفعلا فقد سجله التاريخ عليه وعليه وحده، ناهيك وأن الذي سجله هو عالم المغرب وتنبكت واحد عظماء العلماء المسلمين، أحمد بابا الذي رفع صوت الحق ضد الظلم والبغي، حتى إذا ما دب الضعف في دولة السعديين وأخذ الولاة يتصرفون بلا حسيب ولا رقيب، الأمر الذي دفع الكثير منهم في تمبكت وجني وغيرها إلى تصرفات أدت أحيانا إلى القتل ظلما حتى انتهى الأمر إلى قتل القائد "ملوك" قائد الجيش وإلى قتل السلطان جينكو بكر يوم 13 ج ني والذي علقت رأسه على خشبة في السوق، كما فعل بمحمد بن مومن أحد رجال الجيش، وذلك بأمر من منافسه على بن حم، الأمر الذي دفع السودانيين إلى الثورة التي تزعمها يوسر محمد بن عثمان بمؤازرة شاسو وكرمو وماتع، وغيرهم من خدام جنكي الذين هم في الناحية الغربية، مما كلف القائد ملوك إرسال محلة إلى جني على رأسها الكاهيين محمد بن روح، وسالم بن عطية، فطردهم يوسر، حتى إنهم تركوا واحدا من أقبيتهم مطروحة في المرسى، وهي التي كانت للكاهية سالم، فولوا مدبرين إلى قرية سربا حيث تلقوا المدد من القائد ملوك بواسطة محمد التارزي، لكن يوسر الذي استنجد بالسلاطين، وافته قوات من "دعكي" و"أمكي"، ودام حصار مدينة جنى من قبل قوات القائد ملوك مدة أربعة أشهر، حاصرها السودانيون الذين طالبوا برأس القائد ملوك، حتى إنهم هددوا إذا لم يستجب لطلبهم فإنهم يها جمون المدينة، ويقتلون كل من فيها من البيض، وليس من أهل المخزن وحدهم، ولكن الباشا سعود بن أحمد عجرود، استطاع أن يغير الموقف بإبعاد"ملوك" عن جني وإرسال أحمد بن حم بن علي، أواخر جمادى الثانية عام 1042م، ومع ذلك بقيت النفوس غاضبة والثورة كامنة رغم أن الباشا سعود بن أحمد عجرود الشرقي قدم أواخر ذي القعدة من عام 1043 إلى مدينة جني مارا بقريتي "سانون" و"بينا" حيث الثائر "يوسر" صاحب السلطان جنكي الذي هرب، وحتى إذا ما جمع من الأموال ما جمع وأبعد من الذين اتهمهم بدفع الناس إلي الثورة ما أبعد، أمثال عبد المغيث صنو المؤلف أقيت وحتى إذا ما انتهى به المطاف إلى بلدة " كونا" حيث بلغه هروب الأمين عبد القادر العمراني أواسط ذي الحجة 1044 هـ، وكان قد بدأه المرض، الذي اشتد عليه وقتها بسبب ما حل به من الهم والغم، ومع ذلك عاد إلى تمبكت، وولى مكان العمراني أحمد بن يحيى يوم 13 محرم، وبقي مريضا إلى أن توفي أوائل ربيع

النبوي، ودفن في جامع محمد نض، فعين الجيش مكانه الباشا عبد الرحمن بن القائد أحمد بن سعدون الشياظمي، وهو الذي نصب محمد بن محمد "كرن" قاضيا على تنبكت عام 1045هـ.

إن علاقة الحب والخير بين المغرب وشعوب غرب إفريقيا لم تنقطع رغم زوال حكم المغرب عن تلك الديار، إلا بعد التوزيع الأوروبي والتوسع الاستعماري الذي تسلط على تلك الديار عموما، وتنبكت أم القرى ومركز الانطلاق بالأخص، والتي عرفت الغزو عام 1312هـ/ 1894م، بل وقبل هذه الفترة، وفي عهد المولى الحسن، نجد مراسلات من بعض أمراء تلك المناطق، عندما تعرضت للغزو يطالبون فيها النجدة باسم الإسلام وكانت باسم جماعة من الأمراء، فأرسل السلطان طلبهم إلى علماء فاس بواسطة ولده وخليفته بها الأمير عمر حتى يقول العلماء رأيهم فيه باسم الشريعة، وفعلا كان الجواب سلبيا بدعوى معاهدة السلم بين المغرب وفرنسا(1845)، والفتوى وقعها كل من حميد بناني وادريس لفضيلي وجعفر الكتاني(778) فيما أذكر.

بل نجد وثائق عند كثير من الفيلاليين تؤكد الارتباط الذي تمكن حتى نهاية القرن التاسع عشر بين الفيلاليين وأهل تنبكت بسبب العداء المشترك ضد الاستعمار الفرنسي الذي ظهر وقتها في تلك الديار، التي هي من ديار الإسلام، وواجب على كل مسلم أن يدافع عنها، وكان هذا حين ظهر سليمان بال، والمصطلح الشهير عثمان دنفديو المتوفي 1232 هـ /1814م، والحاج عمر تال المتوفي 1281هـ /1864م، كما كان قبل في عهد أحمد ولويو صاحب ثورة 1243 هـ /1827م والمتوفي 1260 هـ /1847م، وولده أحمد شيخو المتوفي 1269هـ/ 1852م.

ولعله لو قدرلنا أن نتصل بما أنجزه الأستاذ حسن إبراهيم غزرو الأستاذ بجامعة نيجيريا من دراسة حول اتصال علماء غرب إفريقيا بالمغرب، والتي قضى من أجلها، وفي سبيل البحث بين مختلف مكتبات الرباط، وفاس ومراكش، وما قدمناه له من مخطوطات خزانتنا مما كون به دراسة في الموضوع سطا عليها اللص عديم الأمانة المسمى إبراهيم الكتاني لمجرد أن "غزرو" ترك عنده مجموعة جزازات بحثه كأمانة ليطلع

(778) راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية بالرباط، أو مديرية الوثائق الملكية.

عليها أثناء تردده على الخزانة العامة، فلم يتورع الكتاني هذا ونشرها باسمه في الوقت الذي توجد من بينها مخطوطات ليس لها وجود إلا في خزانتنا التي لم يتعرف عليها غير الأستاذ ابراهيم غزرو، مما أدى بالباحث المغترب من أرض نيجيريا إلى مدينة الرباط وفاس أن يسكب العبرات على اغتصاب واغتيال جهوده غدرا من لص غبي إئتمنه عليها، وإذا هو استنجد بي، وبالأستاذ محمد الهادي المنوني في مراسلة من الجزائر، تاريخها 1967/01/28، فإننا لم نفعل أكثر من الاستنكار والتأسف على جهود الرجل المكلف بإنجاز تلك الدراسة من الجامعة التي يعمل بها أستاذا، وكم لهذا الخزي من مثيل في هذه الأوساط المنحطة الحقيرة(779) التي ابتلى بها المغرب، ومن قوم لا جذور لهم بين أهله، ولذلك لا يعينهم ما يوجه له من نعوت، وما يعرفه من طعنات مع العلم أن الدهر يمهل ولا يهمل، وأن التاريخ للأفاكين والدخلاء بالمرصاد.

أما أسماء باشوات تمبكتو المغاربة في عهد السعديين، فلمن أراد معرفتهم أن يراجع كتاب الأسر الحاكمة لزامباور(780).

---

(779) تراجع قبائل المغرب/ ط الملكية بالرباط 1968 لمؤرخ المملكة، وعضو الأكاديمية الجاسوس المشهور عبد الوهاب بن منصور، والذي سلخه من مراجع مفضوحة : الجغرافية السياسية للدكتور رفلة نحو 80 صفحة، ودائرة البستاني في مواد مختلفة، والمملكة الليبية للدكتور ابراهيم أحمد رزقانة، محاضرات ألقيت على طلبة قسم الدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية/ ط 1964 ..إلخ، وقبائل المغرب هو الذي نال جائزة وزارة الثقافة عام 1968، والذي لنا معه جولة كاشفة سنعمل على نشرها بعد.

(780) عن الأسر الحاكمة لزامباور، جـ 1/ 132.

الفصل العاشر بعد المائة

المغرب بعد أحمد المنصور

وما خلفه استبداده من أهوال ولأولاده من ضياع

لما انقضت أيام المنصور السعدي، توفي يوم الاثنين 16 ربيع النبوي 1012هـ/1603م بعد نحوست وعشرين سنة قضاها في الملك، كان أكثر انشغاله فيها بنفسه وملذاته وشهواته التي منها جمع الذهب من السودان كما سبق، وإذلاله لأهله، ثم بناء قصر البديع الذي حرمه الوباء 1005 هـ - 1016هـ من الاستمتاع به، وحتى إذا مات بالوباء عام 1012هـ 1593م، ترك المغرب فريسة لأولاده الثلاثة، وهم الأغبياء الجبناء، ورابعهم حفيده عبد الله ابن المامون حيث أخذوا يتناطحون على الملك بعد بيعة زيدان الذي كان بمراكش، هذا في الوقت الذي لم يترك المنصور لأولاده محبة في القلوب بسبب تنكره حتى للذين أحسنوا إليه ولجده كأهل تازروالت الذين إنقلبوا عليهم حال موته، كما انقلبت مودة كل من بريطانيا وفرنسا وإسبانيا إلى مكايد تدبر للإيقاع بين الأخوة، وذلك لجر ما تركه أبوهم من ذهب، فارتمى الشيخ المامون في أحضان الاسبان، كما حاولت فرنسا وملكها هنري الرابع إبعاد الأسبان ولو بواسطة آل عثمان الذين كلف هنري سفيره بالاستانة "دي بزيف" أن يربط اتصاله بهم كي يتصلوا بمحمد الشيخ المامون، فيحولوا بينه وبين الأسبان الذين أصبحوا أقرب لمحالفته، لكن شيئا من ذلك لم يتم، وحصل التحالف بين المامون وفيليب الثالث، على أن يسلمه المامون مدينة العرائش مقابل انتصاره له ضد أخيه زيدان الذي حاول قبضه، وكان القائم على مدينة فاس، خصوصا بعد بيعة أهل فاس، رغم الدعوة التي تزعمها ابن أبي النعيم، فبويع لزيدان بفاس يوم دفن والده ولما ظهر المامون بمدينة فاس بعد خروجه من سجن أبي فارس أقبل عليه أهلها رجالا ونساء؟؟؟

وهكذا انقسمت البلاد التي أذل أهلها الجوع والوباء الذي دام من 1005هـ إلى 1016 هـ شطرين، إنهار منها ما أصبح بيد المامون وبطانته من المفسدين، ثم تمزق ما كان بيد شقيقه ابن الخيزران أبو فارس عبد الله المجنون الذي بويع بمراكش، الأمر الذي دفع علماء فاس وقد اعتبروا بيعتهم هي الشرعية إلى إصدار فتواهم حسب نص الحديث" إذا بويع أمير ثم خرج عليه أمير فاقطعوا رأس الذي خرج ومن بايع الثاني فقد كفر"(781).

لكن كل هذا لم يزد في قوة المامون ولا في قوة زيدان الذي هو الآخر انهزم بدوره ثم حاول الاتصال بالأتراك ثم بالأسبان الذين كانت سياستهم في تنافس مع الفرنسيين تميل أكثر إلى الشيخ المامون، لأنه كان بجموح شهوته وفسقه وفجوره أقرب إلى السقوط في أيديهم وتحقيق الأحلام التي قضى فيليب الثاني كل حياته دون أن يحقق الاستيلاء على العرائش التي كانت في نظره تعدل كل شواطئ الشمال الإفريقي بالنسبة لحماية إسبانيا أولا، ولسيطرتها على المجال التجاري ثانيا.

كان الشعب المغربي يرقب عن كثب ما يقوم به أبناء المنصور من فظائع أودت بحياة الكثير من الأبرياء ثم انتهت إلى تمزيق وفساد، خصوصا من السكير الفاسق المامون الذي هربه إلى سجن شقيقه أبي فارس بمراكش عبد الرحمن بن منصور لعلج، ولما انطلق ثم انتصر وانهزم بعد حروب ،أعاد إلى الذاكرة ما كان عليه ابن عمه المتوكل الذي لجأ قبل إلى سباستيان، وهكذا إذا ما ثارت النقمة على المامون التجأ هو الآخر إلى حماية فيليب الثالث ومعه أمه الخيزران وأبناؤه وما استطاع حمله من متاع، كما رحل معه بعض قواد جيشه سنة 1014 هـ /مارس 1605م فوجهه فيليب الثالث ومن معه إلى إقليم كرمونة قرب إشبيلية بالأندلس، ثم وضعه تحت حراسة، وخصص له مرتبا، كما فعل فيليب الثاني مع الناصر والشيخ زمن المنصور، وتحقيقا لوعد المأمون الذي سيقابل

(781) بويع لزيدان يوم دفن المنصور بفاس، لكن لما ظهر الشيخ المامون ثم انتصر بعد خروجه من سجن أبي فارس رامه أهل فاس رجالا ونساء وهو الفاسق الطريد من رحمة أبيه لعبثه بالصبيان، وبذلك ألقى القبض على القاضي ابن أبي النعيم والمفتي محمد بن قاسم القصار وعنفهما، ثم أرسلهما إلى مراكش عند شقيقة أبي فارس ليمكر بهما، راجع النزهة 192 ، وقد قتل ابن أبي النعيم بعد أمام باب المدرسة العنانية بعد عودته من صلاة الجمعة بفاس الجديدة يوم 5 قعدة 1032 هـ/ 1623م وكان قتله السبب في أهوال جسام عرفتها مدينة فاس بسبب انقسام أهل فاس الجديد الذين لم يكن بينهم مسلمة اليهود وأعلاج النصارى.

بالمقاومة الشديدة من الشعب المغربي فكر فيليب الثالث أن يعزز الوعد حين أرسل أسطوله من جبل طارق لاحتلال العرائش سنة 1017هـ سبتمبر 1608م(782) لكنه صد بمدافع حامية العرائش فولى خاسرا دون أن يحقق ما أراد، وكان هذا الحادث مما زاد في نفور المغاربة من المامون، حتى إن عرب لحياينة سلبوا كل من توجه لزيارة المامون حين نزل بحجرة بادس، بل نفروا كما نفر غيرهم من أبناء المنصور جميعا، فظهرت حركات تحررية شرق المغرب وشماله وفي الأطلس المتوسط بقيادة الدلائيين وأخرى بالساحل يقودها أبو عبد الله العياشي بسلا، كما ثار أهل الرباط على عامل زيدان القائد الزعروري، واشتد أزرهم بالوفود التي تقاطرت على مدينة سلا والرباط، حين قرر فيليب الثالث طرد كل المسلمين من أرض إسبانيا سنة 1019 هـ /1610م، وذلك إستعدادا منه للهجوم الذي قرره على العرائش في نفس السنة، وحتى لا يتعرض لإجهاض من المسلمين كما سنرى.

وفعلا تم الهجوم بعد تجريد المامون من كل اعتبار، خصوصا بعد الرسالة المفتعلة التي حاول بها جلب عطف المغاربة على أبنائه الرهائن دون إرادته كما زعم، ظنا منه أنه بواسطتها ينتزع فتوى العلماء - اقتداء بسلفه المسلوخ - وذلك بالسماح له أن يقدم على إعطاء العرائش مقابل استرداد أولاده لأنهم من آل البيت، ويخبرنا اليفراني أن المقري والجنان استخفيا مدة استبراء لدينهما - حتى صدرت الفتوى من غيرهما، وبسبب هذه الفتوى هرب جماعة من علماء فاس للبوادي كالإمام الحسن الزياتي شارح الجمل وغيره(783)، وإذا كان محمد الشيخ المامون قد عاد إلى المنطقة الشمالية من المغرب حيث اتخذ مقره في قبيلة الفحص التي اختارها لانتظار تحقيق وعد فيليب الثالث، فإنه حتى في هذه المرحلة الحرجة لم يتخلى عن فسقه ودعارته اللتان عرف بهما، حيث عاد إلى مجونه بعدما استولى على تطوان سنة 1018هـ/ 1609م من يد المقدم النقسيس، مستعملا سلاح الأسبان وأموالهم، فتحول ومن اجتمع عليه من أهل الفسق والدعارة كجنود مرتزقة إلى مفسدين غير عابئين ولا متحرجين، الأمر الذي دفع الشيخ المامون أن

---

(782) في هذه الأثناء كان عبد الله بن الشيخ المامون وعمه أبو فارس لا يزالان بالقرب يفتتان على زيدان.

(783) راجع نزهة الحادي.

يدفع قائده "حمو بودبيرة" الذي ولاه حكم تطوان، إلى محاولة اغتيال المقدم أحمد النقسيس الذي كان يقاوم فساده وما يدبر للمغرب من مصير أسوأ، خصوصا بعدما نجح في قتل المجاهد التركي التطواني مراد برتقيش الذي كان يضايق الأسبان كل المضايقة في البحر، وإذا ما إنكشف الشيخ المامون على حقيقته، فإنه أصبح العدو الألد للمغاربة والذي يجب الخلاص منه قبل الأسبان، ناهيك وأنه أصبح يحقق للأسبان من المكاسب ضد الشعب ما عجزوا عن تحقيقه زمنا بحد السيف، وهكذا أصبح المامون مهددا في حياته وحياة من حوله حتى أنه لم يجد من يكون واسطة بينه وبين فيليب الثالث عندما انتقل إلى بادس ليكون قريبا منه ومن المغرب، غير يهودي كان يلازمه، وبذلك أصبح نظريا في إمكان فيليب الثالث أن يحقق احتلال العرائش دون أن يكون ملزما بكل الشروط التي اشترطها المامون مقابل تسليمها، وخرجت قوات فيليب الثالث من نفس المركز، وللمرة الثانية يوم 12 يونيو من السنة المذكورة، لكن في هذه المرة كان الأسطول يحمل أبناء المامون الثلاثة ومعهم أبناء بعض الأعيان كرهائن، ظنا من الأسبان أنهم إن فعلوا ذلك حسب اتفاقهم مع المامون يتمكنون من دخول العرائش سلما دون أن تصدهم حاميتها، لكن قواتهم التي وصلت صباح يوم 14 من الشهر المذكور يونيه 1610م، ماكادت تظهر حتى قوبلت بنيران مدافع الحراسة التي ماكادت القبائل تسمع صداها حتى أخذت تتقاطر على المدينة بسلاحها، منجدة الحامية التي لم يكن عددها يزيد على الخمسمائة، كما أرسلت الأخبار إلى قوات أصيلة والقصر الكبير، ولولا تدخل القائد حمو بودبيرة لتمكن الشريف أحمد الإدريسي الحسني من القيام بثورة تعرقل أهداف الأسبان، لكنه صد بحيلة من القائد المذكور، الأمر الذي انتهى بقوات الأسبان إلى العودة من حيث خرجت، فكانت الخيبة الكبيرة للأسبان والمأمون معا، لكن الأسبان كانوا على إستعداد لتحقيق رغبتهم مهما كانت الظروف والثمن، وهذا ما دفعهم إلى أن يقدموا للمامون أموالا اشترى بها جل الذين كانوا ضد رأيه من قواد جيشه، وذلك بواسطة القائد المفضوح أحمد بن منصور لعلج، ولما وثق منهم أمرهم باحتلال المدينة وتسليمها للأسبان، وكان سكان المدينة لا يزيد عددهم على بضع مآت أذيق الذين امتنعوا منهم أن يغادروها ألوان العذاب على يد قائده الجرني(784).

---

(784) النزهة 198.

وفعلا دخل الأسبان مدينة العرائش يوم السبت 4 رمضان 1019هـ/ 20-11-1610م وهو التاريخ الذي أخرجوا فيه آخر مسلم من الأندلس بعدما نكلوا بهم تنكيلا فظيعا، سببه المأمون الخائن فكانت فرحتهم كبيرة واستمرت أعيادهم بالنصر الذي حققته لهم خيانة المامون أياما، كما فتح لهم الباب لاحتلال المعمورة بعد خمس سنوات 1022هـ/ 1614م، وكذا الجديدة في نفس السنة، بل المعمورة أصبحت موضع تنافس بين الأنجليز، والهولانديين، حتى إن الأسبان أغرقوا في مجرى مينائها بعض السفن، قصد تعطيله وأخيرا احتلوه كماسنرى بعد حين كلامنا عن المجاهد العياشي، أما المامون الحقير الذي لم يكتفي بتسليم العرائش، بل قيل إنه الذي وشى بالمهاجرين الذي كانوا يستعدون لغزو الأندلس، حتى يساعدوا إخوانهم، فإنه باء بغضب من الشعب الذي رفضه رفضا حتى إنه بقي من أجل الحماية قريبا من الجيش الأسباني الذي استولى على ما ترك من ثروة طائلة، بل حتى ولده المدمن عبد الله تنكر له ووصفه بالخيانة، وبقي منبوذا يقضي حياته الفاسدة في أرض الفحص وجبل الحبيب هو والبطانة التي جلبت عليه لعنة أبيه وسخط الشعب إلى أن تمزق وقتل شر قتلة بأيدي المجاهدين(785) من أهل الفحص، بقيادة المقدم أبو الليف يوم 26 رجب 1022هـ/ 1613م، ويقال بإشارة من ابن أبي محلي، وتقول روايته أن أهل الفحص هم الذين هشموا رأسه قرب عين جارية وهو سكران، أما أبناؤه فتقول رواية الأسبان أنهم تنصروا وارتدوا عن الدين تقربا للأسبان.

وكل تلك الأهوال من أثر استبداد أحمد المنصور السعدي.

وهكذا انتهت حياة أعز أولاد المنصور عند المنصور، وكم يأسف المؤرخ للفشتالي الذي كان وقتها على قيد الحياة يسمع ويرى عكس ما سجل وما كتب بانفعال وعاطفة

---

(785) لما قتل المامون بفج الفرس من أرض الفحص بقي مطروحا مكشوف العورة أياما حتى خرج قوم من تطوان فحملوه ودفنوه الخ راجع النزهة 199ويقول اليفراني إن عبد الله ولد المامون لما انتصر في الحرب التي قامت بين أبيه وعمه أبي فارس وكان يقود جيشه في 20 شعبان 1015هـ ففر أبو فارس إلى مسفيوة وقد رحل عبد الله إلى مراكش حيث قصر جده وحريمه فنهب واستباح الحريم، واشتغل بالفساد بلا خجل ولا وجل حتى قيل إنه زنى بجواري جده المنصور، واستمتع بحظاياه، وأكل رمضان، وشرب الخمر جهارا، وهذا ما ساعد على عودة زيدان بعد انهزامه أمام الشيخ وفراره إلى تلمسان، ثم سجلماسة، ودرعة، حيث استدعاه أهل مراكش، بعد ثورتهم على عهد عبد الله، وقتلهم قائده أعراص عبد الله، لكن زيدان انهزم ثانية، ثم انتصر 1016هـ، ففر جيش عبد الله إلى فاس ثم عاد إلى مراكش بعد سنة، لكنه انهزم، فرحل زيدان إلى فاس، راجع :النزهة 223 ودائرة المعارف الإسلامية جـ 10/25-29.

واندفاع، وياليته عاد فكتب ما عاش ورأى ليكفر بذلك عما سبق من كتابته، بل عاش ورأى تمزيق المغرب وسقوطه وتدهوره على يد أولاد المنصور الذي لم يقتصر الفشتالي على ذكر المواقف التي تستحق الذكر، وترك ما لم يكن في حاجة لذكره مما دبج حول أبناء المنصور وغير أبنائه بروح كلها نفاق وافتراء.

تنفس أهل الفحص الذين بعد قتلهم المامون اتجهوا نحو الأسبان الذين كدروا عليهم، فلم يتركوهم لينعموا بالراحة في العرائش وهكذا اشتد ساعد المجاهدين من قبائل الشمال، ومن رجالات الأندلس والترك الذين استوطنوا تطوان والرباط وسلا بعد مقتل الشيخ المامون وقائده حمو، ثم مزق ما كان معهما من أوباش، فأصبح المجاهدون قوة أكثر فعالية واقتدارا على مطاردة الأسبان في البحر، والقضاء على تحركاتهم فيه، بل أصبح المسلمون الذين طردهم فيليب الثالث طيلة ثلاثين سنة، بعد قوة هائلة كونوا فيها شبه جمهوريات في كل من تطوان، والرباط، وسلا ثم نظموا الحكم فيها بطريقة مكنتهم من تنظيم وسائل دفاعهم حتى أصبحوا يعقدون المعاهدات السياسية والتجارية مع بعض دول أوربا، كما يقول بوجندار وغيره(786) بل أصبح بحارة(787) الرباط وسلا وتطوان بالمرصاد للسفن الأسبانية التي كانت تأتي من أمريكا محملة بالذهب والفضة، كما كانت السفن الفرنسية والأنجليزية تلاقي نفس المصير أحيانا، ولما لم يكن في وسع إسبانيا التدخل بالطرق السلمية لمنع نشاط بحارة سلا، لأنهم كانوا في شبه حرب دائمة مع المغرب، فقد تولت فرنسا هذه المهمة خاصة حين تولى الدوق ريشليو الوزارة أيام لويس الثالث عشر 1625م، كما سنرى إثر موت زيدان وتولية عبد الملك سنة 1037 –1627م.

تقلصت سلطة السعديين ولم يبق إلا زيدان الذي انحاز خلف وادي أم الربيع غربا ثم مراكش، بل ما بين موت زيدان 1016هـ – 1037هـ/1607م–1627م ونهاية السعديين بموت أحمد الثاني بن عبد الملك المتوفي 1046 هـ/ 1636م تولى الملك على غير كامل البلاد منهم خمسة من أعقابهم لم ينعموا بالراحة وهم الدعي أحمد بن زيدان، وعبد الملك الثاني

---

(786) مقدمة الفتح ص 51 ط 1345 هـ ووثائق دوكاستر جـ 3 من مارس 1626م إلى 1660م ط باريز 1935 وجـ 43/5 –44 إلخ

(787) تطلق عليهم المصادر الأجنبية إسم القراصنة ومصادر المغرب إسم المجاهدين.

بن زيدان، وأبو يزيد الوليد بن زيدان، ومحمد الرابع الأصغر بن زيدان وذلك في مدة سبع سنوات، والسبب في كل هذه السرعة نحو المنحدر هو سياسة أحمد المنصور التي أرهقت الشعب وانشغلت ببناء القصور التي زالت ولم يبق لها من أثر غير ما قام به من زخرف حول القبور.

لكن ماذا حصل في هذه المرحلة التي جلبت على المغرب، ما وصفه به المؤرخون الأجانب، أنه أصبح بلاد "السيبة"(787) وهي حقيقة لاداعي للمكابرة بنفيها وعدم الاعتراف بها، لأنها مهما بلغت لاتصل بعض ما عرفته بلاد أخرى من فرقة وتطاحن وتمزيق كان للامبراطورية الإسبانية وقتها فيه نصيب أكبر، ولأبناء المنصور وأحفاده نصيبهم كذلك، ولولا غيرة الشعب وظهور بعض الأبطال لما كان المغرب العربي الكبير كما هو اليوم في حدوده وتراثه وحياة الناس فيه.

---

(787) لقد كان تاريخ مرحلة ما بعد المنصور، وهو أكثر ما عند الغربيين من تاريخ المغرب، ولئن وصفوه في هذه المرحلة بما عرف منهم فإنهم لم يبالغوا رغم ما عرف لبعضهم من أوصاف متطرفة.

الفصل الحادي عشر بعد المائة

الوسواس واجرام زيدان وقومه بكشف عورات أهل فاس(788)

انتهى الشيخ المامون حسب الطريقة التي اختارها، لكن متاعب المغرب والمغاربة لم تنته بقتله وانتقام الفحصيين منه،وذلك أن ولده عبد الله الشيخ الذي سلك نهج أبيه في كل شيء، كان لا يزال يحكم مدينة فاس، إذ كان عمه زيدان وهو المبايع بحكم مدينة مراكش وما حولها، وكانت الحروب بينهما دائمة لم تنقطع ، بل في نفس السنة التي قدم فيها المامون مدينة العرائش الى الأسبان كان زيدان في طريقه الى مدينة فاس لمحاربة ابن أخيه بدل أن يتوجه إلى محاربة الأسبان والدفاع عن المتظلمين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، وقد وصل زيدان مدينة فاس أواسط جمادى الثانية 1019هـ/ 1610م، وما كاد يقترب منها حتى قامت قبائل الشراقة من الأعراب الذين دخلوا المغرب من الجزائر قبل ثلاث سنوات 1016هـ/ 1607م، ثم انضافوا للذين أدخلهم المنصور وعبد الملك قبل، هذه القبائل قامت ضد عبد الله بن المامون الخليفة بفاس انتصارا لزيدان القادم من مراكش، لكن زيدان انهزم ثم تراجع ليستعد أكثر بتدخل الأعراب إلى جانبه، وكان عددهم ثمانية آلاف انضموا إلى جيشه فانتصر، لكن انتصاره على ابن أخيه حوله وبتدبير من الأعراب إلى انتقام من أهل فاس الذين اشتد حقد زيدان عليهم مثل ما كانوا يحقدون عليه، وهو الذي قتل الكثير من رجالهم وعلمائهم، وذلك أن زيدان كان لا يتوقف عن القتل لأتفه الأسباب، يسفك الدماء ولو من أجل إبداء رأي، كما حصل مع كثير من العلماء منهم قاضي الجماعة بفاس، على بن عمران السلاسي، صاحب تفسير القرآن العظيم الذي

---

(788) إنها فضيحة لم تعرف قط في تاريخ الإنسانية : عشرة آلاف رجالا ونساء من أهل مدينة فاس جردهم زيدان بن المنصور من ثيابهم، ثم أطلق يد البغي والفجور فيهم.

سقاه السم فمات في مستهل ربيع الأول 1018هـ/ 1609م(789) وكما فعل بفقيه أولاد الحاج البقال الذي قتل تحت السياط ثم دفن بالسياج من مدينة فاس،(790) كما قتل محمد بن علي الغزاوي ثم لطمه للصومعي بنعل على وجهه ومما يستدل به على وضاعة نفسية زيدان وانحطاطه ودناءته ما فعله بأهل فاس.

لما انتصر زيدان، والواقع أنه لم ينتصر عاد بعد فرار ابن أخيه عبد الله حيث حط رحاله خارج مدينة فاس التي خرج أهلها لاستقباله وتهنئته ظنا منهم أنه انتصر، وكانت أعدادهم تراوح العشرة آلاف يقول اليفراني لكن حقده الكبير عليهم وما كان يعرف من حقدهم عليه، أوحى إليه أنهم إنما خرجوا يستهزؤن به، لأنه في الحقيقة لم ينتصر، فأمر بتجريدهم جميعا وبدون استثناء من ثيابهم نساء ورجالا، وأن يتركوا عراة ينظر بعضهم إلى عورة البعض وقبل أن يعود العراة إلى منازلهم أمر زيدان جنده وأعراب الشراقة الذين كانوا يودون ذلك أن يتسابقوا إلى المدينة لينهبوها فتحولت مدينة فاس وحرمتها مسرحا للعبث والبغي وهتك الأعراض مدة وجود زيدان ولم يتوقف ذلك البغي إلا يوم 6 رجب 1019 هـ، وكان زيدان بعمله هذا كأنه يمهد الطريق لأخيه المامون كي يرتكب جريمة تسليم العرائش وهو آمن من إغاثة أهل فاس التي قيل إنه كان يحاولها ابن أخيه عبد الله، بل لولا فعل زيدان هذا لأمكن للمتطوعين أن يفسدوا على المامون وقائد الأسبان خطتهم التي نفذها الكرني، وبن منصور لعلج الذي فعل نفس العمل بفاس.

كانت مدينة فاس دائما تعرف بقسميها: قسم اللمطيين، وقسم الأندلسيين، بل كلاهما بقي يمثل مدينة يفصلهما(791) الوادي داخل السور الجامع، ومدينة اللمطيين التي هي موطن الأشراف الأدارسة والعرب والبربر، كانت تتوفر دوما على رجال أشداء ذوي نخوة لا يقبلون الضيم ولا يرضون بالهوان، خلاف أهل الأندلس من البلدين الذين يتكون مجتمعهم في الغالب من مسلمة يهود غرناطة، وأعلاج النصارى وغيرهم، وكانت الحروب دائمة بين الفريقين، وأحيانا بين الفريقين من جانب، وأهل فاس الجديد حيث

---

(789) نزهة 242

(790) نشر المثاني 101/1- 140، والأعلام للتعارجي 262/4.

(791) راجع" لوطورنون" مدينة فاس جـ 2/اللوحة 29.

حاشية السلطان وجيشه من جانب آخر، وكان من بين اللمطيين أحد الأشراف الذين أخذتهم الغيرة على الحرمات التي انتهكت، ذلكم هو سليمان بن محمد الزرهوني الملقب بالأقرع، لما رأى هذا الشريف ما انتهى إليه أمر عبد الله الشيخ مع عمه زيدان من ظلم وفساد، وما حل بمدينة فاس من مآسي على يد الشراقة حتى إن بعضهم دخل دارا ولم يجد بها غير امرأة تطهى القديد، وقد تركت رضيعها فتقدم إليها يراودها عن نفسها، ولما ضيق عليها الخناق فرت هاربة إلى السطح فما كان من المجرم إلا أن هددها بإلقاء ولدها في الطنجير الذي كان يغلي على المرجل والنار تحته تلتهب، ولما لم تستجب ألقاه بالفعل، فما كان من المرأة إلا أن ألقت بنفسها من عال، ولم تصل الأرض إلا وهي مهشمة الرأس جامدة لا تتحرك، وإذا ما انكشف الأمر وأصبح حديث الناس ما حصل للمرأة والطفل الرضيع، بل أفظع منه في مدينة فاس، وأصبح أمثال، سليمان يتميزون غيظا، فإنه وجب عليهم أن يتدبروا أمرهم مادام الجرح الذي أحدثه زيدان لم يندمل، خصوصا وأن الشراقة قد انقسموا على أنفسهم ، منهم من انحاز إلى زيدان، ومنهم من اختار جانب عبد الله المامون الذي كان هو الآخر يكن الحقد والكراهية لأهل الرباط وسلا، ثم هو يستعد للسفر غازيا بعيدا عن مدينة فاس.

في الوقت الذي رحل فيه عبد الله الشيخ إلى حرب سلا كانت النفوس قد تأزمت في مدينة فاس، فوجدوها فرصة التفوا حول سليمان الزرهوني ليعلنوها حربا ضد الشراقة، وإذا ما سمع عبد الله الخبر عاد لينتصر إلى الشراقة، لكن أهل فاس استطاعوا أن يحرروا مدينتهم من حكم عبد الله الشيخ وسلطانه، ودامت المدينة تحت حكم سليمان الأقرع إلى أن دفع عبد الله من قتله غدرا يوم السبت 5 صفر 1020هـ 1611م وهو الذي كان قد توعد مداهمة ما قيل عنه زاوية عبد الرحمن بن محمد الفاسي ، ولو فعل لكانت له مكرمة، كما قتل والده، وأبناء عمه مع ستة من أصحابه، ثم دفن هو ووالده في مسجد الجرف، لكن المدينة رغم ذلك لم ترجع إلى حكم عبد الله، بل تولى حكمها آخر هو الفقيه محمد المربوع اللمطي من مد شر حلف لمطة وهو الذي نازعه سليمان بن الأشهب، وهنا فكر المربوع في استقدام شريف آخر من زرهون حيث ذهب مع جماعة من اللمطيين لاستقدام عبد الرحمن الجنود الحسني، قصد أن يبايعوه سلطانا، وقبل

البيعة قتل هو الآخر مع رفاقه بيد أحمد بن عميرة وزير عبد الله الشيخ، وفعل بهم مثل ما فعل بالآخرين، فعادوا مكرهين لطاعة عبد الله الذي عفى عن المربوع، لكنه لم يثق بعفوه وفر إلى قبيلة بني حسن التي كانت تنتظر ظهور العياشي، فرده الشيخ سرحان إلى عبد الله الشيخ الذي لم يفعل به سوءا نظرا لمكانته عند قومه، لكنه أسلمه إلى وزيره حمو بن عمر الذي أمره بالخروج معه في مهمة إلى جبل الزبيب، وهناك قتله غدرا، وفي رواية نشر المثاني 1/160، حوادث عام 1020، أن الذي قتله وعلق رأسه في البرج الجديد خارج باب السبع إنما هو عبد الله بن محمد الشيخ، ولما عاد حمو إلى مدينة فاس لاقي نفس المصير على يد اللمطيين يوم الإثنين 3 ربيع النبوي 1028هـ/ 1618م، مما دفع بعبد الله الشيخ أن يفرض على اللمطيين غرامة قدرها ثمانون ألف أوقية، ففروا من فاس إلى أن أسقط عليهم النصف(792). وبعدها قام ثوار آخرون بمدينة فاس أمثال الحاج علي سوسان وابن العربي ويزرور، ومسعود بن عبد الله، كل في جهته فتحولت فاس إلى حفرة من المآسي والدماء حاولت أن تتنفس عندما قام الحسن بن علي بن ريسون بالدعوة لمحمد الشيخ المعروف زكودة، الذي كان مستجيرا بضريح المولى عبد السلام بن مشيش ثم بويع به، وقصد فاسا لكن اعترضه أخوه عبد الله الشيخ فرده زكودة مهزوما ودخل مدينة فاس في شهر شعبان من نفس السنة 1028هـ، ليفعل فيها مثل ما فعل سلفه، ودامت محنة فاس كذلك شهرا عاد بعده عبد الله بقوة أكثر، فأخرج زكودة من المدينة، وإذا كان أهل فاس بعد انهزام عبد الله قد قتلوا قائده عبد الله بن شعيب الذي ينتمي لأهل فاس الجديد، فإن قومه أعلنوها حربا مؤيدة بعبد الله على أهل فاس المدينة، دامت من آخر شعبان إلى يوم 9 ربيع الأول من سنة 1029هـ/1619م، ولما علم عبد الله أن قوة أهل فاس قد تضعضعت بالمدة الطويلة من المآسي خرج لمحاربة أخيه زكودة الذي فر شريدا إلى أن قتله ابن عمه أحمد بن زيدان، وإذا عاد عبد الله إلى فاس فارغا من المال فإنه اخترع وسيلة أخرى هي اللصوصية بواسطة ما حوله من المرتزقة الذين وضعهم تحت إمرة قائده مامي لعلج لينفذوا أوامره بالقتل والنهب مقابل أن يمد عبد الله بعشرة آلاف أوقية في اليوم، وإذا ما انشغلت فاس بمآسيها فإن مدينة مكناس هي الأخرى

---

(792) النزهة 236.

عرفت تأثرا آخر ضد الوضع والنظام معا بقيادة الشريف أمغار، وبذلك عاشت مدينة فاس أقبح ظروفها عبر التاريخ، في هذه المرحلة التي أصبح مجتمعها عبارة عن مجموعة من السكان يعيشون في فوضى تحت رحمة فتوات يتبارى كل منهم في إظهار عضلاته ولا أمان لمن لم يستجر بواحد منهم وزبانيته، بل عرفت المدينة كما عبر بعضهم، من الفتن ما أظلم به جو فاس، ونتن أفقها الذي كان عاطر الأنفاس(793) لكن فاسا التي عرفت من ظلم وقهر الفجار أبناء المنصور وحفدته ما لم يعرفه تاريخها قبل، إلا ما كان من زمن ابن أبي العافية المكناسي، عرفت كيف تنتقم من عبد الله الشيخ بن المامون الذي سلطت عليه سفهاءها الذين كانوا يقربون إليه ما يرغب ويلهث نحوه من ملذات مهلكة، وضمنها الخمر التي لم يفتر عن شربها حتى الإدمان فكانت السبب في القضاء عليه حيث مات في شهر شعبان 1033 هـ 1623م مذموما مدحورا غير مأسوف عليه.

أما زيدان الذي قال في حقه عبد الرحمن الفاسي قولة الشرك في أقنومة(794) روي عنه ما قاله بلا خجل ولا وجل «فقد ضربه المولى إدريس برجله لما أطلق السبيل في أهل فاس ضربة صيرته وراء وادي العبيد فلا يجاوزه أبدا»، ونسي الفاسي أن الذي طوح بزيدان في متاهات الذل والهوان إنما هو أعماله وذلة نفسه ومكابرته بالظلم والطغيان، إلى جانب تمسحه تحت أقدام القينات الحسان كما اعترف بالقلم والبيان، حيث قال بلا خجل ولا وجل :

أهلكتنا سوالف وخدود وشعور على المناكب سود
ووجوه تبارك الله فيها وعيون مد عجات وقود
أهلكتنا الظبا ونحن أذلة وخضعنا لها ونحن أسود

ولعله بهذا كشف عن حقيقته التي حاول أن يعكسها على الدلائي في مراسلته التي دبجها عبد الرحمن السكتاني، الذي نزل عند رغبة زيدان، حتى يشفي غليله بتلك النعوت المعكوسة على زيدان الذي اغتر به والده يوم حلف أولاده لصالح أفسقهم وهو المامون، ثم قال في حق زيدان خيرا ولم يحلفه، وأخيرا انقلب زيدان وأولاده الذين سترافقنا

(793) نفس المصدر 238.
(794) راجع النزهة 239 - 241.

أخبارهم فساقا ووحوشا أهلكوا الحرث والنسل وجروا على المغرب من الويلات والدمار ما لم يعرفه في أي زمان قبل وبعد، حيث عرف التمزيق والتفريق طيلة أربع وثلاثين سنة، لولا أن قيض الله له من رجاله من أنقذوه.

لم تكن فاس ولا تطوان ولا العرائش هي التي عرفت الظلم والطغيان في هذه المرحلة فقط، بل المغرب كله أصبح فوضى تتحكم في مجتمعه شرعة الغاب وقوى البطش والظلم التي كانت تستمد وجودها المعنوي من السلطان المبايع شرعا، وإذا ما كثر الظلم وانتشرت الفتن فإن علماء المغرب في كل من فاس، وسجلماسة، وفجيج، ومراكش، ودرعة، قد أجمعوا على وجوب الجهاد في حق كل مسلم مغربي، وأصبح حديث العلماء ودراساتهم ومراسلاتهم لا تخرج عن موضوع الجهاد، والرباط، وحماية بيضة الإسلام(795) مما دفع بالأبطال المغاربة وقتها إلى خوض المعارك دفاعا عن الدين، والوطن، وطرد الغزاة الأسبان، الذين أخذوا يحتلون الشواطئ من جديد، وكان من هؤلاء الأبطال ابن أبي محلي العباسي الفيلالي وهو العالم الجليل الذي كان وقتها بأرض توات(796)، والذي رأى وهو الصواب أن الجهاد يبدأ أولا وقبل كل شيء ضد المسؤول المتخاذل الذي تفرغ للهوه وشهواته وهو زيدان.

---

(795) راجع الحركة الفكرية في عهد السعديين للدكتور محمد حجي جـ 1/197-216 ط فضالة 1977/4/20، ولعل ماتوفرنا عليه من آثار ابن محلي يدل على علو قدر هذا الرجل لولا مهدويته الضالة.

(796) كان والده إماما بقصر زاوية القاضي المعروف حتى اليوم بتافيلالت ويعرف تاريخ ميلاده بها سنة 967هـ/ 1559م.

الفهرس

الجزء الثالث

* **الباب الحادي عشر:**

الفصل الخامس والستون: ظهور دولة الموحدين المصامدة 7

الفصل السادس والستون: توحيد أقطار المغرب وتحرير شواطئه 15

الفصل السابع والستون: عبد المومن وتطور نظام الدولة الموحدية 19

الفصل الثامن والستون: المؤامرة ضد عبد المومن 23

الفصل التاسع والستون: الموحدون في الأندلس 29

الفصل السبعون : عبد المومن وولاية العهد 33

* **الباب الثاني عشر:**

الفصل الواحد والسبعون : المغرب في عهد يوسف بن عبد المومن بين الاستقلال والازدهار 45

الفصل الثاني والسبعون : يعقوب المنصور واسطة عقد الموحدين 53

الفصل الثالث والسبعون : انطلاقة يعقوب بعد معركة الأرك 59

الفصل الرابع والسبعون: المنصور وصلاح الدين الأيوبي محرر القدس وابن رشد محرر الفكر 65

الفصل الخامس والسبعون: دولة الموحدين والحروب الصليبية في الغرب الإسلامي 75

الفصل السادس والسبعون: دولة الموحدين بين التفريق والتمزيق 87

الفصل السابع والسبعون: ألفونصو وإدريس المامون والقضاء على المهدوية 93

الفصل الثامن والسبعون: أثر الرومية حبابة والقاضي المكيدي في نهاية الموحدين 97
الفصل التاسع والسبعون : طلائع بني مرين وتصفية الموحدين 103
الفصل الثمانون : أصول المرينيين من زناتة بالزاب وظهور سلطانهم في المغرب 121
الفصل الواحد والثمانون : بنو مرين و الأندلس 125
الفصل الثاني والثمانون : الصراع المنهك بين بني مرين وبني عبد الواد
وبني نصر بالأندلس 133
الفصل الثالث والثمانون: عظمة أبي الحسن والصدع الأعظم في دول بني مرين 147
الفصل الرابع والثمانون: أبو الحسن وبني قلاوين بمصر 153
الفصل الخامس والثمانون: موقعة طريف وأسباب الهزيمة فيها 157
الفصل السادس والثمانون: جموح أبي الحسن ومحاربته الحفصيين بتونس 163
الفصل السابع والثمانون: بعث الموحدين لمقاومة أبي الحسن بتونس 167
الفصل الثامن والثمانون: متاعب أبي الحسن بين البحر وعقوق أبي عنان 171
الفصل التاسع والثمانون: ابن الرومية أبو عنان ومتاعبه 177
الفصل التسعون : خاتمة أبي عنان بيد صنائعه 183
الفصل الواحد والتسعون: دولة المرينيين من الازدهار الى الانهيار 187
الفصل الثاني والتسعون: محاولة أبي فارس عبد العزيز 197
الفصل الثالث والتسعون: مأساة ابن الخطيب والغدر به في فاس 205
الفصل الرابع والتسعون: تطاحن بني الأحمر وبني مرين وأثر اليهود في
سقوط الدولتين 209

*** الباب الثالث عشر:**

المعارك الفاصلة بين الإسلام والمسيحية في المغرب الكبير قبل ظهور السعديين

الفصل الخامس والتسعون: من القسطنطينية (622)الى غرناطة(623) 227
الفصل السادس والتسعون : المغرب الكبير بعد سقوط غرناطة 245
الفصل السابع والتسعون : الشعب الجزائري وحماية المغرب الكبير بقيادة
خير الدين بربروس 259

الفصل الثامن والتسعون: ظهور السعديين الأدارسة أصلا السوسيون موطنا ومرحلة تأسيس دولتهم بانتصار أهل سوس ———— 291
الفصل التاسع والتسعون: السعديون ونهاية الوطاسيين 307
الفصل المائة: السعديون وكيد الأتراك مع أبي عبد الله الشيخ ———— 311
الفصل الواحد بعد المائة: عبد الله الغالب بين جيش النار من الأندلسيين، ووزرائه السكارى 317
الفصل الثاني بعد المائة: إلتجاء الأخوين عبد الملك وأحمد وأمها مسعودة إلى الجزائر ثم الى حماية الأتراك ———— 321
الفصل الثالث بعد المائة: انتصار عبد الملك واندحار المتوكل 327
الفصل الرابع بعد المائة: عبد الملك والعلاقة مع الأنجليز ———— 331
الفصل الخامس بعد المائة: المغرب وفضيحة أوروبا في معركة الملوك الثلاثة بوادي المخازن 339
الفصل السادس بعد المائة: عبد الملك وظروف المعركة ———— 349
الفصل السابع بعد المائة: المغرب والأسبان وأوروبا بعد معركة وادي المخازن ———— 357
الفصل الثامن بعد المائة: طغيان المنصور وأثره في تمزيق وانهيار دولة السعديين 375
الفصل التاسع بعد المائة: المنصور وروح الاستغلال الفاحش المقيت لملوك السودان المسلمين ———— 381
الفصل العاشر بعد المائة : المغرب بعد أحمد المنصور وما خلفه استبداده من أهوال ولأولاده من ضياع 399
الفصل الحادي عشر بعد المائة: الوسواس وإجرام زيدان وقومه بكشف عورات أهل فاس 407